

أغسطس ٢٠٢٥

صفحة ١٤٤٧



Dawriyyat Kān al-Tārīhiyyat

نصير من مؤسسه كان لدراسات والترجمة والنشر

كان التاريخ

السنة الثامنة عشرة العدد السابعون

ثامر سعداوي، حسن بربورة، حسين أبو بكر عبد الرحمن
العيدروس، سعيد عطا، طارق حمدي، عبد السلام انويكة،
عبد السلام بوهلال، عبد العزيز غوردو، علي طعيما، عمرو
إديل، عيد بن حمد اليحي، فاروق اسماعيل، فريد المساوي،
قصي بن منصور التركي، ماجدة مولود رمضان الشرع، محمد
النظام، محمد عبد المومن، محمد عطا الله سالم الخليفات،
نادية عبد الرحمن ميلود معاطي، يوسف عاشي.

ISSN: 2090 - 0449

<https://kan.journals.ekb.eg>

دورية كان التاريخية- س ١٨، ع ٧٠ (أغسطس ٢٠٢٥ / صفر ١٤٤٧)

Dawriyyat Kān al-Tārīḥiyyat
Iliktrūniyyat, muḥakkamat, rub' sanawiyyat
Vol. 18, no. 70 [Augut. 2025]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: <https://kan.journals.ekb.eg>

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر- س ١، ع ١٦ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة،
٢٠٠٨ – ٢٠٢٥ .

دورية إلكترونية مُحَكَّمَة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردم ٢٠٩٠ – ٠٤٤٩

٢- الآثار

١- تاريخ

٤- التراث

٣- التراجم

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical

Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo:

Organization, 2008 – 2025.

Peer-reviewed, open-access journal.

Indexed and abstracted in several international databases.

ISSN: 2090 – 0449 (Online)

Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

© ٢٠٢٥ دورية كان التاريخية – جميع الحقوق محفوظة

Copyright © 2025 Historical Kan Periodical

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, microfilming, recording or otherwise, without written permission from the publisher.

■ النتائج والتفسيرات والاستنتاجات الواردة في هذه الدورية هي للمؤلفين، ولا تمثل بالضرورة المشرف العام أو رئيس التحرير أو أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، ولا يترتب عليها أي مسؤولية.

■ ليس في التسميات المستخدمة في هذه الدورية، ولا في طريقة عرض مادتها، ما يتضمن التعبير عن أي رأي كان من جانب المشرف العام أو رئيس التحرير أو أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، بشأن المركز القانوني لأي بلد أو إقليم أو مدينة أو منطقة أو سلطات أي منها، أو بشأن تعيين حدودها أو تخومها، كما أن الخرائط الواردة في المقالات والدراسات لا تعتبر مرجعاً للحدود الدولية.

■ الهدف من الروابط الإلكترونية الموجودة في هذه الدورية تسهيل وصول القارئ إلى المعلومات، وهي صحيحة في وقت استخدامها، ولا تتحمل الدورية أي مسؤولية عن دقة هذه المعلومات مع مرور الوقت، أو عن مضمون أي من المواقع الإلكترونية الخارجية المشار إليها.

■ لا يعني ذكر أسماء جهات أكاديمية، أو مؤسسات علمية، أو شركات تجارية أن دورية كان التاريخية تدعمها.

أول دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأداة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

<https://kan.journals.ekb.eg>

أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ - الكويت

www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية - سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة

www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" - السعودية

www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة بيانات المنهل

أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ - الإمارات

www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن

www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:

دليل الدوريات العربية المجانية

الدوريات العلمية الفَحَّكَّة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً

www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:

هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ - كاليفورنيا

www.icann.org



معتمدة من مركز مؤتتر - برلين:

المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالمياً.

<https://indexpolls.de>



المنتترف العام

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

أ.د. عبد العزيز غوردو

أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة - المملكة المغربية

الهيئة الاستشارية

أ.د. خالد بلعربي	جامعة الخليلي اليابس	الجزائر
أ.د. خليف مصطفى غرابية	جامعة البلقاء التطبيقية	الأردن
أ.د. الطاهر جيلي	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د. عارف محمد عبد الله الرعوي	جامعة إاب	اليمن
أ.د. عائشة محمود عبد العال	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. عبد الرحمن محمد الحسن	جامعة بخت الرضا	السودان
أ.د. عبد الناصر محمد حسن بس	جامعة سوهاج	مصر
أ.د. محمد الأمين ولد أن	جامعة نواكشوط	موريتانيا
أ.د. محمد عبد الرحمن يونس	جامعة ابن رشد	هولندا
أ.د. محمود أحمد درويش	جامعة المنيا	مصر
أ.د. ناظم رشم معتوق الأمارة	جامعة البصرة	العراق
أ.د. نهلة أنيس مصطفى	جامعة الأزهر	مصر

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



الهيئة العلمية

د. أنور محمود زناتي	جامعة عين شمس	مصر
د. عبد الحميد جمال الفراني	جامعة الأقصى	فلسطين
د. غسان محمود وشاح	الجامعة الإسلامية	فلسطين
د. ماجدة مولود رمضان الشرع	جامعة طرابلس	ليبيا

هيئة التحرير

د. إبراهيم برمّة أحمد	جامعة الملك فيصل	تشاد
د. زينب عبد التواب رياض	جامعة أسوان	مصر
د. غلا الطوخي إسماعيل	جامعة بنها	مصر
د. فهد عباس سليمان	جامعة كركوك	العراق
د. مأموؤو كان	جامعة العلوم الإسلامية	موريتانيا
د. محمد الصافي	جامعة الحسن الثاني	المغرب

” حسب الترتيب الأبجدي

”كان التاريخية“ أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ ”المعبر المفتوح“ في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية، ”كان التاريخية“ غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.



كان التاريخية

حاصلة على "معامل التأثير العالمي" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "معامل التأثير العربي" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة.

مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى (Q3) في معامل التأثير أرسيف.

عضو في الجمعية الدولية للمجلات العلمية الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



Magazine Cover

غلاف المجلة – عدد خاص

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم

رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com



historickan



groups/kanhistorique



kanhistorique



kanhistorique.blogspot.com



goodreads.com/kanhistorique



www.kan.nashiri.net



https://kan.journals.ekb.eg



كان التاريخية علمية، عالمية، محكمة. ربع سنوية

السنة الثامنة عشرة – العدد السابعون – أغسطس ٢٠٢٥

الإستعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعتبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمل دورية كان التاريخية أية مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكاتب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكية أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرانسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كان التاريخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعميم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.

دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ

علمية. عالمية. مُحَكَّمَةٌ. ربع سنوية

أَخْلَاقِيَّاتُ النَّشْرِ وَالنَّزَاهَةُ الْعِلْمِيَّةُ

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدورية كَانِ التَّارِيخِيَّةِ على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهّم محرري المجلات العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللازمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية. يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكمين اثنين على الأقل ممن لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكمين أو طلبهم ألا يقوم محكمون معينون بمراجعة أوراقتهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيّزة.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دورية كَانِ التَّارِيخِيَّةِ من متخصصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسية أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

كان التَّارِيخِيَّةِ هي أول دورية عربية مُحَكَّمَةٌ ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأولى ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التَّارِيخِيَّةِ تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دورية كان التاريخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.



الأمانة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأ فادحاً في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعمالهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دورية كان التاريخية، وتوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقاً صحيحاً وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دورية كان التاريخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دورية كان التاريخية. ويجب على أي محكم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السرية، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

دورية كان التاريخية هي دورية علمية عالمية مُحَكَّمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التاريخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

تشرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرية التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال / دراسة / ترجمة / تقرير / عرض كتاب / عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

دورية كان التاريخية مجهزة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال / الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعين.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أجور المحكمين

- لا تعتمد دورية كان التاريخية أية رسوم مقابل المراجعة العلمية والتحكيم والمراجعة اللغوية والتنسيق والنشر والأرشيف وفهرسة المقالات والدراسات.
- يتعاون مع دورية كان التاريخية بصفة تطوعية هيئة من المراجعين والمحكمين من ذوي الخبرة البحثية والمكانة العلمية المتميزة. ولا تدفع الدورية أية مكافآت مالية مقابل عملية المراجعة والتحكيم وتقييم المقالات والدراسات المقدمة للنشر.



أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دورية كان التاريخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممن عرفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممن أصدروا كتباً أو أبحاثاً علمية متميزة في تخصص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

المقيّمون والمحكمون

أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د. إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د. أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د. أحمد عبد الله الخسّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د. أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق
أ.د. إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د. أمين محمد علي الجير	جامعة زمار	اليمن
أ.د. أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر
أ.د. بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د. حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. الحسن تاوشينخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د. حسين صالح حسين العنسي	جامعة زمار	اليمن
أ.د. حنفي هلايلي	جامعة جيلالي ليايس	الجزائر
أ.د. خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق
أ.د. رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د. سعاد يمينية شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د. سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د. شعيب مقنوف	جامعة "أبوبكر بلقايد" تلمسان	الجزائر
أ.د. صالح محمد زكي اللهبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د. عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د. عبد الرحيم مرشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د. عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د. عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د. عبد الله علي نوح	جامعة بنغازي	ليبيا
أ.د. العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د. عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د. عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د. فاروق إسماعيل	جامعة حلب (سابقاً)	سوريا
أ.د. كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د. كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر
أ.د. لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د. مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د. محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د. مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د. وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

- التاريخ المقارن.
- التراجم والنساب.
- تاريخ العالم القديم.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الحروب الصليبية.
- العمارة والعمران والمدن.
- المستكشفون والرحالة.
- منهج البحث التاريخي.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.

”حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.

ترحب دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التَّارِيخِ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجِدَّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

رسوم النشر

تلتزم دورية كان التاريخية بمجانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلفين من جميع رسوم النشر والمراجعة والتحكيم.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقاً للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمياً سرياً بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوءها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك، أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال / الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات / منتديات / مواقع / مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

عنوان البحث:

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم / الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون - الموبايل / الجوال - الفاكس).

صورة شخصية:

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

ملخص البحث:

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٣٥٠ - ٣٠٠) كلمة. البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

الكلمات المفتاحية:

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواءم مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

مجال البحث:

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

المقدمة:

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

موضوع البحث:

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سليمة واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

الجدول والأشكال:

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

الصور التوضيحية:

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في «ملف منفصل» على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution).

خاتمة (خلاصة):

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

الهوامش:

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وإمكان الباحث استخدام نمط "APA" American Psychological Association الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرة وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

المراجع:

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقاً للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسؤولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسؤوليته هو وحده ولا تعبر عن رأي أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسؤولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونياً بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

مكافآت الباحثين

لا تدفع دورية كان التاريخية أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما يُنشر في الدورية إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي عامة ومجال الدراسات التاريخية بصفة خاصة.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصاً وافياً لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف / المحقق / المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل بموضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر / ورشة عمل / سيمينار) مركزاً على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دورية كان التاريخية أربع مرات في السنة: (مارس - يونيو - سبتمبر - ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسل الأعداد الجديدة إلى كُتّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية <https://www.facebook.com/historickan>
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر عبر النظام الإلكتروني على موقع الدورية أو مباشرة إلى رئيس التحرير: <https://kan.journals.ekb.eg> mr.ashraf.salih@gmail.com

السعودية	جامعة حائل الهيئة الملكية لمحافظة العلا	علي بن مبارك صالح طعيمان قصي بن منصور التركي عبد بن حمد اليحيى	١٤	قناة عيس في واحة عيون الجواء بمنطقة القصيم شاهد حضاري على تطور نظام الري بتقنية قنوات الأفلاج الأرضية منذ ما قبل الإسلام
سوريا		فاروق إسماعيل جامعة حلب (سابقاً)	٣٠	العلاقات بين مدينتي ماري الأمورية وخابورا الكنعانية
المغرب	جامعة مولاي إسماعيل	عمرو إديل يوسف عاشي عبد السلام بوهلال	٤٣	من قصبة مولاي إسماعيل إلى مدينة أزرو مراحل النشأة وعوامل النمو والتطور
المغرب		عبد العزيز غوردو المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين وجدة	٥٤	الزمن الازدواجي مساهمة في المفهمة
المغرب		سعيد عطا جامعة ابن طفيل	٦٣	حوار مفاهيمي في الصحافة الحزبية المغربية
ليبيا		ماجدة مولود رمضان الشرع جامعة طرابلس	٧٣	الأثر الاجتماعي للعلاقات الزيرية الفاطمية في المغرب الأدنى ومصر (٦٠٤هـ / ١٠١٠م)
الأردن		محمد عطا الله سالم الخلفيات كلية معان الجامعية	٨٢	ثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس وجهود الموحدين في القضاء عليها ٥٤٦-٦٧٠هـ / ١١٥٢-١١٧٢م
ليبيا		نادية عبد الرحمن ميلود معاطي جامعة صبراتة	١٠٥	طبقة العامة بالمغرب الأوسط عهد الدولة الزيانية
الجزائر		حسن بربورة جامعة يحي فارس المدية	١٢٠	لمحات تاريخية عمرانية ومعمارية عن مدني من الغرب والشرق الجزائري: دراسة في رحلة الألماني مالتسان خلال القرن التاسع عشر الميلادي
اليمن		حسين أبو بكر عبد الرحمن العيدروس جامعة سيئون	١٣٤	نظرة الرحالة الأجانب لعرب جنوب شبه الجزيرة العربية دراسة من خلال المصادر
المغرب		فريد المساوي جامعة عبد المالك السعدي	١٤٥	قضية السفينة الفرنسية "أمير" التي هربت (قراصنة) ريفيين من عقاب المخزن سنة ١٨٩٨م قراءة من خلال وثائق مغربية
المغرب		محمد عبد المومن جامعة عبد المالك السعدي	١٦٤	أنشطة المافيا الإيطالية في طنجة لمحات خلال الفترة (١٩٤٥-١٩٥٦)
تونس		طارق محمدي كلية الآداب والعلوم الإنسانية - سوسه	١٨٠	مسار تحرر المرأة في تونس قبل الاستقلال وبعده من خلال الشعر الشعبي
تونس		ثامر سعداوي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس	١٩١	المسألة الدينية في الدساتير التونسية في دستور ١٩٥٩ ودستور ٢٠١٤
المغرب		محمد النظام جامعة الحسن الثاني	٢٠٧	اكتشاف الصين رحلة أكاديمي مغربي إلى أرض التينين الصين المعاصرة من منظور مغربي
المغرب		عبد السلام انويكة المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين - فاس	٢١٨	ندوة الرباط الوطنية التخر في الكتابة التاريخية المغربية

عرض كتاب

تقارير



قناة عيس في واحة عيون الجواء بمنطقة القصيم شاهد حضاري على تطور نظام الري بتقنية قنوات الأفلاج الأرضية منذ ما قبل الإسلام

د. عيد بن حمد اليحيى

باحث أنثروبولوجي في آثار الجزيرة العربية
الهيئة الملكية لمحافظة العلا
المملكة العربية السعودية



أ.د. قصي بن منصور التركي

أستاذ آثار الجزيرة العربية وبلاد الرافدين
قسم السياحة والآثار
جامعة حائل - المملكة العربية السعودية



د. علي بن مبارك طعيمان

أستاذ الآثار والعمارة القديمة المشارك
قسم السياحة والآثار
جامعة حائل - المملكة العربية السعودية



ملخص

يمثل الري القديم أحد أبرز المقومات الحضارية في الجزيرة العربية منذ أقدم العصور، وبخاصة من بعد الفترة الرطبة الأخيرة التي بدأت فيها مرحلة التصحر، وهي المرحلة التي أنتكر فيها إنسان الجزيرة العربية العديد من التقنيات الهندسية في سبيل الحصول على المياه مواجهًا البيئة وقساوتها وجفافها، ومع كل هذا نجح في ذلك وأستقر في الواحات وأبتكر تقنيات الري المتنوعة ومنها تقنية قنوات الأفلاج تحت سطح الأرض كما هو الحال في واحة عيون الجواء بمنطقة القصيم. وتهدف الدراسة إلى تحديد موقع قناة عيس في واحة عيون الجواء، وتتبع مساراتها والتعرف على مصادر مياهها ويثرها الأم، ومسارات القناة ومهابطها، ومساحة الواحة التي كانت ترويه تلك القناة مع وصف أعماقها وكميات المياه التي كانت تفيض منها في نهاية الفلج مروية الواحة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٤ ديسمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٠٧ يناير ٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

القصيم؛ عيون الجواء؛ الري؛ الفلج؛ البئر؛ الواحة



معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.445257

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

علي بن مبارك صالح طعيمان، عيد بن حمد اليحيى، قصي بن منصور التركي، "قناة عيس في واحة عيون الجواء بمنطقة القصيم: شاهد حضاري على تطور نظام الري بتقنية قنوات الأفلاج الأرضية منذ ما قبل الإسلام". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد السبعون: أغسطس ٢٠٢٥. ص ١٤ - ٢٩.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: alitoiman79@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دُورية كان 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

شكلت الجزيرة العربية أحد أهم المواطن القديمة للإنسان القديم منذ عصور ما قبل التاريخ حيث كانت بيئة جاذبة للعيش والاستقرار، وهو ما اثبتته الدراسات العلمية الحديثة في الجزيرة العربية (Parton, 2018, et all)، وبهذا فقد عاش الإنسان القديم في الجزيرة العربية منذ فترات توفر المياه في البحيرات القديمة، ومع مرور الزمن وتقلبات الفترات الرطبة والجافة التي انتهت بالفترة الأخيرة بمرحلة جافة، وهي المرحلة المستمرة حتى اليوم في الجفاف والتصحر، وعلى سبيل المثال فقد اثبتت تلك المراحل في الدراسة الميدانية التي أجريت في موقع جبة شمال مدينة حائل بالمملكة العربية السعودية، والتي أعادت الزراعة والنباتات إلى فترة الألف التاسع قبل الميلاد وهي التي مثلت المرحلة الرطبة الثانية (Parton, etall, 2018: ٨٦).

وعلى أية حال، فقد قام الإنسان في الجزيرة العربية بالعمل على كسر حاجز البيئة محاولاً الحصول على ابتكار الطرق المتعددة في سبيل تأمين المياه التي يحتاجها، والتي أستطاع أن يوظفها في الري المنظم الذي اعتمدت عليه الزراعة فيما بعد .

ابتكر إنسان الجزيرة العربية منذ عصور ما قبل الإسلام (عصر الممالك العربية القديمة) العديد من وسائل تقنيات الري والتي بشكل عام تنقسم إلى قسمين: جوفية- وسطحية، إلا أن تسخير المياه الجوفية الدائمة هي التي أمنت الحصول على المياه في جميع فصول السنة الأربعة، وهو ما ضمن بقاء الإنسان واستمرارية ري أراضيه الزراعية وجني ثمارها، ومن بين أبرز تلك التقنيات نظام الري بواسطة الفلج (الأفلاج)، والتي كان لها دور كبير في الري القديم في الجزيرة العربية بشكل عام، كونها تحفظ كميات المياه من لحظة خروجها من البئر الأم حتى المفيض في نهاية الفلج لتروي القرى والبلدات ثم الواحات الزراعية وقد استخدمها الإنسان من أجل ضمان حياته واستمرارية حصوله على المياه. حيث يستفيد الانسان من حركة المياه الجوفية في الاراضي المنحدرة، فيشيد القنوات في باطن الارض مع ضرورة ان يتوفر مسيل قسم من المياه الجوفية نحو

القناة التي تسير لمسافات طويلة حتى تصل الى المناطق الاستيطانية والزراعية، ومن ثم تظهر المياه لتستخدم في اغراض متعددة (الهاشمي، ١٩٨٣م: ٧٨). وقد عرف هذا النوع من النظام الاروائي في التراث اللغوي العربي بعدة اسماء، ففي بلاد الرافدين يسمى بـ "الخراريز"، وفي حضارات الجزيرة العربية والخليج العربي يسمى - "الافلاج"، وفي اقطار المغرب العربي يسمى "الفجارة"، بينما تستخدم التسمية العربية "القناة" لهذا النوع من مشاريع الري في بلاد الاحواز العربية في إيران (Parson, 1955). وهو نظام للسقي استعمل في كثير من مناطق العالم، من الصين شرقا والى بعض الولايات في اميركا الشمالية غربا (Gressey G B, 1958, p. 41).

ومن الجدير بالذكر ان نظام الافلاج يتطابق مع معنى لفظة "قناة" والتي تعني لغة، انبوب الماء المصنوع الذي يجري تحت الارض، ويعرف أيضاً باسم كظامه ونفق وأردب. (إبن سيده، ص ٣٤) اما ما يذكره صاحب كتابلسان العرب، فان لفظ الفلج لغة يعني النهر، وقبل النهر الصغير وقيل الماء الجاريمن العين او الساقية، والفلجات سواقي الزرع والجمع أفلاج (ابن منظور، مادة فلج). وبهذا الوصف والاسم، نستطيع العودة إلى أقدم اللغات المدونة باللغة السومرية من بداية الالف الثالثة قبل الميلاد والتي ورد اسم القناة فيها بصيغة "l7"، وتقالها اللفظة في اللغة الجزرية الاكدية " نارو" (Naru)، والتي تعني نهر المتطابق لفظاً ومعنى في اللغة العربية مع ضرورة معرفة أن اللغة الأكديّة تفتقر الى حرف الهاء، كما ان اللفظ نفسه يعطينا معنى قناة وأخدود (Labat R, 2002, no. 579).

وما دام بحثنا مخصص لقناة في الجزيرة العربية، فان الفلج أو مسمى القناة كنظام ري، هو ما سيكون عليه المسمى لقناة عبس، في واحة عيون الجواء بمنطقة القصيم، وهي القناة المشهورة عند العرب كونها من المعالم الأثرية التي تناقلتها المصادر التاريخية وعرجت على موقعها وحددتها في واحة عيون الجواء مع ما يعرف اليوم بـ(غاف الجواء)، فقد سبق أن ذكرها الشيخ/ العبودي، وحدد مسارها، وأضاف في وصفها أنها القناة التي تم البحث عنها وتنظف جانب منها في

حولها، وفي مرحلة تشكل الأودية ظهرت مصبات الأنهار القديمة التي شكلت الأودية التي نراها اليوم عادة ما تسير باتجاه الشرق (الوليحي، ١٩٩٦م: ٧٤-٧٥).

فمن الواضح أن الدراسات الجيومورفولوجية نادرة جداً في حوض عيون الجواء؛ إلا أنه ومن واقع الدراسات الميدانية للموقع وزياراته المتكررة نجدها تنقسم إلى الأقسام التالية:

- الصخور الرملية المعروفة بمنكشف ساق، وهي الصخور التي عادة ما تكون حديثة التشكل، والممتدة على شكل ساق ممتدة إلى شمال المملكة العربية السعودية.
- السهول الصخرية المجواء والمصمتة مع تقاطعها في جبال السهل القريب من حوض عيون الجواء وبخاصة في الجهة الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية.
- التلال الطبيعية ذات الكثبان الرملية.
- واحة ذات سهل منبسط يظهر على سطحها غطاء نباتي طبيعي، وذات تكوين رملي مع الحصى النادر في سطحها. (خريطة: ١).

١/١- موقع الجواء وأهميته

تتطق الجوّاء بالكسر والتخفيف ثم المد، ومن السكان المحليين من ينطقها بإسكان الجيم بعد (أل) ثم واو مفتوحة وألف مقصورة، وهي في الفصحى ممدودة والتي ما زالت تستخدم إلى الوقت الحالي بسكون الجيم وفي النهاية ألف ممدودة، والجواء هي جمع (جو) في اللغة الواسع من الأودية والجواء هي الفرجة التي تقع ما بين محل البيوت (العمير، الذيب، ١٩٩٧م: ١٠٩).

وتقع الجواء على بعد ٣٠ كم إلى الجهة الشمالية الغربية من مدينة بريدة، وهي أحد محافظات منطقة القصيم بالمملكة العربية السعودية، وقد عرفت باسم بلدة (القرعاء)، وهي جزء من عيون الجواء وتبدأ حدود الجواء من الجنوب من أول القرى والمعروفة باسم (القرعاء)، وتنتهي حدودها في الشمال الغربي بلدة صلاصل، ويوجد في الجواء عدد من الأودية أبرزها وادي ضاري، الشقة العليا، أبلق، قُصيبا، القوارة، كبد، الطراق، المخرم، يكلب، الموشم (القنان) روض الجواء،

عهد أمير القصيم فيصل الفرحان عام ١٣٦٠هـ (العبودي، ١٩٩٠م: ١٧٧٥).

وفي العام ٢٠٢٠م قام الدكتور عيد بن حمد اليحيى وفريق تطوعي معه بمسح الموقع وتحديد مسار القناة وحدد موقعها الأصلي وكشف عنها، وهو ما سنتناوله هذه الدراسة بشكل مفصل؛ إلا أن القناة في الوقت الحالي قد تراكمت عليها كميات كبيرة من الرمال التي عادة ما تجلبها وتكدسها الرياح في مواقع الواحات القديمة التي آلت إلى الجفاف ولم تعد تستعمل منذ أمد بعيد.

أولاً: جيومورفولوجية وجغرافية موقع قناة عبس وما حولها

تُعَدّ الدراسات الجيومورفولوجية ذات أهمية بالغة في دراسات المناطق التي يقع في نطاقها النشاطات البشرية؛ كون الجيومورفولوجيا وما عليها من تشكيلات أرضية عادة ما تمثل النقطة الأساسية لجذب الإنسان واستقراره (الصالح، ٢٠١١م: ١٦٨)، وبخاصة في التغيرات البيئية التي حصلت على مر العصور في المنطقة، لما تمثله كمصدر أساسي في الدراسات البيئية التطبيقية، بالإضافة إلى تقويم ومسح الموارد الطبيعية في المنطقة، لدورها بالمساعدة في الحصول على التواريخ الموزعة على المظاهر الطبيعية في الموقع، كونها ما تزود الدراسات الميدانية بتسلسل زمني لتشكيلات الطبيعة من حيث تكوين الجبال على مر العصور، بالإضافة إلى معرفة تشكيلات الأخاديد والأودية بحيث يتم وصفها في محاولة لشرح أحواض المناطق التي ظهرت فيها (الصالح، ٢٠١١م: ١٧١-١٧٢).

وقد أوضحت الدراسات الجيومورفولوجية القائمة على الدراسات الميدانية أن تشكل الأودية الكبيرة في الجزيرة العربية قد اتخذت الشكل النهائي لها في العصر الجيولوجي المعروف بعصر (البلايستوسين) الأسفل، ومن بين تلك الأودية الكبيرة (وادي الرمة)، القريب من واحة عيون الجواء بمنطقة القصيم، والتي ترتبط به ارتباط جغرافي؛ وقد مثلت تلك الأودية النقطة الأساسية في خلق العديد من المظاهر الجيومورفولوجية التي نراها اليوم على السطح في عيون الجواء وما

وفي العقد الأول من القرن الواحد والعشرون زادت نسبة سكان عيون الجواء التابعة لمنطقة القصيم شمال بريدة، حيث وصل 30097 في العام ٢٠١٤ حسب الدراسات العلمية ونتائجها ونمو السكان في مدن المملكة العربية السعودية. Alamri, &. Freshwater, (2018:17) وهو ما انعكس سلباً على البناء الحضري في مواقع امتداد القناة وفروعها، ما سيصعب على الجهات الحالية إعادة ترميم القناة وتنظيفها والكشف عنها والتعرف على وظيفتها القديمة في الري، وربما الاستفادة منها مستقبلاً في إعادة تأهيل البلدة القديمة لعيون الجواء.

٢/١- عبس القبيلة أم الموضع؟!

وردت عبس عند الحموي بفتح أوله وسكون تاليه، واصفياً إيها بـ (ماء في نجد لديار بني أسد) (الحموي، ١٩٧٧م، ج٤، ٧٨-٧٩)، وعند الحديث عن عبس وبنفس تشكيل الأحرف (فتح فسكون)، نجدها قد وردت عند الإسكندري في كتابه الأمكنة، والذي أشار بأنها (موضع به ماء في ديار بني أسد)، (الإسكندري، ت ٥٦١هـ، ٢٠٠٤م، ج٢- ٢٢٥). وهنا نجد عدم الترابط ما بين تسمية عبس القبيلة، وتسميتها بموضع به ماء. وقبيلة عبس من القبائل العربية الشهيرة التي تنتسب إلى معد بن عدنان من قبائل شمال الجزيرة العربية، ويعود نسبها إلى عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن مضر، وهي قبيلة عدنانية (عبد، ٢٠١١م: ١٤٧). وعلى أية حال فإن القناة تقع في موضع (عيون وغاف الجواء) الذي اكتشفت به القناة، وهي دلالة على أن قد اتفق على موضوع القناة في عيون الجواء بغض النظر عن التسمية.

٣/١- قصة اكتشاف القناة

هي الجهود التي تكلفت بالنجاح في قيام الدكتور/ عيد اليحيى في شهر جمادي الأولى من عام ١٤٤٢هـ/ الموافق ديسمبر ٢٠٢٠م في تتبع سير القناة من المنبع إلى المفيض في واحة عيون الجواء، حيث كشف عنها، إلا أنها تعد ثاني محاولة لكشف القناة بعد المحاولة الأولى التي أمر بها أمير القصيم/ عبد الله بن فيصل الفرحان عام ١٣٦٠هـ عندما كان أميراً على منطقة القصيم، حيث أمر

غاف الجواء، عيون الجواء، أوثال، الهدية، القرعاء، غضي، الضلفة، الشيعية (العمير، الذيب، ١٩٩٧م: ١١٠). (خريطة: ٢).

وتعدّ منطقة القصيم من بين أبرز مناطق المملكة العربية السعودية نمواً، وترتفع بمقدار ٦٠٦م فوق مستوى سطح البحر، وبريدة هي أكبر مدن منطقة القصيم، بينما عيون الجواء هي أحد محافظات المنطقة الريفية وهي من بين ثمان محافظات ريفية (Alghafis, 2023:63).

ولعل ما يهم الدراسة هي عيون الجواء، وغاف الجواء، وروض الجواء، وهي المناطق التي تقع في نطاقها قناة عبس التاريخية، والتي كشف عنها الدكتور/ عيد بن حمد اليحيى في ديسمبر ٢٠٢٠م.

الجواء: بالكسر، والتخفيف ثم المد؛ وردت الجواء في اللغة بمعنى المنطقة الواسعة بين الأودية؛ والجواء هي الفرجة التي بين محل القوم في وسط البيوت، وفي مجال آخر الجواء هي موضوع بالصمان، وقد قيل عن الجواء

يمعس بالماء الجواء معسا× وغرق الصمان ماء قلسا. وجو (جو الخضرمة) هي قرية من قرى نواحي اليمامة، وفي موضع آخر يُقال إن الجواء وادي في (ديار عبس أو أسد فأسافل عدته)، وقد قيل عن الجواء من أشعار عنترة.

وتحل عبه بالجواء وأهلها× بعنيزتين وأهلنا بالديلم. (الحموي، ١٩٧٧م، ج٢، ١٧٤).

أشار العبودي إلى الجواء في كتابه معجم القصيم حيث ذكر أن الجواء بإسكان الجيم بعد (ال) ثم واو مفتوحة وألف مقصورة، وهي من بين أهم نواحي القصيم وتقع شمال غرب مدينة بريدة بحوالي ٣٠ كم، وهي القرية المعروفة باسم القرعا (العبودي، ١٩٩٠م: ٧٥٢). ومن نواحي الجواء وقراها (قرية القرعا) التي كانت سابقاً من ضمن نواحي الجواء كما وردت في المصادر (العبودي، ١٩٩٠م: ١٩٣٤). أما من حيث تسمية عبس و(العبسية) في المصادر نجد أن العبسية ماء بالعريمة بين جبلي طيء (الثيان، ٢٠١٦م: ٣٢)، والمقصود بها هي مياه في ديار قبيلة طيء.

وكانت الجواء مسرح لعدد من المعارك التي اشارت لها المصادر بين القبائل ومنها معارك عبس وذبيان ومن أبرز أيامها يوم (المريقب) (العمير، الذيب، ١٩٩٧م: ١١٠-١١)، وبعض من الوقائع الأخرى بين عبس وذبيان منها واقعة البوار والهباءة، وذات الجراجر (مغنية، ١٩٩٤م: ٢٠٤-٢٠٥). والهباءة ليست في الجواء وهي قريبة من المهد (مهد الذهب) هضب الدياحين، وقد كانت القبائل تقيض (فصل القيض). في الواحات حيث تواجد المياه وطرق استنباط المياه والحصول عليها، وقد ونستدل من خلال ما سبق أن الجواء وواحتها الزراعية كانت من بين المواقع التي استوطن فيها الإنسان منذ عصور ما قبل الإسلام وبرزت تلك المواقع في العصر الجاهلي عصر القبائل العربية التي ذاع صيتها وتناقلت أخبارها وأحداثها العرب حتى اليوم.

٥/١- بدايات الري القديم في الجزيرة العربية

لعل التغيرات والتطورات البيئية التي حدثت في الجزيرة العربية بشكل عام، وبخاصة في فترة عصر الهولوسين منذ ١٠,٠٠٠ ألف سنة مضت، هي التي أدت إلى قيام الإنسان بالتفكير في كيفية الحصول على المياه والعمل على بناء وتأسيس منشآت مائية في سبيل الحصول على المياه وتخزينها والاستفادة منها، وبخاصة من بعد الجفاف الذي ضرب الجزيرة العربية منذ الألف الخامس قبل الميلاد والذي استمر بوتيرة عالية في التصحر والجفاف حتى اليوم (برونر، ١٩٩٩م: ٥٣؛ طعيمان، ٢٠١٨م: ٥٦).

تنوعت وسائل وتقنيات الري في الجزيرة العربية نتيجة لتنوع طبيعة المنطقة وطوبوغرافيتها للقيام بتشديد المنشآت المائية عليها (طعيمان، ٢٠١٨م: ٢٤٣). وقد ظهرت أنظمة الري في الجزيرة العربية منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وهي المرحلة التي قد بدأت فيها أنظمة الري تتطور وتبرز مع زيادة الجفاف والتصحر، وكان من بين تلك الوسائل التي قام بالتفكير فيها إنسان الجزيرة العربية هي الحصول على المياه الجوفية، حيث قام بإنشاء آبار وقنوات الأفلاج، التي سبق وأن ظهرت في بعض من حضارات العالم القديم المجاورة، ومنها ما ظهر في الخرج بالمملكة العربية السعودية، والتي أعيد

بتنظيف القناة وتحديد مسارها؛ وتم حينها تكليف العمال بأن يتتبعوا مسار القناة من المنبع إلى المفيض، إلا أنهم لم يكملوا عميلة الكشف عن مجاري ومسارات القناة (فلج القناة) بسبب توصلهم إلى المقبرة ثم توقفت الأعمال (العبودي، ١٩٩٠م: ١٧٧٥).

٤/١- لمحة تاريخية حول قناة عبس

من الناحية التاريخية نجد أن موضع عيون الجواء هو من المواضع التي أشارت لها العديد من المصادر التاريخية كما أسلفنا، وهي دلالة على أهمية الموقع واستقرار الإنسان فيه منذ عصور قديمة، وقد كانت من المواضع التي أشار لها الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب)، حيث ذكرها من بين مناهل المياه القديمة في الجزيرة العربية بمعنى (ربض بين بئر الجواء وناظرة) (الهمداني، ٢٠٠٨م: ٢٤١).

أدت المقومات الحضارية لموقع عيون الجواء إلى تداول ذكرها بكثرة في المصادر، ومن أبرز تلك المقومات أنها كانت تمثل مرتع للقبائل العربية التي عاشت ما قبل الإسلام، حيث كان يخترق أراضيها العديد من الأودية والشعاب، أضف إلى ذلك كثرة الجبال والكثبان الرملية التي كانت تمثل جزء من التحصين الطبيعي والاحتماء بها من الأعداء من القبائل العربية الأخرى التي تزامن تواجدها في المنطقة، أو من العوامل المناخية التي تتعاقب خلال فصول السنة، وقد استوطن عيون الجواء عدد من القبائل منها قبيلة عبس، وقبيلة أسد وقبيلة ذبيان، وهي القبائل التي ينتمي إليها فحول الشعراء العرب والذين تغنوا بها في أشعارهم منها حيث يقول امرئ القيس:

(كأن مكابي الجواء خُديّةً صُبْحَن سَلافاً من رحيق مفلّ) (مفلل)

أما عنتر بن شداد فقد أنشد قائلاً:

يا دار عبله بالجواء كلمي× وعمي صباحاً دار عبله وأسلمي

والنابغة الذبياني يقول:

أقامت بها البردين ثم تذكرت× منازلها بين الجواء فجرثم.

والبعض منها إلى المنازل القريبة من الواحة، وقد تم دراسة كل جزء من القناة على النحو التالي:

١/٢-البئر الأم

تقع البئر الأم في الجهة الشمالية الغربية من واحة عيون الجواء وفي المنطقة التي تتساب فيها الجبال الرملية على شكل طبقات متدرجة في الجهة الغربية وهي ما سهل تواجد وتجميع المياه بين ثايا تلك الطبقات المتراسة لتنتهي بخروج المياه وتجميعها في موقع البئر الأم المعروفة بـ(نفود عبس)^(١) وهي المنطقة التي تبدأ منها القناة الرئيسية حيث كانت البئر تحضر في الأسفل حتى الوصول إلى المياه الأساسية. (مخطط: ١).

يصل عمق القناة بناءً على قياسات المنطقة الجبلية وموازاتها حوالي ١٤م، وهي المنطقة التي كان يتم فيها حفر البئر حتى الوصول إلى المياه، وقد كانت تلك البئر ذات شكل دائري مطويه بالأحجار، وربما كان فيها تدرج حتى تسهل عملية الوصول إليها من خلال سلالم أو تدرج معماري، وهو ما سهل نزول الانسان إلى الأسفل لإجراء عمليات التنظيف والتهوية والوصول إلى أسفل البئر من أجل شق الجزء الأسفل منها باتجاه الواحة لضمان انسياب المياه في القناة.

كانت التقنية الأساسية هي البدء بإكمال حفر البئر الأم (الرئيسية) ثم تترك لتجميع المياه، ومن بعدها يتم حفر القناة حتى الوصول لعمق المياه وتركها ليستتي إكمال بقية مسارات القناة لكي لا تعبت المياه بمسارات عمارة وتقنية القناة وانسيابها قبل الانتهاء من عمل القناة، حيث كان يترك جزء من حفر مسار القناة لضمان سد المياه، ولعل تقنية إيصال القناة الرئيسية مع البئر الأم هي الأصعب في تقنية المياه بالفلج مع مسار القناة، والتي كانت تمثل خطورة على عمال الحفر أضف إلى ذلك من المحتمل أن كميات المياه في البئر الأم (الرئيسية) قد تؤدي لتدمير مسار القناة، حيث أن تجميع المياه في البئر الأم قد يزيد من قوة الاندفاع في القناة، حيث كان تستخدم عملية الثقب في سد ما بين القناة

تاريخها إلى القرون الميلادية الأولى (الغزي، ١٤٣٢هـ، مج ٢: ٧٦).

ثانيًا: الدراسة الوصفية

تعتمد الدراسة على المنهج الوصفي القائم على الزيارات الميدانية المتكررة للموقع من قبل الباحثين، حيث إنه قد تم الكشف عن القناة ومسارها من طرف (الدكتور عيد اليحيى) الذي أجرى العديد من المسوحات الميدانية في الموقع حتى توصل إلى تحديد مسار القناة، وكشف عنها، وهي البداية الأولى التي ستعتمد عليها الدراسة.

وستضم الدراسة الوصفية القيام بتتبع جميع المنشآت المائية التي تتعلق بالقناة منذ بدايتها في الجبل حتى المفيض (الفلج) في القرية أو الأراضي الزراعية في الواحة، وتنقسم القناة بشكل عام إلى البئر الأم، والشق الرئيسي في أسفل القناة من الاتجاه الشرقي، ثم حفر القناة الرئيسية التي تتصل بالبئر الأم في الجبل، والتي عادة ما تكون في منطقة عالية لتسهيل عملية انسياب المياه مع القناة من المناطق العالية إلى المناطق الأقل ارتفاعاً حتى الوصول إلى نهايتها، ومن خلال تتبع القناة يبدو أنها في مسار واحد من البئر الأم ثم تمتد لتتفرع إلى مسارين رئيسيين لتفيض بهما في واحتين منعزلتين من روض الجواء وغاف الجواء، وقد مثلت تلك القنوات الرئيسية الأجزاء الأكثر عمقاً من أجزاء القناة الأخرى التي تقل من حيث العمق حتى النهاية. (مخطط: ١).

ولعل الجانب الأهم في مسارات القناة هي الخزرات (المهابط) والتي كانت تفتح في مسارات القناة على مسافات متفاوتة حتى تسهل عملية التنظيف والتهوية، نضيف إلى أن وظيفة الخزرات (المهابط) تمثلت في كتم الهواء بداخل القنوات ليساعد في عملية ضخ مياه القناة إلى المفيض (الفلج) بسرعة وكميات كبيرة لغرض الاستفادة منها في ري الأراضي الزراعية. (مخطط: ١).

وفي نهاية القناة الرئيسية من كل مسار كانت تلتقي بها قنوات فرعية سطحية، يقوم دورها بعملية توزيع المياه مباشرة عبر قنوات رئيسية (سطحية) تؤدي بدورها إلى قنوات سطحية أخرى فرعية للتوزيع بين الحقول،

(١) هو الموقع الذي تتبع منه البئر الأم لقناة عبس والمعروف عند السكان المحليين باسم (نفود عبس) نقلاً عن الأستاذ/ صالح فريح آل فريح، ويصل ارتفاع النفود اليوم من ١٢ - ١٥م.

١٩٩٠م: ١٧٧٥). والتي توصل فيها عمال الحفر إلى المقبرة وتم توقيفها عند مرورها على المقبرة آنذاك. ومن خلال ما سبق يتضح أن جميع مسارات القنوات كانت في موقع يتم من خلاله تقسيم المياه بشكل متساوي ولعل تفرع القنوات (مقسم القنوات) هو الذي كان يتم من خلاله توزيع المياه وإدارتها ما بين الواحة، وكان يتم ذلك بشكل منظم بين جميع المستفيدين من مياه القناة الرئيسية، وفق أنظمة مائية تم تحديدها من قبل شيخ الوادي (شيخ القناة) عاقل القناة، وهي مهنة وردت في الكتابات القديمة في الجزيرة العربية (طعيمان، ٢٠١٨م: ٧٥).

٣/٢- خرزات (مهابط) القناة

امتازت قنوات الفلج بعدد من الفتحات في مسارات القنوات، سواء الرئيسية التي تبدأ من البئر الأم (الرئيسية) أو القنوات الفرعية التي تتفرع منها قبل وصول منطقة الفلج مفيض القناة، وبالتالي نجد أن عمارة (الخرزات) المهابط، كانت ذات شكل معماري هرمي يغطي الجزء العلوي من مسار القناة بحيث يستدق كلما ارتفع البناء إلى الأعلى بالقرب، لتظهر بشكل مرتفع في أعلى مسار القناة لتمكن الإنسان من مشاهدة مكان الخزرة (المهبط)، والتي استخدمت لعملية للتنظيف والتهوية بالإضافة إلى دخول الهواء ليساعد في عملية ضخ ودفع المياه في مسار القناة باتجاه المناطق المناسبة. (لوحة: ٤). (مخطط: ١).

كان الجزء العلوي من الخرزات مبنية بطوق من الأحجار الرملية المحلية والبعض منها مجلوب من مناطق حول القناة وهي المناطق التي كانت تتوفر فيها الأحجار الخام والتي تسهل عليها عملية التهذيب والتشذيب لئتم البناء بها ومواساتها مع نظام بناء الخزرة (المهبط) وبخاصة في الجزء العلوي الذي عادة ما يترك مفتوح. (لوحة: ٥)

استخدمت مواد البناء من الحجر الرملي المتوفر، ولعل استمرارية إعادة ترميم مواد بناء الخرزات (المهابط) قد شكل تنوع فيها من حيث المواد الخام، وهي ما يشير إلى الاهتمام والاعتناء بالقناة واستمراريتها في تنظيم المياه من فترات انشائها حتى الفترة التقليدية

والبئر الأم ثم ينزل عمل الحفر في البئر الأم لفتح مسار المياه مرى أخرى لتساب المياه في القناة الرئيسية والتي بدورها يتم توزيعه عبر القنوات الفرعية الأساسية ثم إلى الفلج (لوحة: ٣) (مخطط: ١).

٢/٢- القناة الرئيسية

هي القناة التي تتصل مباشرة مع البئر الأم وهي التي يكون فيها العمق متصل مع عمق البئر الرئيسية لضمان اندفاع المياه من عين البئر الأم عبر القناة، بشكل انسيابي لتتم توزيعه إلى القنوات الأخرى (خريطة: ٣). تمتد القناة الرئيسية التي تتصل بالبئر الأم بمسافة تقدر بحوالي ٤,٨ كم عبر الواحة الصحراوية التي نراها اليوم، وعند نقطة المسافة تنقسم القناة إلى قسمين قسم القناة الأولى الشمالية الشرقية والقناة الثانية الجنوبية الغربية^(٢).

كانت القناة الشمالية الشرقية هي التي تروي البلدة القديمة والمزارع التي تقع حولها، الفلج التي وثقها الرحالة البريطاني ليتشمان (leachman) في العام ١٩١٢م (Al Yahya, 2006:48) عندما زار واحة عيون الجواء (لوحة: ١). أما (لوحة: ٢) فهي من أعمال الباحثين في نفس موقع لقطة ليتشمان (leachman). ومن واقع مشاهدة الفلج في رحلة ليتشمان يتضح أنه قد بدأ في الظهور على السطح بالقرب من البلدة القديمة (عيون الجواء)، وهي البلدة التي كانت تروىها قناة عبس حتى الفترة التقليدية المتأخرة، وهنا دلالة على استمرارية استخدام القناة حتى الفترات الإسلامية المتأخرة. (لوحة: ٢).

ومن بين أهم ما يمكن فهمه في تقنية المياه في القنوات الرئيسيتين هي نسبة توزيع المياه ما بين الواحات والبلدة القديمة، هي البلدة التي بُنيت على حافة الفلج كما هو واضح من مسار القناة، مع أن مسار القناة رقم ١ هي القناة التي تم تنظيفها في عهد أمير القصيم فيصل الفرحان عام ١٣٦٠هـ (العبودي،

(٢) الموقع الذي يقع فيه مكان تفرع القنوات، وهو اليوم عبارة عن منطقة ذات غطاء نباتي كثيف مع بعض من التصحر على مواقع ما حولها، وجميعها تعرف باسم (غاف الجواء).

بالمياه من القنوات المطمورة التي تؤدي بالمياه إلى الواحة وإلى المنازل القريبة منها (Nasif, 1988: 26).

ومن المناطق التي تم العمل عليها في المملكة العربية السعودية هو المشروع الذي قام به الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز الغزي وفريقه العلمي في موقع (عيني فرزان) بمحافظة الخرج - الرياض، والذي قد تم الكشف عن العديد من القنوات (الأفلاج) حيث أضاف أن القناة الرئيسية تبدأ منها العين الأم الواقعة في الجبل الذي يقع عليه (المكرويف) حيث أن عمق البئر الأم غير معروف بسبب التراكمات للنفايات والأشجار والأحجار وغيرها، وتمتد منها قنوات وفيها العديد من المهابط (خرزات) وقد كانت مسقوفة بأسقف جملونية، وذات فوهات دائرية وبخاصة في المكان الذي تلتقي فيها قناتان شمالية وجنوبية والتي اتضحت من خلال سير المهابط التي ما زالت على السطح، وقد تم طي المهابط بأكتاف بارزة بطول نزولها في مسار القناة بواسطة سلم حجري حتى مسار القناة في العمق الأسفل (الغزي، ١٤٣٢هـ، مج ٢: ٦٥-٦٦).

تشابه قنوات عيني فرزان مع قناة عبس في عيون الجواء من حيث الامتداد عند البئر الأم وفي المنطقة التي تتفرع منها القناة إلى قناتين، وبخاصة نرى التشابه في بناء المهابط التي سقفت بشكل جملوني (هرمي) وهي السمة التي تتوافق معها قنوات عين عبس مع قناة عيني فرزان. ومن حيث العمق تصل مهابط قنوات عيني فرزان في الخرج حوالي ١-٢م، واتساع الفوهة من ١-٥م (الغزي، ١٤٣٢هـ، مج ٢: ٦٧). وهي التي تتقارب مع مهابط خرزات قناة عبس في عيون الجواء.

ومن واقع دراسة القنوات المائية في الجزيرة العربية نجد أن التقنيات القديمة في الري تختلف على حسب اختلاف المنطقة التي من الممكن السيطرة على المياه فيها حيث المناطق الجبلية يتم فيها التحكم بواسطة السدود بينما المناطق الصحراوية هي المناطق التي يتم فيها استخدام الطرق التي تحفظ المياه في باطن الأرض والمعروفة في المملكة العربية السعودية قديماً باسم الفلج وذلك لزيادة درات الحرارة وجفاف المياه في السطح أكثر من التقنيات الجوفية -Tueaiman, 2018, 237- (238).

التي كان يحتاج إلى الإنسان إلى الحصول على المياه من خلالها.

٤/٢-القنوات السطحية

هي القنوات التي تبدأ في سحب المياه من القنوات الجوفية التي تفيض على السطح والمعروفة بقنوات (الفلج) أي فتحة جريان المياه من مسار المفيض، وفي بداية الفلج عادة ما تكون تلك القنوات يتم حفرها على سطح الأرض لضمان انسياب المياه مع القناة السطحية، كما يظهر فيها بعض من التعرجات في المسار لتخفيف قوة اندفاع المياه ليصل إلى القنوات الفرعية التي تقع ما بين الحقول وقد خفت قوة اندفاع المياه ولضمان توزيعها (مخطط: ١).

أما بالنسبة لمياه التي يتم توزيعها على البلدة أو السكن فقد كانت عبارته عن قنوات مبينة أو منحوتة في الصخر الرملي تسير بالمياه حتى أن تصل بها القنوات والخزانات الداخلية في البلدة، والتي كانت تصل كل بيت، وعلى حسب الحاجة وعلى حسب إدارة الري في البلدة والتي من المحتمل أنها كانت توزع على حسب الأسر أي جوانب اجتماعية، والبعض منها على حسب نسبة الإصلاحات التي تقوم بها تلك الأسر في صيانة وترميم القناة الرئيسية والفرعية، وهي النظام المتبع كذلك في ري الحقول الزراعية في الواحة على أملاك أسر البلدة (لوحة: ١-٢).

ولعل ما يميز قناة عبس في واحة عيون الجواء هو استمراريتها في الفترة التقليدية التي أوضحت حفر الفلج بجانب البلدة ويسير في خط متعرج باتجاه المنطقة الزراعية الواقعة جنوب غرب البلدة القديمة (عيون الجواء). (لوحة: ٢).

ثالثاً: دراسة مقارنة تحليلية

لم يكن نظام الأفلاج مقتصرًا على عيون الجواء في منطقة القصيم، بل كان من الأنظمة القديمة التي كان يعتمد عليها الإنسان القديم في الجزيرة العربية، وفي العديد من الحضارات المجاورة، وعلى حسب المثال في المملكة العربية السعودية تم التعرف على نظام الري بتقنية الأفلاج ذات القنوات تحت سطح الأرض في (وادي القرى) حيث ظهرت العديد من المعالم التي تسير

وقد كان من بين تلك المناطق عيون الجواء في منطقة القصيم شمال مدينة بريدة، وهي من المواقع التي استطاع الانسان أن يحصل فيها على المياه من تضاريس المنطقة الجنوبية والجنوبية الغربية حيث شكلت جيومرفولوجية الأرض تسلسل طبقي متراكم أنتهى بمسارات على مقربة من الواحة، وهي التي كانت تمثل مناطق نبع المياه، وقد استطاع الحصول على المياه من خلال حفر البئر الأم في موقع (نفود عبس)، وهي التي تسير منها القناة الرئيسة ثم تفرعها قناتين (مسارين) قبل أن تسير بالمياه إلى بلدة عيون الجواء، والواحة الزراعية القريبة منها.

نجد أن نظام الري بالأفلاج قد اختلف من منطقة لأخرى حيث ظهرت في الخرج (عيني فرزان) وفي العلا وفي الأسياح والعديد من المواقع في الجزيرة العربية، إلا أن نظام الري بالفلاج في (عيون الجواء) قد بدأ منذ فترة عصور ما قبل الإسلام واستمر حتى الفترة التقليدية أثناء ي زيارة ليتشمان (leachman) إلى بلدة عيون الجواء في العام ١٩١٢م أي قبل ١١٢ عام تقريباً، من تاريخ كتابة هذه الدراسة العلمية.

ومن خلال الزيارة الميدانية لموقع عيون الجواء وتتبع قناتها يوص الباحثون على أن يتم تأهيل قناة عبس ومساراتها وحمايتها وتنظيفها والعمل على إخراج مخططاتها ورسمها على اللوحات الخارجية، والقيام بعمل فيديوهات لتعرض في متاحف المنطقة والمتحف الوطني بالرياض لتوضيح جان مهم يتعلق بنظام الري في المملكة العربية السعودية، كونها قائمة نم واقع الدراسات العلمية والكشف الأثري لهذه القناة الشهيرة التي ارتبطت بقبائل العرب في عالية نجد، واستمرت تؤدي وظيفتها حتى الفترة التقليدية.

كما نجد أن أنظمة الري بواسطة الأفلاج قد ظهرت في سلطنة عمان وفي محافظة حضرموت باليمن، وهي المناطق التي تتشابه بيئتها مع بيئة وسط الجزيرة العربية وبخاصة في منطقة القصيم بلدية عيون الجواء، وكانت تختلف مسافات وامتداد القنوات على حسب اختلاف السطح الخارجي للأرض التي تمتد عليها القناة وتضاريسها، وكذلك طريقة بناء المهابط (الخرزات) التي تتوعدت في مسار تلك القنوات (Serjeant, 1964:35) ؛ (Serjeant, 1979:380). وكنموذج لمخطط احدى القنوات في عمان (يُنظر الشكل) والتي درسها أحد الباحثين الاجانب، يتبن لنا الشكل العام لمجرى مخطط القناة، والتي لا تبتعد كثيراً من حيث فكرة التصميم عن القنوان التي انشأت في الجزيرة العربية ومنها قناة عبس، والتي رسمنا مخططها في بحثنا هذا.

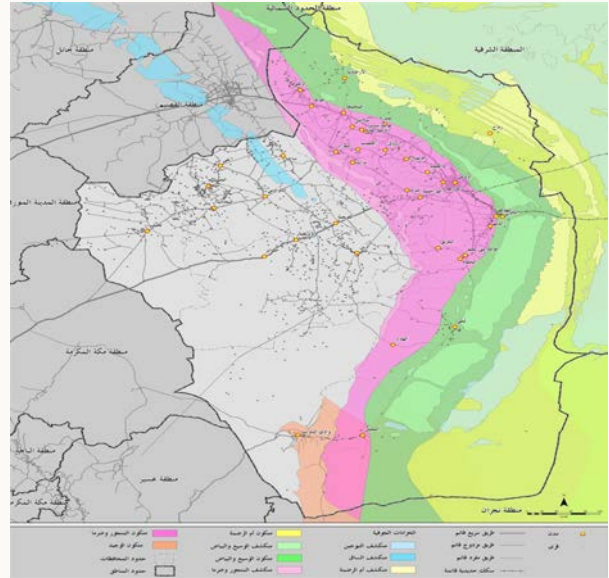
خاتمة

شكلت فترة الجفاف في الجزيرة العربية منذ العصور البرونزية وبالتحديد في بداية الألف الثالث قبل الميلاد والمستمرة حتى الفترة الحالية في قيام الإنسان بابتكار العديد من الطرق والوسائل والتقنيات من أجل الحصول على المياه والحفاظ عليها وتخزينها وإعادة استخدامها في أوقات الحاجة، ونجد أن تلك التقنيات قد تنوعت نتيجة تنوع البيئة والتضاريس في الجزيرة العربية، وامتازت مناطق جنوب وجنوب غرب الجزيرة العربية بالمنطقة الجبلية التي تختلف عن تضاريس وسط الجزيرة العربية ذات الصحاري والهضاب التي كانت فيها نسبة الجفاف قساوة البيئة أكثر من مناطق المرتفعات.

دفعت البيئة والتضاريس في وسط وشمال الجزيرة العربية الإنسان القديم في تأسيس تقنيات نظام الري الجوفي والمعروفة باسم تقنية الري بواسطة (الأفلاج) التي تم تمثلت في البئر الأم ثم مسارات القنوات التي تتبع منها لتصب في الواحة لتضمن بقاء الحقول والواحات الزراعية وسقي الانسان والحيوان، مما يضمن بقاء الانسان وعيشه واستقراره.

الملاحق

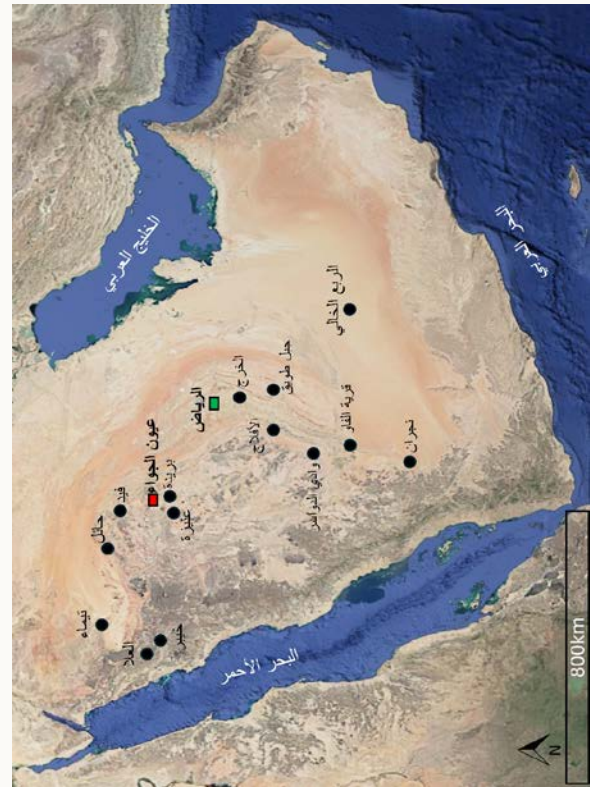
١- الخرائط



خريطة رقم (١)

توضح التكوين الجيولوجي والجيومورفولوجي

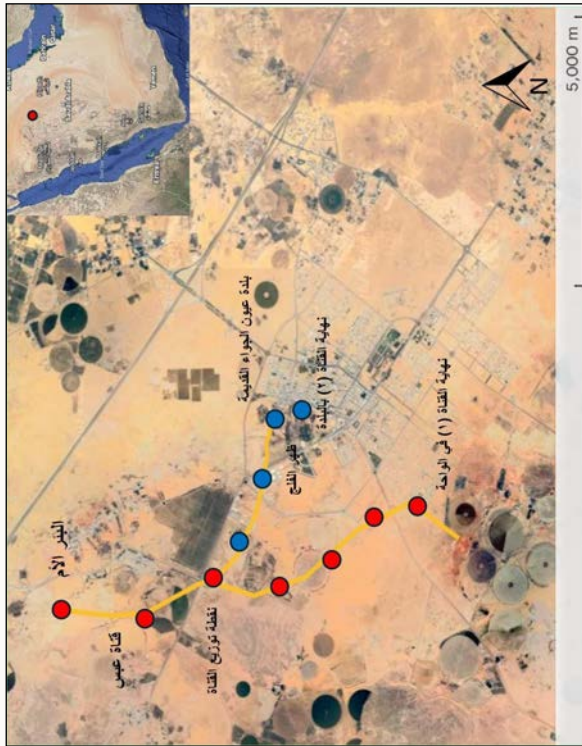
لعيون الجواء وما حولها

<https://www.rcrc.gov.sa/ar/plan/regional-plan>

خريطة رقم (٢)

تمثل موقع عيون الجواء

وعدد من المواقع الحضارية القديمة

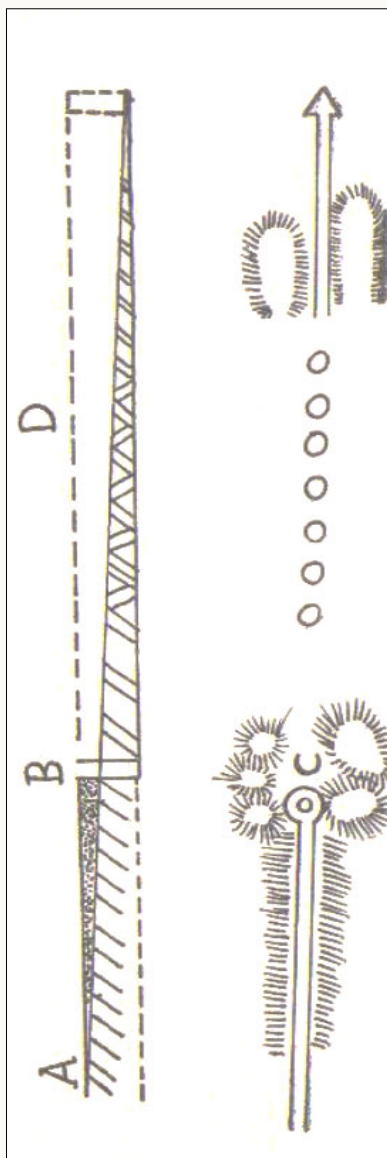


خريطة رقم (٣)

توضح مسارات القناة من البئر الأم

حتى نهايتها في عيون الجواء اليوم

٢-المخططات

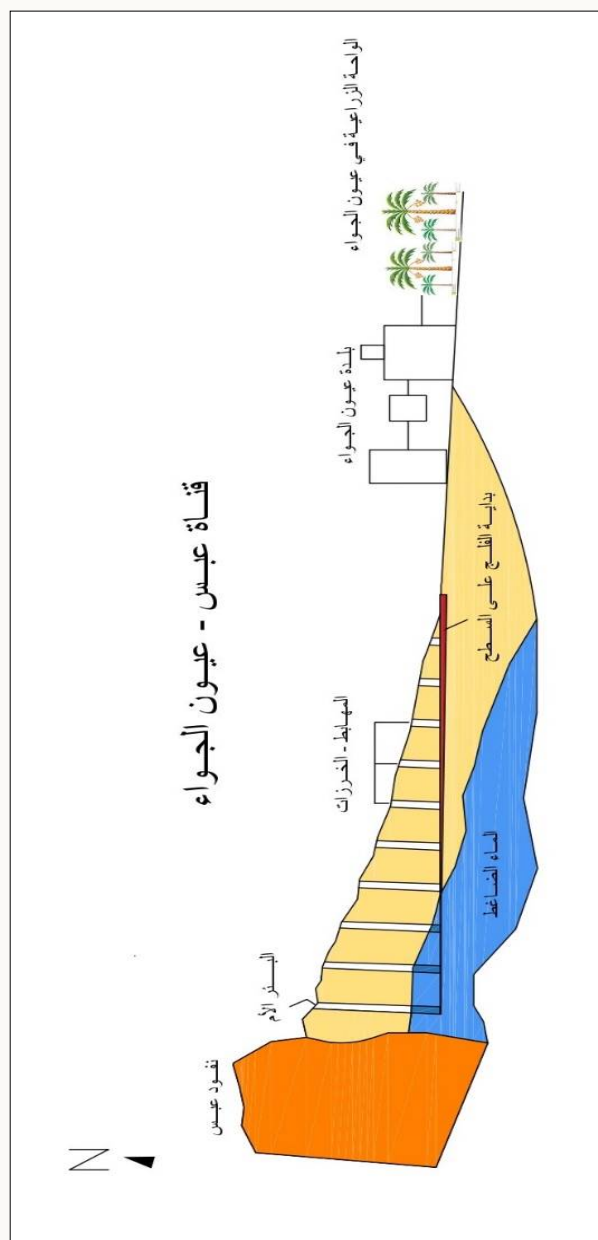


مخطط رقم (٢)

مخطط احدى القنوات التي كانت تنقل المياه في منطقة
صحار بعمّان

نقلًا عن:

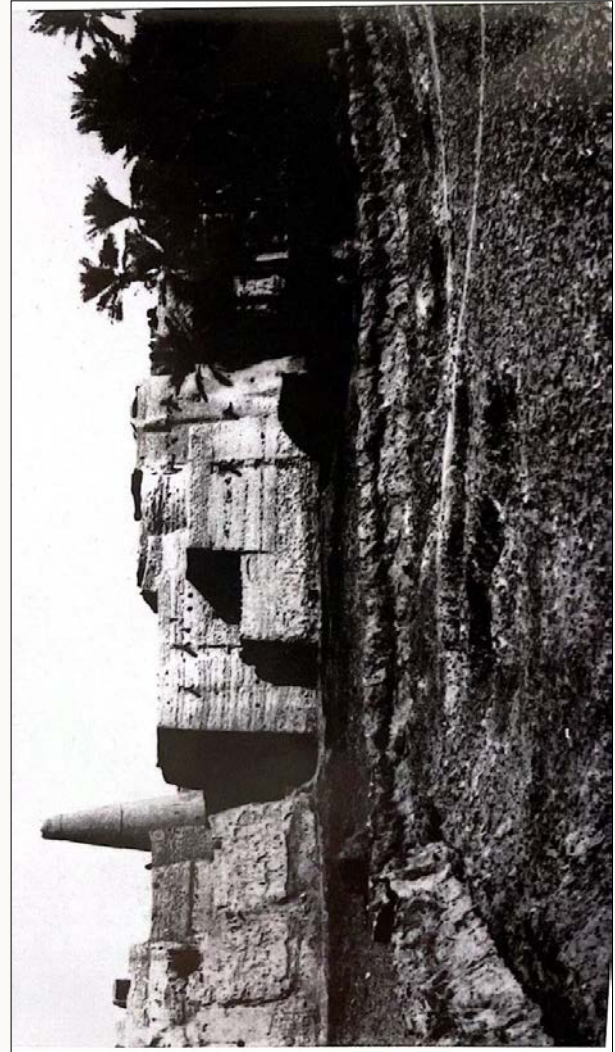
Wilkinson 1975, P.165.



مخطط رقم (١)

مقطع إعادة تصور لقناة عبس منذ بداية مسارها في
موقع (نقود عبس) حتى بداية الفلج في بلدة (عيون
الجواء) وواحتها الزراعية.

٣- اللوحات



لوحة رقم (١)

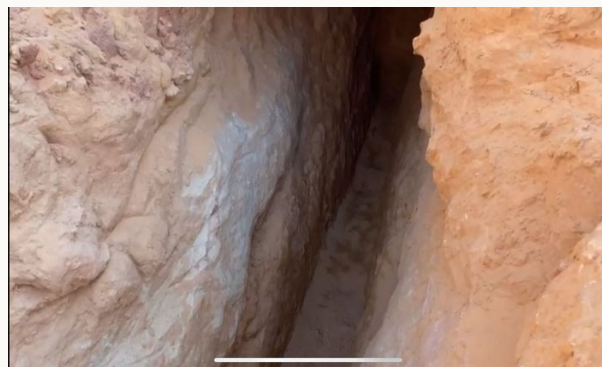
تبين الفلج في عام ١٩١٢م عند زيارة الرحالة البريطاني ليتشمان (leachman) إلى بلدة عيون الجواء. مع توضيح تحديد مسارها.

نقلاً عن (Al Yahya, 2006:48).



لوحة رقم (٢)

توضح موقع الفلج في نهاية القناة -٢، التي كانت تروي البلدة القديمة مع الواحة الجنوبية الغربية منها



لوحة رقم (٣)

صور القناة عند الحفر بالقرب من المفيض (الفلج)، وهي من الصور التي قام بها الدكتور عيد اليحيى عند كشفه عن مسارات القناة قبل المفيض



لوحة رقم (٦)

يظهر في الصورة الدكتور عيد اليحيى، والدكتور علي طعيمان، أثناء تسجيل الرحلة السابعة على برنامج خطى العرب الشهير في بلدة عيون الجواء التراثية.



لوحة رقم (٧)

يظهر في الصورة الدكتور عيد اليحيى، والدكتور علي طعيمان، أثناء النزول في مسار قناة عبس المحفورة في باطن الأرض، قبل المفيض.



لوحة رقم (٤)

توضح أعمال الكشف الأثري لمسار القناة بالقرب من الفلج شمال غرب بلدة عيون الجواء، نقلًا عن الدكتور عيد اليحيى في فترة الكشف، ويظهر في الصورة أ. صالح الفريخ آل فريخ من أهالي روض الجواء



لوحة رقم (٥)

توضح الجزء العلوي من فتحة أحد الخزرات (المهابط) في الجهة الجنوبية الغربية من الواحة

قائمة أولية بالمصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية

تصدر عن وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف السعودية ص ٩-٤٨.

• زارينس وآخرون، (١٩٨٠م): السدود بمنطقة الطائف، مجلة أطلال حولية الآثار العربية السعودية، العدد الرابع، الطبعة الثانية، تصدر عن وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف السعودية ص ٢٧ - ٣٤.

• الزهراني، عبد الناصر بن عبد الرحمن، (٢٠١٢م): إدارة التراث العمراني، دراسات آثارية (٧)، سلسلة علمية محكمة تصدرها الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، الرياض.

• الصالح، محمد بن عبد الله. (٢٠٠١). الخريطة الجيومورفولوجية لحوض وادي القويعة بالمملكة العربية السعودية. مجلة جامعة الملك سعود - الآداب، مج ١٣، ع ١، ص ١٦٧ - ١٩٦.

• طعيمان، علي بن مبارك بن صالح، (٢٠١٨م): أنظمة الري القديمة في واحة صرواح وما حولها منذ الألف الأول قبل الميلاد حتى القرن السادس الميلادي، أطروحة دكتوراه غير منشورة - قسم الآثار - كلية السياحة والآثار - جامعة الملك سعود.

• عبد، خالد موسى، (٢٠٠١م): قبيلة عبس وأثرها في الجزيرة العربية قبل الإسلام، مجلة مركز دراسات الكوفة، جامعة الكوفة، العدد ٢١، ص ١٤٥-١٥٨.

• العبودي، محمد بن ناصر، (١٩٩٠م)، معجم بلاد القصيم، (مادة الجواء - عين عبس - عين الجواء) الطبعة الثانية ١٤١٠هـ.

• العتيبي، عجب بن محمد، (٢٠١٦م) المنشآت المائية في بلدة فيد التاريخية بمنطقة حائل، الهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني الرياض سلسلة دراسات علمية محكمة.

• العمير، عبد الله بن إبراهيم، والذبيب، سليمان بن عبد الرحمن محمد. (١٩٩٧م). النقوش والرسوم الصخرية بالجواء في منطقة القصيم. مجلة الدارة، مج ٢٣، ع ٢، ص ١٠٧-٢١١.

• الغزي، عبد العزيز بن سعود، (١٤٣٢هـ): مشروع مسح وتوثيق المنشآت الحجرية في محيط عيني فرزان، المجلد الثاني، (المملكة العربية السعودية -

• أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ)، المخصص، الكتاب العاشر، المحقق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

• الاسكندري، أبي الفتح نصر عبد الرحمن، ت ٥٦١هـ، ٢٠٠٤م، الأمكنة، والمياه والجيال والآثار المذكورة في الأخبار والأشعار، تحقيق حمد الجاسر، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م الجزء الأول. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، دار الملك عبد العزيز.

• الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، (١٤٣٤ هـ): الحضارة العربية والإسلامية عبر العصور في المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، الناشر مؤسسة التراث الخيرية المملكة العربية السعودية.

• ابن منظور، أبي الفضل، جمال الدين بن مكرم، (ت ٧١١هـ)، (١٩٩٩م): لسان العرب، مادة الجواء - عبس، الطبعة الثالثة، الجزء الثامن، (لبنان: بيروت، دار إحياء للتراث العربي).

• برونر، أولي، (١٩٩٩م): بدايات الري، في كتاب: اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة/ بدر الدين عرودي، مراجعة/ يوسف محمد عبد الله، (باريس: معهد العالم العربي، دمشق: دار الأهالي) ص ٥٣ - ٥٤.

• الثنيان، محمد بن عبد الرحمن بن راشد، ٢٠١٦م: قبيلة طيء في منطقة حائل، المملكة العربية السعودية (مواطنها، وحواضرها، ومنازلها، ومواقعها، وأراضيها)، الطبعة الأولى، درا جداول للنشر والتوزيع والترجمة، لبنان - بيروت.

• الحموي، ياقوت بن عبد الله، (ت ٦٢٦هـ) ١٩٧٧م: معجم البلدان، مادة عبس، المجلد الرابع، (لبنان - بيروت - دار صادر). ص ٧٨ - ٧٩.

• زارينس، يوريس، وآخرون ١٩٧٩: التقرير المبدئي عن المسح في المنطقة الوسطى، وتتقيب نجران الأخدود في عام ١٣٨٩هـ - ١٩٧٨م، مجلة أطلال حولية الآثار العربية السعودية، العدد الثالث، الطبعة الثانية،

- Gressey Goerge B, "Qanat, Karez and Foggaras", The Geographical Review, vol. XLVIII, no. I, 1958, New York.
- Labat R, Manuel D'épigraphie Akkadienne, société Nouvelle librairie orientaliste, Paris 2002.
- Nasif, Abdallah. 1988: AL-Ula: an Historical And Archaeological Survey with Special Reference to its Irrigation System. Riyadh: King Saud University.
- Parson R M Co, Ground water Resoures of Iraq Development, Baghdad, 1955-1956.
- Parton, A., Clark-Balzan, L., Parker, A. G., Preston, G. W., Sung, W. W., Breeze, P. S., ... & Petraglia, M. D. (2018). Middle-late Quaternary palaeoclimate variability from lake and wetland deposits in the Nefud Desert, Northern Arabia. *Quaternary Science Reviews*, 202, 78-97.
- Serjeant, R. B. (1964). Some irrigation systems in Ḥaḍramawt. *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 27(1), 33-76.
- Serjeant, R. B. (1979). JC Wilkinson: Water and tribal settlement in south-east Arabia: a study of the aflāj of Oman. (Oxford Research Studies in Geography.) xvi, 276 pp. Oxford: Clarendon Press, 1977. £ 12.50. *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 42(2), 378-380.
- Tueaiman, A. M. S. (2018). Ancient Irrigation Systems in the Sirwah Oasis and its Surroundings since the First Millennium BC to the Sixth Century AD. *Unpublished Ph. D. Department of Archeology-College of Tourism and Archeology-King Saud University (Arabic)*.
- Tueaiman, A. M. S., & Salih, M. (2022). Gufaina dam in Ma'rib Oasis is a model of transformative dams in the pre-Islamic Kingdom of Saba architectural field study. *Historical Kan Periodical*, 15(57).
- Wilkinson T. J, "Sohar Ancient Fields project", Journal of Oman Studies, Vol. I, 1975.

- الرياض: دار الملك عبد العزيز، مكتبة الملك فهد الوطنية).
- لينز، فيلب، (١٤١٩ هـ): رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية، ترجمة محمد الحناش، دار الملك عبد العزيز.
- المشوح، علي بن عبد الرحمن، (١٤٣٠ هـ): نظام الري في عيون السر بالمملكة العربية السعودية، رسالة ماجستير منشورة. الهيئة العامة للآثار والسياحة.
- مغنية، أحمد، ١٩٩٤م: تاريخ العرب القديم، الطبعة الأولى، مطبوعات دار الصفوة، لبنان - بيروت، ١٤١٤هـ.
- الهاشمي، رضا جواد، تاريخ الري في العراق القديم، مجلة سومر، المجلد ٣٩، ج ١ و ٢، ١٩٨٣.
- الهجري، أبو علي، (١٩٦٨م): أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، الرياض، ط ١، ١٣٨٨ هـ.
- وزارة المعارف، إدارة الآثار والمتاحف، (١٩٧٥م): مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، إصدار وزارة المعارف- المملكة العربية السعودية.
- الوليعي، عبد الله بن ناصر. (١٩٩٦). جغرافية هضبة نجد الرسوبية: دراسة لحافتها وأوديتها، الدارة، مج ٢١، ع ٤، ص ٦٧ - ١٤٧.

ثانيًا: المصادر والمراجع الأجنبية

- Al Yahya, E. (Ed.). (2006). Travellers in Arabia: British Explorers in Saudi Arabia. Stacey International Publishers.
- Alamri, Y., & Freshwater, D. The Evaluation of Kingdom of Saudi Arabia Governorate Size Distribution.
- Alghafis, M. F. (2023). *Investigating thermal comfort in vernacular and contemporary houses in Al-Qassim's hot-arid climate: technical, cultural and behavioural factors* (Doctoral dissertation, Cardiff University).
- Digard, J. P. (1980). JC Wilkinson, Water and Tribal Settlement in South-East Arabia. A Study of the Aflāj of Oman. *Homme*, 20(3), 149-150.

العلاقات بين مدينتي ماري الأمورية وخابور الكنعانية

أ.د. فاروق إسماعيل

أستاذ اللغات السامية وحضارات الشرق القديم
جامعة حلب (سابقاً)
الجمهورية العربية السورية



ملخص

كانت مملكة ماري واحدة من أبرز الممالك الأمورية التي ظهرت في مطلع الألف الثاني ق.م، وسادت في معظم مناطق بلاد الرافدين وبلاد الشام. وتميزت ماري بعلاقاتها الواسعة في الشرق والغرب، وبلغت حتى بلاد كنعان في ساحل البحر الأبيض المتوسط. إن المصادر الكتابية التي تضيء تاريخ ماري خلال القرن الثامن عشر ق.م وفيرة جداً، ولكننا لا نجد إلا القليل من النصوص التي تفيد في معرفة الأوضاع في بلاد كنعان آنذاك، وتتميز من بينها مدينة خابور التي كانت مركز مملكة مستقلة في منطقة الجليل الأعلى، شمال شرقي فلسطين، ولكننا لا نعرف مدى اتساع نطاقها الجغرافي. يسعى هذا البحث إلى تعقب الأخبار الدالة على العلاقات بين المدينتين، وبيان طبيعتها، وذلك اعتماداً على المصادر الكتابية المكتشفة فيهما، وتحليلها ومقارنتها. تُبرز الدراسة أهمية ماري كمركز سياسي وتجاري بارز في بلاد الرافدين، حيث امتد نفوذها غرباً إلى بلاد كنعان، بما فيها خابور، التي كانت مركزاً لمملكة مستقلة يحكمها الملك إيني-أدو. تكشف النصوص عن علاقات دبلوماسية وثيقة، تمثلت في تبادل الوفود والرسائل، حيث كانت خابور نقطة تواصل مع ماري عبر مدن وسيطة مثل قطنا وحلب. تضمنت هذه العلاقات تبادل الهدايا، مثل المنسوجات، الحلبي الذهبية، والأواني الفضية والذهبية، مما يعكس ازدهار خابور اقتصادياً وثقافياً. كما تُظهر النصوص اهتمام ماري بالموسيقى، حيث أرسلت موسيقيات إلى خابور، واستقدم موسيقيون أموريون منها. تشير الوثائق إلى زيارة الملك زمري-ليم إلى أوجاريت، التي عززت العلاقات مع خابور، وإلى دعم إيني-أدو لخزينة ماري بمواد ثمينة. يؤكد البحث على الأصول الأمورية المشتركة لسكان ماري وخابور، مما يدعم فرضية الصلة بين الأموريين والكنعانيين.

كلمات مفتاحية:

التاريخ القديم؛ مملكة ماري؛ بلاد كنعان؛ مدينة خابور؛ بلاد الرافدين

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٣ أبريل ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٤ مايو ٢٠٢٥

معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.446414



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فاروق إسماعيل، "العلاقات بين مدينتي ماري الأمورية وخابور الكنعانية". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد السابعون؛ أغسطس ٢٠٢٥. ص ٣٠ - ٤٢.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: faroukism@hotmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان التاريخية للنشر العلمي والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

كانت مدينة ماري مركز مملكة أمورية في الجزيرة الفراتية، اكتُشفت مصادفة في تل الحريري الواقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات على بعد نحو ١١ كم شمال غربي بلدة البوكمال السورية، الواقعة على الحدود مع العراق، وذلك في أواخر ١٩٣٣، ثم بدأت بعثة أثرية فرنسية بالتنقيب فيها، وما تزال أعمالها مستمرة.

كشفت البعثة عن كثير من الآثار العمرانية والفنية المتنوعة، إضافة إلى أرشيف ضخم من الوثائق الكتابية المسمارية، باللغة الأكديّة (البابلية القديمة) نُشرت ضمن سلسلة "الأرشيف الملكي من ماري" Archives Royales de Mari (ARM) بدءاً من ١٩٥٠. وتمت إعادة نشر قسم كبير منها فيما بعد ضمن سلسلة (FM) ومجلة (MARI)، وغيرها. ويعود القسم الأكبر منها إلى ثلاثة عقود ضمن النصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م، حيث توالى على الحكم فيها ملكان، هما: يَسْمَخ-أدو (١٧٩٢-١٧٧٦ ق.م) بالنيابة عن أبيه سَمْسِي-أدو (شَمَشِي-أدد)، زِمْرِي-ليم (١٧٧٥-١٧٦٢ ق.م) الذي يعود القسم الأكبر من نصوص ماري إلى عهده^(١). وموضوعات النصوص متنوعة جداً، أبرزها المراسلات الملكية الداخلية والخارجية، والوثائق الإدارية الاقتصادية.

كان معظم سكان مملكة ماري من القبائل الأمورية التي كانت تنتقل في أطراف البادية السورية، في جبل مارتو (جبل البشري، غربي دير الزور)، وضاف وادي الفرات الأوسط، ثم في الجزيرة السورية العليا. وكانت تلك القبائل تتجمع ضمن إطار اتحادين قبليين كبيرين (بنو سَمَّال، بنو يَمِينا)، وتنسب أنفسها إليهما، بينما أشارت إليها النصوص الأكديّة بتسمية أمورّو التي أضحت مرادفة لاسم جهة الغرب، نظراً لانتشارهم من جهة الغرب نحو مناطق بلاد الرافدين الوسطى والجنوبية والشمالية الشرقية.

أما تسمية "كنعان" فهي تدل على بلاد، يُنسب إليها سكانها "الكنعانيون". وقد ورد أقدم شاهد عليها بدلالة الشعب، لا البلاد في نصوص ماري، وذلك بصيغة kinah(n)um. وتتوافق الأصوات (الصامتة) الأساسية

في الاسم مع الأصوات في صيغة الاسم المتأخرة في النقوش الفينيقية البونية (كنعان)؛ إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الخاء في الأكديّة والأمورية تقابل العين في اللغات "السامية" الشمالية الغربية؛ كما في أسماء كثيرة، مثل: خَمّورابي (عَمّورابي)، خَبْدو (عَبْدو)، خَمَقو (عَمَقو)، خازر (عازر)...

جاء الشاهد في رسالة من قائد عسكري إلى سيده يَسْمَخ-أدو حاكم ماري، يحدثه فيها عن حملة عسكرية إلى منطقة تتجاوز فيها المدن الثلاثة: دوبا، رَخيصو، يَرِيخ، لمحاربة حاكم محلي يُدعى خالو-سَموخ. وحصل آنذاك أن الكنعانيين LU ki-na-ah-nim.MEŠ الساكنين في يَرِيخ هجروها واستقروا في رَخيصو القريبة، بعد أن تعرضت مدينتهم لهجوم، وصارت أطلالاً مهْدَمَةً^(٢).

ويُفترض أن رَخيصو هي المذكورة في مراسلات العمارنة (القرن الرابع عشر ق.م) نفسها، وتقع في القسم الشرقي من سهل البقاع في لبنان، بين الهرمل وبعبك، وقريبة من قادش (تل النبي مُنْد، قرب القصير)^(٣). أما المدينتان دوبا، ويَرِيخ فلا نعرف أخباراً عنهما^(٤).

أما الدلالة الجغرافية للاسم كنعان فتدّ بعد ذلك في نصوص أكديّة من الألاخ (تل عطشانة، نحو ٢٠ كم شرقي أنطاكية في تركيا) تعود إلى القرن الخامس عشر ق.م، وذلك ضمن قوائم بأسماء أشخاص، بينهم من نُسب إلى "بلاد كنعان KUR Ki-in-a-ni / ma-at Ki-in-a-ni"^(٥). ومنها نص السيرة الذاتية للملكها إدريمي الذي سرد فيه ما جرى له بعد اضطراره للهجرة من حلب إلى إيما (تل مسكنة، على الفرات)، ثم إلى بلاد كنعان، عبر البادية السورية، حيث يقول: انطلقت في اليوم التالي، حتى وصلت إلى بلاد كنعان. في بلاد كنعان تقع مدينة أميّا، وفي مدينة أميّا كان يسكن أناسٌ من حلب، أناس من بلاد موكيش، أناس من بلاد نيخي، أناس من بلاد أمأي. عندما رأوني، وتأكدوا من أنني ابن سيدهم؛ تجمعوا حولي، وهكذا صرت عظيماً وحكمت^(٦).

أولاً: السياق التاريخي للعلاقات

إن المسافة بين ماري على الفرات وبلاد كنعان قرب البحر الأبيض المتوسط بعيدة، تبلغ أكثر من ٥٠٠ كم، وتفصل بينهما الأطراف الشمالية من البادية السورية، ومملكة قَطْنَا (تل المشرقة، شمال شرقي حمص)، وربما مراكز حكم أخرى لم تتضح أخبارها لنا بعد. ومع ذلك تشير النصوص إلى علاقات ماري بتلك البلاد خلال عهد الملك سَمْسِي-أدُو (١٧٩٣/١٧٩٢-١٧٧٦ ق.م) الذي أنشأ مملكة واسعة النطاق شملت معظم مناطق شمالي بلاد الرافدين، وأوكل إلى ابنه يَسْمَخ-أدُو الحكم في ماري.

ولكن العلاقات بينهما نشطت أكثر في عهد ملك ماري زَمَري-ليم (١٧٧٥-١٧٦٢ ق.م) الذي استغل فرصة وفاة الملك السابق سَمْسِي-أدُو، فعاد من حلب حيث كان لاجئاً هارباً بعد انهيار حكم أبيه، ولم يلق مواجهة من قوات يَسْمَخ-أدُو، وسيطر على ماري ومنطقة وادي الفرات بسرعة، ثم فرض نفوذه في مناطق الجزيرة السورية العليا، وكسب ولاء معظم حكامها، ومنحهم حرية إدارة شؤونهم الداخلية، مع الالتزام بأوامره في الشؤون الخارجية والعسكرية، وبذلك انقسمت المنطقة إلى عدد كبير من مراكز الحكم.^(١٤)

تشكل لديه جيش قوي، واستطاع قمع تمردات داخلية متفرقة، وفرض سيادته التامة. أما علاقاته الخارجية فكانت في أفضل حال مع حلب مركز مملكة يَمَخَد الحليف الداعم لوصوله إلى الحكم، وجيدة مع قَطْنَا التي هادنها؛ بل سعى إلى تحقيق الصلح بينها وبين حلب.

ولكن الوضع في الشرق لم يكن مستقرًا، فقد دخل منذ السنة الثالثة من حكمه في صراع مع إشنونا (تل أسمر، على نهر دبالا، قرب المقدادية في العراق) مركز مملكة واريو حول مناطق حدودية في بلاد سوخو (وادي الفرات الأوسط في العراق) وحول النفوذ في جنوبي جبل سنجار. وتكررت الحروب بين الطرفين من حين إلى آخر، حتى توترت العلاقات بين إشنونا ومملكة عيلام (جنوب غربي إيران) الداعمة لها من قبل، فاستغل زَمَري-ليم ذلك، وقام في السنة الثامنة من حكمه

وتختلف الآراء حول تحديد الإطار الجغرافي الدقيق لبلاد كنعان، ولعل ما جاء في مراسلات العمارنة يقدم صورة واضحة عن مدى اتساع نطاقه في معظم مناطق ساحل بلاد الشام، إذ يتم الحديث مراراً عن "ملوك بلاد كنعان، بلدان كنعان، مدن بلاد كنعان".^(٧) وتبين رسالة من أبي ملكي حاكم صورِّي (صور) إلى الملك المصري أمنحتب الرابع أن التسمية كانت تشمل أوجاريت، وتمتد شمالاً حتى بلاد دانونا (خليج اسكندرون).^(٨) ويتضح من رسائل أخرى من العمارنة أن السيادة المصرية على البلاد كانت شاملة؛ بدءاً من خَزَتُو (غزة) في أقصى الجنوب.

وتتصل بالاسم كنعان تسمية فينيقيا Phoenicia المشتقة من الكلمة اليونانية Phoinike "الأرجوان، اللون الأرجواني"، وذلك لاشتهار سكان بلاد كنعان بالنسوجات المصبوغة بهذا اللون الأحمر القاني، الذي كانوا يحصلون عليه من أصداف بحرية تحتوي بداخلها رخيئات معروفة باسم المُرِّيَق Murex.^(٩) وهي تسمية متأخرة وردت أول مرة في كتابات الشاعر اليوناني هوميروس (أواسط القرن التاسع ق.م؛ بحسب المؤرخ هيرودوت). أما سكان البلاد فلم يكونوا يسمون أنفسهم فينيقيين؛ بل ينسبون أنفسهم إلى مدنها (جيبلي، صيدوني، صوري...). وكانت تلك المدن كيانات مستقلة صغيرة على شكل إمارات.

أما خصورا،^(١٠) أو خَصُورا Haṣurā (حاصور في كتاب العهد القديم) فتُعد أقدم مدن بلاد كنعان المذكورة في نصوص ماري، وقد تم الكشف عنها في تل القدح في سهل الجليل الأعلى، شمال شرقي صفد في فلسطين منذ زمن بعيد.^(١١) وجرت في الموقع تنقيبات أثرية بإدارة يادين، ثم بن تور، وكشفت عن معظم آثار المدينة التي نشرت ضمن ستة مجلدات،^(١٢) وتضمنت مجموعة صغيرة من النصوص الأكديّة (البابلية القديمة، البابلية الوسيطة) بلغت ١٥ نصاً يتناول موضوعات متنوعة (إدارية، قانونية، رسائل، تعليمية).^(١٣) والملاحظ فيها بوضوح أن معظم أسماء الأشخاص المذكورين فيها أمورية.

الختمية بأن توجهت قوات خَمُورابي ملك بابل نحو ماري واحتلتها، واختفت أخبار زَمَري-ليم وأسرته، ثم عادت قوات خَمُورابي بعد نحو ثلاث سنوات، ودمرت ماري تماماً.^(١٥)

ثانياً: طبيعة العلاقات

أعدّ الباحث الإيطالي بونيشي Bonechi جدولاً جمع فيه الشواهد الواردة في نصوص ماري، التي تأتي على ذكر مدينة خاصورا، فبلغت تسعة عشر،^(١٦) ثم نُشرت نصوص تضمنت شواهد أخرى، وهي نصوص مراسلات ووثائق إدارية تعكس أوجه العلاقات بين المدينتين، ولاسيما خلال حكم زَمَري-ليم في ماري. ويتضح فيها أن خاصورا كانت آنذاك مركز مملكة يحكمها ملك يُدعى إِبْنِي-أدُو. ويمكن تلخيص طبيعة العلاقات بين المدينتين بمجالين يوضحان التنقل بينهما، رغم المسافة البعيدة وصعوباته.

١/٢- وفودُ ورُسُل

يبدأ الحديث عن بعثات مرسلّة من خاصورا إلى ماري ضمن رسالة من الملك سَمَسي-أدُو إلى ابنه يَسَمَخ-أدُو حاكم ماري، تشكل أقدم مصدر عن العلاقات الرسمية الدبلوماسية بين شمالي بلاد الرافدين وبلاد كنعان. يقول فيها:^(١٧)

a-na ia-ás-ma-ah-(d)IŠKUR / qí-bí-ma /
'um¹-ma (d)UTU-ši-(d)IŠKUR / 'a¹-bu-ka-a-ma

5) a-nu-um-ma DUMU.MEŠ ši-ip-ri / LÚ ha-
šú-ra-a-yi(ki) / ù DUMU.MEŠ ši-ip-ri / ša 4
LUGAL 'a¹-[m]u-'ur¹-ri-i / (l)i-šar-li-im
10) ú-ša-ra-kum / [DUM]U.MEŠ ši-ip-ri šu-
nu-ti / a-na qa-at ia-si-im-(d)da-gan DUMU
ši-ip-ri / ša iš-hi-(d)IŠKUR LÚ qa-ṭá-na-yi(ki) /
pí-qí-sú-nu-ti-ma

15) a-na qa-ṭá-nim(ki) / a-na še-er iš-hi-
(d)IŠKUR / li-ir-di-šu-nu-ti

قُل لِيَسَمَخُ أدُو، هكذا يقول سَمَسي-أدُو، أبوك: هاهو إشار-ليم يرسل إليك رُسُل حاكم خاصورا ورُسُل أربعة ملوك أموريين. سلّم هؤلاء الرُسُل ليد يَسيم-دَجَن رسول إشخي-أدُو حاكم قَطُنَا ليقودهم إلى قَطُنَا، إلى إشخي-أدُو.

بتحسين علاقاته مع ملك عيلام، وأرسل هدايا له، كما دعمه بقوات عسكرية لاحتلال إِشْنُونَا في عهد ملكها إيبال-بي-إيل (الثاني).

أما في الجنوب الشرقي فقد كانت العلاقات حسنة مع بابل القوية في عهد ملكها الشهير خَمُورابي حتى بداية السنة الخامسة من حكم زَمَري-ليم، إذ توترت العلاقات بين المملكتين حول مناطق حدودية في بلاد سوخو أيضاً، وجرت مفاوضات بينهما، وظلت المشكلة قائمة من دون مواجهات عسكرية.

في أواخر سنة حكمه التاسعة، قام زَمَري-ليم بزيارة إلى أوجاريت، عبر حلب، واستغرقت الزيارة نحو ثلاثة شهور. وتلقى خلال الرحلة خبر حصول تمرد في أُنْدَرِيح (تل خوشي، ١٤ كم جنوبي سنجار في العراق)، بدعم عيلامي-إشْنُونِي، بعد اتفاق القوتين، وشكّل ذلك تمهيداً لمخطط عيلامي أوسع، بدأ تنفيذه في أواخر السنة، حيث توجهت القوات العيلامية وحلفاؤها نحو الجزيرة السورية العليا، واحتلت شُبْت-إِنْلِيل (تل ليلان، جنوب شرقي قامشلي)، واستمر الاحتلال العيلامي حتى مطلع سنة حكمه الحادية عشرة، وحصلت خلال ذلك اضطرابات وانقلابات وتغييرات بين حكام المراكز السياسية في الجزيرة العليا. ثم كانت المفاجأة بالانسحاب المفاجئ للقوات العيلامية لظهور الخطر البابلي على بقاياها في مناطق إِشْنُونَا، فعادت ونهبت إِشْنُونَا، ثم فرّت إلى بلادها (ARM 26/2, 327).

شهدت سنة حكمه الثانية عشرة تزايد التوتر في منطقة سنجار، بسبب الخلاف حول مدن حدودية، وكان ذلك يضر بمصلحة ماري، فحاول زَمَري-ليم حل المشكلات، ولكنه أخفق. وفضّل حلفاء له التحول إلى التحالف مع ملك بابل. كما تمرد عليه في أقصى الشمال صهره إيبال-أدُو ملك أَشْلُكَا (غربي ماردين في تركيا)، فأُسرع بالسير إليه في حملة ضخمة استمرت حتى سنة حكمه الثالثة عشرة والأخيرة، واحتلها، وهرب صهره.

وبينما كان زَمَري-ليم في حملته تلك حصل صراع حول الحكم في أُنْدَرِيح، وتدخلت قوة عسكرية بابلية ضخمة لدعم وريث الحكم، وبدأت آنذاك بوادر الخلاف المتصاعد بين بابل وماري، وتأجج عندما اختلف ملكا بابل وإشْنُونَا، ووقفت ماري مع الأخيرة، فكانت المفاجئة

[a-na be-lí-i-a] / [qí-b]í-ma / [um-ma] ba-ah-di-li-im / [R]-ka-a-ma

5) a-lum ma-ri^{ki} é-kál-lum ù ha-al-šú-um [š]a-lim / [k]i-ma ša be-lí ú-wa-e-ra-an-ni / [a-na]-k[u] ù ia-si-im-su-mu-ú a-na ma-ri^{ki} / [ni]-ik-[š]u-ud-ma e-si-ik-ti de-ši-im ni-si-ik / a-na e-bu-ri-im ka-ma-sí-im a-hu-um ú-ul n[a]-di

10) [a]s-s[ú]-ur-re-e-ma be-lí ki-a-am i-qa-ab-bi / [um-ma]-a-mi a-na ka-ma-ás e-bu-ri-im / [a-hu-u]m na-di mi-im-ma a-hu-um ú-ul na-d[i] / [i-na-an-n]a a-nu-um-[m]a na-ap-si-e-ra-ah [R be-lí-ia] / [ù DUMU.MEŠ š-i-i]p-ri ša iš-me^dda-gan

15) [a-li-ku-ut i]-di-šu / [a-na še-er be]-lí-ia aṭ-ṭa-ar-[da]m / [ù x DUMU.MEŠ š]i-ip-ri e-[la-mi-i] / [it-ti-šu-nu i-zu]-za-am ú-ul a[d*-di-in-šu-nu-ti] / [ša-ni-tam DUMU.MEŠ š-i-ip-ri-im e-te-eq-[t]um

20) [iš-tu KÁ].DINGIR.RA^{ki} ÈŠ.NUN.NA^{ki} é-kál-la-tim^{ki} / ka-ra-[n]a-a^{ki} qa-ab-ra-a^{ki} / ù ar-ra-ap-hi-im^{ki} ša a-na i[a-am]-ha-ad^{ki} / [q]a-ṭá-nim^{ki} ha-šú-ra-a^{ki} ù [kar*-ka*-mi*-is*^{1ki} / wu-ú-ru i-ka-aš-ša-du-nim

25) ú-wa-aš-sa-ar a-ka-al-la-šu-nu-ti-i / ù šum-ma DUMU.MEŠ š-i-ip-ri iš-tu ia-am-ha-[a]d^{ki} / [qa*-ṭá*-nim*^{1ki}* [ha*-šú*-ra*-a*^{1ki} ù kar-ka-mi-is^{ki} / [ša a-na KÁ.DINGIR.RA^{ki} ÈŠ.NUN.NA^{ki} é-kál-la]-tim^{ki} / [ka-ra-na-a^{ki} qa-ab-ra-a^{ki} ù ar-ra-ap]-hi-im^{ki}

30) [wu-ú-ru i-ka-aš-ša-du-nim] / [ú-wa-ša-ar a-ka-a]l-la-šu-nu-t[i-i] / [an-ni-tam la an-n]i-tam be-lí pu-ru-sà-[š]u / [li-iš-pu]-ra-a[m]

قُل لسيدي؛ هكذا يقول بَحْدِي-ليم، خادمك: مدينة ماري، القصر الملكي، والمنطقة بخير. بحسب ما وجّهني سيدي؛ وصلت أنا وَيَسِيم-سومو إلى ماري، وحددنا أمكنة درس الحبوب، ولا تقصير في جمع المحصول. أخشى أن يفكر سيدي بأن هناك تقصيراً في جمع المحصول. (تأكد) لا يوجد أيّ تقصير إطلاقاً. الآن؛ ها

أرسل الملك رسالته هذه من شُبَّت-إنليل، عاصمته الثانية. وهي تشير بوضوح إلى مسائل مهمة، هي:
- ثمة وفد مُرسل من خصوصاً وغيرها من مراكز الحكم في بلاد كنعان البعيدة إلى الجزيرة السورية العليا.

- ضم الوفد رُسُل خمسة حكام، يوصف أربعة منهم بالملوك، بينما يوصف حاكم خصوصاً وحده بالحاكم،^(١٨) على الرغم من أنه يوصف بالملك في سائر الشواهد النصية الأخرى التي تعود إلى فترة تالية؛ كما سيُمرّ بنا. - هم من منطقة أبعد من قَطُنَا من جهة الغرب، وستكون عودتهم إلى ديارهم عبر ماري ثم قَطُنَا.

- إن وصف الملوك بالأموريين يشير إلى أن سكان بلاد كنعان كانوا أموريين، كما كان سَمْسِي-أدو نفسه، وغيره من حكام شمالي بلاد الرافدين أيضاً.

ويمكن ربط الخبر بما ذكره سَمْسِي-أدو في نقشٍ له اكتُشف في معبد إنليل في مدينة آشور بأنه قام بحملة وصلت حتى بلاد أبو (في محيط مدينة دمشق) ووادي البقاع ولبنان على ساحل البحر العظيم،^(١٩) ومن ثم اقتراح وجود علاقة سببية وتعاقب زمني بين تلك الزيارة وهذه الحملة.

أما في عهد زَمْرِي-ليم فقد بدأت العلاقات الجيدة بين المدينتين في سنة حكمه الثانية، وازدادت بدءاً من السنة السادسة؛ ولاسيما قبيل رحلة زَمْرِي-ليم إلى أوجاريت، وبعدها.^(٢٠) وكثر الحديث في النصوص عن الرُسُل القادمين إلى ماري، أو العابرين لها. كانوا يأتون من الجهات المختلفة، ويبدو أن خصوصاً كانت تشكل الأبعد في جهة الغرب وبلاد كنعان، ويرى بونيشي أنها كانت تمثل الحد الأقصى لانتشار الأموريين.^(٢١) وهو ما يتوافق مع الشواهد المتوافرة حتى الآن.

تضيء ذلك رسالة من بَحْدِي-ليم الذي كان محافظاً لمدينة ماري، ومديراً عاماً لشؤون القصر الملكي، ومن ثم الرجل الأول في المدينة لدى قيام الملك بجولات تفقدية لمناطق حكمه، والخاضعة لنفوذه، أو بحملات عسكرية. يتلقى منه التوجيهات، ويوافيه بالمستجدات. كتب إليه يقول:

خاصورا منذ مدة، ويرافقهما رجل من خاصورا فقد تابعوا طريقهم إلى بابل.

(١٨) لاوي-إيل خادم سيدي، ومرافقه خَبَدو-بَحَلَّا من قَطْنَا متجهان نحو سيدي، أما الرُّسُل البابليون ... ويرافقهم رجل من قَطْنَا فقد تابعوا طريقهم إلى بابل. ARM 6, 78; LAPO 16,) (Nr. 390).

وتشير إلى ذلك رسالة من بابل أرسلها مندوب زَمَري-ليم إلى ملكها خَمُورابي، يتضح فيها أن الملك البابلي كان أرسل ابنه الكبير إلى ماري، على الأرجح لتعلم أمور معينة، ثم أرسل الثاني، وطلب أن لا يسكننا معاً؛ وإلا يجب إرسال الأخير من ماري إلى يَمَخَد أو إلى قَطْنَا. ثم يعلم سيده بأنه قادم، ومعه رُسُل من مناطق عديدة سيعبرون ماري، منهم رسول حاكم خاصورا. يقول:

a-na be-lí-ia / qí-bí-ma / um-ma ia-ri-im-
 'IŠK[UR ÌR-ka-a-m]a / 'ha-am-mu-ra-bi 'mu-
 tu-nu-ma-ha¹-a DUMU-šu

5) a-na še-er be-lí-ia [iṭ-ru-dam] / ù a-na be-
 lí-ia ki-a-am i[š-p]u-ra-am / um-ma šu-ú-
 ma i-na pa-ni-tim šú-ha-ra-am ra-bé-em / a-
 na še-ri-ka aṭ-ru-da[m] / ma-ah-ri-ka wa-ši-
 ib i-na-an-na a-nu-'um-ma¹

10) 'a-ha-šu¹ aṭ-ṭar-da-ak-kum / [šú²-k]u²-
 un pu-h[u-u]r la wa-ša-bi-im / [...] x x /
 [...] x x / [šú²-ri²-i]b-šu² ú²-la²-šu-ma

15) [ú-l]u a-na ia-am-ha-ad^{ki} / ú-lu-ma a-
 na qa-ṭá-nim^{ki} / a-šar ni-iṭ-li-ka LÚ.TUR ša-a-
 tu / ṭú-ru-ud / an-ni-tam ha-am-mu-ra-bi

20) a-na še-er be-lí-ia [iš]-pu-ra-am / 'ma-
 nu-ú-um GÌR.SIG₅.GA it-ti LÚ.TUR ša-a-tu / i-
 la-ak 'da-di-ia DUMU da-mi-iq-ì-lí-šu / a-lik i-
 di-ia ù DUMU.MEŠ šì-ip-ri LÚ kur-da-yu^{ki} /
 LÚ an-da-ri-ga-yu^{ki} LÚ ka-ra-na-yu^{ki}

قد أرسلت نَبَّسي-إراخ خادم سيدي، وبرفقته رُسُل
 إِشَمي-دَجَن، إلى سيدي، ولكني لم أسمح بمشاركة
 الرُّسُل العيلاميين لهم.

(١٩) أمرُ ثان؛ لقد وصل إلي رُسُل عابرون قادمون من
 بابل، إِشَنُونَّا، إِكَلَّاتو، كَرَانَا، قَبْرَا، وَأَرَبَخَا متجهون نحو
 يَمَخَد، قَطْنَا، خاصورا، وكَرَكَمِيش، فهل أسمح لهم، أم
 أحتجزهم؟ وإن وصل إلي رُسُل من يَمَخَد، قَطْنَا،
 خاصورا، وكَرَكَمِيش متجهون نحو بابل، إِشَنُونَّا، إِكَلَّاتو،
 كَرَانَا، قَبْرَا، وَأَرَبَخَا، هل أسمح لهم، أم أحتجزهم؟ ليقرر
 سيدي ويكتب إلي، في أية حال (ARM 6, 23). (٢٢)

وتؤكد رسالة أخرى من بَحَدِي-ليم إلى زَمَري-ليم
 نشوء علاقات بين خاصورا وبابل أيضاً، وتوضح أن رُسُل
 خاصورا كانوا يتابعون طريقهم إلى بابل أيضاً، كما كان
 الرُّسُل البابليون يسيرون إلى خاصورا. يقول:

[a-na] be-lí-ia / [qí]-bí-ma / [um-ma] ba-a[h-
 di-l]i-im / [ÌR-ka-a]-ma

5) [ṭe₄-hi-tum iš-tu ha-šú-r]a-a^{ki} / [ù qa-ṭá-
 nim^{ki} ik-šu-d]am / [...] x / [o] x x x [o] / [ÌR-
 du.MEŠ be-l]í-i[a]

10) [ù ... LÚ ha-š]ú-ra-a^{ki} / [a-li-i]k i-di-[šú-
 nu] / [a]-na še-er be-lí-i[a] /
 2 DUMU.MEŠ šì-ip-ri LÚ KÁ.DINGIR.[RA^{ki}] /
 ša iš-tu pa-na i-na ha-šú-[r]a^{o^{ki}}

15) wa-aš-bu ù 1 LÚ ha-šú-ra-a^{ki} / [a]-li-ik i-
 di-šu-nu a-na KÁ.DINGIR.RA^{ki} / [i]-ti-qú /
 [']la-wi-DINGIR ÌR be-lí-ia / [ù h]a-ab-du-ba-
 ah-la LÚ qa-ṭá-nim^{ki}

20) [a-li]-ik i-≤di≥-šu a-na še-er be-lí-ia /
 [x DUMU].MEŠ šì-ip-ri LÚ KÁ.DINGIR.RA^{ki} /
 [ù 1 LÚ] qa-ṭá-nim^{ki} / [a-li-i]k i-di-šu-nu / [a-
 na KÁ].DINGIR.RA^{ki} i-ti-qú /

قُل لسيدي؛ هكذا يقول بَحَدِي-ليم، خادمك: وصلت
 إليّ بعثة من خاصورا وقَطْنَا. خادما
 سيدي، ويرافقهما ... (من) خاصورا متجهون نحو
 سيدي. أما الرسولان البابليان اللذان كانا يقيمان في

كنعان، مما يشير إلى أهمية مكانة خاصورا وملكها لديه.
يقول:

[a-na be-lí-ia] / [qí-bí-ma] / [u]m-m[a] R-ì-lí-
šu / ÌR-ka-a-m[a]

5) aš-šum DUMU.MUNUS.NAR ha-ab-du-
ma-li[k] / iš-ťú-ra-am um-ma-
m[i] DUMU.ʾMUNUS.NAR¹ i-di-in /
DUMU ši-ip-ri-im ʾhaʿ¹-š[úʿ]-ʾru¹ / x-x-
ki x x x x ik

10) [...] x [...] / / [o o o o] li-ší-ma
.... um-ma-mi [DUMU.MUNUS.NAR maʿ-
daʿ-tumʿ še₂₀-b]i-tam i-hu-za / ù i-na li-ib-
bi DU[MU].MU[NUS.N]A[R.MEŠ ši-na]-ti /
3 DUMU.MUNUS.MEŠ aš-ta-le-tum / ù be-
lí a-na ha-šú-ra-a^{ki}

5') iq-bi-ši-na-ti / [wu]-di i-na li-ib-
bi DUMU.MUNUS.MEŠ ši-na-ti /
[1 DU]MU.MUNUS i-la-pa-tu-ma ši-it-r[u-
u]m / [is-s]à-ap-pa-ah i-na-an-n[a šum-
ma li-bi] / [be-lí]-ia a-di mi-[iš-la-nim^{ki}]

10') [ši-it-r]uʿ-um šu-ú [o o o o] x /
[o x] x [o o o o o]

قُل لسيدي؛ هكذا يقول وَرَد-إيليشو، خادمك: كتب
خَبْدو-مالك بخصوص فتاة موسيقية إليّ، قائلاً: "قدّم
فتاة موسيقية، رسول مدينة خاصورا لتغادر
....."

.... قائلاً: ثمة فتيات موسيقيات كثيرات تعلّمن
العزف على القيثارة الصغيرة (šebīt(um)، ومن بين تلك
الفتيات الموسيقيات هناك ثلاث متميزات، وقد وعد
سيدي بإرسالهن إلى خاصورا. أخشى أن يتم تحديد
واحدة من بين تلك الفتيات الموسيقيات، فتتفرّق الفرقة
الموسيقية. الآن؛ إن يرض سيدي؛
فلا..... هذه الفرقة الموسيقية
حتى (ميشلان؟) (FM 9, 41).

وكان زَمَري-ليم مهتماً بتتويع الخبرات الموسيقية،
ويستقدم موسيقيات من بلاد بعيدة؛ مثل عيلام (FM 9,

25) LÚ qa-ťá-na-yu^{ki} ù LÚ ha-šú-ra-yu^{ki} /
ša it-ti-ia wu-ú-ru / [i]-nu-ma a-na še-er be-
lí-ia ak-ta-áš-dam / ʿte₄-ma-am ka-la-šu /
ma-ha-ar be-lí-ia a-ša-ak-ka-a[n]

قُل لسيدي؛ هكذا يقول يَريم-أَدُو، خادمك: خَمّورابي
أرسل ابنه موتو-نُمَخّا إلى سيدي، وكتب إلى سيدي ما
يأتي: أرسلت إليك فيما مضى ولدي الكبير (البِكْر)، وهو
مقيم لديك. الآن؛ هأنذا أرسل إليك أخاه. حدد لهما
عدم الإقامة معاً، أدخله، وإلّا أرسل
هذا الفتى إلى يَمَخْد أو إلى قَطْنَا، حيثما تراه مناسباً.
هذا ما كتب خَمّورابي إلى سيدي.

(٢١) سيذهب مانو الخادم المخصّي مع هذا الفتى.
دادياً بن دامق-إيليشو سيكون مرافقي، ورُسُل حاكم
كُرّدا، حاكم أُنْدَرِيح، حاكم كَرّانا، حاكم قَطْنَا، وحاكم
خاصورا الذين معي تلقوا الأوامر (بالسير أيضاً). عندما
أصل إلى سيدي؛ سأضع الأخبار كلها أمام سيدي
(ARM 26/2, 375).

واشتهرت ماري بازدهار بالاهتمام بالموسيقا وتعليمها
ضمن معهد خاص، ووجود فرق موسيقية (šitrum)
فيها، تقيم نشاطات موسيقية في المناسبات الرسمية
والدينية. وكان جناح النساء في القصر الملكي يضم عدداً
كبيراً من الموسيقيات، كن يتابعن التعلم والتدريب، وقد بلغ
عددهن في عهد الملك زَمَري-ليم نحو مئتين.^(٢٣)

وكان كبير الموسيقيين (في الأكديّة: (nargall(um)
يتمتع بمكانة رفيعة في القصر الملكي تجعله مقرباً من
الحاكم، ويحظى بثقته، ويكون في مرتبة مماثلة لكبار
القادة العسكريين والموظفين الإداريين. ومن أبرزهم
وَرَد-إيليشو الذي أرسل رسائل كثيرة إلى الملك زَمَري-
ليم، يتضح فيها أن الملك كان يتابع عمل وَرَد-إيليشو
التدريبي بدقة، ويؤكد له مراراً على عدم الإهمال، ويريد
أن يرى نتائج متميزة، ويتدخل في شؤون التعليم
الموسيقية، ويطلب نقل المتدربات من مكان إلى آخر.

وكان وَرَد-إيليشو ينفذ أوامره، ولا يجروّ على
مخالفته صراحة رغم عدم قناعته، بل يدافع عن
مصلحة عمله الموسيقي بخشية؛ كما في حالة طلب الملك
إرسال عازفات متميزات إلى مدينة خاصورا في بلاد

20') ar-hi-iš a-na Má-rí^{ki} li-ik-šu-da-ni / hí-ti-tum mi-im-ma ib-ba-aš-ši-ma / TU.IŠ (= iš-tu) URU Má-rí^{ki} qa-ti ik-ta-aš-du / pa-nu-ia a-na li-ib-bi É.GAL.HÁ / a-na ni-qé-tím ù i-si-na-tim

25') e-pé-ši-im ša-ak-nu / a-na šu-te-er-si-im a-ah-ku-nu la ta-na-de-e / [x x x x x h]a-ri-ša-am li-iš-šú-r[u] /

... ليوصلوا إليّ (ما سبق) إلى ماري بسرعة. لا أريد أن يكون هناك أيّ نقص. بعد أن أصل إلى مدينة ماري؛ أنوي التوجّه إلى إكلّاتو كي أشارك في تقديم الأضاحي والاحتفالات. لا تهملوا التحضيرات. ليحموا بشكل^(٢٥)

وثمة رسالة مميزة من يريم-ليم ملك حلب إلى زمري-ليم تتحدث عن صائغ من خاصورا عدّه سكانها محتالاً هارباً، وأعلموا ملك حلب أن زمري-ليم يؤويه في ماري ليتوسط في المشكلة، بيد أن زمري-ليم تحقق من أمره ووجد أنه بريء، وراح يعاتب الملك الحلبي على مطالبته بعودة رجلٍ "لجأ إليّ؛ مثل الطائر الفار من طائر جارح"، ويوضح له الحقيقة، يقول:

a-na [ia-r]i-im-li-im / qí-bí-ma / 'um-ma' zi-[im]-ri-li¹-im / [DUMU]-ka-a-ma

5) aš-šum LÚ.SIMUG.A ki-a-am ta-aš-pu-r[a-a]m / um-ma at-ta-'a-ma' LÚ šu-ú / i-na ha-šú-ra-a^{ki} KÙ.BABBAR KÙ.GI ù NA₄ / da-mi-iq-tam it-[b]a-la-am-ma a-na še-ri-ka / it-ta-al-kam 'ù¹ [L]Ú.MEŠ ha-šú-ra-yu^{ki}

10) ANŠE.HI.A ù ša-ba-a[m] ša a-na tam-ka-ru-tim / il-lu ka-lu-ú um-ma-a-mi LÚ SIMUG.A / KÙ.BABBAR KÙ.GI ù NA₄ da-mi-iq-tam / it-ba-al-ma a-na še-er zi-im-ri-li-im / it-ta-al-kam an-ni-tam ta-aš-pu-ra-am

15) mi-im-ma LÚ šu-ú / KÙ.BABBAR KÙ.GI ù NA₄ da-mi-iq-tam / a-na še-ri-ia / ú-ul ub-la-am / LÚ ša-a-tu i-na i-ma-ar^{ki}

21)، وبلاد سوبارتو (ARM 10, 126)، وكان معجباً بغناء نساء بني يميناً (FM 9, 46). ولذلك أراد أحد موظفي القصر الملكي أن يفرحه فأعلمه بأن الوفد الذي يرافق ملك خاصورا القادم إلى ماري يضم موسيقيين، يصفهم بالأموريين. كتب إلى سيده زمري-ليم، يقول:

[a-na be-l]í-ia / [qí-bí]-ma / [um-ma ma-n]a-ta-an / [ìR-ka-a]-ma

5) [a-lum ma-ri^{ki}] é-kál-lum / [É.HI.A DINGIR.MEŠ n]e-pa-ra-tum / [ù a-na ma-ša-ra-a]tš-tiž-ia 'šu¹-ul-mu-um / [tə₄-hi-tum iš]-tu ha-šú-ra^{ki} / [ik-šu]-dam

10) [ib-n]i-^dIŠKUR / [ìR be-l]í-ia / [']ha-ab-di-e-ra-'ah¹ / [1 L]Ú ha-šú-ra^{ki} / [a-li]k i-di-šu

15) [ù] 3 LÚ.NAR.MEŠ [MA]R.TU / [it]-ti-šu a-na 'še-er¹ be-lí-ia / [']ia-ar-pa-^dIŠKUR / 'ù¹ ki-ib-sí-^dIŠKUR / '2¹ LÚ.'MEŠ¹ qa-tá-nim

20) a-na ma-ri^{ki} ik-šu-du-nim

قُل لسيدي؛ هكذا يقول منتان، خادمك: مدينة ماري، القصر، المعابد، السجون، والمخصصون لحراستي بخير. وصلت بعثة من خاصورا، (يقودها) إبني-أدو خادم سيدي، يرافقه خبدي-إراخ رجل من خاصورا، ومعه ثلاثة موسيقيين أموريين في طريقهم إلى سيدي. (كما أن) يربا-أدو وكبسي-أدو، الرجلين اللذين من قطننا وصلا إلى ماري (أيضاً) (FM 3, 143).^(٢٤)

وثمة نص مكتشف في خاصورا نفسها يمكن ربطه بهذا الحدث، واستخلاص أن إبني-أدو كان يرغب في القاء في ماري فترة، ثم المتابعة إلى إكلّاتو. النص هو جزء من رسالة مقدمتها وخاتمها مفقودتان، لذلك لا نعرف اسمي المتراسلين، ولكن السياق يلمح إلى أن المرسل هو ملك خاصور، أرسلها عندما كان في ماري، وطلب موافاته بأعداد كبيرة من المنسوجات، من أنواع مختلفة، وبقطع خشبية الصنع (السطور ١-١٩)، ثم يوضح الهدف، فيقول:

تركت هذا الرجل، وسمع بعد ذلك أني تركت هذا الرجل،
كيف إذن سيلجأ الناس إلى الكاهنة الداعية؟
(٣٥) إن شاء أبي، فأمل ألا يطالب بهذا الرجل.
ممتلكات هذا الرجل، كل ما نقله من خصوصاً محتجز
في إيمار. ليرسل أبي أحداً إلى إيمار، كي يستلم
ممتلكات هذا الرجل ويأخذها إلى أبي.^(٢٦)

٢/٢-حُسن الضيافة، وتبادل الهدايا

تعكس الوثائق الإدارية المكتشفة في ماري حسن
العلاقات بين المدينتين، وكثرة الرُّسل الذين وفدوا من
خصوصاً إلى ماري، لأغراض غير واضحة. وتشير
النصوص إلى أنهم كانوا يحلون في ضيافة القصر
الملكي، ويلقون التكريم ويشاركون الملك وحاشيته في
تناول الطعام؛ مثل الرُّسل القادمين من كبرى ممالك
المنطقة (بابل، إشنونا) وحكام الجزيرة السورية العليا
(ARM 12, 747; ARM 23, 243)، ويسهرون معه في
جلسات شرب الخمرة (FM 11, 42). كما يستلمون
كميات من الفضة هدية.^(٢٧)

وثمة جدول بالحيوانات المسلمة في خصوصاً، بلغت
٨٤ رأساً من الأبقار والعجول، و١١ من البغال والجحاش
والأُتُن، وذلك خلال سنة زِمَري-ليم السابعة
(ARM 23, 505). وتفصل وثيقة إدارية طويلة في
الحديث عن سبائك من القصدير، مستوردة من بلاد
عيلام، لتلبية مستلزمات القصر الملكي، ولإهداء. منها
كمية "مخصصة لخصوصاً، عبر وسيط يدعى أدّي-أدو"
وأخرى ليريم-ليم ملك يَمَخَد (ARM 7, 236; ARM
25, 16, 632).^(٢٨)

كانت زيارة زِمَري-ليم إلى أوجاريت، ومعه وفد كبير،
منعطفاً مهماً في العلاقات بين ماري وحكام بلاد كنعان.
انطلق الوفد في الأسبوع الأخير من سنة حكمه التاسعة،
وعندما وصل إلى حلب انضم إليه ملكها والأسرة الملكية،
لأن أوجاريت ومناطقها الشرقية كانت خاضعة لنفوذ
مملكة يَمَخَد آنذاك، وساروا إلى أوجاريت جميعاً،
واستغرقت الزيارة نحو ثلاثة شهور، إذ عادوا ووصلوا
ماري في اليوم الثامن عشر من الشهر الثالث من السنة
التالية (١٧٦٧-١٧٦٦ ق.م).^(٢٩)

20) iṣ-ba-tu-ma ú-ba-zi-'u₅-šu / ù mi-im-
ma ša na-šu-ú / i-ki-mu-šu° ku-nu-ka-am /
ša a-na KÙ.BABBAR LÚ šu-ú i-ša-mu / it-ba-
lu-šu ù LÚ šu-ú i-na pa-an

25) na-pí-[i]š-tim a-na še-ri-ia / ú-še-em i-
na-an-na a-[b]i aš-šum LÚ ša-a-/tu / iš-pu-
ra-am-'ma¹ a-na tu-ur LÚ { ŠA A-NA } / ša a-
na e[m i]-šú-ri-im / ha-zi-i[p-ti]m ša i-na pa-
an ka-su-si-im

30) [h]u-zu-pa-at-ma / a-na še-ri-[i]a iq-ṭe₄-
em / ù LÚ [ša-a-t]u ú-wa-aš-ša-ar / ù LÚ ša-
a-tu ú-wa-aš-ša-ar-ma wa-ar-ku-um / [i-še-
e]m-me-ma ki-ma a-n[a k]a-ri-[i]b-'tim¹

35) [i-q]a-aṭ-ṭe₆-em šum-ma li-ib-bi a-bi-ia-
ma / [LÚ] ša-a-'tu¹ a-bi la i-ha-aš-ši-ih [b]a-
ši-it LÚ ša-a-tu / mi-im-ma ša i-na ha-šú-ra-
a^[ki] / it-ba-lu i-na i-ma-ar^{ki} / [lu-ú ik-k]a²-
'li²-ma a-bi

40) [a-na] i-ma-ar^{ki} li-iš-pu-ur-ma / [ba-š]i-
it LÚ ša-a-tu a-na še-er ša / [pa-a]n a-bi-ia li-
il-qú-ú

قُل ليريم-ليم؛ هكذا يقول زِمَري-ليم، ابنك: كتبت
إليّ بخصوص الرجل الصائغ ما يأتي: "هذا الرجل أخذ
من خصوصاً فضة وزهباً وحجارة نفيسة، وسار إليك.
والناس في خصوصاً يحتجزون الحمير والجموع التي
تتجه نحونا للتجارة، قائلين: لقد أخذ الصائغ فضة
وزهباً وحجارة نفيسة، وسار إلى زِمَري-ليم". هذا ما
كتبت إليّ.

(١٥) (أقول:) هذا الرجل لم يجلب إليّ أية فضة أو
ذهب أو حجارة نفيسة إطلاقاً. لقد قبضوا على ذلك
الرجل في إيمار، وأسأؤوا إليه، وسلبوه كل ما كان يحمله،
أخذوا منه الختم الذي يثبت أنه اشترى (ما معه)
بالفضة أيضاً، وكاد الرجل أن يلقي مصيره بالقتل فهرب
إليّ.

(٢٦) الآن؛ كتب أبي إليّ عن ذلك الرجل مطالباً بعودة
رجلٍ لجأ إليّ؛ مثل الطائر الفار من طائر جارج! فلو

وبالمقابل؛ تم إرسال كثير من الهدايا المتنوعة إلى
إبني-أدو حاكم خاصورا؛ كما جاء في وثيقة إدارية من
عهد زَمري-ليم:

[x] DUG² GEŠ[TIN²] / [1] GÚ KIŠIB.HI.[A] /
ŠÀ.BA 8^{na}[KIŠ]IB ZA.G[ÌN] /
7 KIŠIB K[Ù].GI pí-t[u]-šu
5) ITI li-li-ia-tim¹ U₄ 18.KAM /
'A.RÁ 2².KAM / [...]-'x¹-ia-'x-x¹ /
2 'GÚ¹ [...] / šu-bu-'la²-tum / a-na ib-ni-
'dIŠKUR¹ LUGAL ha-š[ú-ra-a]^{ki}

... جرّة من الخمر، عقد للعنق من الخزرات
الأسطوانية، يضم ثماني خزرات من اللازورد، وسبع
خزرات من الذهب تشكل مشبكاً له. في شهر ليلياتو
(الشهر التاسع)، اليوم التاسع عشر، للمرة الثانية
..... عقدان مرسلان إلى إبني-أدو ملك
خاصورا (ARM 32, p. 456).

وازداد تبادل الهدايا بين الملكين في أواخر حكم
زَمري-ليم هدايا إلى إبني-أدو (منسوجات متنوعة)
خلال سنتي حكم زَمري-ليم العاشرة والحادية عشرة،
في خَزَزار ha-za-za-ar، وفي أوجاريت. كما يتحدث
نص طويل عن أن زَمري-ليم أهداه منسوجات،
ومصنوعات جلدية، وأوان، أما إبني-أدو فخصه مراراً
بأثواب ووشاح mardatum منسوب إلى مدينة
جَبَلَا.^(٣١)

تلقى زَمري-ليم خلالها هدايا من حكام مدن عديدة،
مثل حلب، مُزُتو، لياشو، ومن إبني-أدو ملك خاصورا في
خَزَزار (ARM 23, 556). وتذكر نصوص أنه تلقى
"أواني ذهبية مقدّمة من إبني-أدو ملك خاصورا، ومن
يريم-ليم ملك يَمَخَد، خاتم مرصع بالذهب من السيدة
جَشِيرَا، لازورد" (ARM 21, 252; ARM 25, 39,)
(48; ARM 31, 161)، وأن إبني-أدو أرسل إليه أواني
من الذهب والفضة؛ كما جاء في النص الآتي: (ARM
25, 43; ARM 31, 159: 9-15).

1 hu-ul-lu KÙ.GI
10) 1/3 MA.NA 9 2/3 SU KI.LÁ.BI / 3 GAL ki-
ir-ru KÙ.BABBAR / 1 MA.NA 1 SU KI.LÁ.BI /
MU.DU ib-ni-'dIŠKUR / LUGAL ha-šú-ra-a^{ki}
15) i-na ú-ga-ri-tim^{ki}

وتميزت القلائد الذهبية التي كانت ترد من خاصورا
بأشكالها وزخارفها؛ لذلك نجد أن أَسْقَر-أدو ملك كرانا
(تل عفر أو تل خميره، جنوب غربي الموصل) تسلم قلادةً
للعنق وزنها نصف مانا (حوالي ٢٥٠ غ) من الذهب،
خلال سنة حكم زَمري-ليم الأخيرة، وُصفت بأنها
"خاصورية ha-šú-ra-yu" (ARM 32, p. 404).

ومن اللافت للانتباه نص يوثق تقديم إبني-أدو
الدعم لخزينة الملك زَمري-ليم في موقع يُسمّى مَحْرَابَا:

1 GAL gu-ul-lu KÙ.GI /
1/2 MA.NA 1 SU IGI.4.GÁL KI.LÁ.BI /
MU.DU ib-ni-'dIŠKUR / LUGAL ha-š[ú-ra-a]^{ki}
5) te-er-di-tu[m] / a-na^{gi}PISAN LUGAL / i-
na ma-ah-ra-[b]a²-a^{ki} / ITI a-bi-im /
U₄ 1.KAM
10) MU zi-im-ri-li-im / ^{giš}GU.ZA GAL a-
na^dIŠKUR / ša ma-ha-nim^{ki} / ú-še-lu-ú

إناء من النوع gullu، من الذهب، بزنة نصف مانا
وسو واحد وربع قدّمه إبني-أدو ملك خاصورا دعماً
لخزينة الملك في مَحْرَابَا.^(٣٢) في اليوم الأول من شهر
آب، السنة التي أقام زَمري-ليم عرشاً للمعبود أدو في
موقع مَخَانو (ARM 25, 103; ARM 31, 163).

خاتمة

إن أول ما يثير الانتباه هو مدى اتساع علاقات مملكة ماري على الفرات نحو الغرب حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط؛ حيث برزت ثلاث قوى سياسية أساسية، هي أوجاريت وجبلاً وخصوصاً، وتبرز الأخيرة بينها من حيث دوام حركة الوفود وتبادل الهدايا طوال فترة حكم زَمَري-ليم في ماري، وقيام إِبني-أدو ملك خاصورا بزيارة ماري؛ بل ورغبته في المتابعة نحو الشرق إلى إكلّاتو، قرب آشور. وتعكس النصوص شهرة خاصورا بأنماط المنسوجات، وقد استمر ذلك في العصور اللاحقة؛ كما يظهر في مراسلات العمارنة.^(٣٢) كما اشتهرت بتصنيع الحلي والمجوهرات؛ مما يشير إلى حالة الغنى والازدهار فيها.

كان معظم سكان مملكة ماري من القبائل الأمورية. ومرّ بنا في رسالة الملك الأموري سَمسي-أدو إلى ابنه أنه وصف الوفد القادم مع حاكم خاصورا بأنهم ملوك أموريون، مما يشير إلى أن سكان بلاد كنعان كانوا أموريين أيضاً، ويؤكد ذلك أن معظم أسماء الأشخاص المذكورين في النصوص المكتشفة في خاصورا أمورية أيضاً.

ويثير هذا الحاجة إلى المزيد من البحث في النظرية التي طرحها باور Bauer حول الصلة بين الشعبين؛ الأموري والكنعاني، وقد اقترح إطلاق تسمية "الكنعانيون الشرقيون" على الأموريين في سوريا الداخلية والجزيرة الفراتية وبلاد بابل.^(٣٣) ويتصل بهذا الرأي القول بأن الموطن الأم الذي انتشر وتوسع منه الأموريون هو المنطقة الواقعة بين المنطقة الجبلية، شرقي أوجاريت (رأس شمرا، قرب اللاذقية) حتى جبل البشري؛ أي المناطق السورية الداخلية.^(٣٤)

مختصرات منشورات النصوص الواردة في البحث:

- AHW = von Soden, W. (1959-1981) Akkadisches Handwörterbuch. Otto Harrassowitz, Wiesbaden.
- ARM 6 = Kupper, J.-R. (1954) Correspondance de Baḫdi-Lim, Imprimerie nationale, Paris.
- ARM 7 = Bottéro, J. (1957) Textes économiques et administratifs, Imprimerie nationale, Paris.
- ARMT 10 = Dossin, G. (1978) La correspondance féminine, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris.
- ARM 12 = Birot, M. (1964) Textes administratifs de la Salle 5 du Palais, 2e partie, Paris.
- ARM 21 = Durand, J.-M. (1983) Textes administratifs des salles 134 et 160 du palais de Mari. transcrits, traduits et commentés. Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris.
- ARM 23 = Bardet, G. (1984) Archives administratives de Mari I. Éditions Recherche sur les Civilisations, Paris.
- ARM 25 = Limet, H. (1986) Textes administratifs relatifs aux métaux. Éditions Recherche sur les Civilisations, Paris.
- ARM 26/2 = Charpin, D. – F. Joannes – S. Lackenbacher – B. Lafont (1988) Archives épistolaires de Mari I/2, Éditions Recherche sur les Civilisations, Paris.
- ARM 31 = Guichard, Michael (2005) La vaisselle de luxe des rois de Mari, matériaux pour le Dictionnaire de Babylonien de Paris, tome II. Éditions Recherche sur les Civilisations, Paris.
- ARM 32 = Arkhipov, Ilya (2012) Le vocabulaire de la métallurgie et la nomenclature des objets en metal dans les textes de Mari. ARM 32, Matériaux pour le Dictionnaire de Babylonien de Paris, Tome III, Peeters, Leuven-Paris-Walpole, MA.
- CAD = Oppenheim, A. L. et al. (1956-) The Assyrian Dictionary of the University of Chicago. Chicago & Glückstadt.
- FM 3 = Charpin, D. – J.-M. Durand (Ed.) (1997) Recueil d'études à la mémoire de Marie-Thérèse Barrelet. Florilegium

الإحالات المرجعية:

- (1) Charpin, D. (2008) L'historien face aux archives paleo-babyloniennes. The conference: Too much data? Generalizations and model-building in ancient economic history on the basis of large corpora of documentary evidence was held July 16-17, 2008 at the University of Vienna. p.15.
- (2) Dossin, G. (1957) Kengen, pays de Canaan. RSO 32, pp. 37-38; Dossin, G. (1973) Une mention de Cananéens dans une lettre de Mari, Syria 50, pp. 277-282; Durand, J.-M. (1987) Villes fantômes de Syrie et autres lieux, MARI 5, pp. 199-234; LAPO 17, Nr. 456.
- (3) RGTC 12/2, p. 235.
- (٤) تجدر الإشارة إلى أن الاسم يَرِيخو/ يَرِيخ المذكور في نصوص ماري هو لقبيلة كبيرة من بني يَمِينَا الذين كانوا يستوطنون مناطق عديدة (سَجَّارَاتو، قَطُونان، زَلْمَاقو، جبل البشري، بلاد سوخو في وادي الفرات الأوسط). راجع:
- Anbar, M. (1991) Les tribus amurrites de Mari. OBO 108, Fribourg, Göttingen. pp. 83-115; Millet-Alba, A. (2004) La localisation des terroirs benjaminites du royaume de Mari. In: C. Nicolle (Ed.), Nomades et sédentaires dans le Proche-Orient ancien (compte rendu de la XLVIe RAI (Paris 10-13 juillet 2000), Amurru 3, Éditions Recherches sur les Civilisations, Paris pp. 225-234; MTT I/1, pp. 408-409.
- (5) Wiseman, D. J. (1953) The Alalakh Tablets, The British Institute of Archaeology at Ankara, London. Nr. 154, 181, 188.
- (6) Ibid, Nr. 18, 19.
- (٧) إسماعيل، فاروق (٢٠١٠). **مراسلات العمارة الدولية**. الرسائل: ٣، ٩، ١٠، ١٣١، ١٣٧.
- (٨) المرجع نفسه. الرسالة ١٥١.
- (٩) إسماعيل، فاروق عباس – تمام مصطفى الأيوبي (٢٠١٣): **كتابات أبجدية قديمة**. منشورات جامعة حلب، ص ٦١.
- (١٠) الاسم أموري، بمعنى "حظيرة"، بدأ ظهوره في نصوص ماري، ثم انتشر استخدامه قليلاً في نصوص العصر البابلي الحديث، وصار يدل على المكان المسور الذي تجمع فيه الحبوب والتمور. راجع: AHw, p. 331; CAD/H, p. 130; Streck, M. P. (2000) Das amurritische Onomastikon der altbabylonischen Zeit. AOAT 271/1, Ugarit-Verlag, Münster. pp. 94-95.
- وتجدر الإشارة إلى أننا نجد الاسم "خاصورا" في الدراسات العربية بصيغة خازور أو حازور، ولكننا تقيدنا بالأصل، ونؤكد أطراد مدّ آخره في الشواهد النصية.
- (11) RGTC 3, 93; RGTC 12/1, 118; MTT I/1, 129-130.
- وتجدر الإشارة إلى وجود موقع آخر مذكور ضمن نصوص ماري بالاسم نفسه، يقع بين تَرَقَا وسَجَّارَاتو، قرب مصب نهر الخابور في الفرات. راجع: إسماعيل، فاروق (٢٠٢٤) **المشترك لفظاً والمختلف موقعاً من أسماء**
- Marianum II. Mémoires de NABU 4, Paris.
- FM 9 = Ziegler, N. (2007) Les Musiciens et la musique d'après les archives de Mari. Florilegium Marianum IX. Mémoires de NABU 10, Paris.
- FM 11 = Chambon, G. (2009) Les Archives du vin à Mari. Florilegium Marianum XI. Mémoires de NABU 12, Paris.
- LAPO 16 = Durand, J.-M. (1997) Les documents épistolaires du palais de Mari Tome I, Les éditions du Cerf, Paris.
- LAPO 17 = Durand, J.-M. (1998) Les documents épistolaires du palais de Mari Tome II, Les éditions du Cerf, Paris.
- MTT I/1 = Ziegler, N. – Anne-Isabelle Langlois (2017) Les toponymes paléo-babyloniens de la Haute-Mésopotamie. La Haute-Mésopotamie au IIe millénaire av. J.-C. SEPOA, Paris.
- NABU = Nouvelles Assyriologiques Brèves et Utilitaires.
- RGTC 3 = Groneberg, B. (1980) Die Orts- und Gewässernamen der altbabylonischen Zeit, Répertoire Géographique des Textes Cunéiformes, Band 3, Dr. Ludwig Reichert, Wiesbaden.
- RGTC 12/1 = Bonechi, Marco (1993) I nomi geografici die testi di Ebla. Répertoire Géographique des Textes Cunéiformes, Band 12/1, Dr. Ludwig Reichert, Wiesbaden.
- RIMA 1 = Grayson, A. Kirk (1987) Assyrian Rulers of the Third and Second Millennia BC (To 1115 BC). University of Toronto Press, Toronto Buffalo-London.

عهد أسَرَحَدُون أو آشور-بانيبال، تذكر ما يأتي: ثمانى نساء من كبيرات الموسيقىات، وثلاث نساء آراميات، وإحدى عشرة امرأة حثية، وثلاث عشرة امرأة من مدينة صور، ثلاث عشرة كاهنة موسيقية، أربع نساء من سَخ...، تسع نساء كاشيات. المجموع إحدى وستون موسيقية".
راجع:

Fales, F. M. - Postgate, J. N. (1992) Imperial Administrative Records, Part 1: Palace and Temple Administration. State Archives of Assyria 7, Helsinki University Press, Helsinki. Nr. 24, 20-27 (p. 34).

(25) Horowitz, Wayne - Takayoshi Oshima – Seth Sanders (2006) Cuneiform in Canaan. Hazor 12, pp. 83-85.

(26) Durand, J.-M. (1990) La Cité-État d'Imâr à l'époque des rois de Mari, MARI 6, p. 63 (n. 129); LAPO 16, Nr. 248.

(27) Bonechi, M. (1992) Relations amicales syro-palestiniennes. pp. 14-15.

(28) Durand, J.-M. (1986) Fragments rejoinés pour une histoire élamite, in: Mél. Steve, Paris, p. 122.

(29) LAPO 17, 165 (n°550).

(قُرئ الاسم بصيغة مخراساً أيضاً. راجع: ٣٠)

Bonechi, M. (1992) Relations amicales syro-palestiniennes. p. 13.

(31) Ibid. pp. 11-13.

(٣٢) إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) مراسلات العمارة الدولية. الرسالة ٢٢، العمود الثاني، ١٤ (ص ١٤).

(33) Bauer, T (1926) Die Ostkanaanäer. Eine philologisch-historische Untersuchung über die Wanderschicht der sogenannten "Amoriter" in Babylonien. Leipzig.

(34) Charpin, D. - N. Ziegler (2003) Mari et le proche-Orient à l'époque amorrite, Essai d'histoire politique, p. 29.

المنكنة في شمالي بلاد الرافدين خلال الألف الثاني ق.م. دار الزمان، دمشق. ص ٣٦.

(12) Yadin, Yigael (1958) Hazor I: An Account of the First Season of Excavations, 1955. Jerusalem; (1960) Hazor II: An Account of the Second Season of Excavations, 1956. Jerusalem; (1961) Hazor III/IV: An Account of the Third and Fourth Seasons of Excavations, 1957–1958. Jerusalem; Ben-Tor, Amnon u. a. (1997) Hazor V: An Account of the Fifth Season of Excavations, 1968. Jerusalem; (2012) Hazor VI: The 1990–2009 Excavations. The Iron Age. Jerusalem.

(13) Goren, Y. (2000) Provenance study of the cuneiform texts from Hazor. In: Israel Exploration Journal 50, pp. 29–42; Horowitz, Wayne - Takayoshi Oshima – Seth Sanders (2006) Cuneiform in Canaan. Cuneiform Sources from the Land of Israel in Ancient Times. Israel Exploration Society, The Hebrew University of Jerusalem. pp. 65-87.

(١٤) راجع: إسماعيل، فاروق (٢٠٢٥) مراكز الحكم في "الجزيرة السورية" خلال القرن ١٨ ق.م "نصوص ودراسة". دار الزمان، دمشق.

(١٥) للاستزادة راجع الفصل الثالث من:

Charpin, D. - N. Ziegler (2003) Mari et le Proche-Orient à l'époque amorrite: essai d'histoire politique. FM V, Paris. pp. 169-262.

(16) Bonechi, Marco (1992) Relations amicales syro-palestiniennes: Mari et Hasor au XVIIIe siècle av. J.C., FM 1, p. 21.

(17) Ibid. p. 10; LAPO 16, Nr. 375. (A.2760)

(١٨) الأصل في معنى اللقب السومري LĀ (في الأكدية: awīl(um) هو "رجل"، ولكنه صار بدلالة "زعيم، حاكم، صاحب". ويتمثل مع تسميات ظهرت في العصر الحديث، معتمدة على لقب الحاكم (سلطنة، إمارة، مشيخة، متصرفية)، يمكن تسميتها بـ "زعامة"، ولكننا سنعمد تسمية "حاكم" الأكثر استخداماً ووضوحاً.

(19) RIMA 1, p. 50, 73-87; Charpin, D. (2010) Šamši-Adad's Lebanon Campaign: Royal Inscriptions and Archival Texts. pp. 5-11.

(20) Bonechi, M. (1992) Relations amicales syro-palestiniennes. p. 18.

(21) Ibid. p. 19.

(22) LAPO 17, Nr. 851; Durand, J.-M. & B. Lafont (1991) Karanâ dans les textes de Mari. NABU 1991/35; Durand, J.-M. & M. Ghouti (1991) Villes fantômes de Palestine. NABU 1991/90.

(23) Ziegler, Nele (1999) Le harem de Zimrî-Lîm. FM IV, SEPOA, Paris, pp. 71-79.

(٢٤) ظلت ظاهرة استخدام موسيقيين وموسيقيات من مناطق أخرى شائعة فيما بعد، ولا سيما في مراكز الحكم الآشورية، كما يتضح من قائمة لموظفي القصر الملكي من القرن السابع ق.م، تعود إلى

من قصبة مولاي إسماعيل إلى مدينة أزرو مراحل النشأة وعوامل النمو والتطور

د يوسف عاشي

دكتوراه في الجغرافيا، مختبر الدراسات
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة مولاي إسماعيل - المملكة المغربية



عمرو إديل

خبير جغرافي، مختبر الدراسات والأبحاث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة مولاي إسماعيل - المملكة المغربية



عبد السلام بوهلال

أستاذ باحث في الجغرافيا بمختبر الدراسات
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة مولاي إسماعيل - المملكة المغربية



ملخص

تعتبر مدينة أزرو من المدن الجبلية التي تنتمي إلى منطقة الأطلس المتوسط، حيث تتميز بثقلها الديمغرافي وديناميتها الاقتصادية، وتحضن مصالح إدارية وبنيات تجارية وخدمية وتجهيزات ومرافق اجتماعية، إذ انتقلت خلال بداية القرن العشرين من قصبة تقليدية إلى مدينة حديثة نتيجة تدخل سلطات الحماية التي جعلت منها مركزاً لتطبيق سياساتها الاستعمارية، كما تطورت المدينة بسبب تحولات النمط الإنتاجي المحلي وانتقال ساكنة الأطلس المتوسط من النظام الرعي الزراعي القائم على الانتجاع إلى نظام حياة الاستقرار، وصارت مدينة أزرو بذلك تشكل قطباً حضرياً لكونها تستقطب الاستثمارات وتيارات الهجرة من المناطق الجبلية المجاورة. شكل تنامي ظاهرة التمدين إحدى الظواهر التي طبعت المجال المغربي، فهي تعكس التحولات العميقة التي أثرت على المجال والمجتمع، إذ لم تعد هذه الظاهرة تتركز بالمجالات الساحلية والمناطق السقوية، بل أصبحت تعرف تطوراً ملحوظاً بالمناطق الداخلية للبلاد كما هو الحال للمناطق الجبلية والواحية. وفي هذا الإطار، تعتبر مدينة أزرو من المراكز الجبلية بالأطلس المتوسط، حيث تتميز بقدوم ظاهرة التمدين التي بدأت إرهاباتها نهاية القرن السابع عشر خلال عهد مولاي إسماعيل الذي شيد قصبة أزرو، وتكرست هذه الظاهرة بداية القرن العشرين، حيث حظيت المدينة باهتمام خاص من طرف سلطات الحماية وذلك بالنظر إلى موقعها الاستراتيجي، إذ جعلت منها مركزاً لبسط سيطرتها على منطقة الأطلس المتوسط، كما شهدت تزايداً سكانياً بعد الاستقلال بسبب خلخلة أنظمة الإنتاج التقليدية لدى ساكنة الأرياف، حيث انتقلت من مركز صغير إلى مدينة من الحجم المتوسط، وازدهرت أنشطتها الاقتصادية وتطورت وظائفها التجارية والإدارية، وصارت تلعب دوراً أساسياً في تنظيم المجال.

كلمات مفتاحية:

قصبة، مدينة حديثة، سلطات الحماية، أزرو، الأطلس المتوسط

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٠ ديسمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢٤ فبراير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.346069.1194

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

يوسف عاشي، عبد السلام بوهلال، عمرو إديل، "من قصبة مولاي إسماعيل إلى مدينة أزرو: مراحل النشأة وعوامل النمو والتطور"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة - العدد السبعون، أغسطس ٢٠٢٥، ص ٤٣ - ٥٣.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historickan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: youssefachi2024@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

ولطرح هذه الإشكالية، سننطلق من التساؤل التالي:
إلى أي حد ساهمت العوامل المرتبطة بتاريخ وجغرافية
الأطلس المتوسط في بروز وتطور مدينة أزرو؟

فرضيات البحث

- إن معالجة الإشكالية المطروحة، تقتضي الانطلاق من الفرضيتين التاليتين:
- ساهمت سلطات الحماية الفرنسية في تحديث مدينة أزرو وجعلها مركزا لتطبيق سياساتها الاستعمارية؛
- تشكل مدينة أزرو قطبا حضريا جليبا يرتبط نموها وتوسعها بالتحويلات المجالية التي تعرفها المجالات الجبلية؛

المنهجية المتبعة

- تناولنا هذه الإشكالية انطلاقا من منهجية وصفية تحليلية وتركيبية تركز على مقارنة جيوتاريخية تراوح بين العناصر التالية:
- البحث الببليوغرافي: شمل البحث الببليوغرافي أهم الأبحاث التي أنجزت حول المنطقة، وكذلك على أطروحات الدكتوراه والمقالات العلمية إضافة إلى الأرشيفات والتقارير والوثائق الرسمية.
- المقاربة الإحصائية: اعتمدنا على نماذج الإحصاءات التي قامت بها سلطات الحماية خلال النصف الأول من القرن العشرين، إضافة إلى الإحصاءات العامة للسكان والسكنى التي قام بها المغرب منذ الاستقلال إلى الآن.
- البحث الميداني: ارتكز على الزيارات الميدانية والتواصل مع مختلف الفاعلين الترابيين في المدينة، إضافة إلى توظيف تقنيات الملاحظة والمعاينة المباشرة والمقابلات.
- العمل التقني: اعتمدنا على نظم المعلومات الجغرافية، وخاصةً على برنامج ArcGis الذي يسمح بإنجاز الخرائط وذلك بهدف توطئ مجموعة من الظواهر الجغرافية، كما عملنا على عرض بعض النتائج على شكل جداول ومبيانات، وقمنا بالتقاط عدة صور فتوغرافية، وذلك لتوظيفها في الدراسة والتحليل.

شكل تنامي ظاهرة التمدين إحدى الظواهر التي طبعت المجال المغربي، فهي تعكس التحولات العميقة التي أثرت على المجال والمجتمع⁽¹⁾، إذ لم تعد هذه الظاهرة تتركز بالمجالات الساحلية والمناطق السقوية، بل أصبحت تعرف تطوراً ملحوظاً بالمناطق الداخلية للبلاد كما هو الحال للمناطق الجبلية والواحية. وفي هذا الإطار، تعتبر مدينة أزرو من المراكز الجبلية بالأطلس المتوسط، حيث تتميز بقدّم ظاهرة التمدين التي بدأت إرهاباتها نهاية القرن السابع عشر خلال عهد مولاي إسماعيل الذي شيد قصبة أزرو، وتكرست هذه الظاهرة بداية القرن العشرين، حيث حظيت المدينة باهتمام خاص من طرف سلطات الحماية وذلك بالنظر إلى موقعها الاستراتيجي، إذ جعلت منها مركزاً لبسط سيطرتها على منطقة الأطلس المتوسط، كما شهدت تزايداً سكانياً بعد الاستقلال بسبب خلخلة أنظمة الإنتاج التقليدية لدى ساكنة الأرياف، حيث انتقلت من مركز صغير إلى مدينة من الحجم المتوسط، وازدهرت أنشطتها الاقتصادية وتطورت وظائفها التجارية والإدارية، وصارت تلعب دوراً أساسياً في تنظيم المجال.

إشكالية البحث

انتقل الأطلس المتوسط من مجال تسود فيه البنيات التقليدية وتهيمن فيه ساكنة الأرياف، إلى مجال تتطور فيه مظاهر البنيات الحديثة وتزايد فيه نسب التمدين وتنمو فيه المراكز الحضرية. ومن هذا المنطلق، شهدت مدينة أزرو نمواً ديمغرافياً متسارعا وتطوراً عمرانياً ملحوظاً، حيث انتقلت من قصبة تقليدية إلى مدينة حديثة، بسبب عوامل مرتبطة بتوجهات سلطات الحماية، إضافة إلى تأثير النظام الإنتاجي المحلي لساكنة المنطقة، كما ساهم موضعها الطبوغرافي وموقعها الجغرافي في تحسن جاذبيتها وتوسع مجال نفوذها، وصارت تساهم في تنظيم وهيكلتها محيطها، لكونها تستقطب السكان والاستثمارات، وتحتضن بنيات إدارية وتجارية وخدمية، وتؤدي وظائف قيادية واقتصادية.

اسمها بالصخرة الضخمة التي تتوسط المدينة، والمعروفة باسم "أقشمير" وهو مرادف لكلمة "أزرو"^(٦). ويفيد المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون في أحداث سنة ١٢٧٦ أن السلطان يعقوب بن عبد الحق ثاني ملوك بني مرين، كان أول حاكم مغربي نزل "بجبل أزرو" بعساكره. وبهذا يكون ابن خلدون أول مؤرخ يذكر اسم "أزرو" في تاريخه، الذي كتبه نهاية القرن الثامن الهجري الموافق للربيع عشر الميلادي^(٧).

صورة رقم (١)



المصدر: التقاط شخصي، 2024.

أولاً: أزرو من القسبة التقليدية إلى المدينة الحديثة

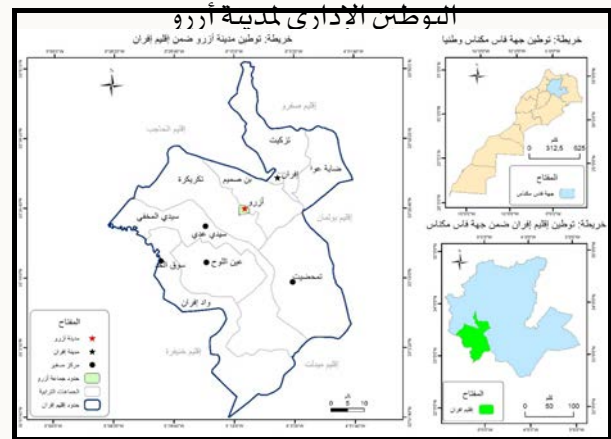
ظروف تأسيس مدينة أزرو ومراحل نشأتها

شكلت منطقة أزرو مجال عبور للقبائل القادمة من الجنوب والجنوب الشرقي نحو الشمال والشمال الغربي، قبل أن تستقر بها اتحادية بني مكيلد الشمالية^(٨) التي تعود أصولها إلى الحركات السكانية الصنهاجية والزناتية^(٩)، التي توافدت على المنطقة خلال القرن الخامس عشر قادمة من الجهة الشرقية للأطلس الكبير، عبر منخفض ملوية العليا، في اتجاه الأطلس المتوسط والمنخفضات المحيطة به غرباً، وقد ارتبط استقرارها بهذا المجال بوضعية المغرب آنذاك وأيضاً بوفرة المؤهلات الطبيعية^(١٠). وقد تواصلت حركات الهجرة هذه إلى غاية القرن التاسع عشر^(١١) وفي هذا السياق، ارتبط ظهور وتطور مدينة أزرو بالمراحل التالية: عهد السلطان مولاي إسماعيل: ويتعلق الأمر بالفترة الممتدة بين نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، حيث عمل مولاي إسماعيل على بناء سلسلة من القصبات بمجالات الدير، ارتباطاً بتوسع نفوذ الزاوية

توطين مجال الدراسة

تتنمي مدينة أزرو إلى إقليم إفران بجهة فاس مكناس، حيث يقع الموضع الأصلي للمدينة بين جبلي بوطاعة جنوباً وبوغيغال شمالاً^(١٢)، في مجال الدير الشمالي للأطلس المتوسط الأوسط، الذي يتميز بوفرة الموارد المائية وامتداد الأراضي المنبسطة الخصبة. ومن ناحية الموقع، فالمدينة تقع في تقاطع الطريقين الوطنيتين رقم ٨ ورقم ١٣، حيث تربطها هذه المحاور الطرقية بالشبكة الحضرية للسايس (فاس، مكناس) والأطلس المتوسط (بولمان، خنيفرة، صفرو) والهضبة الوسطى (الماس، أكلموس) وملوية العليا (زايدة، ميدلت) والجنوب الشرقي (الراشيدية).

خريطة رقم (١)



المصدر: خريطة التقسيم الجهوي للمغرب لسنة ٢٠١٥، والتقسيم الإداري لإقليم إفران، ١٩٩٢.

تعني عبارة أزرو بالأمازيغية الحجرة أو الصخرة^(١٣)، وكان يطلق عليها سابقاً اسم "أقشمير"^(١٤)، وقد روى أبو القاسم الزياني أن قلعة أزرو أسسها أمير زناتة قبل الإسلام، أي أن عمرها لا يقل عن ١٥ قرناً^(١٥). ولمصطلح أزرو انتشار واسع في الطوبونيميا المغربية، فقد عدد إميل لاووست E. Laoust أكثر من ثلاثين منطقة من المغرب تحمل هذا الاسم، مشيراً إلى أن صيغة الكلمة قد تكون أحياناً مؤنثة أو مركبة. وعندما تستعمل وحدها فالكلمة تشير إلى قرى يميزها وجود صخرة كبيرة بها أو بمقربة منها كما هو الحال لمدينة أزرو، التي ارتبط

سلطات الحماية على بناء المدينة الجديدة إلى جانب الأحياء القديمة لقصبة أزرو، وزودتها بالتجهيزات الأساسية والبنيات التحتية، وقامت بتوطين مرافق إدارية وخلق فضاءات خدماتية وتنشيط الاقتصاد المحلي لجعلها مركزا للمراقبة والاعتماد عليها في تطبيق السياسات الاستعمارية.

مرحلة الاستقلال: ورثت مدينة أزرو بنيات إدارية واقتصادية عن الفترة الاستعمارية، حيث أصبحت تؤدي وظائف قيادية في المنطقة. وقد اتسمت مرحلة الاستقلال بتزايد استقرار السكان بمدينة أزرو بسبب تزايد النمو الديموغرافي وتدفق تيارات الهجرة القروية، التي ارتفعت وثيرتها خلال النصف الثاني من القرن العشرين بفعل تأزم أوضاع الأرياف واختلال نظام الإنتاج التقليدي وتأثير ظاهرة الجفاف.

صورة رقم (٢)



المصدر: التقاط شخصي، 2024.

ساهمت سلطات الحماية في تحويل أزرو إلى مركز جاذب ومستقطب

أدى إخضاع سلطات الحماية لمدينة أزرو إلى التأثير في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وذلك من خلال بروز بنيات حديثة تمثلها المستويات التالية:

المستوى العسكري: شكلت أزرو نقطة لمراقبة وتهدة^(١٨) سكان جبال الأطلس المتوسط، حيث جعل منها المستعمر مركزا عسكريا بالنظر لموقعها المركزي والاستراتيجي والدفاعي.

الدلائلية بالمغرب التي بسطت نفوذها على الأطلس المتوسط. وفي هذا الإطار قام السلطان مولاي إسماعيل ببناء قصبة أزرو سنة ١٦٨٤ وأنزل بها جيشا يتكون من ألف فارس^(١٢)، حيث تم اختيار موضع أزرو عند المضيق الواقع بين جبل بويغبال شمالا وجبل بوطاعة جنوبا الذي يتغذى من عيون تيط احسن^(١٣). وقد كانت أزرو حصنا للعديد من الدول المتعاقبة على حكم المغرب، وكذلك لبعض الزوايا والمتمردين. فالموحدون اتخذوا من أزرو حصناً لهم أثناء ملاحقتهم لجيوش المرابطين، وبقيت وظيفة الدفاع والتحصن عالقة بأزرو على مدى تاريخها الطويل. فالسلطان مولاي إسماعيل أعاد بناء القلعة الأصلية^(١٤) مستفيدا من الموضع الدفاعي، وذلك لتقوية نفوذ السلطة المركزية، ولاحتواء الحركات القبلية الصنهاجية، ومن أجل تقليص النفوذ السياسي للزاوية الدلائية وتأمين الطرق التجارية^(١٥).

عهد السلطان مولاي الحسن الأول: ساهم في تطوير قصبة أزرو وتمدينها رغم تفشي ظاهرة السبيبة وتمرد قبائل الأطلس المتوسط على السلطان نهاية القرن التاسع عشر. ولتكريس سلطته ونفوذه، لم يكتف السلطان بالتدخلات السياسية والعسكرية، بل قام ببناء قصر تحيط به أسوار مفتوحة على الموقع الحالي للقيسارية، ومسجد شمال إغرم أقديم (الحصن القديم)، حيث شكلت أزرو ممراً استراتيجياً لتتقل الأشخاص والبضائع، لذلك شهدت توافد تيارات الهجرة من الجنوب الشرقي، ارتبطت بتجذر سلطة المخزن بالمنطقة، وكذلك بتطور الأنشطة الاقتصادية التي ساهمت في ظهور نواة حقيقية للمدينة، وبدأت معهم بؤادر الحياة الحضرية، حيث اتجهوا إلى الاستقرار بشكل مبكر، وارتبطوا بالأرض ومارسوا الأنشطة الزراعية والتجارية^(١٦) والحرفية، وازدهرت أنشطتهم من خلال تعاملهم مع أنصاف الرحل.

فترة الحماية: خضعت مدينة أزرو للحماية سنة ١٩١٣، وازدهرت حركة التمدين التي واكبت توسع الاستعمار وتنظيمه للمجال بالمنطقة خلال النصف الأول من القرن العشرين، حيث عرفت المرحلة الكولونيلية بناء مدينة أزرو الحديثة وتعزيز دورها كمركز استراتيجي للتحكم في الأطلس المتوسط^(١٧)، إذ عملت

وهو ما يعكس الأهمية الاستراتيجية للمنطقة ومركزيتها على المستوى الوطني^(٢٢).

المستوى العمراني: شكلت بداية العشرينيات بوادر التوسع العمراني في مدينة أزرو، حيث وجدت الساكنة المغربية (الأهالي) نفسها نهاية العشرينات مكدسة بين أسوار إغرم أقديم وقصر آيت غريس، وتحيط بها من الغرب والشرق أحياء عصرية ذات كثافة عمرانية ضعيفة، والتي تمتد على بعض المنحدرات، ويتعلق الأمر بأحياء القشلة، بويغبال، سيدي عسو، أحداق وتيزي مولاي الحسن^(٢٣). أما فيما يتعلق بالأحياء الأوروبية، فقد عمل العمر ابتداءً من سنة ١٩٢٠ على إنشاء بنايات لسكن الأوروبيين، أقيمت فيها مختلف الإدارات والمصالح العمومية، فظهرت بذلك أحياء جديدة تتميز بطابع معماري أوروبي وشوارع فسيحة وحدائق وبنايات مغطاة بالقرميد الأحمر^(٢٤). وقد خضعت هذه البنايات لتصاميم هندسية مضبوطة تراعي ظروف الحياة العصرية للسكان كما هو شأن المدن الأوروبية^(٢٥). وبذلك تمكنت إدارة الحماية من تحويل مركز أزرو إلى مدينة عصرية بمقومات وخصوصيات فرنسية، من خلال الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وفي نوعية ساكنتها وفي تصاميم بناياتها وشوارعها، وفي الأسماء التي أطلقت على المؤسسات الموجودة بها. ونتجت عن سياسة المستعمر خلق مدينتين ومجتمعين، ويتعلق الأمر بالمدينة الأوروبية والمجتمع العصري المرتبط بالنظام الرأسمالي، ثم المدينة القديمة المرتبطة بالهياكل التقليدية^(٢٦). كما شكل الفصل بين المدينة الأوروبية والمدينة القديمة إحدى أسس السياسة العمرانية الكولونيالية، وذلك من أجل مراقبة الأهالي وأيضاً لإظهار التفوق والتقدم الأوروبي.

المستوى الاقتصادي: تعززت الوظائف الإدارية والعسكرية للمدينة بوظائف اقتصادية، حيث عرفت ازدهاراً للأنشطة المرتبطة بالتجارة والحرف والبناء والفلاحة، والتي تتمثل في ظهور مقاولات صناعية وإمكانات العمل المرتبط بالقطاعين الغابوي والفلاحي، إضافة إلى فرص الشغل المرتبطة بأشغال تجهيز وبناء الطرقات وقنوات السقي؛ إلا أن هذه الأنشطة الاقتصادية لم تحد من ارتفاع حجم البطالة وانتشار

المستوى الإداري: شهدت أزرو خلال هذه الفترة تشييد بنايات إدارية متعددة، وتم الارتقاء بها إلى مركز قيادة وعاصمة للدائرة. ولتكريس الهيمنة عليها، كان يتم الاعتماد على مؤسسة "اجماعة" التي تتكون من الأعيان، وتلعب دور الوسيط بين السلطات الاستعمارية والساكنة. وفي هذا الإطار، عينت الإدارة الاستعمارية قوادا على المنطقة ومنحتهم السلطة التنفيذية تحت مراقبة السلطات الاستعمارية^(٢٩).

المستوى التعليمي: قامت سلطات الحماية بتأسيس بنايات تعليمية حديثة أهمها المدرسة الفرنسية البربرية^(٢٠) بأزرو سنة ١٩٢٤، وذلك بهدف تمكين أبناء الأعيان من مساهمة التكوين العالي، وخلق حاشية من المثقفين، وفتح المجال للبعض منهم للالتحاق بالمدرسة العسكرية بمكناس.

المستوى الديني: عملت سلطات الحماية على بناء دور ومعابد، من أهمها دير توميلين الذي بُني على بضع كلمترات جنوب أزرو، حيث شكل أحد أكبر المراكز الدينية بالمغرب، وساهم في تطبيق السياسة الاستعمارية من خلال التظاهرات الدولية التي يحتضنها، وعن طريق الخدمات والأعمال الإنسانية التي يقدمها لسكان المنطقة.

المستوى الصحي: حظيت منطقة أزرو باهتمام السلطات الاستعمارية وذلك من خلال استحداث بنايات استشفائية لمحاربة الأمراض المزمنة والمعدية، وإتمام عمليات التهئة لكسب ود المغاربة^(٢١). وفي هذا السياق، قامت ببناء مستشفى بن صميم شمال أزرو سنة ١٩٥٣، الذي يعتبر معلمة معمارية ذات أبعاد دولية، وشكل وجهة استشفائية مميزة بفعل خدماته المرتبطة بعلاج الأمراض التنفسية وأطلق عليه اسم "موريس بونجون Sanatorium Maurice Bonjean"، وبموجب الظهير الشريف المؤرخ في ٣١ يناير ١٩٥٣ أصبح يُدار كمؤسسة عمومية تحمل اسم "المركز الاستشفائي الأطلس المتوسط"، حيث تم تدشينه من طرف المقيم العام بالمغرب السيد فرنسوا لكوست François Lacoste والذي قال بشأن هذه المصحة "إن بناء هذه المؤسسة الصحية بمنطقة أزرو سيربط أقصى جنوب المغرب إلى حدود وجدة فيما يتعلق بمحاربة داء السل"

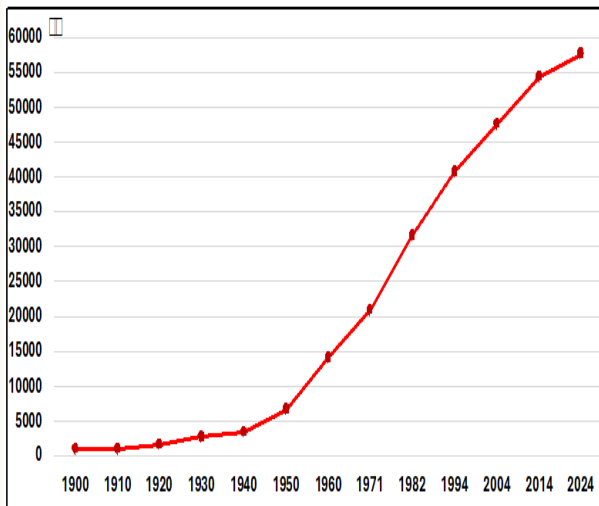
ثانيًا: مدينة أزرو دينامية القطب الحضري الناخب بالأطلس المتوسط الأوسط

تشهد مدينة أزرو تزايدًا سكانيًا متسارعًا

إن تمدن بوادي الأطلس المتوسط يعكس مظاهر الاختلالات التي مست بنياته الاجتماعية والاقتصادية والمجالية، إذ لم تعد المناطق الجبلية مجالات رعي زراعية، بل أصبحت تشهد دينامية عمرانية انعكست على تطور حركية التمدين، حيث تنامت المراكز الحضرية والقروية بفعل استقبالتها لتيارات الهجرة القروية وليس بسبب ديناميتها الديمغرافية والاقتصادية^(٢٠). وفي هذا السياق، شكلت الهجرة القروية عنصرا حاسما في نمو مدينة أزرو، حيث شهدت تدفقا لتيارات المهاجرين من الأقاليم الجبلية المجاورة، بسبب العزلة الجغرافية وتأخر التنمية بالمجالات الهامشية لمناطق الجبل والأزغار التي يزيد من حدتها النقص الحاصل في البنيات التحتية الأساسية والتجهيزات، إضافة إلى جاذبية مدينة أزرو بالنظر إلى ديناميتها الاقتصادية والخدماتية، خاصة في ظل وعي الأسر الريفية بتميزات ومنافع الاستقرار في المدينة ورغبتها في تحسين ظروف عيشها وتدريب أبنائها وتوفير الشروط الملائمة لهم للاستفادة من المرافق العمومية.

مبيان رقم 1 : تطور حجم ساكنة مدينة أزرو بين

سنتي 1900 و 2024



المصدر: الإحصاءات العامة للسكان والسكنى ١٩٦٠، ١٩٧١، ١٩٨٢، ١٩٩٤، ٢٠٠٤، ٢٠١٤، ٢٠٢٤.

الأحياء العشوائية بسبب تزايد السكان الوافدين على المدينة^(٢٧)، نتيجة خلخلة سلطات الحماية للنظام الرعي زراعي، من خلال حصر أنصاف الرحل وسيطرتها على الأراضي الزراعية.

المستوى الديمغرافي: ساهمت توجهات سلطات الحماية في تثبيت الساكنة بمدينة أزرو، وانعكست سياساتها على دينامية التمدين وذلك من خلال بناء المدينة الجديدة إلى جانب قصبة أزرو، حيث تزايد حجم سكانها وتوسعت أحيائها. وبذلك لعبت مرحلة الحماية دورا رئيسيا في صياغة إطار الحركة السكانية، حيث شكلت المحدد الرئيسي للاتجاه الديمغرافي بالمغرب.

جدول رقم (١)

بنية وتوزيع وتطور سكان أزرو خلال عهد الحماية

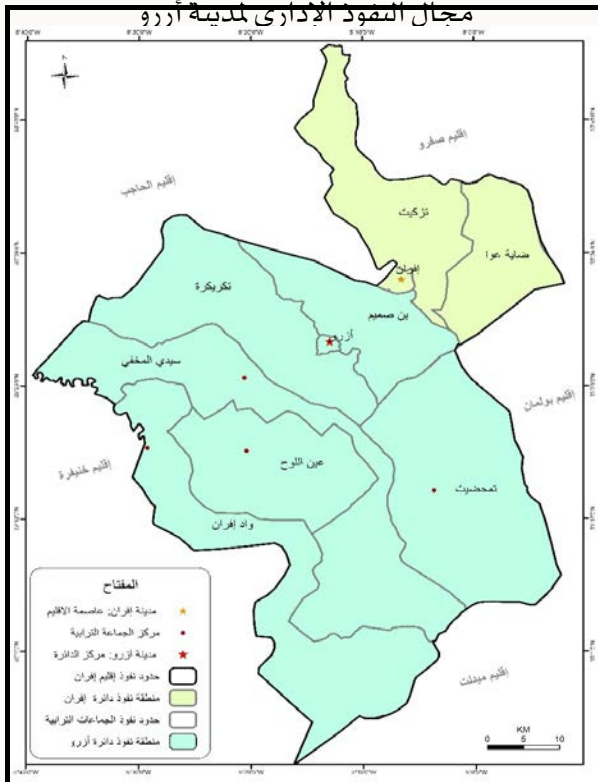
السكان	1926	1931	1936	1951	1960
مجموع السكان	1593	2775	3426	6726	14123
المغاربة المسلمين	1426	2503	3148	6244	13746
المغاربة اليهود	-	32	8	19	19
الأجانب	167	244	270	463	378

Source: El Belghiti Alaoui. A, 1978, op. cit., p : 84.

قامت إدارة الحماية بإحصاءات للسكان منذ بداية القرن العشرين^(٢٨)، وهي المرحلة التي عرف خلالها مركز أزرو نموا ملحوظا بفعل سيطرة السلطات الاستعمارية على المناطق الجبلية، كما عرفت أزرو استقطابا لعدد من الأوروبيين على اختلاف جنسياتهم بفعل المؤهلات التي تزخر بها المنطقة^(٢٩). ويرجع سبب تزايد عدد سكان أزرو إلى دور سلطات الحماية التي عملت على تأطير السكان، والاهتمام بالمدينة من خلال تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية، مما أدى إلى تحسين مستواهم المعيشي والصحي، كما ساهم المعمر في خلق حركة للسكان من الأرياف نحو المدن.

محيطها، كما أنها تحتل موقعاً متميزاً على المستوى الجهوي بالمقارنة مع مختلف المراكز الحضرية للأطلس المتوسط، بفضل الشبكة الطرقية التي تخترق المنطقة، مما يعكس إشعاعها الجهوي الذي يتجاوز حدود الإقليم.

خريطة رقم (٢)



المصدر: التقسيم الإداري لإقليم إفران، ١٩٩٢.

فإذا كانت المدينة تعتبر من المنظور الماكروجغرافي لتنظيم المجال مكاناً لتركز أنشطة القطاعين الثاني والثالث^(٣٣)، فإن تركيز المحلات التجارية بمدينة أزرو يشكل مظهراً من مظاهر الهيمنة الحضرية على الأرياف، مما يعكس الطابع التجاري والخدماتي للمدينة.

عرف حجم سكان مدينة أزرو تزايداً ملحوظاً منذ الاستقلال، إذ تضاعفت ساكنتها حوالي أربع مرات بين سنتي ١٩٦٠ و ٢٠٢٤. حيث انتقلت من ١٤١٢٣ نسمة سنة ١٩٦٠ إلى ٥٧٦٥٧ نسمة سنة ٢٠٢٤، إذ أضيفت إليها ٤٣٥٣٤ نسمة خلال حوالي نصف قرن من الزمن، وبذلك أصبحت تضم 36 % من ساكنة إقليم إفران (١٦٠٩٠٤ نسمة)^(٣١).

تهيمن مدينة أزرو على البنيات التجارية

والخدماتية والمصالح الإدارية

لم يعد الاهتمام ينصب على المدن الكبرى، فقد تحسنت وضعية المراكز الصغرى والمتوسطة بفعل تنوع تدخلات التهيئة، حيث صارت تحظى بالأهمية اللازمة ضمن سياسة إعداد التراب الوطني، إذ عرفت تطورا ملحوظا في بنياتها التحتية وتجهيزاتها ومرافقها، إضافة إلى نمو وظائفها وخدماتها الاقتصادية والتجارية. ومن هذا المنظور، فرغم أن مدينة أزرو تحتل موقعاً مركزياً على مستوى التراب الإقليمي، وتشكل عاصمة للدائرة، إلا أنها ليست بعاصمة الإقليم، حيث تنقسم المهام الإدارية مع مدينة إفران التي أسندت لها هذه الوظيفة منذ سنة ١٩٧٩.

جدول رقم (٢)

توزيع البنيات الإدارية والمرافق العمومية الموجودة بمدينة أزرو

البنيات	بنيات إدارية	مؤسسات تعليمية	بنيات صحية	عيادات طبية	مرافق سوسيوثقافية
العدد	24	30	6	30	4

المصدر: البحث الميداني، 2024.

تعمل هذه المصالح الإدارية والمرافق الاجتماعية على تقديم خدماتها للمرتفقين، وتساهم في استقطاب تيارات بشرية من الجماعات المجاورة لأزرو، إذ تتميز هذه الأخيرة بتعدد وظائفها وتكاملها، فإلى جانب بنياتها الإدارية المتنوعة^(٣٢) فإنها تؤدي وظائف أخرى ترتبط ببنياتها الخدماتية والتجارية والتعليمية والاستشفائية والترفيهية، مما يزيد من جاذبيتها ويكرس هيمنتها على

جدول رقم (٣)

توزيع المكاتب والوكالات ذات الطابع الخدماتي

بمدينة أزرو

الوكالة/ المكتب	التأمين	اتصالات	بنك	محلي	مؤقت/ عدل	كراء السيارات	الأسفار
العدد	7	3	17	15	8	8	3

المصدر: البحث الميداني، 2024.

تتميز مدينة أزرو بتركز الأنشطة الخدماتية، وتهيمن على استقطاب ساكنة الأرياف للاستفادة من الخدمات التي تتوفر بشكل محدود بالمراكز الصغرى، وأيضاً للاستفادة من الخدمات التي تتعدى هذه المراكز (وكالات التأمين، الضرائب، مكاتب المحاماة والتوثيق). فالمدينة تؤدي وظائف تجارية وخدماتية مستفيدة من موقعها المركزي بإقليم إفران. كما أن تزايد الأنشطة التجارية يعكس التزايد المضطرد للسكان وتزايد الطلب على مختلف المنتجات والخدمات.

جدول رقم (٤)

توزيع المحلات التجارية والخدماتية بمدينة أزرو

الأنشطة	العدد	الأنشطة	العدد	الأنشطة	العدد
بيع مواد غذائية	360	مقاهي ومطاعم	119	عقاقير ومواد البناء	95
ملابس وحلي	156	بيع أجهزة إلكترونية	35	بيع قطع غيار العربات	23
إصلاح أجهزة إلكترونية	45	ميكانيك السيارات	30	محلات حلاقة وحمام ومصبنة	125
خياطة	113	مكتبة	15	نجارة	77
لحامة وترصيص وقباب	42	مختبر تصوير	10	قاعة حفلات وتجميل	23

المصدر: المخطط الجماعي للتنمية لأزرو، ٢٠١٤، وبرنامج عمل جماعة أزرو، 2017، والبحث الميداني، ٢٠٢٤.

تعتبر مدينة أزرو عاصمة تجارية بالمنطقة، حيث تتميز بتعدد وتنوع المحلات التجارية وتضم لوحدها ما يقارب 1400 محلاً تجارياً وخدماتياً، كما تتميز المدينة بسوقها الأسبوعي الذي يكتسي شعبية وأهمية كبرى لدى ساكنة الأطلس المتوسط الأوسط، وتتوفر أيضاً على فضاء تجاري دائم بوسط المدينة القديمة (سوق المدينة القديمة) وسوق ممتاز ومحلات تجارية للبيع بالجملة، إضافة إلى سوق بلدي ومركب تجاري للمنتوجات المستعملة (الخردة)، وسوق دائم بوسط المدينة الجديدة (سوقة أحداق) يلبي احتياجات الساكنة المحلية ويستقطب كذلك ساكنة المناطق المجاورة لكونه يعرض مختلف المنتجات الاستهلاكية.

جدول رقم (٥)

تطور المساحة المبنية بمدينة أزرو بين سنتي ١٩٢٠ و ٢٠٢٤

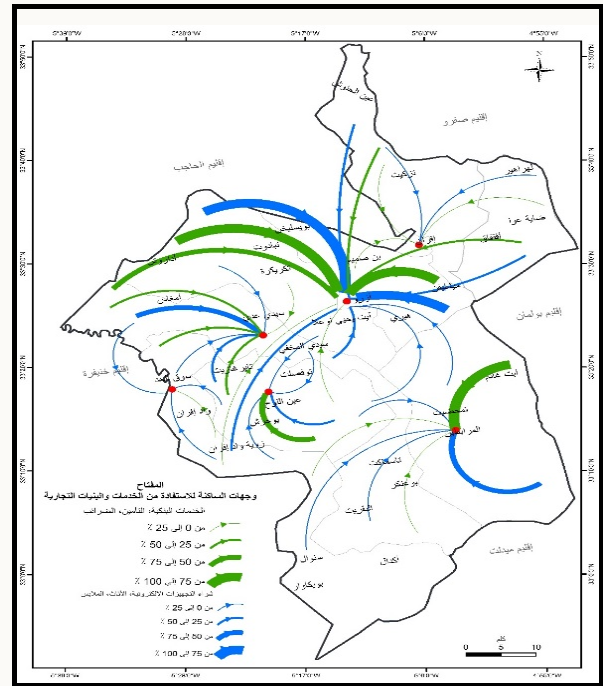
السنة	١٩٢٠ إلى ١٩٥٠	١٩٥٠ إلى ١٩٧٦	١٩٧٦ إلى ٢٠٠٠	٢٠٠٠ إلى ٢٠٢٤
المساحة بالهكتار	٢٥	١٧٦	٣٢٨	٣٥٤

Source : SDAU Ifrane Azrou et leur aire d'influence, 2019.

عرفت المدينة توسعاً عمرانياً متسارعاً، لتصل المساحة المبنية إلى ٣٥٤ هكتارا سنة 2024. ورغم أن مساحة المجال الحضري لجماعة أزرو تقارب ٨٧٣ هكتارا، إلا أن الرصيد العقاري للمدينة لا يتجاوز ٢١٥ هكتارا^(٣٦). فالتوسع الذي فرضته التيارات الهجرية والدينامية الديمغرافية والاقتصادية سيؤدي إلى تغيير ملامح المدينة وتحويل مركزها من المدينة القديمة (السوقة، آيت غريس) أي من الموضع الأصلي للمدينة جنوباً (أزرو العلّيا)، إلى الأحياء الجديدة شمالاً (أزرو السفلى)؛ لكن ازدهار التعمير بأزرو سيصطدم بعدة عراقيل تتعلق بضعف الرصيد العقاري للمدينة وانتشار المجالات الزراعية والغابوية إضافة إلى الإكراهات المتعلقة بالمجالات غير الصالحة للبناء.

خريطة رقم (٣)

استقطاب مدينة أزرو ساكنة أرياف إقليم إفران للاستفادة من الخدمات والبنىات التجارية



المصدر: البحث الميداني، 2024.

ثالثاً: مدينة أزرو (أشكال وإكراهات التوسع)

تواجه المدن الجبلية تحديات مجالية تتجلى أساساً في موضعها الطبوغرافي الذي يشكل حاجزاً أمام توسعها، كما هو الحال لمدينة أزرو التي تعترضها إكراهات طبيعية وأخرى عقارية خاصة وأنها تقع بمجال الدير، مما جعلها لا تتوسع سوى في اتجاه الشمال الغربي على طول المحاور الطرقية وتتمدد على السفوح المحاذية لها^(٣٤). وفي هذا الإطار، عرفت أزرو خلال العقود الأخيرة تزايداً سكانياً، يتضح ذلك من خلال امتداد البناء على مجالات مهددة بالانزلاقات والفيضانات (حي امشرمو) وبجانب الوديان، وكذلك امتداد تجزئات سكنية على المجالات المسقية شمالاً بجماعتي تكريكرة وبن صميم^(٣٥).

صورة رقم (٣)

فتح مجالات للتعمير وتوسع مدينة أزرو على حساب



الأراضي الفلاحية بجماعة بن صميم

المصدر: التقاط شخصي، يوليوز، 2024.

خاتمة

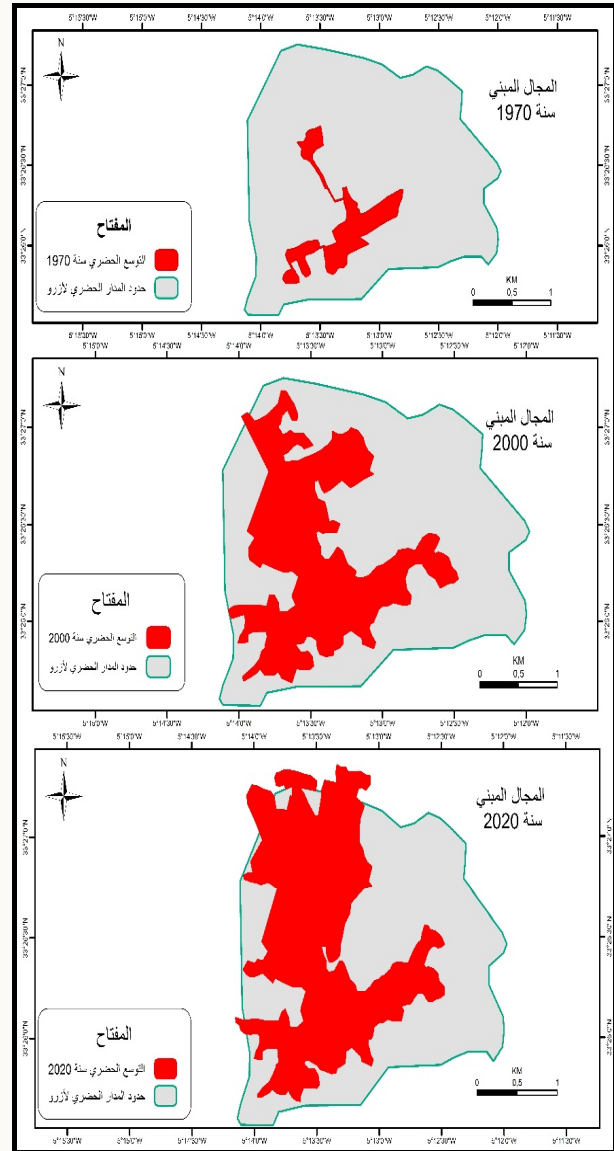
انتقلت أزرو من قصبة تقليدية تأسست على يد السلطان مولاي إسماعيل نهاية القرن السابع عشر إلى مدينة حديثة بداية القرن العشرين، نتيجة تدخل سلطات الحماية التي ساهمت في دينامية التمدين، عن طريق خلق حركة لسكان الجبال من الأرياف نحو المراكز، وذلك لبسط سيطرتها على الأطلس المتوسط، حيث جعلت من أزرو مركزاً يتوفر على بنيات تحتية وتجهيزات أساسية ومرافق عمومية، وصار هذا المركز يؤدي وظائف قيادية وتجارية وخدمائية.

أصبحت مدينة أزرو تشكل مركزاً حضرياً من الحجم المتوسط، وتلعب دوراً محورياً في تنظيم المجال بفعل موقعها المركزي بالأطلس المتوسط وموقعها الاستراتيجي في تقاطع محاور طرقية كثيفة، الشيء الذي يمكنها من استقطاب الساكنة من الأقاليم الجبلية المجاورة، حيث تبين المؤشرات المتعلقة بتوزيع السكان والبنيات الاقتصادية مركزية مدينة أزرو في إقليم إفران، وهكذا فإن التزايد السكاني الذي عرفته أزرو خلال السنوات الأخيرة قد رافقه تزايد في بنياتها الاستشفائية والتعليمية والتجارية والخدماتية والثقافية والترفيهية لتكتسي صفة العاصمة التجارية وتكرس هيمنتها على أرياف ومراكز الإقليم.

خريطة رقم (٤)

تطور المساحة المبنية بمدينة أزرو

بين سنتي ١٩٧٠ و ٢٠٢٠



المصدر: الصور الجوية Google Earth Pro

والبحث الميداني، 2024.

الإحالات المرجعية:

- (19) El Belghiti Alaoui, A., 1978, op. cit., p : 76.
- (20) Benhlal, M., 2005, Le collège d'Azrou, la formation d'une élite berbère civile et militaire au Maroc, édition Karthala.
- (٢١) نعيمى مصطفى، ٢٠١٣، مرجع سابق، ص: 116.
- (٢٢) نعيمى مصطفى، ٢٠١٣، مرجع سابق، ص: 118-119.
- (٢٣) نفس المرجع، ص: ٨٣.
- (٢٤) البلغيتي العلوي عائشة، ١٩٩٢، **مادة أزرو**، مجلة معلمة المغرب، نشر مطابع سلا، الجزء ١، ص: ٣٤١.
- (25) El Belghiti Alaoui, A., 1978, op. cit., p : 87.
- (٢٦) نعيمى مصطفى، ٢٠١٣، مرجع سابق، ص: ٨٨.
- (27) El Belghiti Alaoui, A., 1978, op. cit., p: 85.
- (٢٨) نعيمى مصطفى، ٢٠١٣، مرجع سابق، ص: ٨٩.
- (٢٩) نفس المرجع، ص: ٩٤.
- (30) Jennan L., 2004, op. cit., p : 630.
- (31) Site institutionnel du Haut-Commissariat au Plan du Royaume du Maroc: https://www.hcp.ma/Population-legale-du-Royaume-du-Maroc-repartie-par-regions-provinces-et-prefectures-et-communes-selon-les-resultats-du_a3974.html (consulté: 01/01/2025)
- (32) Royaume du Maroc, Ministère de l'Intérieur, Schéma Régional d'aménagement du Territoire de Fès Meknès, Rapport Final, Octobre 2017, p : 157.
- (33) Beguin, H., 1974, L'organisation de l'espace au Maroc, Académie Royale des Sciences d'Outre-mer, Bruxelles, p:326.
- (34) Troin J. F., (dir), 2002, Maroc : régions, pays, territoires, éd Maisonneuve & Larose, Paris, p : 216.
- (35) MATNUHPV, Direction de l'urbanisme, SDAU Ifrane Azrou et leur aire d'influence, phase 3, documents de concertation réglementaire du SDAU, 2019, p : 33.
- (٣٦) المديرية العامة للجماعات المحلية، **مخطط التنمية الجماعي، الجماعة الحضرية لأزرو**، عمالة إقليم إفران، منشورات جامعة الأخوين، الطبعة الأولى، يوليوز ٢٠١٤، ص: ٥٣.
- (1) Escallier, R., 1978, La population urbaine du Maroc, étude géographique, thèse de doctorat en géographie, université de Nice, p : 1170.
- (2) De Segonzac, M., 1903, Voyages au Maroc 1899-1901, Librairie Armand Colin, Paris, p : 127.
- (3) Hachimi, M., 2024, Ville et villages du Maroc, étymologie, histoire et légendes, éditions Sochepress, Maroc, p : 56.
- (٤) مصطلح أمازيغي ويقصد به في هذا السياق كتلة من الصخور الكبيرة أو تل صغير يتشكل من بنية صخرية بارزة، ومنها أخذ اسم مدينة أزرو.
- (٥) العربي عيسى، ٢٠٠٤، **مدينة إفران جوهرة الأطلس المتوسط ومحيطها عبر التاريخ**، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الرباط، ص: ٣٥.
- (٦) اكينح العربي، ١٩٩٢، **مادة أزرو، مجلة معلمة المغرب**، نشر مطابع سلا، الجزء ١، ص: ٣٤٢.
- (٧) المديرية العامة للجماعات المحلية، **عمالة إقليم إفران**، برنامج عمل الجماعة الترابية أزرو، ٢٠١٧-٢٠٢١، ص: ١٨.
- (٨) تسمى بني مكيل، كما يمكن أن نجدها في بعض الكتابات الفرنسية التي اهتمت بالمجال بداية القرن العشرين مكتوبة على الشكل التالي: آيت مكيلد Ait M'Guild / آيت مييلد Ait Myild / آيت مييل Ait Myil / آيت مكيل Ait M'guil / بني مكيلد Béné Mguild.
- (٩) بنسي حميد، ٢٠١٥، التحولات الاقتصادية والاجتماعية والمجالية في المناطق الجبلية، حالة جماعت بني صميم وتكريرة "إقليم إفران"، بحث لنيل الدكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، ص: ٦٢.
- (١٠) العربي عيسى، ٢٠٠٤، مرجع سابق، ص: ٥٨.
- (١١) بنشريعة عبد اللطيف، ١٩٩٢، بني مكيلد، **معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ص: ١٥٧٣.
- (١٢) العربي عيسى، ٢٠٠٤، مرجع سابق، ص: ٣٤.
- (13) Beaudet, G., 1969, Les Béni Mguild du nord, étude géographique de l'évolution récente d'une confédération semi-nomade, In : RGM, N°15, p : 70.
- (١٤) اكينح العربي، ١٩٩٢، مرجع سابق، ص: ٣٤٣.
- (15) Jennan, L., 2004, Le Moyen Atlas central et ses bordures : Mutations récentes et dynamiques rurales, éditions Al Jawahir, Fès, p : 103.
- (16) Ibid., p : 64-65.
- وحسب البلغيتي العلوي عائشة، توافدت على أزرو بعض الفئات من الحراطين (أصلهم من العبيد) وإقبليين من الأطلس الكبير الشرقي، وحلوا من السهول الأطلنتية.
- (١٧) نعيمى مصطفى، ٢٠١٣، **منطقة أزرو على عهد الحماية ١٩١١-١٩٥٦**، الدخول، البنيات والمقاومة، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، المغرب، ص: ١٠٩.
- (18) Guillaume, A., 1946, les berbères marocains et la pacification de l'atlas central (1912-1933), Ed. Juillard-Sequana, Paris.

الزمن الازدواجي

مساهمة في المفهمة

أ.د. عبد العزيز غوردو

أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة – المملكة المغربية



ملخص

يتناول المقال مفهوم "الزمن الازدواجي" بوصفه مدخلاً لتحليل إشكالية التحقيب التاريخي في السياقات غير الغربية، منطلقاً من حالة المغرب مطلع القرن العشرين. ينطلق الباحث من تساؤل فلسفي وتاريخي حول ماهية الزمن، مستعرضاً مقاربات فلسفية (أرسطو، هايدغر) وفيزيائية (النسبية، الزمكان) تُظهر أن الزمن ليس كياناً بسيطاً أو موحداً، بل تجربة نسبية تختلف حسب الوعي والسياق والحركة. ينتقل المقال لتحليل "الزمن الازدواجي" من خلال قراءة نقدية لرحلة الصحفي الإيطالي لويجي برزيني إلى المغرب عام ١٩٠٦، والتي تُظهر تصادمًا بين زمنين: زمن أوروبي معاصر متقدم، وزمن مغربي وسيط راكد. ويكشف الباحث كيف أن المقارنة الحضارية التي أجراها برزيني — من خلال مشاهداته للأسواق والملابس والبنى الاجتماعية المغربية — تؤكد انشطار التجربة الزمنية، إذ يعيش المغاربة زمنًا فيزيقيًا مشتركًا مع أوروبا، لكنهم غارقون في زمن تاريخي مختلف، ما يجعلهم يظهرون كمن يعيش في "ماضٍ ممتد". ينتقد الباحث الإسقاطات غير الواعية التي يمارسها المؤرخون المغاربة عند إخضاع تاريخ المغرب للتحقيب الغربي، مؤكدًا أن مفاهيم مثل "الحديث" و"المعاصر" لا يجب أن تُستعمل إلا بعد مساءلتها: حديث بالنسبة لـ كُن؟ ومعاصر بأي معنى؟ كما يشير إلى أن الزمن لا يُقاس فقط بمؤشرات الكرونولوجيا، بل بمخرجات الحضارة والثقافة والسيروية التاريخية. النتيجة الأساسية للمقال أن الزمن التاريخي ليس إطاراً موحداً، بل يمكن أن يكون "ازدواجياً" ومفككاً في السياقات التي لم تمر بنفس السيرويات التحديثية الغربية، وهو ما يفرض مراجعة نقدية لأدوات التحقيب ومفاهيم الزمن التاريخي في الفكر العربي.

كلمات مفتاحية:

الزمن الفلسفي؛ الزمن الفيزيائي؛ الزمن التاريخي؛ التاريخ الوسيط؛ الزمن الظاهري

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٩ يناير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢١ فبراير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.446485

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد العزيز غوردو. "الزمن الازدواجي: مساهمة في المفهمة". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد السبعون: أغسطس ٢٠٢٥ ص ٥٤ - ٦٢.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: a.ghourdou@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان التاريخية للنوازل العلمية والبحثية، فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

أولاً: الزمن.. من منظور أوسع

(الفلسفة والفيزياء)

١/١- شيء من الفلسفة

اعتبر أرسطو، منذ ٢٤ قرناً، بأن الزمان لا يمكن أن ينفك عن الحركة؛ وذلك «أننا عندما لا نشعر بتغير في وعينا أو أننا تغيرنا ونحن لا نشعر لم نطفن إلى أنه مر زمان ما. وهذا نفس الشعور الذي انتاب الرجال ممن جاء ذكرهم في الأسطورة بأنهم كانوا قد ناموا مع الأطفال في البلد المسمى سردينيا: ذلك بأنهم لم يشعروا حين انتبهوا من نومهم فكانوا يضيفون "الآن" المتقدم لنومهم إلى "الآن" التالي ويجعلونهما واحداً»^(١)؛ فعندما نأخذ مستوى واحداً من التغير، ونفرض له "أنا" معينة، فإننا نحصل في النهاية على نوع واحد من الـ "أن"، ومع ذلك: «هل لكل نوع منها زمان مختلف، وهل يجب أن يوجد زمانان متساويان؟ فنقول ليس الأمر كذلك لأن نفس الفترة من الزمان هي التي يعدها "الآنان" في كل مكان في ذلك الوقت»^(٢).

ثم إنه لم يبحث فلسفياً في الزمن بعد أرسطو مثلما فعل هايدغر، الذي مَرَكَزَ فكره - عن الزمان - حول "الدازين"^(٣)، بأن وضعه في بؤرته وجعله ينخرط في تصور يعيد بناء الوعي وتشكيله لكيونة الإنسان، بما هو دازين، والدازين يبلغ "ماهيته" في الوجود الأصيل^(٤)، أي إنه محاولة لتصوير الوجود من خلال التجربة الذاتية والعالم الموضوعي باعتبارهما كينونة واحدة. لكن، وبما أنه "لا كينونة بدون زمان" (لأن الكينونة هي التي تتزمن في الزمانية)، فإنه «لكل كينونة زمن خاص»^(٥). والكينونة لا تتبدى إلا من خلال الاستشراف الابتدائي الذي يهبها المعنى^(٦)، حيث إنها «ليست ممكنة إلا بوصفها مستقبلية»^(٧). وكل هذا لا يتحقق «إلا بقدر ما يكون الدازين في عمومته باعتباره أنا أكون - ما - كنت، هو يمكن أن يُقدم على نفسه من جهة المستقبل، على نحو ما يعود إلى الوراثة»^(٨)؛ فينغلق المعنى هنا ليصير دائرياً، ومفتوحاً، على ما انتهت إليه الفيزياء «إن المضمون الظواهري لهذا المعنى، المستمد من هيئة الكينونة التي من شأن الاعتزام المسبق، إنما يستوفي دلالة مصطلح الزمانية. وينبغي للاستعمال الاصطلاحي لهذه العبارة

تأتي هذه الورقة ضمن محاور الندوة التي اختار لها معدوها عنواناً: «من "تحت الخيمة"^(٩) في متابعة للمفاهيم الهيكلية لدرس التاريخ (الزمن؛ المجتمع؛ المجال)»؛ وتقع تحديداً تحت علامة "الزمن" البارزة في هذا العنوان. يعرف م. بلوك الزمن بأنه «البلاسم التي تسبح فيها الوقائع التاريخية المدركة، والمفسرة، بالعقل؛ لكنه - أي الزمن - هو ما يسبح فيه المؤرخون أيضاً»^(١٠). فهل هذا التعريف كاف، مكتف بذاته، حقاً؟

لا ننفك نردد، مع كثيرين، ومنذ عقدين على الأقل، بأن المغرب لم يعرف غير تاريخ "وسيط ممتد" منذ اتصال الإسلام الأول به، وحتى مصابقة الاستعمار مطلع القرن العشرين؛ ما يجعلنا - أمام هذه المصابقة - نعيش أزمنة متداخلة عندما يحضر "الآخر" فيها بقوة لحظة استحضر المقارنة؛ ونشير إلى أن الأمر لا يتعلق برفض التسمية (الوسيط؛ الحديث؛ المعاصر) من حيث المبدأ، بل فقط عندما نقول الحديث، يجب أن نتبعه بسؤال: حديث بالنسبة لمن؟ ولأنه بالاستتباع يُصار إلى السؤال: متى (متى دخلنا هذا العصر وخرجنا من ذاك وبناءً على ماذا)؟ وهذا يتداخل مع شبكة مفاهيم مركبة ومعقدة فعلاً، ليس على المستوى النظري، بل على مجريات الأمور على أرض الواقع (مثلاً في موضوع تحديث المغرب نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الميلادي؛ يمكن التمييز بين التحديث والحداثة والتغريب... وفي مجال المقارناتية "Comparatisme" نقول بأن اليابان عرفت التحديث أما المغرب فلم يعرف غير شكل من أشكال التغريب، وكلاهما - المغرب واليابان - يعيش اليوم تحت مؤثرات الحداثة). وإن في هذا الطرح كله علاقة وطيدة بنظرتنا للزمن، أقول مُخرجات الزمن، بما أن ماهيته لا تُدرك إلا من خلال مخرجاته.

ما تبصره العين وتدركه الذاكرة من وقائع لا يعدو أن يكون لحظة آنية مسحوبة إلى الماضي^(١٤)؛ بل أكثر من ذلك: إن جسمًا يسير بسرعة الضوء فإن زمنه يصبح ثابتًا أو متوقفًا أبدًا، أما بالنسبة للضوء نفسه فلا يوجد شيء يسمى زمنًا؛ وأخيرًا بالنسبة للكوانطا، أو للعالم الذري، فإن كل القوانين تتعطل لدرجة تصيب بالدوار.

الزمن في منظور الفيزياء، كما الفلسفة، نسبي ويتفاوت من منظور لآخر، ومن موقع لآخر؛ ليس بسيطًا كما نعرفه نحن من خلال خط الزمن، الذي بسطته المقررات الدراسية حتى صار مبتذلاً، بل هو يمر عبر التواءات وانحناءات وارتكاسات وتراجعات... حتى لو بدا في شكله الأعم بأنه يسير دائماً نحو الأمام أي باتجاه المستقبل، لأن السير بغير هذا الاتجاه غير متحقق إلا نظرياً كما برهنت عليه نسبية أينشتاين. هذا التوجه نحو الأمام يجعلنا نحتاج إلى محددات فلكية تساعدنا على ضبط إيقاعنا اليومي، وهو ما جعل الإنسان الأول ينتبه إلى دورات القمر، ثم الحركة الظاهرية للشمس، ومن ثم اعتمادهما لتنظيم حياته من خلال تقسيم الزمن إلى وحدات (أيام؛ شهور؛ فصول؛ سنوات...) ما انتهى بنا إلى ما نسميه بـ"التحقيب التاريخي"، الذي يجعل الزمن الفلكي - المعتمد على أدوات التحقيب كما توافقنا عليها - للنص الذي بين أيدينا هو سنة ١٩٠٦، أي مطلع القرن العشرين.

ثانياً: الزمن الزوجي

١/٢- نظرة في نص برزيني

عملياً إذن نحن في مطلع القرن العشرين، وتحديدًا سنة ١٩٠٦م، حيث يبدو للوهلة الأولى أن زمن المغرب هو نفسه الزمن الحال في كل أمكنة العالم؛ لكن هل هذا هو الواقع فعلاً؟

قلنا سابقاً بأن الإنسان ما انتبه إلى الظواهر الفلكية إلا لاستعمالها في ضبط إيقاع حياته، لتطوير معيشه الفردي والمجتمعي (تطوير إنتاجه الفلاحي والحرفي والثقافي...)، وهذه المتابعة تقوده إلى رسم معالمة الحضارية في النهاية. لذلك فإن استحضار البعد الزمني لا يتأتى من أجل ذاته، فنحن لا نقارن سنة ١٩٠٦م في المغرب بنظيرتها (سنة ١٩٠٦م) في إيطاليا

أن يستبعد منذ البدء كل دلالات "المستقبل" و"الماضي" و"الحاضر" المنجزة عن التصور العامي للزمان. وذلك يصدق أيضاً على التصورات المتعلقة بزمان "ذاتي" و"موضوعي"، أو "محايش" و"مفارق"^(١١).

نخلص مما سبق إلى أن الزمان يشغل جزءاً كبيراً من كيفية تجربتنا للعالم، ومع ذلك فهو يقع خارج حواسنا لأنه ليس شيئاً يمكننا رؤيته، أو سماعه أو لمسه أو شممه كما أنه يستحيل الشعور به وجدانياً (عاطفياً أو انفعالياً)، صحيح أنه يمكن قياسه لكن ذلك لا يجيب عن السؤال: كيف نخبر الزمان بما هو تجربة واقعية معيشة؟ فهذه التجربة لا ترتبط من حيث المبدأ بأدوات قياس الزمان (الساعات والدقائق والثواني...) كما قد نتوهم، فنحن عندما نتحدث عن الوقت لا نتحدث عنه بأدوات قياسه، بل من خلال التجربة الحياتية، فعندما نكون بصدد تهيئ مشروع ضخم محدد بجدول زمني لإنهائه، تبدو لنا الأيام تمضي بسرعة كبيرة، بينما تمضي الثواني ببطء شديد عندما نكون داخل حلبة للملاكمة ونكون في وضع من يتلقى اللكمات؛ إن إدراكنا للوقت يتحدد انطلاقاً من الموقف الذي نوجد فيه وكذا ما نرغب في تحقيقه. إن الوجود في الواقع يعني ما نحن عليه وما هو العالم، فهما مرتبطان بشكل وثيق (ولهذا اعتبرت الفينومينولوجيا فينومينولوجيا من مدخل الاقتضاب والتعالي) بحيث لا يمكن الحديث عن العالم بعيداً عن تجربتنا، وبهذا المعنى فإن تجربتنا لا يمكن فصلها عن العالم الاجتماعي والطبيعي الذي نحن فيه.

٢/١- في ماهية الزمن الفيزيقي

لا يدرك الزمن الفيزيقي إلا من خلال لقائه التلازمي الإلزامي مع المكان، فمنذ أن كشف مينكوفسكي^(١٢) بأن الزمان والمكان لا يمكن التفكر فيهما إلا من خلال بعضهما، وإلا تحولا إلى مجرد ظلال؛ أدرك العالم حقيقة نسيج الزمكان كما غزله تلميذه أينشتاين في نوله سنة ١٩٠٥^(١٣)، لينضاف بعد رابع إلى الوجود (الطول والعرض والارتفاع والزمن) في النسبية الخاصة، قبل أن يضيف على المعادلة تعقيداً أكبر مع النسبية العامة سنة ١٩١٥؛ ولنتوقف عند المقولة: ليس هناك غير الماضي لأن سهم الزمن منطلق دائماً باتجاه الأمام، ولأن

في ثانيا الخطاب، وحيث تحضر المقارنة بين السكة الحديدية، رمز الثورة الصناعية وعصر البخار، والقافلة التي تعيد إلى زمن العصر الوسيط: «يفتقر المغرب إلى الطرق، بما فيها المرصفة بالتراب، الشيء الذي أسهم في بقاء البلد على حاله البدائية. إن تقدم الحضارة يتوقف أساسا على الطرق... والحق أن الحضارة لا تتقدم إلا على العجلات.^(٢٠)» لكن المغرب "لم يكتشف عجلته الأولى بعد، أو أنه نسيها."^(٢١)

إن الطرق والعجلات تربط المصالح والتجارة إلى بعضها، ما يجعل الناس يتحركون بسرعة واستعجال ولا يصبحون متحكمين في وقتهم، كما الحال عند الغرب؛ أما هنا، في المغرب، فالحركة تمضي ببطء ورتابة وانسيابية وهدوء... السير، ومن ثمَّ الزمن، هناك/أوربا سريع ومستعجل؛ أما هنا/المغرب فالأمور تسير بوتيرة منهكة^(٢٢). «وكأننا بصدد استفاقة جديدة وبإحساس حرية مستعادة»^(٢٣). فمن «المؤكد أنه في عمق ذاكرتنا الغريزية، ثمة ذكرى لا شعورية لحياة الترحال، ذكرى نائمة منذ قرون...»^(٢٤). الرحلة من طنجة إلى فاس - في الزمن المتهم الحاضر في ذهن برزيني - "قد تستغرق بضعة أشهر"، والواقع - كما يقول مترجما الكتاب - هي لا تستغرق حتى بمعيار "الزمن المغربي" وقتذاك إلا بضعة أسابيع^(٢٥).

لكن اللغة تفضح صاحبها دائماً، وهو ما تدل عليه العبارة التالية التي تختزن كل المفارقة في ذهنه عن الزمنين^(٢٦): «إن التميز (بين الحضارتين: الإسلامية والأوروبية) واضح بطنجة. والشرق والغرب يعيشان بها جنبا إلى جنب دون اختلاط، والقرن الثالث عشر والقرن العشرون بها، يتجاهل كل منهما الآخر، فنحس أننا ننقل من هنا إلى ذاك عشرات المرات في اليوم.»

ثم يؤكد: «لا يختلف احتشاد الناس في مدننا بشكله القديم عن مظاهر احتشاد السكان الأصليين بطنجة. فجماعات الرهبان، الذين خلفوا لنا حتى الآن الأرياء الشعبية الخشنة لألبسة العصر الوسيط، ما يزالون يظهرون بأزقتنا بعباءات شبيهة، بشكل خاص، بالجلابة المغربية التي هي عبارة عن عباءات حقيقية. ويبدو سكان جباله، الذين هم جيلو البادية الطنجية، كأنهم رهبان فرنسيسكان، ويظهر العرب مثل رهبان دومينكان،

مثلا، موطن برزيني، بل نقارن البلدين (المغرب/إيطاليا) كما انتهيا إلينا حضاريا سنة ١٩٠٦م، حيث تنبهننا المقارنة إلى "شخصية" الزمن "المتصدع"، غير المتكيف مع الواقع، الذي هو أشبه ما يكون بمزدوج الشخصية في عيادات الطب النفسي. الزمن المضمهر عند المؤلف، أو الزمن الازدواجي، لا يحضر إلا من خلال المقابلة بين الزمنين، والمقابلة لا تتأتى إلا عبر المقارنة بين حضارتين (أوربا والمغرب). أوربا تعيش التاريخ المعاصر، مطلع القرن العشرين؛ والمغرب يعيش مطلع القرن العشرين لكن في التاريخ الوسيط. وهذه المقارنة لم تتشكل عند الصحافي الإيطالي وحده، بل هي نتاج ثقافة حاضرة في ذهنية الآخر/الغربي، حيث زمنه غير زمن الأنا/المغربي؛ ولذلك فبرزيني ليس وحده في هذا المستوى من الاستنتاج (نستدعي بهذه المناسبة إدموند دوتي؛ روبرت مونطاني؛ بول باسكون؛ إرنست جيلنر؛ ريشي تين...)^(١٥)؛ ولذلك أيضاً فإننا لن نسترسل طويلاً في عرض الاستشهادات عند برزيني، بل سنكتفي بأمثلة دالة فقط.

يقول الصحافي الإيطالي: «إن المغرب يتآكل، وهذه الإمبراطورية تتعفن منذ خمسمائة عام وتتبدد قواها، دون أن تتفطن أوربا إلى ذلك.»^(١٦). هنا يتوقف الزمن التاريخي عند هذا الشعب، الذي لا يفطن إلى أن الزمن الفيزيقي ما زال مستمرا ولا يتوقف، بل لا يمكنه أن يتوقف؛ أما هذا الشعب فلا زال «يفخر بأصوله وبيدته، وهو منغلق على أعرافه القديمة، كما هي الحال مع السلهاام التقليدي ناصع البياض الذي يلبسه منذ عشرات القرون... وأكثر من ذلك، فهو شعب محارب ما يزال يستحضر غزواته القديمة، ويعتبر مسجد قرطبة ملكاً له، وما تزال عدة أسر تحتفظ ضمن كنوزها بمفاتيح أسلافها الذين سكنوا غرناطة وإشبيلية، وتستعرض جذور أنسابها العميقة بقلب أوربا.»^(١٧).

لا يتردد الإيطالي المفعم بحيوية الشباب على التصريح بأنه «كان من المقرر أن أنطلق في سفري على الساعة الثامنة صباحاً، لكنني تأخرت في ترتيبات السفر مدة خمس ساعات، وهي مدة طويلة في بلد لا يتم فيه التنقل عبر السكك الحديدية...»^(١٨)؛ ذلك أنه كان سيسافر على رأس قافلة^(١٩)، كما يحرص على تذكيرنا

إليه حضارتاهما. يقفان على عتبة زمن فيزيقي واحد (مطلع القرن العشرين، وتحديدًا سنة ١٩٠٦م) لكنهما يعيشان لحظتين أو زمنين تاريخيين مختلفين، أحدهما ما زال يجتر عوادي العصر الوسيط، والآخر يقف في منتصف التاريخ المعاصر، بعد أن عبر مسافة كاملة تفصل بين العصرين، وهي مرحلة التاريخ الحديث (بمعايير الإبستمولوجيا الأوروبية).

نتساءل: إذا كان الوضع فعلاً على هذه الحال في طنجة (ملقى الحضارتين بما يسمح بالمقابلة بين الزمنين مباشرة)، فكيف سيكون عليه الوضع داخل المغرب البعيد والعميق (مغرب الهامش، أو قل الهوامش)^(٢٦) ولعل هذا ما سيجعل الكتاب والرحالة وحتى الأناسين الفرنسيين يقفون عند مقارنة سادة الأطلس الكبير (الكلاوي والمتوكي والعبدى وعيسى بن أحمد ...) بسينيورية أوروبا الفيودالية لاحقاً.

نقول هذا ونحن نستحضر للمقارنة لحظة فارقة في التاريخ البشري وهي سنة ١٤٩٢م، الموسومة باكتشاف أمريكا، حيث يقف كريستوف كولمبس على ساحل "هيسبنيولا" دون أن يفرق بين يومه وأمسه، فكلاهما متشابه عنده، أما فيلسوف التاريخ في القرن ١٩م فيرى بأن اللحظة التاريخية (١٤٩٢م) توثق لحادث مفصلي بين عصرين (الوسيط والحديث)؛ فيما يقف الهندي الأحمر مشدوها أمام كل هذا البله. لك أن تتصور كيف يمكن لشخص، وليكن كريستوف كولمبس، أن يقف على ساحله يوماً ويقول له: "لقد اكتشفتك!" اكتشفت ماذا أو من أيها السخيف، أنا موجود هنا منذ القدم! لا يمكن لكريستوف كولمبس والهندي الأحمر أن يدخلوا تلك اللحظة من باب واحد هو التاريخ الحديث؛ فالأول جاء مدججا بالسلاح الناري والمدفعية وسفن الكرافيل وعاش زخم النهضة الأوروبية ويقف على مرمى حجر من الإصلاح الديني... وله كل المقومات التي تغريه بتوديع عصره الوسيط؛ أما الثاني فلم يدجن الحصان بعد ولم يدخل عصر الحديد بعد! وما زالت ملامح البدائية حاضرة فيه بقوة، وكأنه في أحسن الأحوال يتجول بين أفياء العصر البرونزي.

إن المشكل الذي يترتب عن هذا النوع من الكتابة، والقراءة، ومن ثم التأويل، لمركبٌ فعلاً. يرى برزيني

ويوجد بالأسواق بدويو الجنوب بأقباهم المدببة والطويلة جداً مثل شريط على أكتافهم، ويمكن أن نتعرف من خلال لباسهم على القبّ الفلورنسي. كما أن السلاهم المتداولة هنا، التي هي عبارة عن عباءات من الصوف الخشن بقبّ كبير، تشبه ما نراه على أكتاف التجار والبحارة على اللوحات المرسومة، وفق أسلوب البندقية في الرسم. وتلف على رؤوس الشخصيات المرموقة والشريفة رُزّ مطرزة، تتدلى بفخر على الأكتاف وتحيط بالأعناق، وهي تذكر كثيراً بتسريحات رعاة الفن الأنيقة الذين يظهرون إلى جانب العذارى خلال القرن الثالث عشر. إن هذا الشعب الذي يختلف عنا كثيراً في المظهر والروح، كان يشبهنا في الماضي.^(٢٧)

لا تكاد تمر صفحة دون أن ينقصد شكل، أو حتى أشكال، من المقارنة بين الأنا والآخر، "الأنا" بالنسبة إليه هو "الأوروبي/المتقدم" و"الآخر" - الذي نعتبره نحن "أنا" - هو "المغربي/المتخلف" ("الآخر" هو "الأنا" لكن منظورا إليه من الجهة الأخرى)، وهكذا فلي "زمني التاريخي" وله "زمنه"، يجتمعان فيما يبدو فيزيقياً، لكنهما يَنَاقِيان كثيراً عن بعضهما عندما تحضر المقارنة... ولهذا «كنا (جماعة الأوروبيين يقول الكاتب) نحس بهذا التناقض العجيب بين الحضارة التي غدتنا، وهذا العصر المغربي الوسيط الخلاب».^(٢٨)

«كان المغاربة يحتفلون بعاشوراء، وهو كرنفال مغربي... كان الموكب يغمر الأزقة، وكانت الفوضى تتلاشى بممرات الجسور المظلمة... وتخرج من بين الظلام الواحدة تلو الأخرى باتجاه الأسوار الحزينة البيضاء والمغلقة التي تتعدم فيها النوافذ. وبعد هذه المشاهد التي تعود إلى زمن غابر، كانت البواخر التي تعلوها مصابيح كهربائية وتسدل ظلالها الممتدة على مياه الميناء، تُحدث عند مشاهدتها نوعاً من الدهشة، تتجلى في أننا نعيش حياتين، ونتواجد في بلدين وبين عصرين وحضارتين في الآن نفسه».^(٢٩)

وبعد أن يستعرض برزيني حالة الأسواق المغربية يقول مستتجاً: «وقد شهد العصر الإيطالي الوسيط هذه الظاهرة بدورها...»^(٣٠)؛ فأحوال المغرب اليوم هي نفسها أحوال إيطاليا، لكن في عصرها الوسيط. إنه يقارن بين بلدين/حالتين تاريخيتين، من خلال ما وصلت

نستحضر ثانياً، وضمن هذا الإطار المنهجي الذي انتهينا إليه، ما نتعارف عليه عند تحليل النصوص التاريخية، ونسميه بالظروف التاريخية، أو ظروف إنتاج النص، أي استحضار كل الشروط المحيطة بالنص من أجل فهمه، وتتضمن هذه الشروط مجموع السياق الحدثي باستحضار المكان والزمان؛ حيث تنتهي مقولة المكان إلى المغرب في مجاله الدولي أو الجيوستراتيجي (وهو أمر لن نتوقف عنده في هذا المقال لأنه يقع خارج الأهداف المسطر لها)، أما مقولة الزمن التاريخي فتنتهي بنا تماماً عند نقطة التقاطع مع الزمن الفيزيقي، وهي في موضوعنا هنا بداية القرن العشرين (أوج تفجر وتوحش وتغول الإمبريالية)، حيث نضعها في ظرفيتها المؤطرة بالمدة القصيرة جداً، كما كان يحلو لبروديل أن يردد.

يقودنا الزمان (الفيزيقي والتاريخي) إلى زمن ثالث تختلط فيه الأزمنة هو: "الزمن الازدواجي". ولقد قلنا بأن الزمن الفيزيقي على علاقة وطيدة بالحركة، بحيث كلما ازدادت السرعة إلا وتباطأ الزمن، أما الزمن الازدواجي - عند المؤرخ - فيبدو على العكس من ذلك: فحيث تتباطأ الحركة يتباطأ الزمن، لأنه لا ينظر إلى الزمن في ماهيته وإنما من حيث مخرجاته الثقافية أو الحضارية.



في لعبة التركيب هذه، وبالعودة إلى أرسطو، وبما أن «الزمان والحركة يقدر كل واحد منهما الآخر تقديراً كمياً»^(٣٢)، فإن معيار الزمن هو ما تثبته حركة ما. ومنه فإن الزمن المغربي بطيء في حركته، بطيء في تعداده، بطيء في سيره نحو المستقبل... وقد دل على ذلك

الذي يعيش عملياً سنة ١٩٠٦م أوروبا من مدخل التاريخ المعاصر، لكنه يرى بأن المغرب الذي يعيش أيضاً سنة ١٩٠٦م ما زال يعيش تاريخه أو عصره الوسيط؛ أما المغربي المزامن له، فيعيش زمنه كما انتهى إليه، ويعتبره أمراً عادياً (لأنه لا يقارنه مع أحد آخر، ولا يستوعب دلالة التحقيب التاريخي كما يفترض فيلسوف التاريخ) فيعيش بالتالي "عصره" دون فلسفة؛ وتتعدد المشكلة عندما يكتب المؤرخ المغربي اليوم (وهو في نهاية القرن العشرين الميلادي أو مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي) تاريخ المغرب قبيل الحماية فيدخله تلقائياً ضمن التاريخ المعاصر، فيضعه من الناحية الشكلية ضمن "التحقيب الغربي"، ويسقط المضمون على الشكل فيجعله ضمن التاريخ المعاصر أيضاً؛ ترى لو عكسنا المسألة وانطلقنا من المضمون (بنية الاقتصاد والمجتمع والثقافة والسياسة...) هل كنا لنقول إننا نعيش التاريخ المعاصر أيضاً؟ كيفما قلبنا السؤال بالنظر، أو قلبنا النظر مع السؤال، إلا وانتهينا إلى مقولة "الزمن الازدواجي المنفصم".

٢/٢ تركيب: مراجعات في زمن المؤرخ البسيط^(٣٣)

نستحضر هنا أولاً، وللشروط الفيزيائية والفلسفية المنوه بها أعلاه، بأن سهم الزمن يتجه دائماً نحو المستقبل، وأنا نعيش دائماً في الماضي، لأن الحاضر منفلت باستمرار، غير أننا - مع ذلك - نُقسّم زمننا التاريخي إلى ماض وحاضر ومستقبل، كما نقسم "آتاه" بناء على ما انتهت إليه تصوراتنا، إلى ساعات وأيام وسنوات وقرون وفترات وأزمنة وعصور وحقب... تسهيلاً لموقعة الأحداث فيها، ولضبط بوصلة اتجاهاتنا الزمنية، وإلا عشنا في عماء أبيض حليبي على رأي ساراماغو، أو متاهة مرعبة من التدفق الزمني الذي لا يكسره إلا حاجز الموت؛ وضمن هذه التدفق الكبير الذي يفرضه الزمن المتماز نجتهد في تنزيل خطاطاتنا لتكسيه (التدفق) ولتنظيمه (الزمن) عبر ما نسميه: الكرونولوجيا؛ التحقيب؛ المدة... لكننا في جميع الحالات نحن من يضع البدايات والنهايات، منهجياً، لضبط الإيقاع.

المرور منه؟ أم أن الأمر كما كان يحلو للينين أن يردد "ليس ضروريا أن نمر من عصر البخار حتى نصل إلى عصر الكهرباء"؟ ثم (الثاني): وما هو شكل "التاريخ المعاصر" الذي سيدخله (المغرب)؟

خاتمة

انتهينا في حديثنا عن الزمن الفلسفي إلى أنه نسبي بحيث لا ينصرم بنفس الوتيرة على جميع الناس، والمثال الذي ضربه أرسطو هو مثال الفتية النيام الذين ذكرتهم الأسطورة. انتهينا أيضاً في حديثنا عن الزمن الفيزيائي إلى أن النسبية (الخاصة والعامة) اقتلعت من جذوره النيوتونية القديمة، التي كانت تنظر إليه باعتباره زمناً مطلقاً في جميع الكون، بعد أن ربطته بالكتلة/الجاذبية وبالحركة/السرعة.

لننتهي - في الزمن التاريخي - عند مقولة "الزمن الازدواجي"، بالنظر إلى المعطيات الفلسفية وخصوصاً الفيزيائية التي أسلفنا، إنه زمن نسبي ومتغير وكامن (Immanent) في النص التاريخي الذي بين أيدينا، بما عناه لالاند في قاموسه عن الكمون من الزاويتين الستاتيكية والديناميكية: «منذ أن نسعى للمساواة في ذاتنا بين الإرادة المرادة والإرادة المريدة، إنما نقاد إلى الاعتراف بوضوح متزايد أكثر فأكثر بأننا - لكي نمضي هكذا من ذاتنا إلى ذاتنا - ينبغي علينا الخروج من ذاتنا قبل العودة إليها»^(٣٦).

عادات وسلوك المغاربة في العمل وفي الأسواق وفي الأنشطة اليومية...، فكل شيء يسير على مهل، ولا داعي للعجلة أو السرعة، حتى إن أمثلة شعبية كثيرة ضربت في مديح ذلك ("لا زربة على صلاح"، "الفار لمقلق من سعد القط"، "المهل يتكال بودنجال"...). أما زمن إيطاليا، الذي هو زمن أوروبا عموماً، فهو سريع، متلاحق، مستعجل، ضاج بالحركة في العمل والحروب ومجرى المعيش اليومي.

إن مجتمعاً راكداً، أو لنقل لا يتحرك بالسرعة المطلوبة، يتباطأ زمنه إلى الحدود القصوى حتى يكاد يتوقف «فنحن عندما نحس الحركة إنما نعي الزمان»^(٣٤). ذلك أنه لما «كان المتحرك إنما يتحرك من هنا إلى هناك، وكان كل مقدار من حيث هو مقدار متصلاً، صارت الحركة تابعة للمقدار، وذلك أنه من أجل أن المقدار متصل صارت الحركة أيضاً متصلة، ومن أجل أن الحركة متصلة صار الزمان متصلاً، لأن الزمان المتصرم (باستثناء اختلاف السرعة) يتصور دائماً متناسباً أو على نسبة مع المسافة المقطوعة. وعلى هذا فإن الدلالة الأولية للقبل والبعد هي الدلالة المكانية للمتقدم والمتأخر»^(٣٥): بحيث تحيل إيطاليا/أوروبا على المتقدم (المعاصر)، بينما يحيل المغرب/الشرق على المتأخر (الوسيطة).

وكل هذا الصراع الداخلي يجعل برزني يتنقل بين زمنين، يعيش كالرقاص أو كبندول الساعة متردداً بين الزمنين من خلال متوجههما أو ما خطاه على معالم الحضارتين، وهو ما نلمسه على طول صفحات الكتاب. إنه يرى في المغرب ماضيه، وبمفهوم المقابلة فالمغرب يرى في أوروبا مستقبله. هذا ما كنّا عليه في الماضي، تقول "الأنا" الأوربية؛ وهذا ما يفترض أن نصير إليه في المستقبل، تقول "الأنا" المغربية. لكن الأمور لا تجري تاريخياً بهذه البساطة واليسر، والدليل الأقوى على ما نقوله: إن حضور الأوربي نفسه، بما هو مشروع إمبريالي، لم يأت ليسرّ وتيرة التحول نحو المستقبل المفترض للمغرب. سيأتي مستقبل المغرب بالتأكيد (بعرف المؤلف سيخرج من التاريخ الوسيط ويدخل تاريخه المعاصر)؛ لكن هنا يطرح سؤالان: (الأول) ما محل "التاريخ الحديث" من الإعراب؟ (هل هو ضروري

الملاحق



صورة رقم (١)

الدهشة، ما قبل الإيستيمولوجية، للحاج محمد تميم في عرض بالمسرح الإيطالي بباريس سنة ١٦٨٢م. على يسار السفير دو رايمونديس، وعلى اليمين حاكم سلا، ثم الحاج عبد القادر حفيد تميم، والمراكشي حفيد حاكم سلا.

اللوحة بريشة الرسام أنطوان كويل (Antoine Coypel)

فالزمن التاريخي عند الصحافي الإيطالي هو غير الزمن عند المغربي، لأن أوروبا تعيش سنة ١٩٠٦م زمنها الذي سرّعته عجلة التقدم الصناعي والفلاحي والتكنولوجي والثقافي... في حين تباطأ الزمن المغربي، منسحقاً تحت ضغط الركود الذي راكمه التاريخ الوسيط الممتد، ووصل على حالته المتهالكة تلك إلى سنة ١٩٠٦م؛ فالأوروبي يسافر في الزمن إلى "ماضيه" منظوراً إليه من خلال المغرب؛ أما المغربي فعليه أن يزور أوروبا ليرى فيها مستقبله، ولعل هذا ما يفسر مظاهر الدهشة والانفعال التي كانت تبدو على ملامح أطقم السفارات المغربية التي زارت العواصم الأوروبية وخلدتها حتى بعض اللوحات الفنية الشهيرة. (ملحق رقم ١)

في مقدمة هذا المقال قلنا إننا لا ننفك نردد، منذ عقدين على الأقل، بأن المغرب لم يعرف غير تاريخ وسيط ممتد منذ اتصال الإسلام الأول به؛ وفي علاقة جدلية بهذا لم ننفك نردد أيضاً بأن التاريخ ليس هو العلم الذي يهتم بدراسة الماضي؛ بل العلم الذي يهتم بدراسة السيرورات (Processus(s)، أي كيفية تبدل الأمور وتحولها من حال إلى حال. والسيرورة تفترض الحركة الدؤوب التي لا تتوقف، والحركة مرتبطة بالزمان لا شك؛ وبذلك فإن السيرورات تضعنا في مناطق متباينة زمنياً، حتى لو بدت الأمور غير ذلك ظاهرياً؛ ولهذا فإن النموذج الغربي النمطي لتحقيق الزمن التاريخي يجب تجاوزه: إننا لا نبني المناهج لتأكيد النموذج فقط وإنما لتحطيمه أيضاً.

الإحالات المرجعية:

- الغابرة. " (ص. ٩٨). أما الآخرون (دوتي، جيلنر، مونطاني، باسكون...) فمعروف أنهم أعدوا أطاريح كاملة قارنت بين السنيورية القروسطية الأوربية ونظام القايدية في مغرب القرن العشرين.
- (١٦) لويجي برزيني، تحت الخيمة: انطباعات صحافي إيطالي بالمغرب سنة ١٩٠٦، تقديم وترجمة رضوان ناصح ومصطفى نشاط، سليكي أخوين، طنجة، ٢٠٢٢، ص. ٢٢.
- (١٧) نفسه، ص. ٢٢. ويذكرنا هذا بالفلسطينيين الذين هُجروا بعد النكبة (١٩٦٧م) من ديارهم لكنهم ظلوا يحتفظون بمفاتيحها إلى اليوم، حالمين بالعودة إليها يوماً.
- (١٨) نفسه، ص. ٢٥.
- (١٩) نفسه، ص. ٢٥.
- (٢٠) برزيني، ص. ٣٧.
- (٢١) نفسه، ص. ٣٧.
- (٢٢) نفسه، ص. ٣٨.
- (٢٣) نفسه، ص. ٣٩.
- (٢٤) نفسه، ص. ٣٩.
- (٢٥) نفسه، ص. ٢٥.
- (٢٦) نفسه، ص. ٢٧.
- (٢٧) نفسه، ص. ٢٧-٢٨.
- (٢٨) نفسه، ص. ٣٠.
- (٢٩) نفسه، ص. ٣٢-٣٣. وخطوط التشديد لنا.
- (٣٠) برزيني، ص. ٤٥.
- (٣١) لأنه، بالقطع، ليس هناك هامش واحد متجانس؛ بل هوامش متعددة ومتراكبة، بحيث يبدو الواحد منها هامشاً للآخر: فهامش الدار البيضاء أو فاس هو غير هامش خيفرة أو فيكيك (حيث يفترض أن المدينتين الأخيرتين، خيفرة وفيكيك، هما أصلاً هامش للدار البيضاء وفاس)، وهامش الغرب أو زعير هو غير هامش الهضاب العليا أو الأطلس الصغير الشرقي، وهكذا...
- (٣٢) ننوه إلى أن النعت "البسيط" قد يعود على المؤرخ كما قد يعود على الزمن في الوقت نفسه.
- (٣٣) أرسطو، مرجع سابق، ص. ١٤٩.
- (٣٤) نفسه، ص. ١٣٥.
- (٣٥) أرسطو، مرجع سابق، ص. ١٣٥-١٣٦.
- (٣٦) أندريه لالاند، **موسوعة لالاند الفلسفية**، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات - باريس، ط. ٢، ١٩٠١، م. ٢، ص. ٦٢٥.

- (١) "تحت الخيمة" هو عنوان كتاب ألفه الصحافي الإيطالي لويجي برزيني، أثناء زيارته للمغرب سنة ١٩٠٦، وقام بترجمته كل من رضوان ناصح ومصطفى نشاط، وصدرت الترجمة عن دار سليكي أخوين، طنجة، ٢٠٢٢.
- (2) Marc Bloch, Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien, 5(ème) édit., Armand Colin, Paris, 1964, p. 45.
- (٣) أرسطو، الفيزياء - **السماع الطبيعي**، ترجمة عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩٨، ص. ١٣٥.
- (٤) نفسه، ص. ١٤٨. ولا شك أن المقارنة مفيدة هنا بين هؤلاء الفتية وفتية أفسوس (أهل الكهف)، من حيث إدراك عامل الزمن، ونسبيته.
- (٥) الذي عرفه هايدغر بهذا الشكل المربك والمستفز: "ما هو الدازين؟" "أن تسمح للشيء الذي يظهر نفسه أن يرى من خلال نفسه؟"، ونقول هذا بعيداً عن الترجمة الحرفية لـ: (هناك: DA)؛ (تكون: SEIN)، والتي تختزل عادة في " الوجود".
- (٦) هايدغر، **الكنينة والزمان**، ترجمة فتح المسكيني، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٢، ص. ٥٦٤.
- (٧) نفسه، ص. نفسها.
- (٨) نفسه، ص. ٥٦٦.
- (٩) نفسه، ص. ٥٦٧.
- (١٠) نفسه، ص. ٥٦٧-٥٦٨.
- (١١) نفسه، ص. ٥٦٩.
- (12) Sébastien Gauthier, « Hermann Minkowski : des formes quadratiques à la géométrie des nombres », Images des Mathématiques, CNRS 12 octobre 2009, lien : <http://images.math.cnrs.fr/Hermann-Minkowski-des-formes-quadratiques-a-la-geometrie-des-nombres>
- (13) Albert Einstein, L'inertie d'un corps dépend-elle de son contenu en énergie ? In Annalen der Physik, Septembre 1905. On trouve tous les écrits d'Einstein sur le site de l'université de Princeton, lien : <https://einsteinpapers.press.princeton.edu/vol2-doc>
- (١٤) لا يمكننا، ونحن نتحدث عن الزمن من منظور فيزيائي، ألا نحيل على الكتاب الأشهر الذي وضعه ستيفن هوكينج، تاريخ موجز للزمن (A brief history of time) الذي نشره سنة ١٩٨٨؛ وأعاد تلخيصه لاحقاً (بالاشتراك مع ليونارد ملوندينوف) بعنوان: تاريخ أكثر إيجازاً للزمن، وقد ترجمه إلى العربية كل من أحمد عبد الله السماحي وفتح الله الشيخ، وصدر عن دار العين للنشر.
- (١٥) يمكن أن نستدعي بهذه المناسبة أحكام ريشي تين (Richet Tienne, Voyage au Maroc, éditions populaires - Vasseurs et Cie, Paris, 1909)، حيث "يبدو المخزن - العدو لكل تقدم - كما لو أنه يصارع حتى لا يحصل أي تطور على البنس الفلاحية والصناعية العتيقة." (ص. ٩)؛ والممثل لـ "صورة الشرق الراكدة الذي لا يتحرك، وفي الأعراق المسلمة صورة المومياءات الفرعونية الميتة؛ هل هو خطأ هذا البلد الذي لا تتجدد ساكنته، بضخ دماء فتية شابة فيها، ما يجعله منضباً في الحفاظ على طابعه المادي الوفي للقرون

حوار مفاهيمي في الصحافة الحزبية المغربية

سعيد عطا

باحث في تاريخ المغرب والعالم المتوسطي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل - المملكة المغربية



ملخص

ارتأيت أن أخوض في تفكيك الحوار المفاهيمي الصادر في الجرائد الحزبية المغربية، لما له من أهمية في التعريف بالمضمون الذي احتوته هذه الجرائد عبر صفحاتها، والذي منح القراء المغاربة فرصة التعرف على مجموعة من المفاهيم والاستنتاجات بها، في ظرفية كانت هذه المفاهيم غائبة عن الأساليب التعبيرية التي كانت سائدة بين المثقفين المغاربة، كانت الجرائد الحزبية وقتها بأبأ مشرعة على الجديد من المفاهيم الثقافية، والتي ساهم عدد من الكتاب المغاربة، الذين كانوا ينزعون إلى الفلسفة والفكر الإسلامي وعلم الاجتماع والتاريخ والعلوم الإنسانية المختلفة بحكم تخصصاتهم، حيث كتبوا مواضيع ذات مشارب فكرية متنوعة أعطت لهذه الجرائد دفعة للمساهمة في الحقل الثقافي المغربي، والخروج به من مرحلة التقليد إلى مرحلة التجديد والبناء والتحديث، كانت هذه المرحلة هامة بالنسبة للثقافة المغربية التي نهلت من الثقافة الغربية وبالأخص الفرنسية، ومنحت الفرصة للمصطلح كي يجد مكانة بين المؤلفات المغربية، لدرجة أنها بدأت تغير من طروحاتها وتبني أساليب جديدة معاصرة سيكون لها وقع في أدبيات المثقفين المغاربة.

كلمات مفتاحية:

الحوار المفاهيمي؛ الديمقراطية؛ السور؛ الأحزاب السياسية؛ تاريخ الصحافة

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٥ يناير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٩ فبراير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.350586.1200

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سعيد عطا، "حوار مفاهيمي في الصحافة الحزبية المغربية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السابعون؛ أغسطس ٢٠٢٥. ص ٦٣-٧٢.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: babasaid636363@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

لا يختلف اثنان في كون الصحافة من الميادين التي تستأثر باهتمام الجميع، فالصحافة بحكم ما تقدمه من أخبار وتحقيقات واستطلاعات، قد أصبحت في يومنا هذا وبفعل الرقمنة في متناول الجميع ممارسة واستهلاكاً، لدرجة أن جنساً جديداً ظهر للوجود هو "الصحافي المواطن"^(١) والذي منح الفرصة لكل من يملك جهازاً ذكياً أن يحوله إلى منصة لإذاعة ونشر الخبر، ولم تعد الجريدة أو المجلة أو المذيع أو التلفزة محط اهتمام الناس بل دخلت ضمن وسائل التواصل الكلاسيكية، التي فقدت بريقها أمام سطوة الأجهزة الذكية التي أصبحت تقوم بنشر الخبر في حينه وبسرعة فائقة، فالشبكة العنكبوتية ربطت مفاصل العالم، وأصبح الزبون وبنقرة واحدة قادراً على التزود أو نشر الخبر العاجل في حينه ومن أي نقطة في العالم، أصبح العالم "قرية صغيرة"^(٢)، ولعل اهتمامي بالبحث في موضوع الصحافة الحزبية بالمغرب هو اهتمام نابع من شعوري بضرورة تتبع هذا السيل الهام من المعلومة التي وفرها العالم الرقمي، علني استطيع اللحاق ببعض جزئياته التي اعتبرها ذات أهمية آتية في معرفة جزء هام من تاريخ بلدي، فأهمية الموضوع عندي تكمن في كونه موضوعاً متجدداً باستمرار ولم تكتب فيه كتابات كثيرة، وسعياً مني في إغناء الخزانة المغربية خضت هذه التجربة، كما أن العلاقة بين الصحافة كمصدر مستمر وغني بالوثائق التاريخية، والتاريخ بوصفه علماً يسعى إلى إعادة تركيب وتحليل الظواهر الإنسانية في كل الأزمنة، قد يعطي للموضوع أهميته ويجعله قابلاً للتوسع في إطار أبحاث أخرى سأشرع في إنجازها مستقبلاً إن شاء الله تعالى، ويبقى بحثي هذا ضمن ما اصطلح عليه بتاريخ الذهنيات، لأن تغيير المفاهيم وتحيينها يندرج ضمن هذا الباب، في نفس الآن لا بد من التذكير بأن مادتي هاته لم يسبق التطرق إليها في أية دراسة، وبالتالي أتمنى أن تكون مجالاً لتوسيع البحث وتعميقه في مجال المفاهيم الواردة في الصحف الوطنية المغربية، لأنني أرى فيها جزءاً هاماً من تطور الذهنية المغربية، وانتقالها من المفاهيم التقليدية السلفية إلى المفاهيم المعاصرة ضمن

خطاب متجدد يربط ما بين المرسل (الحزب) والمتلقي (قواعد الحزب وقراء الجرائد).

١-مساهمة الصحافة الحزبية في إثراء القاموس المفاهيمي المغربي

مساهمتي هاته جاءت من باب تلافي الأناكرونية التي تزج بالمتقنين، في متاهات الرجوع بمصطلحاتهم للقاموس التقليدي، وتجعل من المحتوى العلمي لمنتوجهم الفكري معتلاً، لا يرقى إلى الأساليب الحديثة والمعاصرة والآنية، التي تعتبر أساليب تخدم المحتوى المعاصر للمفهوم، وهي مجموعة من المصطلحات التي أدرجت بين صفحات الجرائد الحزبية، ووجدت مكانة تنوعت عناوينها واختلفت طروحاتها حسب الخط التحريري للجريدة والإيديولوجيا التي يعتنقها مسؤولوها.

ونحن نبحث في التاريخ علينا أن نخضع لنصائح أساتذتنا، الذين يلحون علينا أن لكل حقبة تاريخية عدتها المفاهيمية الخاصة بها، في نفس الآن ومع انخراطي في بحث يخص الصحافة الحزبية بالمغرب، عليّ أولاً أن أنتبه إلى المصطلح وثانياً أن أحين عدتي المفاهيمية، لتساير محتوى بحثي الذي ينتمي تاريخياً إلى الحقبة المعاصرة والحديثة والآنية.

وعن المصطلحات التي جمعتها من عينة عشوائية لجرائد حزبية مغربية، أدرج الآتي:

"أجهزة الدولة الاجتماعية، استبداد الدولة، الإمبريالية الجديدة، استهلاك جمعي، الاشتراكية، إشكالي، الأصالة، الأصولية الدينية، اغتراب، الاقتصاد المركزي، الإمبريالية، أغلبية وأقلية (بمفهومهما الانتخابي)، الإيديولوجيا، البرجزة أو نظرية البرجزة، برلمان، البروليتاريا، البلرة أو التحول إلى بروليتاريا، البناء الفوقي، البورجوازية، التخطيط الخماسي أو الثلاثي، جماعات محلية، التقدمية، تراكم رأس المال، التعاقدية، الترشيح، الحزب (بمفهومه الحديث)، الديمقراطية، تقديس السلع، التكوين الاجتماعي، الكاريزما، المادية الجدلية، المعاصرة، الماركنتيلية، نقابة، الحتمية التاريخية، الخصوصية، الداروينية أو نظرية الانتقاء الطبيعي، دستور، ديكتاتورية البروليتاريا، الرأس مال، رأسمالية، الرجعية، الستالينية، السلفية،

٢- مصطلح الشورى والديمقراطية ما بين التراث والنهضة

مصطلح الشورى والديمقراطية من المصطلحات التي طرحت بقوة في الجرائد الحزبية المغربية، وكانت فترة بناء المؤسسات الدستورية التي تلت فترتي المطالبة بالإصلاح والمطالبة بالاستقلال، من أهم الفترات التي حاولت الجرائد الحزبية مواكبتها عبر مجموعة من المقالات التي ناقشت فيها معنى المصطلحين، فالشورى التي رأى أصحابها أنها الكلمة التي توازي الديمقراطية الغربية والتي حاولت بعض الجرائد توضيح قصدها في الإسلام وتقريبه إلى مفهوم الديمقراطية، لدرجة أن البعض رأى أن الإسلام سبق الغرب في مسألة الديمقراطية، لكن الجابري يرى غير ذلك حينما قال: "ومن هنا كان الفقه الإسلامي خالياً من باب بعنوان «باب الشورى»... وليس منهم (المتكلمين والفقهاء) من جعل الشورى شرطاً للخلافة. ذلك أن التصور الفقهي الإسلامي لمسألة الخلافة ينبني على أن الخليفة مسؤول أمام الله وحده وليس أمام من بايعوه طوعاً أو كرهاً...، يحكم فيهم بما أنزل الله، وليس فيما أنزل الله ما يوجب عليه التزام العمل برأي الناس، لا عامتهم ولا خاصتهم".^(٣)

والديمقراطية مفهوم غربي له جذور تاريخية بدأت مع اليونان واستمرت مع الرومان ولم يستتب لها المقام إلا مع تفكك النظام القبلي العشائري وانتهاء سلطة رئيس القبيلة، وقيام ظاهرة «المدنية»، وظهور فكرة «المواطن»، إضافة إلى بروز الطبقة البورجوازية التي جنحت بفكرها إلى محاربة الديكتاتورية أو حكم الفرد، وهذا مسار تاريخي لم تعرفه الدول العربية الإسلامية، بل قاومته في البداية لأنه في نظرها مناقض للفكر الإسلامي، المبني على طاعة ولي الأمر أساساً. «فالتاريخ العربي لم يعرف قط ظاهرة الصراع من أجل الحد من سلطة الحاكم الفرد أو فرض قيود أو رقابة عليه».^(٤)

الشورى والديمقراطية من السجلات التي دارت رحاها بين حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال، لدرجة أن الحزب الأول قال بعدم وجود الشورى في القرآن كمعطى مرادف للديمقراطية، ولعل قول الجابري

الشوفينية، شيوعية، الطبقية، علاقات الإنتاج، الفاشية، قوى الإنتاج، مادية جدلية، الماركسية، الماوية، السطالينية، اللينينية، نمط الإنتاج، التعادلية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، الصحة الإسلامية، تقرير المصير.

هذه مجموعة من المصطلحات الواردة في الجرائد الحزبية المغربية، وهناك أخرى لم أتوقف في وجودها، لأن العينة التي أخذت منها هذه المصطلحات كانت عشوائية كما ذكرت، وبالتالي فإن الموضوع لم ينته بعد لأن البحث فيه قد يكون فكرة لمادة جديدة موسعة، تصلح لأن تكون موضوعاً بحد ذاته مستقل عن مادتي هاتئ، فما قمت به هو تنبيه لهذا الموضوع قد يجد فيه غيري من الباحثين موضوعاً جديداً لبحثهم، هذا الحوار المفاهيمي الذي أردت من خلاله توضيح شيء قد يغيب عن البعض، هو أن الصحافة الحزبية المغربية ساهمت بقصد أو بغير قصد، في إثراء القاموس المفاهيمي للمغاربة، من خلال تطرقها لهذه المفاهيم الجديدة على الحقل المعرفي المغربي، فالملاحظات الثقافية للجرائد الحزبية ولا سيما لكل من جريدتي «العلم» و«الاتحاد الاشتراكي» وقبلها «التحرير» و«المحرر»، خلقاً من خلال سجاليهما جواً، ثقافياً أدبياً غذى الحقل المعرفي المغربي بمصطلحات ومفاهيم حديثة، دخلت إلى جامعاتنا ومؤسساتنا التعليمية ومنتدياتنا الثقافية بصورة عفوية.

وإذا حاولنا أن نتبع آثار وصول هذه المصطلحات إلى المغرب، وانتشارها على شكل واسع فإننا سنجد أنفسنا مرغمين على الرجوع إلى باكورة الأدب المغربي انطلاقاً من مجموعة من المضامين التي أنجزت في القرن التاسع عشر، والتي جاءت غنية بمفاهيم جديدة، لا أقول اختص بها المغاربة وحدهم بل هي مفاهيم عمت المشرق والمغرب دفاعاً عن مصلحة الوطن، تمثلت في مجموعة من الأزواج المتقابلة أو المتماثلة، التي شغلت مساحات واسعة في الصحافة الحزبية المغربية أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: «القطيعة والتقارب»، «النقل والعقل»، «التقيد والتحرر»، «التقليد والتجديد»، «الروحي والمادي»، «الأصالة والمعاصرة»، «التقدمية والرجعية»، «السيروية والقطيعة»، «الديكتاتورية والديمقراطية»، وغيرها من المتقابلات المفاهيمية.

مؤكدًا عجز المغاربة على التواصل بطرق حديثة: "لم تنشئ القوى الاجتماعية الوطنية، لهشاشة بنيانها الاقتصادي والاجتماعي والمالي، قنوات وأدوات وطنية (صحف ومطابع ودور نشر وتوزيع وإذاعة ومسرح وسينما الخ.) حقيقية للتواصل، خاصة بها، واكتفى بالتواصل الشعبي"^(٨)، وأرجع البكري ذلك إلى العمليات التي كانت "تقوم بها تارة الحماية وتارة المخزن وثالثة هما معا" أي "هي عمليات المنع والمصادرة والتغريم والتجريم وأنواع المضايقات"^(٩).

لكن مهما يكن يبقى هنالك خطاب يصل إلى المغاربة بطرائق أو بأخرى، وهو خطاب اعتمد على الموروث من الخطابات التي تركها السلف، ونهل من المستجد الذي تغدى على تيارات فكرية متعددة، منها التيار الغربي والمشرقي الذي جاء به المغاربة الذين درسوا في المعاهد والمدارس الأوروبية والمشرقية، ولهذا بدأ السجال قوياً ووجد في الجرائد الحزبية ضالته التي طعمته يومياً بأفكار جديدة تولدت من فكر مغربي حاول أن يبصم عن الهوية المغربية، نابغة أساساً من الثقافة المغربية، وهنا أستحضر قول الجابري: "فالتفكير بواسطة ثقافة ما، معناه التفكير من خلال منظومة مرجعية تتشكل إحداثياتها الأساسية من محددات هذه الثقافة ومكوناتها، وفي مقدمتها الموروث الثقافي والمحيط الاجتماعي والنظرة إلى المستقبل، بل والنظرة إلى العالم، إلى الكون والإنسان"^(١٠).

٤- سيرّ المثقفين المغاربة حاملة للحوار المفاهيمي

سيستمر هذا المسار مع مجيئ الاستقلال وسيشارك فيه نخبة من المثقفين المغاربة (علال الفاسي، عبد الخالق الطريس، محمد المكي الناصري، محمد بلحس الوزاني، المهدي بنبركة، عبد الرحمن اليوسفي، محمد عابد الجابري، قاسم الزهري، عبد الكريم غلاب، المهدي المنجرة، محمد العربي المساري، عبد الجبار السحيمي، أحمد باهي، محمد التازي) وغيرهم، هؤلاء كلهم سيبصمون على كتابات مميزة في الصحافة الحزبية المغربية (العلم، التحرير، المحرر، الاتحاد الاشتراكي، بيان اليوم، أنوال، L'Opinion،

وهو واحد ممن كانوا يكتبون بجريدة العلم بل كان أحد محرريها قبل الانشقاق الحزبي سنة ١٩٥٩، قد فصل كثيراً في هذه المسألة، وجعل مسألة الديمقراطية كمفهوم: "يتحدد، كغيره من المفاهيم النهضة في فكرنا الحديث والمعاصر بواسطة منظومتين مرجعيتين مختلفتين تماماً... المرجعية التراثية والمرجعية النهضة... الأولى تقرأ الديمقراطية في الشورى العربية الإسلامية والثانية تستقي عناصر التحديد فيها مما انتهى إليه التطور بالنضال من أجل الديمقراطية في أوروبا"^(٥).

هنا لا بد من الإشارة إلى أن هذه المفاهيم تولدت من تجاذب فكري ما بين تيارين، "تيار محافظ برر مواقفه عن طريق تقديم نصوص شرعية وفتاوى التراث، وتيار تحديثي متفتح عاد هو أيضاً إلى هذه المصادر، وحاول التوفيق بين مقاصدها وبين ما تذهب إليه القيم الأوروبية، واجتهد لإزالة التعارض والاختلاف الظاهر بينها"^(٦)، وبهذا انتقلت هذه المفاهيم إلى الصحافة الحزبية وقد أخذت تتحو نحو بلورة أساليب أدبية جديدة، ستعرف تطوراً مع الزمن لتبصم على أسلوب مغربي مخالف في بعض مفاهيمه لأسلوب المشرقيين، وحينما أقول مخالف فهذا لا يعني أنه مخالف في المعنى ولكن الخلاف يتجلى فقط في منطوق المصطلح، لأن المثقفين المغاربة اعتمدوا على القاموس الفرنسي وكيفوا مفاهيمهم حسب منطوق الكلمات الفرنسية وهنا نجد عدداً كبيراً من المصطلحات الحديثة التي اعتمدها القاموس المغربي انطلاقاً من القاموس الفرنسي.

٣- تأخر المغاربة في تبني المصطلح الحديث

لكن السؤال الذي يلح علينا بإصرار كي نجد جواباً له لماذا تأخر المغاربة في تبني خطاب تعبوي شامل وموحد؟ يجيبنا البكري محمد بن الرافة محلاً بنية المجتمع المغربي وقتها قائلاً: "مجتمع «المقدم» و«الشيخ» و«القائد» و«الباشا» و«المخزني»، من جهة، والفقيه والشريف ورجال الزاوية (الخواص) والعامي (العوام) من جهة ثانية، لا مجال فيه للصحيفة والجمعية والحزب والمدرسة الحديثة"^(٧)، يضيف نفس الكاتب لِمَا تقدم

بقرن تيهان الذهنية المغربية، إثر صدمة الحضارة التي هزت بعض الثوابت عند المغاربة.

٥- هجرة الجرائد الحزبية للعالم الافتراضي ودورها الثقافي

لا زالت هذه الجرائد الحزبية، على الرغم من هجرتها إلى العالم الافتراضي قسراً تؤدي بعضاً من مهامها الثقافية، ولا زال الحوار المفاهيمي يُدبج بعض صفحاتها ويبحث عن الجديد من المصطلحات التي تتنازل يومياً وتوثق للمشاهد الثقافي والسياسي العالمي عامة والمغربي خاصة، فمجريدة «العلم» و«الاتحاد الاشتراكي» و«بيان اليوم» (الجرائد التي وجدت لها مواقع في العالم الافتراضي)، لا زالت تقوم بأدوارها الثقافية ولا زالت تحمل مقالات وحوارات لبعض المفكرين المغاربة أمثال: «الطيب بياض ومحمد حبيدة وعمار حمداش وإبراهيم القادري بوتشيش وعبد العزيز الطاهري» وآخرين، على الرغم من هجرة العديد من القراء لها بفعل غياب الدور الحزبي في التأطير، وانشغاله بالانتخابات وحصد الكراسي في البرلمان والمجالس المحلية المنتخبة، لكن على مستوى المصطلح لا زالت صفحات هذه الجرائد تمدنا بالجديد الذي يغطي جميع الميادين الفكرية والثقافية والعلمية، ولعل العالم الافتراضي على الرغم من نقمته على الجرائد الوطنية، أصبح باباً مشرعاً على العالم يأتيها بالأخبار ما لم نُزود. فهل تعني نقمة العالم الافتراضي دخول الصحافة الحزبية مرحلة الاحتضار وانتظار السكتة القلبية النهائية؟ هو سؤال ستجيبنا عنه الأيام المقبلة ودورنا نحن الباحثين في التاريخ هو إبراز الحوار المفاهيمي الصادر في هذه الجرائد، وأهميته بالنسبة للظرفية التاريخية التي ظهر فيها، حتى نتمكن من معرفة الحثثات والملابسات التي أحاطت بهذا الخطاب على العموم، بغية توطئته داخل سياقه التاريخي العام الذي أدى إلى نشأة الصحافة الحزبية بالمغرب مع تتبع مساراتها من البداية إلى يومنا هذا.

٦- تطور الخطاب الحزبي مع تطور المجتمع

يبقى هذا الحوار عبارة عن خطاب متعدد المحاور متشعب الاتجاهات، ويبقى صاحبة في بحث دائم عن

Albayane, Liberation) وجرائد أخرى، وقد حملت السير الذاتية لهؤلاء المفكرين المغاربة الكثير من المعلومات القيمة، عن الحوار المفاهيمي الذي احتضنت مجرياته صفحات الجرائد الحزبية، والتي تحولت في غالب الأحيان إلى منابر الرأي والرأي الآخر، حيث أسست للفعل الديمقراطي بعيداً عن المؤسسات الديمقراطية التقليدية.

كانت كل جريدة تدافع عن طرح إيديولوجي معين، وكان الحوار يرقى إلى مراتب ثقافية، تدفع بالمغاربة أولاً إلى القراءة الفاحصة، وثانياً إلى التفكير العميق في الشؤون السياسية والثقافية، وثالثاً إلى تكوين رأي نقدي بإمكانه تفكيك الظاهرة الحزبية والسياسية والثقافية التي بنيت على هذا الأساس، وهذا ما جعل هذه الصحف توسع قاعدة قرائها سيما من الطلبة والمثقفين الذين وجدوا فيها ضاللتهم التي اشبعت فضولهم المعرفي.

المغرب الذي كانت له خصوصياته التي أدت إلى تكوين ذهنية الإنسان المغربي، "حيث ارتبطت كل الأسر الحاكمة بالعقيدة، وقامت على أساس ديني، فنشهد كيف يتم تطوير جامعة القرويين إلى أكاديمية للحديث، أي للعلوم الدينية الإسلامية، وكيف يتم استفزاز الفلسفة ويراد جعل الفكر الإسلامي بديلاً عنها على أساس أن الفلسفة مرادفة، في منطق الأيديولوجيا السائدة، للإلحاد ثم كيف تتأسس مجالس علمية دينية بالمدن كصيغة جديدة من صيغ التوجيه الروحي والتربوي للمواطنين"^(١). كان لابد من تبنّي هذا الطرح ونقيضه من طرف الأحزاب السياسية المغربية، وجعله مادة للحوار المفاهيمي من خلال إبراز الثنائيات التي سبق ذكرها، ومن خلال أدلجة التفكير الحزبي، الذي حاول أصحابه أن يبحثوا عن شرعية له وإخضاعه إلى مجموعة من الأطاريح، التي ناقشت مفهوم السلطة والمخزن والحريات العامة والديمقراطية من خلال مداخل عقدية تارة وفلسفية أخرى، هو حوار بدأ في سبعينيات القرن الماضي وقبلها بقليل، وجاء عن طريق تراكمات نتجت عن حوارات مفاهيمية سابقة بدأت بحلول القرن التاسع عشر، القرن الذي يمكن تسميته

المدارس والمعاهد الأوربية، لأن هذا المفكر هو وحده القادر على المزج بين الثقافتين المغربية والغربية، وهو وحده القادر على تكييف الثقافة الغربية مع الثقافة المغربية انطلاقاً من الحجج والبراهين التي يمتلكها، فالإنسان الأوروبي مهما حاول الإقناع لن تتوفر له هذه الأدوات التي يتوفر عليها المغربي، وهنا تبدأ مرحلة انتقائية الأفكار الغربية ومغربيتها وإشاعتها ضمن الثقافة المغربية انطلاقاً من مفاهيم، يعمل المثقف المغربي على نشرها عبر وسائل التواصل المتاحة وقتئذ (الراديو، والجريدة، والمجلة،...)، بلغة عربية فصيحة لها قدسيته عند المغاربة (لغة القرآن)، أو بلغة المستعمر (الفرنسية أو الإسبانية) لتوسيع قاعدة خطابه، هنا يصبح المفهوم الجديد مقبولا عند المغربي قابلاً للتداول في الخطاب اليومي، وأكثر من هذا يصبح جزءاً من الثقافة المغربية.

لم تكن فترة غزو الفكر الغربي للمغربي فترة طبعها العشوائية، بل هي فترة هامة في تاريخ الفكر والثقافة المغربيين، فالجماعات المثقفة بمختلف مشارب ثقافتها سواء الدينية أو الغربية، ماهي إلا جماعات مغربية تربت ونشأت على ذهنية المجتمع المغربي، فكثير من المثقفين المغاربة. وكما سبق وأن ذكرت. الذين درسوا في المدارس والجامعات الأوربية، بدأوا دراستهم الأولى في "المسيد" ومنهم من حفظ ستين حزباً عن ظهر قلب، بل منهم من حفظ "الأجرومية"^(١٣) أو "ألفية ابن مالك"^(١٤) أو "ملحة الإعراب"^(١٥) وغيرها من مختصرات النحو العربي، وبالتالي أصبحوا مؤهلين للخوض في قراءة القرآن وفهمه انطلاقاً من مستوى إتقانهم للغة العربية التي تتيحها لهم العدة اللغوية التي امتلكوها عن طريق هذه المختصرات.

وتبقى الجرائد الحزبية واحدة من القنوات التي اعتمدها المثقفون المغاربة بغية تكريس المفاهيم الغربية ضمن الخطاب الحزبي، هذا التكريس الذي جاء عن طريق حوارات وسجلات مفاهيمية جعلت من الخطاب الحزبي المغربي قناة حاملة لكل الأفكار والمفاهيم الغربية الجديدة، فمفهوم الديمقراطية الذي جاء عبر مجموعة من الطروحات، جعل من الجرائد الحزبية تتبناه بصفته مفهوماً مركزياً يؤدي إلى الاستقلال وتحرير الإنسان،

المتلقي، ما دام هذا الصاحب هو الحزب الذي يطمح من خلال تمرير هذا الخطاب عبر قنوات متعددة ليصل إلى المتلقي الذي هو المناضل أو المواطن المغربي، قلت يطمح إلى جعل الخطاب في مراحله أولى خطاباً ذو مصداقية قابلة على احتوائه لدى فئات عريضة من شرائح المجتمع المغربي، بل قابلة لأن تصبح مع مرور الوقت آلية من الآليات التي تحرك فكر ووجدان هذا المجتمع، فالخطاب الحزبي الذي اتخذ في البداية صفة الخطاب الإصلاحي ثم انتقل بعدها ليتقمص صفة الخطاب الاستقلالي، وجد في المجتمع المغربي الحاضنة الشعبية له سيما وأنه خطاب نابع من أحزاب ذات مرجعيات مغربية، تمتع بمبادئ وأفكارها من معين التقاليد والعادات والأعراف المغربية، لكن يبقى الخطاب في حد ذاته خاضعاً لتطور هذا المجتمع، وتأثره بالمحيط الذي أصبح مع مجيء الاستعمار، مضطراً لتلقي أفكار جديدة غريبة عن أفكار الإنسان المغربي، فخرجوا المدارس والمعاهد الدينية بالمغرب لم يعتمدوا خطاباً دينياً بالدرجة الأولى، لأنهم وبكل بساطة وجدوا أنفسهم أمام أفكار جديدة جارفة، وأمام أشكال من المفاهيم أخذت من الفلسفة الغربية روحها التي باتت نبضا يومياً لدى عدد من المفكرين المغاربة، لدرجة أن الذهنيات المغربية وقتها اصطدمت بمنطق جديد، فرض على المفكر المغربي أن يتقبل هذه المفاهيم انطلاقاً من شموليتها التي جعلت من حقوق الإنسان ديدنها ومحركها الرئيس، ولا يمكن لمفاهيم تمجد الإنسان وتبوءه مكانته العليا أن يرفضها المفكر المغربي، هذا الأخير الذي ينطلق من الدين الإسلامي في تفكيره، والدين الإسلامي في حد ذاته كرم الإنسان وبوأه مكانة عالية من بين سائر المخلوقات، "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً"^(١٦).

٧- دور المثقف المغربي في بلورة المفاهيم الحديثة

وتبقى الأحزاب المغربية وهي تقوم أنساقها الإيديولوجية، مضطرة إلى الاعتماد على المفكر المغربي، الذي بدأ تكوينه في المسيد (الكتاب القرآني) وأتمه في

ولذلك فمفهوم الديمقراطية في بلد متقدم اقتصاديا وثقافيا هو غير مفهومها في بلاد نامية أو تسير في طريق النمو، وكثير من الأنظمة تعتقد أن الديمقراطية شكل قابل لأن يحتوي كل مضمون^(٢٠).

٩- المغاربة والديمقراطية

استطاعت الديمقراطية أن تجد لها مكانة قارة بين نظم الحكم، وأصبح المغرب يتبنى هذه الديمقراطية بأحزابها ومؤسساتها المنتخبة، ولم يعد المغربي يجهل ما هي الديمقراطية، لكن معرفته لهذه الديمقراطية ذهبت لحد رفضها حيناً وتقبلها على علاتها حيناً آخر، فالجرائد الحزبية التي أصبحت معنية بهذه الديمقراطية أكثر من غيرها، باتت تعري على الهنات التي أصيبت بها الديمقراطية في المغرب، حيث أصبحت الأحزاب عبارة عن دكاكين انتخابية تتسابق من أجل رفع عدد الكراسي في المجالس المنتخبة، لكن الضحية الأولى هي الديمقراطية في حد ذاتها التي باتت مثار جدل وسخرية من طرف المواطن المغربي، "ديمقراطية! نعرف أنها لا تعطي خبزاً لجائع، لكنها تمكنه من أن يعلن عن جوعه أو أسباب هذا الجوع، وتمكنه من أن يحيا بكرامة، مواطننا فوق كل الشبهات"^(٢١)، عبد الجبار السحيمي الذي جعل من الافتتاحية القارة «بخط اليد» في جريدة العلم نافذة مفتوحة على المجتمع المغربي، حيث كان يعالج مجموعة من المواضيع التي تشغل بال المغاربة بطريقة هزلية وبأسلوب أدبي راق، قال في افتتاحية أخرى لجريدة العلم "لقد كان الخوف على الديمقراطية لا منها. أما الآن، وكما يقول «كلود جوليان»^(٢٢) فإن الديمقراطية أصبح لها عضلات، إنه تعبير أفضل من ذلك القديم الذي كان اسمه «الديكتاتورية»^(٢٣).

ناقشت هنا مفهوم الديمقراطية وكيف خاضت فيه بعض الجرائد الحزبية، مع العلم أن هذا المصطلح لا زال إلى يومنا هذا مثار نقاشات فكرية في مجموعة من المجالات الثقافية السياسية والفلسفية والاجتماعية، وما جئت به عن هذا المفهوم يمكن تعميمه على باقي المصطلحات الأخرى، ولعلي بإثارتي لهذا المصطلح أعوذ بالذاكرة المغربية إلى زمن البدايات الأولى لدخول المفهوم للمعترك السياسي المغربي، أي سنة ١٩٦٣ مع بداية تبني

وقد يكون للديمقراطية كمفهوم غربي آثاره البينة على عقلية الإنسان الغربي الذي رأى في المجتمع المغربي على أنه مجتمع منغلَق "بطريكي"^(١٦) (Société patriarcale) (Patriarchal Society) لا يؤمن بمفهوم الديمقراطية، لكن حينما يصبح هذا المفهوم وغيره من المفاهيم من المطالب الأساسية للإصلاح، يجد المستعمر نفسه أن مفهوم الحماية بإطاره القانوني قد أفرغ من محتواه ولم يعد ذي جدوى، وتعتبر جريدة "الاستقلال"^(١٧) من الجرائد الحزبية الأولى التي بادرت إلى إثارة مشكل الديمقراطية في المغرب: "وبينما كان القرن التاسع عشر، بالنسبة للبدان الأوروبية، قرن المساواة والديمقراطية والحرية، كان - بالنسبة للشعوب المستعمرة - قرن الاستغلال البشع، والاضطهاد، والمذابح..."^(١٨).

٨- مدخل الإصلاح في أدبيات الحركة الوطنية المغربية

كان مدخل الإصلاح من المداخل التي جعلت من أدبيات الحركة الوطنية المغربية تتحو نحو التطرق لمسألة الحكم في شموليته، إذ اعتبرت الديمقراطية من المفاهيم التي أعطت للإصلاح زخمه الحقيقي، فالإصلاح في حد ذاته هو باب مشرع على البحث عن العطب الذي مثله نظام الحكم في المغرب، لكن هذا الإصلاح لم يكن هو الهدف الرئيسي في حد ذاته، بقدر ما كان مرحلة من مراحل الشروع في جعل الحكم مطابقاً لحكم يستقي مبادئه من الأصالة والمعاصرة في آن واحد، فإصلاح الحكم لا يعني بالنسبة للمغاربة هو التشبه بما جاء به الغرب وحسب، بل بجعل الحكم ينهل من الأعراف والتقاليد الإسلامية، وينفتح على ما جاءت به الأعراف الغربية، ولهذا نجد بعض الصحافيين كعبد الكريم غلاب يجعلون من الشورى مدخلا أساسيا للديمقراطية بل أكثر من هذا فغلاب يرى أن الشورى هي "الكلمة العربية التي تحمل كل مفاهيم الديمقراطية"^(١٩)، فالديمقراطية ديمقراطيات تتبناها الدول وفق المكون الاجتماعي والثقافي للشعوب، "وكثير من نُظم الحكم تزعم أن أي «نظام ديمقراطي» يرتبط بمستوى وضعية الإنسان الذي يُمارسُهُ أو يُمارَسُ عليه،

التغيير الذي بنى أسسه على المادية الجدلية كبنية فكرية مذهبية فوقية تجعل المغرب (حسب تصور هذه الأحزاب) ينعتق كلياً من التبعية للغرب.

لكن هناك فريق آخر يرى أن التغيير لابد وأن يُبقي على الأسس التي بني عليها المجتمع المغربي، مع تطوير آليات تعامله ليساير المستجد من المفاهيم، ومحاولة بلورتها لتصبح مفاهيم قابلة للتطبيق على أرض الواقع، هذا الفريق الذي حاول أن يكيف هذه المفاهيم بل بحث عن مرادفات في ما كان متداولاً عند المجتمع المغربي المسلم، ليهتدي في النهاية إلى مصطلحات مثل الشورى، والطبقة العاملة، والتعادلية الاقتصادية والاجتماعية، والأصالة، والتراث، والحجاج، أي أن هذا الفريق لم يخرج عن إطار المفاهيم المتداولة ولكنه حاول من خلال تبنيه لهذه المفاهيم أن يثبت أن القاموس المفاهيمي للمغاربة يحمل مرادفات لمفاهيم التي جاء بها الطرف الآخر.

١٠- حوار مفاهيمي أم صراع من أجل الهيمنة

لو نظرنا إلى الحوار المفاهيمي للفريقين سنصل في النهاية إلى أنه صراع من أجل الهيمنة، وهذه طبيعة البشر التي تنتقل من الفرد إلى الجماعة عبر احتدام الحوار وبلوغه درجة متقدمة من البحث عن الفوز، "لكن قانوني الهيمنة (السلطة السياسية) والندرة (العرض والطلب) والرغبة والكرهية (العوامل النفسانية) لا تكف عن تأجيج الصراع بين الأفراد والجماعات الملتحمة بفعل الأدلوجة والمصلحة..."^(٢٤).

من هنا يمكن القول أن هذا الحوار المفاهيمي بني أساساً على صراع ما بين الفريقين بغية الوصول إلى الهدف المنشود، هو استباب الإيديولوجية الحزبية التي بواسطها سيبلغ الحزب إلى السلطة، فالحوار المفاهيمي يبقى وسيلة للبلوغ إلى الهدف النهائي، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الأحزاب السياسية فتحت باب الحوار من مدخل الصحافة الحزبية التي باتت الوسيلة الناجعة لتبليغ محتوى هذا الحوار المفاهيمي، قد نكون مخطئين حينما نقول بأننا نستعمل الحوار بغية الإقناع فقط، فكل حوار له مرمى يهدف إلى البلوغ لهدف معين، وانطلاقاً

المغرب للدستور الذي كان النافذة الأولى التي شرعت للعملية الانتخابية، والتي دخلت الأحزاب المغربية على إثرها إلى المؤسسات المنتخبة، وقد غيرت من جلدها وتبنت أسماء جديدة، كحزب الشورى والاستقلال، وجبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية، والحزب الاشتراكي الديمقراطي، وغيرها من الأسماء التي جعلت من هذه الأحزاب تتبنى الديمقراطية كمفهوم يندرج ضمن مرجعيتها.

لكن الديموقراطية التي تبنتها هذه الأحزاب تفسر وتؤول حسب أهداف معينة تتغيا منها هذه الأحزاب البلوغ إلى السلطة وفق محددات تختلف من حزب لآخر، تتماشى مع الظرفية التاريخية التي يمر منها العمل السياسي بالمغرب، فمرحلة الإصلاحات التي قدمت فيها الأحزاب الوطنية مطالب مستعجلة، ليست هي مرحلة المطالبة بالاستقلال وفك الارتباط مع الاستعمار، وليست هي أيضاً مرحلة بداية تبني المسار الديمقراطي الذي بدأ في المغرب مع سنة ١٩٦٣، هذه المرحلة التي فرضت على الأحزاب السياسية المغربية البحث عن الهوية الحزبية، والتي كانت بمثابة بداية حقيقية لصدام سياسي فكري فرض على الأحزاب السياسية تبني خطابات تنادي بالتغيير الجذري لمفهوم الديمقراطية، وكانت الأحزاب الوطنية المعنية الأولى بهذا التغيير، فلم يعد خطاب الاستقلال يجدي نفعا مع المد الجارف للتيار اليساري في العالم، والذي كان للمغرب نصيب وافر منه مع بداية ستينيات القرن العشرين، حينما تبنته الأحزاب اليسارية (الاتحاد الوطني للقوات الشعبية والاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية والتقدم والاشتراكية ومنظمة العمل الديمقراطي وغيرها من الأحزاب التي لبست قميص الاشتراكية).

هذا المد الذي تبلور عبر خطاب جديد اعتمد على مفاهيم الإمبريالية، والرجعية، والمعاصرة، والصراع الطبقي، والتغيير الراديكالي لبنى الاقتصاد والاجتماع، والبروليتاريا، والجدلية المادية، وغيرها من مفاهيم القاموس الاشتراكي الماركسي، ولعل كلمة التغيير الراديكالي تفسر لنا المقاصد التي أرات الأحزاب اليسارية بلوغها، أي تغيير في الذهنيات وتغيير في تركيبة المجتمع وتغيير في البنيات السياسية، هذا

خاتمة

من خلال الحوار المفاهيمي الذي ورد في الصحف الحزبية المغربية، يمكننا أن نستنتج أن الحوار لم يكن في يوم من الأيام بريئاً، بل هو حوار فرضته السياقات السياسية التي نشأت فيها هذه الأحزاب، يخضع إلى الخط التحريري لهذه الجرائد والذي غالباً ما يكون حبيس إيديولوجية معينة تتحكم في تأطير الفكر المهيمن على منظري الأحزاب السياسية المغربية، لكن في المغرب لا بد من التأكيد أن المذاهب السياسية سواء الاشتراكية أو الرأسمالية تخضع لما هو محلي وتتأثر بالتقاليد والعادات المغربية، فذهنية المغربي لا زالت تهل مما هو أصيل على الرغم من ارتدائها لباس المعاصرة، والحوار المفاهيمي يخضع لا محالة إلى كل هذه الاعتبارات لتجعل منه في الأخير خطاباً عصرياً يركز على الموروث الثقافي المغربي.

من الحوارات الفردية ولو في مستوياتها العادية، يكون الغرض النهائي هو البلوغ إلى هدف ما، فالمسابقات الثقافية التي تبدأ بحوار مبني على سؤال جواب، يكون الغرض منها الفوز بالمرتبة الأولى التي توصل في النهاية إلى جائزة ولو رمزية، لكن هذا الفوز في حد ذاته يوصل الفائز إلى الإحساس بنشوة الفوز، ويجعل الخاسر يشعر بخيبة الهزيمة، فالمسابقات الرياضية بنيت أساساً على هذا المنطق، ولهذا فالحوار المفاهيمي ما بين الأحزاب السياسية المغربية لم يكن في يوم ما بريئاً، بقدر ما كان لغرض البلوغ للسلطة، وما الانتخابات والدستور والقوانين المنظمة إلا غطاء، ويبقى مصطلح "الروح الرياضية"^(٢٥) الذي بات يستعمل في جميع المجالات منها السياسية، يبقى هذا المصطلح مجرد وسيلة للتهديئة وتقبل الهزيمة.

فالمناضل الحزبي قبل حضوره لأية تظاهرة يقيمها حزبه، يُعدُّ نفسياً لتقبل كل كلمة ستخرج من فم المسؤول المؤطر للتظاهرة، وبالتالي يخرج هذا المناضل وقد اقتنع بما سمع، ولو أن بعض ما جاء من كلام يعتبره في قريحة نفسه أنه غير منطقي ولا يتماشى مع الواقع، لكن حينما يريد التعقيب تكبحه نفسه التي اعتادت على تلقي الأوامر من الزعيم الحزبي، تماماً كالعسكري الذي يؤمر بالقتل والتكيل بالخصم دون أن يرف له جفن، مع العلم أنه إنسان يشعر بالألم ويؤنبه ضميره على ما فعل، لكنه يعلل ذلك بأنه ينفذ الأوامر التي صدرت من القيادة، نفس هذا المناضل يجد نفسه وقد استدعي لتظاهرة نظمها حزب غير حزبه، فتراه ينتقد ويُعلي صوته أمام زعيم ذلك الحزب حتى ولو أن كلام هذا الزعيم كلام يقبله المنطق والعقل، فهذه الحوارات المفاهيمية في حد ذاتها اختبار قوي لمناضلي الأحزاب، تجعلهم على الأقل يفرقون ما بين الغث والسمين وما بين الصالح والطالح.

الإحالات المرجعية:

- النوع من المجتمعات بتركيز السلطة والمسؤوليات الرئيسية في يد الرجال، وغالباً ما يُعتبر دور المرأة ثانوياً أو تابعاً.
- (١٧) جريدة تابعة لحزب الاستقلال ناطقة بالفرنسية، كان يديرها السيد عبد الرحيم بوعبيد، صدر أول أعدادها بتاريخ ١٢ / ١٠ / ١٩٥١.
- (١٨) بوعبيد ...، شهادات ...، م س، ص ٣٦١.
- (١٩) غلاب عبد الكريم، **أزمة المفاهيم وانحراف التفكير**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨، ص ١٠٦.
- (٢٠) نفسه، ص ١٠٧.
- (٢١) السحيمي عبد الجبار، بخط اليد، **شطايا من ذاكرة الزمن المغربي**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠١٠، ص ٤٣.
- (٢٢) **كلود جوليان**: (١٩٢٥ / ٢٠٠٥) كان كاتباً وصحفيًا فرنسيًا معروفًا في القرن العشرين. اشتهر بعمله في الصحافة السياسية والنقد الاجتماعي، حيث ناقش قضايا الحرية والمجتمع في العديد من مقالاته. شغل منصبًا بارزًا في صحيفة لوموند (Le Monde) وكان له تأثير فكري في الأوساط الثقافية. له كتاب بعنوان **"الديمقراطية أصبح لها عضلات"** وهو أحد أعماله الفكرية المهمة. الكتاب يعكس فكره وتحليله العميق لتطور الديمقراطية في العالم الحديث، وكيف تحولت من مجرد أفكار ومبادئ فلسفية إلى نظام قوي ومؤثر على مستوى العالم.
- (٢٣) السحيمي ...، م س، ص ٤٥.
- (٢٤) البكري محمد بن الرافه، **الخطاب السياسي للحركات الاستقلالية المغربية (١٩٤٢ - ١٩٥٦)**، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، ط ١، ٢٠١٥، ص ٨٩٥.
- (٢٥) مصطلح **"الروح الرياضية"** (Sportsmanship) "ظهر أول مرة في الثقافة الغربية، وتحديدًا في إنجلترا خلال القرن التاسع عشر. كان مرتبطًا بالتقاليد التربوية والرياضية التي كانت تُمارس في المدارس البريطانية الراقية، مثل Eton و Rugby. استخدم هذا المصطلح للتعبير عن مجموعة من القيم الأخلاقية والسلوكيات التي يجب أن يتحلّى بها الرياضيون، مثل اللعب النزيه، الاحترام، والتواضع، سواء في حالة الفوز أو الخسارة.

- (١) مصطلح استعمله الصحفي والباحث والأكاديمي الأمريكي دان جيلمور (Dan Gillmor)، حيث صاغ المفهوم بشكل واضح في كتابه **"We the Media"** (نحن الإعلام) الذي نُشر عام ٢٠٠٤. في هذا الكتاب، ناقش كيف أن التكنولوجيا الرقمية تتيح للأفراد أن يصبحوا جزءًا من العملية الإعلامية، مما يؤدي إلى تحول في طبيعة الصحافة التقليدية.
- (٢) تأسيسًا على ما استشرفه المنظّر الإعلامي الكندي مارشال ماكلوهان في أواسط القرن العشرين من إرهافات "القرية الكوكبية"، حسام شاكر، هل صار العالم قرية صغيرة؟ **موقع الجزيرة**: هل صار العالم قرية صغيرة حقًا؟ | الجزيرة نت aljazeera.net بتاريخ ٢٣ / ٩ / ٢٠٢٤، على الساعة ١٢:٤٤.
- (٣) الجابري محمد عابد، **وجهه نظر، نحو إعادة قضايا الفكر العربي المعاصر**، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٢، ص ١١٤.
- (٤) نفسه، ص ١٢١.
- (٥) نفسه، ص ١١٥.
- (٦) بوعفالة ودان، **"التحديات الوطنية في خطاب النخبة المغربية خلال القرن ١٣ هـ / ١٩م"** المناهل، ع ٨٩، ٩٠، س ٢٠١١، صص ٣٥-٦٣، ص ٣٦-٣٥.
- (٧) البُكرّي محمد بن الرافه، **الخطاب السياسي للحركات الاستقلالية المغربية**؛ من جندبر سنة ١٩٤٢ إلى مارس ١٩٥٦؛ بنيته ووظيفته في ضوء لسانيات الخطاب، ج ١، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط ١، ٢٠١٥، ص ٢٦٢.
- (٨) نفسه.
- (٩) نفسه، ص ٢٦٣.
- (١٠) الجابري محمد عابد، **تكوين العقل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، بيروت، ط ١، ص ١٣.
- (١١) الميني أحمد، **الأدب المغربي الحديث**، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ٢٠٢٣، د ط، ص ١٨.
- (١٢) القرآن الكريم، الآية ٧٠ من سورة الإسراء.
- (١٣) **الأجرومية**؛ هي كتاب مختصر في علم النحو، ألفه الإمام محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المعروف بابن أجروم (توفي سنة ٧٢٣ هـ). يُعدّ هذا الكتاب من أكثر الكتب شهرةً في تعليم النحو للمبتدئين، ويتميز بالاختصار والوضوح والترتيب المنهجي.
- (١٤) ألفها محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجبائي (٦٠٠-٦٧٢ هـ). بلغ عدد أبياتها: حوالي ١٠٠٢ بيت. موضوعها: تلخص قواعد النحو والصرف في منظومة شعرية.
- (١٥) **ملحة الإعراب** هي منظومة شعرية مختصرة في علم النحو، كتبها العالم والأديب القاسم بن علي الحريري (صاحب المقامات). تُعتبر من أشهر المختصرات التعليمية في النحو، حيث كُتبت بأسلوب شعري جميل وسهل الحفظ، مما يجعلها مناسبة للمبتدئين في تعلم قواعد اللغة العربية.
- (١٦) **المجتمع البطريكي** هو نظام اجتماعي وثقافي يقوم على سيطرة الذكور، حيث يتمتع الرجال بالسلطة الرئيسية في معظم المجالات، بما في ذلك الأسرة، السياسة، والاقتصاد، والثقافة. يتميز هذا

الأثر الاجتماعي للعلاقات الزيرية الفاطمية في المغرب الأدنى ومصر (٤ - ١٠هـ / ١٠ - ١١م)

د. ماجدة مولود رمضان الشرع

أستاذ مشارك في التاريخ الإسلامي
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة طرابلس - دولة ليبيا



ملخص

يتناول المقال الأثر الاجتماعي للعلاقات بين الدولة الفاطمية في مصر والإمارة الزيرية في المغرب الأدنى خلال الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى السادس الهجري (١٠-١١م)، مركزاً على التحولات التي مست المجتمعين نتيجة التفاعل السياسي والاقتصادي والثقافي بين الجانبين. انطلقت الدراسة من فرضية أن العلاقات بين الشعوب لا تتوقف عند حدود السياسة والاقتصاد، بل تعكس بعمق في البنية الاجتماعية والثقافية، وهو ما تؤكد ظواهر التمازج السكاني والعادات المشتركة بين مصر والمغرب الأدنى خلال العصر الفاطمي الزيري. فقد أدى التبادل التجاري المتنامي إلى استقرار أعداد من المغاربة في مدن مصرية، لاسيما الإسكندرية وقوص وصعيد مصر، حيث تركوا بصماتهم في الأسواق والأطعمة والعمران واللباس، في مقابل حضور مصري ديمغرافي واقتصادي في بلاد إفريقية. أبرزت الدراسة كذلك انتقال أنماط من الاحتفالات والطقوس، مثل مواكب الأعياد والمناسبات الدينية، من الفاطميين إلى الزيريين، مما يدل على عمق التفاعل الثقافي، كما رصدت المظاهر العمرانية التي شهدتها البلدان نتيجة هذه العلاقة، مثل إنشاء الطرق والأسواق والفنادق والقصور والمشروعات المائية. كما ناقشت الدراسة التأثير العميق للهجرة الهلالية على المجتمع المغربي من حيث نمط العيش، واللباس، والغذاء، محدثة تغييرات اجتماعية عميقة. خلصت الباحثة إلى أن العلاقات الفاطمية الزيرية شكلت قناة حيوية لنقل المظاهر الاجتماعية والثقافية والعمرانية بين المشرق والمغرب، وأن هذا التفاعل تجاوز السياسة نحو إعادة تشكيل الحياة اليومية. وتوصي الدراسة بقراءة العلاقات بين الدول الإسلامية في ضوء أثرها الاجتماعي، لا الاكتفاء بالجوانب السياسية التقليدية.

كلمات مفتاحية:

الفاطميون، الزيريون، المغرب الأدنى، الأندلس، الخلافة
الفاطمية، الهجرة الهلالية، المجتمع المصري

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٩ ديسمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٣١ يناير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.446488

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

ماجدة مولود رمضان الشرع. "الأثر الاجتماعي للعلاقات الزيرية الفاطمية في المغرب الأدنى ومصر (٤ - ١٠هـ / ١٠ - ١١م)". دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد السابعون: أغسطس ٢٠٢٥. ص ٧٣ - ٨١.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: mmgda2223@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نشر هذا المقال في جُورِية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (CC BY 4.0) (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندرانيين" ^(٤). أيضاً اشتهرت منطقة الصعيد بجنوب مصر بوجود جالية كبيرة من المغاربة؛ وذلك لتمييزها بكثرة المراكز التجارية التي عجت بالتجار المغاربة الذين جاءوا إليها بغرض التجارة والإقامة فيها، ومن القرى التي أقام فيها المغاربة قرية بني تهلان ^(٥) بالهنساوية ^(٦)، حيث ينسبون هؤلاء إلى قبيلة لواتة المغربية ^(٧).

أما قبيلة هواره فقد استقرت طائفة منهم في إقليم الجيزة منذ العصر الفاطمي، ثم نزحت هذه القبيلة إلى صعيد مصر، حيث لم يجدوا أية صعوبة في الاستقرار والتوطن فيه، فعظم أمرهم وأشدت بأسهم واشتغلوا بالزراعة ^(٨). تعتبر مدينة الإسكندرية بالنسبة للمغاربة المحطة الأبرز والأساسية لهم في عملية الحج والتجارة، لذلك نلاحظ إنهم عملوا على استكثار الوكالات والمخازن الخاصة بتخزين السلع التجارية بالمدينة التي كانت تجلب من بلاد الهند والشرق الأقصى، وبلاد الحجاز، فساهم هذا في إيجاد تنظيم اجتماعي خاص بهم بالإسكندرية ^(٩).

إضافة إلى ذلك يلاحظ أن تأثير المغاربة على الحياة الاجتماعية في مصر بلغ ذروته وعنفوانه إلى حد تأثر الخلفاء الفاطميين؛ وذلك من خلال تزينهم بأنواع من الثياب ذات الأصول المغربية، هذا ما أشار إليه ناصر خسرو في وصفه للمشهد الاحتفالي الخاص بموكب الخليفة المستنصر بالله عندما قال: "وقد ارتدى قميصاً أبيض عليه فوطة فضفاضة كالتي تلبس في بلاد المغرب" ^(١٠). كان من الطبيعي أن يترك المغاربة تأثيراتهم على المجتمع المصري في العصر الفاطمي، فقد كانت هناك أسماء مغربية لبعض الأسواق داخل عدد من المدن المصرية، مثل سوق المغاربة وسوق برير بالفسطاط، وسوق المغاربة بالإسكندرية، حيث كانت تباع فيها أنواع من الثياب والفرش المغربية منها البرانس والملاحف، والأحذية المطرزة، والبسط الصوفية ^(١١).

فيما يتعلق بالأطعمة المغربية، فقد كان لها وجود في مصر الفاطمية، حيث ذاع صيت الأكلات المغربية داخل المجتمع المصري منها أكلة "المروزية" ذات الأصل الفارسي، حيث انتقل تداولها إلى المغرب ومن ثم إلى مصر، وكانت هذه الأكلة تُعد في المناسبات مثل شهر

تتميز العلاقات بمختلف أنواعها بين الشعوب الإنسانية عادة بوجود نوع من التأثير والتأثر على نمط الحياة اليومية سواء من حيث التجدد السكاني الديموغرافي لأي منطقة بدخول عناصر سكانية مختلفة من تُّجار وصُنَّاع وحرفيين، أو ظهور عادات وتقاليد اجتماعية من حيث الملبس والمأكّل والاحتفالات مما يفسح المجال لحدوث تمازج وانصهار الشعوب بعضهم لبعض، هذا ما حدث فعلاً بين سكان مصر وسكان المغرب الأدنى خلال القرنين الرابع والسادس الهجري/ العاشر والحادي عشر للميلاد.

فقد شهدت بلاد المغرب الأدنى ومصر خلال الفترة التاريخية (٣٦١ - ٤٥٣ / ٩٧٢ - ١١٠٧م) وجود علاقات سياسية واقتصادية وعلمية وثقافية بين الفاطميين بمصر والزيريين بالمغرب الأدنى، حيث اتسمت تلك بالودية تارة وبالعداية تارة أخرى كلاً على حسب مدى قبول الخليفة الفاطمي للأمير الزيري ومدي طاعة الأخير للسلطة الفاطمية على بلاده آنذاك، خلفت تلك العلاقات خاصةً الاقتصادية وضع اجتماعي لكلا المنطقتين تجسدت في وجود ديمغوجية سكانية مصرية في المغرب الأدنى والعكس وجود حالة سكانية لمغاربة بمصر، كذلك وجود تمازج في العادات والتقاليد من حيث المأكّل والملبس والسكن بين سكان المنطقتين.

في هذا المقال سيتم التطرق إلى كيفية نتائج هذه العلاقة على صعيد الاجتماعي من طرح ثلاثة محاور رئيسة على النحو التالي: (حياة السكان في مصر وإفريقية، المدن والعمران، النتائج الاجتماعية للهجرة الهلالية).

أولاً: حياة السكان في مصر والمغرب الأدنى

أسهم التبادل التجاري بين الفاطميين والزيريين في وجود تأثيرات اجتماعية تمثلت في استقرار وإقامة عدد من المغاربة في بعض مدن وقرى مصر، فقد تواجد عدد كبير منهم في ^(١) مدينة قوص ^(٢) التي اشتهرت بكثرة أسواقها ومرافقها التجارية جعلت من التجار المغاربة يتوافدون عليها بقصد الاتجار والمتاجرة ^(٣)، حيث وصفها ابن جببر بقوله: "محط للرحال ومجتمع الرفاق، وملتقى

فيه بالأطعمة الفاخرة التي لا توصف... ويباع في هذا العيد النارج والليمون الحلو... ويستمررون على هذه الحالة خمسة عشر يوماً^(٢١).

أيضاً من الاحتفالات الاجتماعية التي احتفل بها الزيريون الختّان الجماعي^(٢٢) للأولاد الذي يعتبر من شروط الإيمان الصحيح، وفقاً لمقتضيات الشريعة الإسلامية^(٢٣)، حيث يرجع الفضل في إرساء دعائمه في بلاد المغرب إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، ومن ثمّ أصبح هذا الاحتفال تقليداً متعارف عليه في الإمارة الزيرية^(٢٤)، ففي سنة (٤٠٧هـ/١٠١٧م) خُتّن المعز بن باديس مع عدد من أبناء الفقراء الضعفاء الذين وزعت عليهم الكسوة والنفقة^(٢٥).

دأب كل من الخلفاء الفاطميون والأمراء الزيريين على الظهور في مواكبهم الرسمية بمظاهر الفخامة والأبهة التي تعكس حالة الترف والبذخ في حياتهم اليومية، فقد أشار ناصر خسرو إلى الموكب الذي ظهر به الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ - ١٠٩٥م). في إحدى الأعياد المسماة بعيد فتح الخليج الخاص بنهر النيل، حيث ذكر بأن الخليفة "لبس ثوباً من الحرير مرقوم بالذهب... ويسير في ركاب الخليفة عشرة آلاف فارس على خيولهم سروج مذهبة... وكذلك تسير جمال كثيرة عليها^(٢٦) هَوَاج^(٢٧) مزينة، وبغال هواجها مرصعة بالذهب والجوهر، وموشاة باللؤلؤ"^(٢٨). أما عن المواكب الأميرية في المغرب الأدنى، نالت هي الأخرى حظها من الفخامة والترف والبذخ سواء كانت تلك المواكب خاصة بأفراح الأمراء الزيريين أو بأفراحهم، ففي سنة (٤١٢هـ/ ١٠٢١م) توفيت والدة المعز بن باديس الذي رصد مبلغ مالي كبير قُدر بمائة ألف دينار؛ لغرض تجهيز مراسم جنازتها، حيث عُمِل لها تابوتاً من العود الهندي مرصعاً بالجوهر وصفائح الذهب، وسُمر التابوت بمسامير الذهب، ودُر عليها من المسك والكافور... وأمر المعز بخمسين ناقّة ومائة رأس من البقر وألف شاة فنحرت^(٢٩)، وفي سنة (٤١٤هـ/ ١٠٢٣م) توفيت عمته أم ملال "فحضر مأتمها بالطبول والأعلام وكانت من الترف والبذخ لم ير الملك ولا لسوقه مثلها"^(٣٠). في سنة (٤١٥هـ/ ١٠٢٤م) تزوجت أم العلو أخت المعز، "حيث زُين القصر، ودخل الشعب كله ليشاهد

رمضان والأعياد الدينية الأخرى^(٣١)، ومكوناتها تتمثل في لحم الدجاج المُتبل بالتوابل مع الزيت واللوز المقشر، وُصفت هذه الأكلة بأنها "من أطعمة إفريقية والبلاد المصرية"^(٣٢). كذلك شاعت في مصر أكلة "الكسكسي" المعد من القمح الصلب، وهو طعام سريع الهضم ويُعدّ من الأطعمة المهمة عند المغاربة^(٣٣). إضافة إلى الأطعمة السابقة، عرف المصريون عدد من أطعمة الحلويات المغربية الأصل مثل حلوى "الزلاية" المعدة من الدقيق الذي يعجن ومن ثمّ يتم تخميره، ثمّ تؤخذ العجينة على هيئة أقراص وتقلّى في الزيت ومن ثمّ تحلى بالسكر أو العسل^(٣٤).

تأثر الأمراء الزيريين بالخلفاء الفاطميين في مظاهر فخامتهم وبذخهم وترفعهم في الاحتفالات الدينية مثل احتفالاتهم برأس السنة الهجرية، والاحتفال بالمولد النبوي الشريف، والاحتفال بقدوم شهر رمضان، حيث يأمر الأمراء بتوزيع الأطعمة والحلوى والصدقات على الناس، إضافة إلى إصدارهم لحزمة من القوانين التنظيمية التي من شأنها أن تنظم عملية الاحتفال بهذه المناسبات منها إغلاق حانات الخمر، ومنع بيعه ابتداء من أول شهر رجب إلى نهاية شهر رمضان^(٣٥).

إضافة إلى ذلك تأثر الزيريون في احتفالاتهم ببعض الأعياد والمناسبات الدينية الفاطمية، حيث داوموا على الاحتفال بها سنوياً، منها الاحتفال بيوم عاشوراء الذي قُتل فيه الحسين بن علي بن أبي طالب^(٣٦)، وظل يُحتفل به حتى القطيعة السياسية والمذهبية والاقتصادية في عهد المعز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٣ هـ/ ١٠١٦ - ١١٠٧م) الذي عمل على إلغاء الاحتفال بيوم عاشوراء، لكن أعيد الاحتفال به من قبل الزيريين بما يتوافق ومع السنة النبوية الشريفة، حيث أصبح الاحتفال به في اليوم التاسع من شهر محرم "يواظبون فيه على أكل الدجاج والطعام الذي يقال له الدويدة وهو بمثابة الكنافة عند المصريين"^(٣٧).

كما احتفل الزيريون بعيد النيروز الذي يحتفل به عادة في بداية فصل الربيع^(٣٨)، وهو من الأعياد القديمة التي احتفل بها الفاطميون، حيث كانت فكرة هذا العيد من بلاد فارس^(٣٩)، ويصف لنا ابن أبي دينار مظاهر هذا العيد بقوله: "ينفقون فيه أموالاً لا تحصى، ويتفاخرون

معلمين مهرة ينحثون^(٣٦) بوراً^(٣٧) غاية في الجمال وهم يحضرونه من المغرب^(٣٨).

كانت الخزانة المالية الخاصة بالدولة الفاطمية تُدعم بأموال من المغرب وخاصة من المغرب الأدنى، وقد أكد ناصر خسرو ذلك بقوله: "وسمعت من الثقات أنه يصل منها لخزانة سلطان مصر يومياً ألف دينار مغربي"^(٣٩) وتستخدم هذه الأموال في إقامة بعض المشروعات الخدمية التي تخدم البلاد والعباد وأقيمت بمصر^(٤٠) سواق^(٤١) كثيرة على المرتفعات والتلول؛ وذلك حتى لا تغرق... وقد أنشئوا على الشاطئ... جسراً من الطين ليسير عليه الناس، وتصرف خزينة السلطان كل سنة للعامل المعتمد عشر آلاف دينار مغربي لتجديد عمارته، ويجهز أهل الولاية حاجاتهم الضرورية كلها^(٤٢).

كما كان للتبادل التجاري الفاطمي الزيري أثره في انتشار الوكالات التجارية في مصر، حيث ذكر ناصر خسرو أنه عندما عزم على مغادرة^(٤٣) مدينة أسوان^(٤٤) إلى بلاد الحجاز كتب كتاباً إلى وكيله في^(٤٥) عيذاب^(٤٦) يوصيه بأن يدفع له ما يريد مهما كانت قيمته، وأن ناصر سيعطيه مقابل ذلك صك نقدي يغطي قيمة مائة من، من الدقيق^(٤٧). كما تفانى الفاطميون في بناء القصور والتي تشهد بثناء مصر ورخائها اقتصادياً مثل قصر ومسجد القرافة الذي بنته تغريد ابنة الخليفة المعز لدين الله سنة (٣٦٦هـ / ٩٧٦م)^(٤٨) والقصور التي بناها الخليفة العزيز بالله في منطقة عين شمس بالقاهرة^(٤٩) التي منها قصر اللؤلؤ وقصر الجوهرة^(٥٠).

أما الإمارة الزيرية، فقد تميزت هي الأخرى بطفرة عمرانية كبرى تمثلت في إنشائها لعدد من الطرق التجارية البرية منها والبحرية، إضافة إلى الفنادق والأسواق، والمساجد والقصور، وبعض الوكالات التجارية المنتشرة في عدة مدن ساحلية بإفريقية، نذكر منها:

١/٢- الطرق البرية

كانت هناك عدة طرق برية داخل الإمارة الزيرية ساهمت في سهولة العملية التجارية بين مدن المغرب والمشرق الإسلامي، فقد أشار المقدسي إلى الطريق التجاري البري الذي يربط طرابلس بالقيروان، حيث يمر هذا الطريق بعدة مناطق عمرانية مأهولة منها مناطق

جميع الأحجار الكريمة والمنسوجات... والأواني الفضية والذهبية المقدمة لها^(٣١).

نلاحظ أن الغرض من ظهور الخلفاء الفاطميين والأمراء الزيريين بهذه الهالة من الفخامة يدل على رغبتهم في كسب محبة الناس وفي الوقت نفسه إظهار الهيبة والقوة لمن يحاول زعزعة استقرار دولتيهما سياسياً.

ثانياً: المدن والعمران

أدى توجه الخلافة الفاطمية والإمارة الزيرية للتجارة الخارجية إلى حدوث طفرة عمرانية كبيرة ساعد في حدوثها الازدهار الاقتصادي الكبير الذي شهدته الدولتين، فكانت مظاهره تمثلت في إنشاء الطرق التجارية بنوعها البرية والبحرية، والفنادق، والمساجد والقصور، والأسواق، والمشاريع الإنمائية، والوكالات التجارية. فقد ساهم التبادل التجاري بين الفاطميين والزيريين في التأثير على الحياة العمرانية بمصر، حيث انتشرت الطرق التجارية بين الطرفين سواء القادمة من الإسكندرية أو من داخل إفريقية فكانت تلتقي كلها في مدينة الفسطاط التي كانت تمر من خلالها كافة أنواع البضائع الشرقية والغربية من منسوجات ومعادن^(٣٢).

وصف المقدسي ثراء مدينة الفسطاط بالقول: "إن الأسواق قد التفت حول جامع عمرو، إلا أن بينها وبينه من نحو القبلة دار الشط وخزائن وميضأة وهو أعمر موضع بمصر"^(٣٣). كما أشار ناصر خسرو إلى كثرة الأسواق والدكاكين في مصر بقوله: "أن جزيرة تيس بها أسواق ضخمة وجامعان، ويبلغ عدد الدكاكين بها عشرة آلاف دكان، منها دكان عطار"^(٣٤)، وذكر في موضع آخر "أن مدينة القاهرة بها ما لا يقل عن عشرين ألفاً دكان كلها ملك للسلطان، وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير مغربية في الشهر، وليس بينها ما تقل أجرته عن دينارين"^(٣٥)، وأشار كذلك في موضع آخر إلى سوق القناديل الذي يقع بالقرب من مسجد "جامع الجوامع" بالقاهرة حيث قال: "لا يعرف سوق مثله في أي بلد، وفيه كل ما في العالم من طرائف، ورأيت هناك الأدوات التي تصنع من الأمشاط ومقابض السكاكين، ورأيت كذلك

تشتهر بمينائها البحري وبصناعة المراكب^(٦٠)، وتونس التي تشتهر بميناء رادس البحري^(٦١)، وجربة التي بها ميناء يُصدر منه الزيت إلى مصر وصقلية، والمدن الإيطالية^(٦٢). أما طرابلس، فكانت تصل إليها المراكب محملة بمختلف أنواع التجارات، كما تأتي إليها مراكب من بلاد الروم ومن أرض المغرب^(٦٣).

تكثر بمدينة بنزرت الموانئ والمراسي؛ وذلك بحكم موقعها على ساحل البحر مثل مرسى الوادي^(٦٤)، ومرسى بنى وجاص، ومرسى القبة^(٦٥). كانت هذه الموانئ تنشط في فصول السنة المعتدلة وتتوقف في فصل الشتاء، فتتحول التجارة البحرية إلى التجارة البرية المتمثلة في ثلاثة طرق تمر من سجلماسة إلى القيروان، فطرابلس فبرقة حتى تصل إلى مصر، وبذلك تكون هذه الطرق قد سدت الفراغ الذي يتركه توقف الرحلات البحرية^(٦٦).

الفنادق وهي عبارة عن أبنية تتألف من عدة طوابق، حيث تخصص الطوابق العليا منها للسكن في حين تكون الطوابق السفلى كمخازن^(٦٧). انتشرت الفنادق بشكل كبير في عدة مدن المغرب الأدنى؛ نظراً لإقامة التجار من مختلف البلاد وبقائهم لفترات طويلة، فاستدعى ذلك وجود عدد من الفنادق من أجل إيوائهم وبضائعهم، وكان لهذه الفنادق دور كبير في انتعاش الحياة الاجتماعية والاقتصادية بإفريقية^(٦٨). ورد ذكر الفنادق في بعض الفتاوى، فقد سئل الفقيه المازري عن شريكين في فندق توفي أحدهما وترك ورثة ثم توفي الآخر وترك ورثة، وقد أدى هذا إلى وقوع نزاع بين الورثة على الفندق^(٦٩).

تحدثت بعض المصادر الجغرافية والتاريخية عن الفنادق التي وجدت في بعض مدن المغرب الأدنى، فأشار البكري إلى كثرة الفنادق في مدينة قلشانة - الواقعة إلى الجنوب الشرقي من مدينة القيروان - حيث بلغ عدد الفنادق فيها عشرين فندقاً، وقال عن مدينة تونس أن بها فنادق كثيرة^(٧٠)، كذلك الحال بالنسبة لصفافس فهي الأخرى تحتوي على عدد من الفنادق^(٧١).

٣/٢- المساجد والقصور

أمر بعض الأمراء الزيريين ببناء بعض المساجد والقصور، كما فعل الأمير المنصور بن بلكين، حيث أمر ببناء مصلى للعيد في رقادة^(٧٢)، إضافة إلى بناءهم

كنانة واليسر، وبئر زيتونة، وقابس والفوارة، وقصر الدرق، وبحر الحمالين وصولاً إلى طرابلس^(٥١).

أشار الإدريسي إلى الطريق الذي يربط بين قابس وطرابلس، حيث يمر هذا الطريق بوادي أحناس وبئر زناتة، وتامدفيت، وآبار العباس، وبئر الصفا وصولاً إلى طرابلس^(٥٢). تحدث ابن حوقل عن الطريق الذي يربط القيروان بالمسيلة، فذكر أنه يبدأ من القيروان فيمر بجلولا ومن ثم إلى آجر، ومنها إلى الأريس وتامديت ثم إلى تيفاش^(٥٣)، أيضاً هناك طريق آخر متفرع يربط القيروان بقلعة أبي الطويل، فيمر بالأريس وتيفاش، والقصر الإفريقي ووادي الدنانير، وتيجس وصولاً إلى قلعة أبي الطويل^(٥٤).

أما الطرق البرية التي تربط إفريقية بالمغربين الأوسط والأقصى، فنذكر منها الطريق الذي يربط بين القيروان ووهران، حيث يمر بعدة مدن ومناطق ومحطات تجارية منها قصر المنصور بن سنان وأحساء عقبة بن نافع، وبسكرة وتوزر وقفصة ومن ثم إلى وهران^(٥٥). بالنسبة للمغرب الأقصى كان هناك طريق تجاري يربط بين القيروان وفاس، فيمر هذا الطريق بقفصة وقسطيلة، وتاهرت ومنها إلى فاس^(٥٦)، إضافة إلى الطريق الذي يربط منطقة النكور بالقيروان والذي يمر بوادي نهر ملوية وجراوة^(٥٧).

أما الطرق البرية التي تربط مدن إفريقية بالمدن المصرية، فتتمثل في الطريق الذي يربط برقة بالإسكندرية، فيمر بقصر الندامة وتاكست، ومعار الرقيم، وكنايس الحرير، والطاحونة ومن ثم إلى الإسكندرية^(٥٨). ذكر المراكشي أن الطريق البري الذي يربط القيروان بالإسكندرية كان عامراً، وهذا فيه دلالة على أن هناك اتصال عمراني بينهما والذي جاء نتيجة للقوافل التي كانت لا تنقطع فيها فهي كانت تمشي فيها ليلاً ونهاراً^(٥٩).

٢/٢- الطرق البحرية

ساهم النشاط التجاري الزيري في وجود عدة طرق بحرية تربطهم بسواحل البلدان التي تنشط معهم تجارياً سواء كان ذلك مع مصر أو مع الأندلس، أو صقلية، فهناك مدن إفريقية تقع على الساحل كانت لها موانئ تستقبل فيها السفن التجارية نذكر منها: سوسة التي

ثالثاً: النتائج الاجتماعية للهجرة الهلالية

كان للغزوة الهلالية^(٨٢) تأثير على المغرب الأدنى دون مصر من الناحية الاجتماعية، فقد أسهمت في انتشار الأغاني والأهازيج والرقصات، واستعمال الطبول بكثرة في المناسبات الاجتماعية^(٨٣)، أيضاً كان للهلاليين تأثير على أسلوب الحياة لدى سكان المغرب، وذلك من خلال انتشار استخدام الخيام التي غطت السهول، فقد كان أهل البادية في السابق يقيمون في مساكن بدائية تسمى بالأكواخ والمصنوعة من عيدان القصب وجريد النخيل^(٨٤).

أما الألبسة، فقد شهدت هي الأخرى تغييراً عند سكان المنطقة، فقد انتشر لباس العمائم ولبس المخيط بالنسبة للرجال الذين كانوا في السابق يلبسون القمصان والسروايل والجُب من الصوف، وبالنسبة للنساء كثر لباس القميص الأسود ذو الكم العريض مع لباس الخمار على الوجه بعدما كُنَّ النسوة المغربيات في السابق يلبسن رداء مصنوع من الحرير أو من القطن^(٨٥). أما عن الأطعمة، فكان للهلاليين تأثير على عادات سكان المنطقة المغربية في مأكلمهم، حيث ادخلوا نوعية من الأكلات العربية القديمة منها البسيس^(٨٦) والعصيد^(٨٧) والثريد^(٨٨).

لجامع قابس الذي اختلفت فيه الآراء بخصوص بناءه، فأشار التجاني أنه من بناء الزيريين تارة، وتارة يشير إلى أنه من بناء الأعراب الهلالية الذين ينسبون إلى بنى جامع^(٨٩)، كما قام الزيريون في سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م بتجديد جامع مدينة صفاقس، وفي سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) تم ترميمه^(٩٠). أيضاً قام الزيريون ببناء القصور مثل قصر "المنصورية الكبير" والذي وضعت له جدوة اقتصادية تقدر بحوالي المائة ألف دينار، وقيل إن عملية بنائه استغرقت سنة واحدة وكان هذا في سنة (٣٧٦هـ/٩٨٦م)^(٩١)، وقصر "الخورنق والإيوان" اللذان تم بناءهما في عهد المعز بن باديس^(٩٢).

٤/٢- الأسواق

اشتهرت عدة مدن المغرب الأدنى بوجود كم هائل من الأسواق بأنواعها اليومية والموسمية والأسبوعية، فمدينة القيروان اشتهرت بوجود عدد كبير من الأسواق والمتاجر، مثل سوق ابن هشام وسوق الأحد الواقع إلى الغرب من المدينة، وهو من أكبر الأسواق في القيروان يباع فيه الأقمشة والفخار، إلى جانب ذلك يوجد سوق العبيد الذي يُعرف كذلك بسوق البركة، إضافة إلى سوق الدجاج، وسوق الكتانين، وسوق الغزل^(٩٣).

٥/٢- المشروعات الإنمائية

ساهم الرخاء الاقتصادي الذي تميزت به الإمارة الزيرية في إنشاء بعض المشاريع المائية الإنمائية والتي تخدم العباد، منها مشروع قناة القيروان، حيث تم ربط هذه المدينة بالبحر^(٩٤)، وكان صاحب هذه الفكرة العالم أبو الطيب عبد المنعم بن محمد ابن إبراهيم الكندي (ت. ٤٣٥هـ / ١٠٤٤م) الذي جعل للقيروان مرسى بحري يُجلب إليها الماء من مدينة تونس، ووضع رسالة هندسية توضح هذه الفكرة^(٩٥).

٦/٢- الوكالات التجارية

أدى التبادل التجاري بين الفاطميين والزيريين إلى كثرة الوكالات التجارية وهي عبارة مستودع تخزين فيه البضائع وتدار منها المعاملات التجارية، فكان لمدينة القيروان نصيب من هذه الوكالات^(٩٦)، إضافة إلى انتشارها في قابس وتونس وسوسة، حيث يديرها التجار اليهود^(٩٧).

خاتمة

نستخلص مما سبق أن القبائل الهلالية استطاعت أن تحدث تأثيراً على سكان المغرب من الناحية الاجتماعية، وتجلى ذلك في تأثر المغاربة بعادات وتقاليدها الاجتماعية هلالية لم تكن مألوفاً لديهم من قبل سواء كان ذلك في المأكل والملبس، والمسكن.

أيضاً نستخلص أن حجم التبادل التجاري بين الفاطميين والزيريين كان له عظيم الأثر على الناحية العمرانية بين الطرفين، فقد انتشرت الطرق التجارية البرية والبحرية، وكثرت الفنادق والمساجد والقصور، ووجدت بعض المشاريع الهندسية التي تخدم العباد، إضافة إلى الوكالات التجارية التي تميزت بها مصر والمغرب الأدنى وكان لليهود دوراً بارزاً في إحداثها بالمنطقة.

أيضاً كان للتبادل التجاري بين الطرفين أثره على الحياة الاجتماعية من خلال تشابه الطرفين في بعض العادات والتقاليد سواء من حيث اللباس، أو الأطعمة أو في الاحتفالات ببعض الأعياد والمناسبات الدينية.

الإحالات المرجعية:

- (١) حسن خضيري أحمد: **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب**، مكتبة مديبولي، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٤٤.
- (٢) تقع هذه المدينة في الجهة الشرقية من نهر النيل، تتميز بمساحتها الواسعة وكثرة ضروب التجارة بها. انظر: الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص ٤٨٤.
- (٣) حسن خضيري أحمد: **المرجع السابق**، ص ٢٤٤.
- (٤) رحلة ابن جبير دار صادر، بيروت، د. ت، ص ٤٠.
- (٥) حسن خضيري أحمد: **المرجع السابق**، ص ٢٥٠.
- (٦) مدينة من مدن الصعيد، وصفت بأنها جامعة الأمم. انظر: الحميري: **الروض المعطار**، ص ١١٤.
- (٧) المقريزي: **البيان والأعراب** (Gottingen، ١٨٤٧م) ص ٣٣.
- (٨) حسن خضيري أحمد: **المرجع السابق**، ص ٢٥١.
- (٩) حسن خضيري أحمد: **المرجع السابق**، ص ٢٥١.
- (١٠) **سفر نامه**، ترجمة: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١١١.
- (١١) حسن خضيري أحمد: **المرجع السابق**، ص ٢٥٣.
- (١٢) ابن أبي دينار: **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، طبعة تونس ١٢٨٦هـ، ص ٢٨٨.
- (١٣) مجهول: **كتاب الطيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين**، تحقيق: أمبروزيو ميراندا، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مج ٩-١، مدريد، ١٩٦٢م، ص ١٨١.
- (١٤) المصدر نفسه والصفحة.
- (١٥) مجهول: **كتاب الطيخ**، ص ٢١٦.
- (١٦) حسن خضيري أحمد: **المرجع السابق**، ص ٢٧٠-٢٧١-٢٧٢.
- (١٧) المرجع نفسه، ص ٢٧٦.
- (١٨) ابن أبي دينار: **المصدر السابق**، ص ٢٨٩.
- (١٩) حسن خضيري أحمد: **المرجع السابق**، ص ٢٧٧.
- (٢٠) حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الدولة الفاطمية الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٤م، ص ٦٥٩.
- (٢١) ابن أبي دينار: **المصدر السابق**، ص ٢٩٦.
- (٢٢) **الختن**: هو موضع القطع عند الذكر والأنثى. انظر: ابن منظور: **لسان العرب**، مج ١٣، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص ١٣٨.
- (٢٣) القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ج ٩، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصرية، القاهرة، (د.ت)، ص ٧٤.
- (٢٤) حسن خضيري أحمد: **المرجع السابق**، ص ٢٨٠-٢٨١.
- (٢٥) النويري: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج ٢٤، تحقيق: حسين نصار وعبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ١١٣.
- (٢٦) سفر نامه، ص ١٠٩.
- (٢٧) مفردتها هَوَدَجَ. محمل له قبة تركب فيها النساء على ظهر الجمل. أشرف طه أبو الذهب: **المعجم الإسلامي**، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٦٤١.
- (٢٨) سفر نامه، ص ١٠٩.

- (٦٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧٣.
- (٦٣) المصدر نفسه، ص ٧٢.
- (٦٤) الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٢٣.
- (٦٥) البكري: المصدر السابق، ص ٨٣.
- (٦٦) جوايتاين: **دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية**، ترجمة: عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠م، ص ٢١٩.
- (٦٧) سامي سلطان سعد: **"الجاليات الإيطالية التجارية في المغرب الإسلامي حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي"** (مجلة سيرتا، دار البعث، الجزائر، العدد ١، ١٩٨٨م) ص ٩٥.
- (٦٨) عثمان الكعاك: **الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط**، منشورات جامعة الدول الإسلامية، ١٩٦٥م، ص ٦٤.
- (٦٩) البرزلي: **فتاوى البرزلي**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٩٧.
- (٧٠) **المسالك والممالك**، ص ٢٨-٢٩، ٥٦.
- (٧١) ابن مقديش: **نزهة الأنظار نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، ج ١، تحقيق: علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٣٣٥.
- (٧٢) ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص ٧٨.
- (٧٣) رحلته رحلته بين عامي ٧٠٦-٧٠٨هـ، دار الفرجاني، طرابلس، (د. ت)، ص ٩٥.
- (٧٤) ابن مقديش: المصدر السابق، ص ٣٣٥.
- (٧٥) ابن عذاري: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤١.
- (٧٦) الحبيب الجناح: **القيروان عبر عصور ازدهارها**، الدار التونسية، تونس، ١٩٦٨م، ص ١٢٥.
- (٧٧) الهادي روجي إدريس: **الدولة الصنهاجية**، ج ٢، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، ص ٢٠.
- (٧٨) الهادي روجي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٣٧.
- (٧٩) الزركلي: **الأعلام**، ج ٤، دار صادر، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٦٨.
- (٨٠) أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص ٤٨٩، ٤٩٣.
- (٨١) البكري: المصدر السابق، ج ١-٢، ص ٣٢٦- زبيدة محمد عطا: **اليهود وتجارهم في مصر الإسلامية**، الدر الثقافية، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٦١.
- (٨٢) كتب الخليفة الفاطمي المستنصر بالله إلى الأمير المعز كتاباً جاء فيه: "هلا أفتيت آثار آبائك في الطاعة والولاء"، فأجاب المعز: "إن آباي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يملكه أسلافك، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم، ولو أخروهم لتقدموهم بأسياهم" وهو رد قاطع بعدم التفكير في العودة إلى سابق العهد من المودة، وأن المعز كان يرى في نفسه وقومه نداءً للفاطميين.
- دبر الوزير الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري خطة للانتقام من المعز؛ فأرسل القبائل العربية إليه إلى أن هذا الوزير دخل على الخليفة يوماً، فقال له: "إنك تعلم يا مولاي أن سكان الجزيرة العربية تكاثروا إلى حد أن البلاد أصبحت اليوم لا تسعهم جميعاً، وما تنتجها الأرض يكاد يكفي لعلف الماشية... لهذا فإنهم سيهاجرون إلى إفريقيا إن أذنت لهم بالهجرة". أعطى اليازوري لكل فرد من قبائل بني هلال وبني سليم ديناراً وفرواً؛ فتوجهوا إلى برقة واستولوا عليها، وكتبوا إلى إخوانهم الذين بشرقي الصعيد؛ يرغبونهم في
- (٢٩) ابن عذاري: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج ١، تحقيق: ج. س. كولن ليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، تونس - ليبيا، (د. ت)، ص ٢٧٠-٢٧١- ابن أبي دينار: المؤنس، ص ٨٣.
- (٣٠) المصدر نفسه والجزء والصفحات.
- (٣١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧٢.
- (٣٢) أيمن فؤاد سيد: **الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد**، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٤٨٥.
- (٣٣) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط ٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١٩٩.
- (٣٤) سفر نامه، ص ٩١.
- (٣٥) المصدر نفسه، ص ١٠٤.
- (٣٦) المصدر نفسه والصفحة.
- (٣٧) الحصار المنسوج. ابن منظور: **لسان العرب**، مج ٤، ص ٨٧.
- (٣٨) سفر نامه، ص ١٠٤.
- (٣٩) المصدر نفسه، ص ٩٤.
- (٤٠) المصدر نفسه، ص ٩٨.
- (٤١) مفرداها ساقية وهي القناة التي تسقى الزرع. أشرف طه أبو الذهب: **المعجم الإسلامي**، ص ٣٠٩.
- (٤٢) سفر نامه، ص ٩٨.
- (٤٣) المصدر نفسه، ص ١٣٥.
- (٤٤) تقع هذه المدينة في الجنوب المصري، حيث تشتهر بتجارها مع مدن بلاد النوبة، كما تشتهر بكثرة الزروع والتمور والبقول فيها، إضافة إلى اللحوم بكافة أنواعها. انظر: الحميري: **الروض المعطار**، ص ٥٧.
- (٤٥) سفر نامه، ص ١٣٥.
- (٤٦) تقع هذه المدينة على ساحل البحر الأحمر. الحميري: **الروض المعطار**، ص ٥٧.
- (٤٧) سفر نامه، ص ١٣٥.
- (٤٨) ستانلي لينبول: **سيرة القاهرة**، ترجمة/ د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة، القاهرة، (د. ت)، ص ١٣٢.
- (٤٩) د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ٦٢٨.
- (٥٠) ناصر خسرو: المصدر السابق، ص ١٠٧.
- (٥١) **أحسن التقاسيم**، ص ٢٤٦.
- (٥٢) **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، مج ٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م، ص ١٩٧-١٩٨.
- (٥٣) **صورة الأرض**، مكتبة الحياة، بيروت، (د. ت)، ص ٨٧.
- (٥٤) البكري: **المسالك والممالك**، تحقيق: أدريان فان ليوفن، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، (د. ت)، ص ٥٣-٥٤.
- (٥٥) المصدر نفسه، ص ٧٠-٧٥.
- (٥٦) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٢٦.
- (٥٧) البكري: المصدر السابق، ص ٩٩.
- (٥٨) الإدريسي: **نزهة المشتاق**، مج ٢، ص ٢١٩-٢٢٠.
- (٥٩) **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق: محمد زينهم، دار الفرجاني، (د. ت)، ص ٤٣٢.
- (٦٠) إسماعيل العربي: **المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤م، ص ٢٣٢.
- (٦١) الزهري: **كتاب الجغرافية**، تحقيق: محمد حاج الصادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، (د. ت)، ص ١٤٣.

- البلاد، حيث حصلت بنو سليم على شرقي إفريقية، وبنو هلال على غربها، وخربوا مدينتي أجدابية وسرت.
- قيل إن سبب ما أقدم عليه اليازوري، أن المَعز كان لا يقدره، فاستدعى وكيله بالقاهرة أبا القاسم بن الأخوة، وسلمه رسالة فيها تهديد حملها ابن الأخوة إلى المَعز، فقال الأمير له: "ما الذي يريد مني هذا الفلاح، لا كنت عبده، ولا كان هذا ولا يكون أبداً فلما علم اليازوري برد المَعز، أرسل إليه: "أرسلت إليك خيلاً فحولاً وحملنا عليها رجالاً كحولاً ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً".
- ابن الصيرفي: **الإشارة لمن نال الوزارة**، تحقيق: عبد الله مخلص، طبع بمطبعة المعهد العلمي الفرنسي الخاص بالعاديات الشرقية، القاهرة، ١٩٢٣م، ص ٤٠-٤٢- ابن الملقن: **نزهة النظر**، تحقيق: مديحة محمد الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١٧٢. التجاني: **رحلته**، ص ٢٠- المقرئ: **اتعاط الحنفا**، ج ٢، **اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، ج ١، تحقيق: جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٢١٦. محمد ماهر حمادة: **الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية** (ط ٢)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م) ص ١٥١.
- (٨٣) أحمد بن عامر: **الدولة الصنهاجية**، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٢م، ص ٥٥.
- (٨٤) الوزان: **وصف أفريقيا**، ج ١، تحقيق: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣م، ص ٧٥. الهادي روجي إدريس: **المرجع السابق**، ج ٢، ص ٢١٣.
- (٨٥) حسن حسني عبد الوهاب: **بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن الرقيق**، المطبعة التونسية، تونس، د. ت، ص ٤٢-٤٣.
- (٨٦) عبارة عن الخبز المجفف المدقوق. ابن منظور: **لسان العرب**، مج ٦، ص ٢٧.
- (٨٧) يصنع من العقيق المطبوخ والمخلوط بالسمن. ابن منظور: **لسان العرب**، مج ٣، ص ٢٩١.
- (٨٨) هو الخبز المنقوع في الدسم أو اللحم. ابن منظور: **لسان العرب**، مج ٣، ص ١٠٢.

ثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس وجهود الموحدين في القضاء عليها

٥٤٦ - ٥٦٧ هـ / ١١٥٢ - ١١٧٢ م

أ.د. محمد عطا الله سالم الخليفات

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية معان الجامعية - جامعة البلقاء التطبيقية
المملكة الأردنية الهاشمية



ملخص

جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على أكبر وأخطر الثورات التي قامت في بلاد الأندلس ضد الدولة الموحدية في مطلع عهدها وخاصة في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي وابنه أبو يعقوب يوسف، وهي ثورة محمد بن مردنيش (٥٤٦ - ٥٦٧ هـ / ١١٥٢ - ١١٧٢ م) الذي استقل في منطقة شرق الأندلس، بنسبة ومرسية وما جاورها. وقد تناولت الدراسة بالبحث والتحليل التعريف بابن مردنيش، وكيفية تأسيسه لمملكته في منطقة شرق الأندلس، ولأهم الجهود التي بذلها خلفاء الدولة الموحدية في القضاء على هذه الثورة التي هددت كيان الدولة لقرابة عشرين سنة، كما ناقشت الكيفية التي انتهت بها الثورة وأثارها على الدولة الموحدية. معتمدة على المنهج التاريخي التحليلي والوصفي من حيث استنادها على المصادر الأصلية، وعلى القراءة الفاحصة والاستنباط وصولاً للحقيقة. وانتهت الدراسة بخاتمة تجسدت فيها أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

بيانات الدراسة:

كلمات مفتاحية:

ثورة: محمد بن مردنيش؛ الدولة الموحدية؛ بلاد الأندلس؛ غرناطة

تاريخ استلام البحث: ٠٦ نوفمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ١٥ ديسمبر ٢٠٢٤



10.21608/kan.2025.446493

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد عطا الله سالم الخليفات، "ثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس وجهود الموحدين في القضاء عليها ٥٤٦-٥٦٧ هـ / ١١٥٢-١١٧٢ م". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد السابعون: أغسطس ٢٠٢٥. ص ٨٢ - ١٠٤.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: makhliefat2020@yahoo.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made. فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

شهدت بلاد الأندلس مع نهاية حكم المرابطين حالة من الاضطراب والفراغ السياسي، إذ أدى تصدي المرابطين في بلاد المغرب للدعوة الموحدية إلى انشغالهم عن الاهتمام بالأندلس من ناحية، ومن ناحية أخرى سحب عدد كبير من قواتهم بالأندلس للاستعانة بها في مواجهة الموحدين، وهذا ما استغله الإسبان وبعض رؤساء الأندلس؛ فالإسبان تكالبوا على الأندلس واستطاعوا احتلال الكثير من الثغور والمدن الأندلسية، أما الرؤساء الأندلسيين فقد انتهزوا انشغال المرابطين بحرب الموحدين في المغرب، فثاروا عليهم وطردهم ولاتهم وأعلنوا أنفسهم حكاماً مستبدين في نواحيهم، حتى كادت الأندلس أن تعود سيرتها الأولى زمن ملوك الطوائف.

وجاء على رأس تلك الثورات التي قامت في بلاد الأندلس ضد الدولة الموحدية، واستطاعت أن تستنزف الكثير من جهد الموحدين ووقتهم ورجالهم وأموالهم، وشغلته عن الاستعداد لمواجهة العدو الرئيسي للدولة وهو الممالك الإسبانية، ثورة محمد بن مردنيش (٥٤٦-٥٦٧/١١٥٢-١١٧٢م) الذي استقل في منطقة شرق الأندلس. وقد كافح الموحدون ضد هذه الثورة لأكثر من عشرين عاماً، لم يجنوا من ورائها بطائل، فبقيت بلاد شرق الأندلس - بلنسية ومرسية وما جاورها - طيلة حياة الثائر محمد بن مردنيش عصية على الموحدين، إذ عجز الخليفة عبد المؤمن بن علي عن استمالته أو إرغامه على الطاعة، واضطر ابنه الخليفة أبو يعقوب من بعده للاستمرار في منازلته لعله ينجح فيما لم ينجح فيه والده، ومع ذلك لم يستطع أبو يعقوب انتزاع ما تحت يد ابن مردنيش بالسيف، بل دانت له تلك البلاد بتسليم الأبناء على أثر وفاة الأب.

هذا وقد هدفت الدراسة منذ البداية إلى تسليط الضوء على ثورة ابن مردنيش، من حيث التعريف بابن مردنيش وكيفية تأسيسه لمملكته في شرق الأندلس، والجهود التي بذلها زعماء وقادة الدولة الموحدية في القضاء على هذه الثورة، معتمدة على المنهج التاريخي التحليلي والوصفي من حيث استنادها على المصادر

الأصلية، وعلى القراءة الفاحصة والاستنباط وصولاً للحقيقة.

أولاً: ابن مردنيش وتأسيس مملكته في شرق الأندلس

١/١- التعريف بابن مردنيش

هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد الجذامي بن مردنيش، ولد سنة (٥١٨/١١٢٤م) بقلعة حصينة من أعمال مدينة طرطوشة^(١) (Tortosa) يقال لها بنشكلة (Peniscola)^(٢)، ونشأ في أحضان والده سعد الذي كان يتولى آنذاك للمرابطين مدينة أفرغة^(٣) (Fraga) وما والاها من ثغور شرق الأندلس^(٤)، فهو بذلك من أسرة ذات رئاسة أثرت في شخصيته، فمال للقيادة وعمره لم يتجاوز إحدى وعشرون سنة.

وهناك تضارب في الروايات حول أصل ابن مردنيش، فالبعض يجعله من أصل عربي، ويرجعونه في نسبه إما إلى قبيلة جذام، وإما إلى قبيلة تجيب^(٥)، والبعض الآخر جعله من أصل إسباني على اعتبار أن مردنيش أو مردانيش أو مردنيش وهو الاسم الذي عرف به جده ليس اسماً عربياً، مما يقطع بأن نسبته الجذامية ليست صحيحة، وإزالة اللبس ما بين النسب العربي والأصل الإسباني، برر من تبنى الرأي القائل بأن ابن مردنيش من أصل إسباني بالقول "أن أصله من أهل شبه الجزيرة، وقد يكون جده مردنيش هذا دخل في ولاء بعض الجذاميين وانتسب إليهم، وهو فرض مقبول، لأن دار بطون جذام بن عدي بن الحارث بن مرة بالأندلس كان شذونة^(٦) والجزيرة وتدمير^(٧) وإشبيلية^(٨)".

ويرى بعض الباحثين أن أصل اسم مردنيش (Martinez)، وفي هذه الحالة كان ينبغي أن يكتب بالعربية: مرتينش أو مردينش، أما أن تكون صحة الاسم (Martine'z) لتتمشى مع النطق العربي فأمر غير ممكن، لأن هذا الاسم لا يمكن نطقه مع نبر المقطع الأخير^(٩)، وهذا يقودنا إلى أن كتابة الاسم هو Mardonius أو Martinus، وهو من أسماء البيزنطيين الذين كانت لهم جالية كبيرة في قرطاجنة الحلفاء^(١٠) (Cartagena)، وقد يكون اسمه الإسباني (Martinez) ثم حرف إلى مردنيش وخففت إلى

٢/١- تأسيس ابن مردنيش لمملكته في شرق الأندلس

ساعدت الظروف التي عاشتها الأندلس في أواخر عصر المرابطين ابن مردنيش على إنشاء مملكته مستقلة له في شرق الأندلس، إذ أدى ضعف الدولة المرابطية في أواخر عهد الأمير علي بن يوسف إلى جر الإسبان لاحتلال كثير من الثغور والمدن الأندلسية، وهذا ما دفع بعض الأمراء الأندلسيين عندما لاحظوا عجز الدولة المرابطية وضعفها عن حماية المدن الأندلسية، للقيام بحركات تمرد ضد ولاية المرابطين، فسيطر كل واحد منهم على بلد من البلدان الأندلسية، وكان من بين البلدان التي انتفضت على المرابطين بلنسية^(١٨) (Valencia) ومرسية وجميع شرق الأندلس^(١٩)، وكانت بداية الثورة فيها في السابع عشر من رمضان سنة (٥٣٩هـ/١١٤٤م)، وذلك بعد اثني عشر يوماً من قيام ثورة قرطبة، وبعد أربعة أيام من ثورة مالقة^(٢٠).

وتزعم ثورة مرسية في بداية الأمر رجل من أهل لورقة (Lorca)^(٢١) يدعى أبا محمد بن الحاج^(٢٢)، ثم وبعد أقل من شهر دخل عليه عبد الله بن فتوح الثغري فأخرج ابن الحاج وتزعم هو الثورة في منتصف شوال من نفس العام، إلى أن قدم عليه زعيم آخر في نهاية شوال وهو ابن أبي جعفر^(٢٣)، فاعتقل الثغري وصهره، وتولى هو تدبير شؤون المدينة بقية العام وبداية عام (٥٤٠هـ/١١٤٥م)، وكان يقول في قيامه بالإمارة: "ليست تصلح لي، ولست لها بأهل، ولكني أريد أن امسك الناس بعضهم عن بعض حتى يجيء من يكون لها أهل"^(٢٤).

وحدث أن قتل ابن أبي جعفر على يد المرابطين عندما توجه إلى غرناطة مغيثاً لأهلها، فلما وصل خبر وفاته إلى مرسية، أجمع أهلها على تأمير أبي عبد الرحمن ابن طاهر^(٢٥)، في أواخر شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وبقي ابن طاهر في أمرته أياماً إلى أن خاطب أهل مرسية دون علمه أحد كبار الجند وهو عبد الرحمن ابن عياض^(٢٦) ودعوه لتأميره على مدينتهم، فلما دخل ابن عياض المدينة في العاشر من جمادى الأولى من سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥م)، ترك ابن طاهر القصر الكبير وانتقل إلى داره، وعفا عنه ابن عياض لعلمه بضعفه،

مردنيش بتقديم النون على الياء ليسهل نطقها بالعربية^(١١) وهذا هو الراجح.

وأياً كان الأمر، فإن الثابت أن ابن مردنيش من أصل أسباني، وأن جده اعتنق الإسلام فتسمى "محمد"، لينال بذلك شرف النسب العربي كسائر الأسر التي نشأت بجوار دار الإسلام وكانت ترنو إلى هذا النسب لأسباب دينية أو دنيوية، ولنا في صفات ابن مردنيش وسلوكه حسيما تصورها الرواية العربية دليلاً على صحة انتمائه إلى الأصل الإسباني، فقد كان شغوفاً بالتشبه بالنصارى في زيهم من اللباس الضيق، والسلاح، واللجم، والسروج الضخمة القرايبس، وكان يؤثر التحدث باللغة القشتالية على العربية، كما كان يكثر في جيشه من المرتزقة النصارى القشتاليين والبشكنس^(١٢) والقطلان، ويميزهم عن المسلمين بإقامة أحياء خاصة بهم زودها بمختلف أنواع الحوانيت وخاصة حانات الخمر، واتخذ منهم أعوانه وقادة جنده، وأغدق عليهم بالصلوات والأعطيات الوفيرة من الأموال التي كان يحصلها من المسلمين من المغارم والرسوم على الأغنام والبقر والملاهي والأعراس والمواريث^(١٣)، وذهب إلى أبعد من ذلك بأن أقطع أحد فرسان البشكنس وهو المسمى بيدرو دي أثاجرا (Pedro Ruiz de azaqa)، مدينة شنتمرية الشرق (Santa Maria de Albarra)^(١٤) مع سائر مرافقها وأراضيها، فأنشأ فيها الفارس بيدرو أسقفية^(١٥). ولإعجاب النصارى بشخصية ابن مردنيش وشجاعته كانوا يسمونه بالملك لوبو (El Rey Lobo)، أي "صاحب الذكر الحميد"^(١٦).

ولاستمالة الجند والقادة أخذ ابن مردنيش يغدق عليهم الأموال من ناحية، ويتسامر ويلهو معهم من ناحية أخرى، حتى ملك قلوبهم، ويصف لنا ابن الخطيب ذلك قائلاً: "كان له يومان في كل جمعة - الاثنين والخميس - يشرب مع ندمائيه فيهما، ويجود على قواده، وخاصته وأجناده، ويذبح البقر فيهما، ويفرق لحومها على الأجناد، ويحضر القيان بمزاميرهن وأعوادهن، ويتخلل ذلك لهو كثير، حتى ملك القلوب من الجند، وعاملوه بغاية النصح"^(١٧).

مثقال، ثم صالح ملك قشتالة^(٣١) (Castilla) مقابل أن يدفع له كذلك ٥٠ ألف مثقال ذهباً سنوياً^(٣٢)، وتجاوزت مصانعة ومهادنة ابن مردنيش الممالك النصرانية في أسبانيا إلى الممالك المسيحية المجاورة في أوروبا، حيث عقد في السنة الثانية لإمارته (٥٤٣/١١٤٩م) اتفاقاً لمدة عشر سنوات مع جمهورية بيزة، ثم أتبعها معاهدة أخرى مع جمهورية جنوة تعهد بموجبها أن يدفع إتاوة قدرها ١٠ آلاف دينار لهذه الجمهورية تسدد على مدار عامين، مقابل تعهد الجنويين بأن لا يحدثوا اضطراباً لأحد من رعايا ابن مردنيش في طرطوشة والمرية، كما راسل ابن مردنيش كثيراً من ملوك النصارى وبعث لهم بالهدايا القيمة، ومن ذلك هدية قيمة من الذهب والحرير والخيل والجمال بعثها إلى ملك إنجلترا^(٣٣).

وبذلك نجد أن ابن مردنيش كان حليفاً مخلصاً للنصارى الإسبان، ومناصرراً لهم على المسلمين منذ بداية إمارته على شرق الأندلس، هذا في الوقت الذي اجتاز فيه الموحدون الزقاق إلى الأندلس واستولوا على أغلب مدنها مما جعل مسألة الصدام بينه وبين الموحدين أمراً حتمياً لا مفر منه، ويبدو أن النصارى ما وقفوا إلى جانب ابن مردنيش وشدوا من أزره، إلا لأنهم وجدوا فيه خصماً عنيداً للموحدين، كما أنهم رأوا فيه قوة أندلسية مسلمة تستطيع أن تحارب المسلمين بنفس القوة والأسلوب، بيد أن الدافع الرئيسي لمساعدة النصارى لابن مردنيش هو سعيهم لإبقاء المسلمين في حالة تفكك وفرقة، وعدم إتاحة الفرصة للموحدين للسيطرة على كل الأندلس الإسلامية^(٣٤)، ومن هنا جاءت تسميتهم له بالملك لوبو، صاحب الذكر الحميد، لما كان له من دور كبير في تنفيذ مشاريعهم ومخططاتهم نيابة عنهم في الأندلس الإسلامية.

ثانياً: جهود الموحدين في القضاء على ثورة ابن مردنيش

١/٢- على عهد الخليفة عبد المؤمن بن

علي^(٣٥) (٥٢٤-٥٥٨/١١٣٠-١١٦٣م)

تعود جذور أول احتكاك بين الموحدين وابن مردنيش إلى عام ١١٥٦/٥٥٢م، ففي هذا العام استولى ابن مردنيش على بسطة^(٣٦) (Baza) ووادي

وحذا أهل بلنسية حذو أهل مرسية بتأميرهم عليهم ابن عياض، وبذلك استقامت الأمور لابن عياض أميراً على شرق الأندلس جميعها، فعين ابن عياض صهره وهو محمد بن سعد ابن مردنيش والياً على مرسية وأقام هو في بلنسية، وبقي ابن عياض مستقلاً في شرق الأندلس داعياً لنفسه إلى أن قضى نحبه من سهم رمي به في بعض حروبه مع الروم في ٢٢ من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٢/٢١ آب ١١٤٧م، فحمله ابن مردنيش وقام بمواراته الثرى في بلنسية، وكان ابن عياض قد عهد بالأمر بعده إلى صهره ونائبه ابن مردنيش، فبايعه أهل بلنسية بالإمارة، وقيل بل نصبه أهلها لذلك دون عهد^(٣٧).

وهكذا تولى أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش سنة (٥٤٢/١١٤٧م) إمارة بلنسية ومرسية، واستقل بشرق الأندلس وسرعان ما استطاع ضم الحصون المجاورة إليه، فامتدت مملكته من بلنسية شمالاً إلى قرطاجنة جنوباً، فعضم شأنه واشتهر ذكره^(٣٨).

واستطاع ابن مردنيش بفضل قوة شخصيته وفطنته، وبسبب اعتماده على شخصيات قوية بارزة سواء من أقربائه أو من الزعماء الأندلسيين، إضافة إلى دخوله في أحلاف وعهود ومواثيق مع الممالك والإمارات النصرانية، أن يحافظ على وحدة إمارته وتماسكها في وجه مختلف القوى والتحديات التي كانت تهددها داخلياً أو خارجياً، فيذكر ابن الخطيب أنه صاهر إبراهيم بن همشك ذو الأصول النصرانية والمعروف بشهامته وكفايته الحربية وعجمة لسانه، بزواجه من ابنته منذ أول ثورته، فكان ابن همشك خير معين لابن مردنيش، فقد كان جباراً قاسياً، شديد النكال، عظيم الجرأة والعبث بالخلق، حتى أنه كان يحرق بعضهم بالنار أحياء، وبلغ من شدته أنه يأتي بالرجل فيربطه بين أغصان الأشجار بعد ضم بعضها لبعض، ثم يترك الأغصان، حتى يذهب كل غصن بجزء من أعضائه^(٣٩).

وتميزت علاقته بالممالك النصرانية بالودية وحسن الجوار، فمنذ أن استقرت له الأمور أرسل إلى ملوكهم صهره ابن همشك، فنجحت وساطته في عقد اتفاقيات سلم وتعاون فيما بينهم، فعقد مع صاحب برشلونة^(٤٠) (Barcelona) اتفاقاً لمدة أربع سنوات يدفع له بمقتضاها ابن مردنيش ضريبة مقدارها مائة ألف

فضلاً عن اعتماده على أعوانه النصاري، هو ما دفعه إلى نبذ الدعوة الموحدية، وما هي إلا ثلاث أو أربع سنوات حتى غدا من ألد خصوم الموحدين وأصلبهم عوداً، وأرسخهم قوة.

وبدلاً من أن يأتي الرد على عبد المؤمن من ابن مردنيش، جاء الرد من زعيم أندلسي آخر، كان قد ثار في مرسية وتغلب عليها قبل ظهور ابن مردنيش، وهو أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر القيسي، الذي خاطب عبد المؤمن برسالة طويلة تحت عنوان "الكافية في براهين الامام المهدي رضي الله عنه تعالى عقلاً ونقلاً"، حاول من خلالها أن يحصل على تأييد ونصرة عبد المؤمن ضد ابن مردنيش عن طريق محاولته اثبات أمر الامام المهدي وصدق امامته وعصمته وانتسابه لآل البيت بالدليل والبرهان^(٤١).

ويذكر ابن الآبار أنه لما قوي سلطان ابن مردنيش وعظم شأنه اشتد خوف ابن طاهر منه، لما كان يسمع ويصير من شهادته وحزمه، فأخذ في التلون وأقبل على الانهماك والإدمان، وزهد في الإمارة وطلب السلامة من غائلتها، وبقي طيلة فترة سلطة ابن مردنيش خائفاً، إلى أن توفي ابن مردنيش سنة (٥٦٧/١١٧٢م)، فأفرج روعه، ورسخ بالدخول في الدعوة المهدية آمنه^(٤٢).

وحدث في سنة (٥٥٤/١١٦٠م) أول صدام مباشر بين ابن مردنيش والموحدين، عندما استغل ابن مردنيش انشغال عبد المؤمن بن علي بفتح المهدية وطرده النورماند منها، فصار إلى مدينة جيان واستولى عليها بلا قتال بسبب تواطئ واليها محمد ابن علي الكومي، وقد شجع سقوط جيان السريع ابن مردنيش للتقدم للاستيلاء على مزيد من البلاد، فتوجه إلى مدينة قرطبة ونازلها، إلا أن واليها أبو زيد عبد الرحمن ابن تجيت، أحسن مقاومته ونجح في رده^(٤٣).

ليبدأ منذ هذا العام - (٥٥٤/١١٦٠م) - النزاع العسكري بين ابن مردنيش والموحدين، وكانت الحرب سجلاً بينهما، فكانت النتيجة تتفاوت بين النصر تارة والهزيمة تارة أخرى، ففي أوائل عام (٥٥٥/١١٦٠م) أرسل ابن مردنيش صهره ابن همشك للاستيلاء على قرطبة، فاجتاح أراضيها وانتسف زروعها، وقتل واليها عبد الرحمن بن تجيت، إلا أنه لم يتمكن من الاستيلاء

آش^(٣٧) (Guadix)، مما جعل أملاكه تمتد إلى مقربة من مدينة جيان، التي كانت يومئذ قاعدة موحدية، وصادف أن شهد هذا العام أيضاً ثورة داخلية في بلنسية تزعمها عبد الملك ابن شلبان^(٣٨) مستغلاً غياب ابن مردنيش في غزوته إلى نواحي بسطة ووادي آش، إلا أن ابن مردنيش تمكن من القضاء على الثورة واسترجاع بلنسية سنة (٥٤٧/١١٥٣م) بعد حصار شديد، ومن ثم نكل بأهلها وأذاقهم أشد العذاب^(٣٩).

ويبدو أن ثورة ابن شلبان كانت تعلن التوحيد، إذ لم يرق للخليفة الموحي عبد المؤمن ابن علي قضاء ابن مردنيش عليها وتكيله بالمشركين فيها، ويظهر ذلك من خلال الرسالة التي بعث بها إلى ابن مردنيش والمؤرخة في ١٦ من جمادى الآخرة سنة (٥٤٨/١١٥٤م)، التي يدعو فيها ابن مردنيش إلى الدخول في الدعوة الموحدية، لافتاً نظره إلى مصير كل من خالف دعوته، ثم يلومه على ما كان منه في حق أهل بلنسية، حيث قال: "وتأملوا - سددكم الله - من كان بتلك الجزيرة - حرسها الله - من أعيانها وزعماء شأنها، هل تخلص منهم إلى ما يوده، وفاز بما يدخره ويعدده، إلا من تمسك بهذه العروة الوثقى.. وأما من أخلد إلى الأرض واتبع هواه، ورغب بنفسه عن هذا الأمر العزيز إلى ما سواه، فقد علم بضرورتي المشاهدة والاستفاضة سوء منقلبه، وخسارة مذهبه ومطلبه. وحق عليكم أن تحسنوا الاختيار، وتصلوا الذاكرة والاعتبار.. فقد كان منكم في أمر أهل بلنسية حين إعلانهم بكلمة التوحيد، وتعلقهم بهذا الأمر السعيد ما كان.. وليس لذاك وأمثاله عاقبة تحمد.. وإنا لنرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه إن شاء الله تعالى نظر موفق"^(٤٠).

كانت تلك الأحداث التي شهدتها الأعوام (٥٤٦-٥٤٨/١١٥٢-١١٥٤م)، على ما يبدو أول احتكاك يتم بين الموحدين وابن مردنيش، وعلى الرغم مما أبداه عبد المؤمن من سعة صدر في مبادرته لمخاطبة ابن مردنيش، وإتباعه دبلوماسية اللين والوعيد في خطب وده، إلا أن المصادر التاريخية خلت من أي تعبير يشير إلى اكتراث ابن مردنيش بالدعوة الموحدية، أو حتى التكلف بالرد على رسالة عبد المؤمن، ولعل نزعة ابن مردنيش الاستقلالية ورغبته بالانفراد بزعامة شرق الأندلس،

استكمال السيادة الموحدية على الأندلس الإسلامية بوضع حد لثورة ابن مردنيش وانتزاع منطقة شرق الأندلس من قبضته، والمحور الآخر الجهاد ضد الإمارات والممالك النصرانية.

وما يهنا هنا ثورة ابن مردنيش، فقد أولى أبو يعقوب يوسف اهتماماً كبيراً لمحاربة ابن مردنيش، الذي والى النصارى في داخل شبه الجزيرة الأيبيرية وخارجها، وناصب الموحدين العداء واحتل مدناً أندلسية تابعة لهم^(٤٨)، وكان أبو يعقوب يوسف وهو الذي خاض حروباً طويلة مع ابن مردنيش أثناء ولايته لإشبيلية، يعي جيداً خطر ابن مردنيش على المدن الأندلسية، التي كانت قواته قد دوخت بعضها، واقتحمت بعضها الآخر، فما ان ارتقى إلى أريكة الخلافة، حتى أخذ بتحفيز قواده في العودة والأندلس للتصدي لهذا الغادر الذي ما برح في موالاة النصارى على حساب المسلمين، فاشتبك معه الموحدون في معارك ضارية^(٤٩)، وكان أشهر هذه المعارك: معركة وادي لك، ومعركة فحص الجلاب.

٢/٢) ١- معركة وادي لك

كان ابن مردنيش قد انتهاز فرصة انشغال الموحدين بأمورهم الداخلية عقب وفاة عبد المؤمن بن علي، فأخذ بمساعدة حلفائه من النصارى بمهاجمة قرطبة وإشبيلية، وألح عليهما بالغزو، فلما بلغ ذلك أبي يعقوب يوسف أمر بتجهيز حملة إلى الأندلس بلغ قوامها زهاء أربعة آلاف فارس معظمهم من العرب، وأسند قيادتها إلى شيخين من زعماء العرب، هما أبو سعيد يخلف بن الحسين وأبو عبد الله بن أبي يعقوب يوسف ابن وانودين، وهما من شيوخ الموحدين الذين اعتمد عليهم البلاط الموحد كثيراً في غزواته ضد الثوار سواء في المغرب أو الأندلس^(٥٠).

جازت هذه الحملة البحر إلى الأندلس، وفور وصولهم لإشبيلية بعثوا فرقة عدتها نحو خمسمائة فارس إلى مدينة بطليوس لتعزيز حاميتها ضد هجمات النصارى، بينما سارت بقية الحملة بقيادة الشيوخين أبي سعيد وأبي عبد الله من إشبيلية إلى مدينة غرناطة، لحماية جهاتها وتعزيز قواتها الدفاعية في وجه غارات

عليها لتحصن أهلها بداخلها^(٤٤)، غير ابن همشك لم يشأ أن يعود إلى صهره من غزوته هذه خالي الوفاض، فتوجه من مدينة قرطبة إلى مدينة قرمونة، حصن إشبيلية وبوابتها من الجهة الشمالية الشرقية، فاستولى عليها بمعاونة أحد زعمائها في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ/ آذار ١١٦٠م، ليستمر تغلب ابن همشك وسيد ابن مردنيش عليها زهاء السنتين، حتى تمكن الموحدون من استعادتها في شهر محرم من سنة ٥٥٧هـ/ كانون ثاني ١١٦٢م^(٤٥).

وكان ابن همشك قد استغل ضعف دفاعات غرناطة، وغياب واليها السيد أبو سعيد عثمان عنها بمراكش، فسار إليها في نفس العام الذي استولى فيه على قرمونة، فاقتحم أسوارها بمساعدة يهود المدينة، وفر أنصار الموحدين إلى قصبته، وأمام هذه الأنباء المزعجة بادرن عبد المؤمن بتجهيز جيش متميز من خيار جنده عدته ما يقرب من ٢٠ ألف مقاتل، وأسند قيادة هذا الجيش إلى ابنه أبي يعقوب يوسف، فاتجه هذا الجيش صوب غرناطة وتمكن من استعادة المدينة بعد إلحاق هزيمة منكرة بابن همشك وصهره ابن مردنيش في المعركة المسماة بوقعة السبيكة في ٢٨ رجب سنة ٥٥٧هـ/ تموز ١١٦٣م^(٤٦).

ثم تطورت مسألة الأندلس في أواخر عهد الخليفة عبد المؤمن إلى قضية جهاد عام في أراضيها، فقام عبد المؤمن بإعداد جيش ضخم مكون من ثلاثمائة ألف فارس، وحشد أسطولاً ضخماً من أربعمائة سفينة كبيرة جهزت في الثغور المغربية، لكن لم يقدر لعبد المؤمن تنفيذ مشروعه هذا بسبب مرضه الذي لازمه حتى وفاته وهو في طريقه للأندلس في مدينة سلا في جمادى الآخرة سنة ٥٥٨هـ/ أيار ١١٦٣م^(٤٧)، تاركاً لابنه أبو يعقوب تنفيذ مشروعه الجهادي في الأندلس ضد ابن مردنيش والممالك والإمارات الإسبانية.

٢/٢- على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف

(٥٥٨-٥٥٨٠/١١٦٣-١١٨٤م)

ركز الخليفة أبو يعقوب يوسف سياسته في الأندلس، بعد أن خلصت إليه البيعة من كافة اخوته سنة (٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)، على محورين هاميين، أولاهما:

(٢/٢) ٢- معركة فحص الجلاب

لقي نداء الاستغاثة الذي بعث به الشيخان أبو سعيد وأبو عبدالله إلى مراكش بعد معركة وادي لك، استجابة سريعة من الخليفة أبو يعقوب وأخيه السيد أبو حفص عمر، فقررا محاربة ابن مردنيش في عقر داره والقضاء نهائياً على ثورته، ولهذه الغاية جهز جيش كبير ضم حشد هائل من الموحيدين وقوة من الفرسان والمقاتلين العرب، من قبائل رياح والأثيج وزغبة، يقودهم شيخهم علي بن محرز، بالإضافة إلى نحو ٤٠٠ فارس من فرسان المرابطين^(٥٧)، وعندما اكتمل تجهيز الحملة التي سكتت المصادر عن ذكر قوامها، جاز بها السيد أبو حفص عمر إلى الأندلس وبصحبه أخوه السيد أبو سعيد عثمان والي قرطبة في ١٠ رمضان سنة (٥٦٠هـ/١١٦٥م)، فنزل في إشبيلية، وهناك انضمت إليه قوات الموحيدين في الأندلس البالغة زهاء أربعة آلاف فارس، وعقد السيد أبو حفص أثر وصوله إشبيلية مجلساً حريماً ضم زعماء الموحيدين، تدارسوا فيه الخطط اللازمة لمواجهة ابن مردنيش، واستقر رأيهم على مبادرة ابن مردنيش بالهجوم، ومحاربته في عقر داره^(٥٨).

سار الجيش الموحيدي من إشبيلية إلى قرطبة في أول ذي القعدة سنة ٥٦٠هـ/أيلول ١١٦٥م، وكانت أندوجر (Andogar)^(٥٩) أول مدينة ينازلها، وذلك لقربها من قرطبة من جهة، ولأن قوات ابن مردنيش كانت تتخذ منها منطلقاً للإغارة على قرطبة والعيث فيها من جهة أخرى، فاستولوا عليها عنوة، مما بث الرعب في قلوب أهل الحصون المجاورة لها فبادروا "بدخولهم في التوحيد، القريب منها والبعيد"^(٦٠)، وأغار الموحدون على أحواز أندوجر واستولوا على الكثير من السبي والغنائم، فازدادوا نعمةً إلى نعمهم، وابتهاجاً بهذا الفتح الميسر الذي لم يستغرق من الموحيدين إلا يوماً واحداً^(٦١).

الهب فتح حصن أندوجر الحماس في صفوف جند الموحيدين، فتقدموا نحو بلاد ابن مردنيش فاتحين الحصون والقلاع في الطريق، دون أن تصادفهم أي مقاومة حتى وصلوا إلى نواحي مدينة بسطة، فأتخنوا في نواحيها بالغارات وانتزعوا منها الأقوات، واضطر أهل هذه النواحي إلى التحصن بقلاعهم، وهذا ما دفع

قوات ابن مردنيش التي كانت تتشط في فصل الصيف^(٥١).

وصلت الحملة إلى مدينة قرطبة، ثم استأنفت السير إلى غرناطة، وما كادت القوات الموحدية تخرج من أحواز قرطبة حتى التقوا على غير ميعاد بجمع من عسكر ابن مردنيش في وادي لك بالقرب من حصن لك، الواقع إلى الجنوب من غرناطة على مقربه منها^(٥٢)، فنشبت بين الطرفين معركة عنيفة ظهر فيها من إقدام أبي عبدالله، وأعيان العرب، وصبر أهل عسكر الموحيدين، ودفاعهم ما لم يظهر مثله في طيلة الحروب التي خاضها الموحدون مع ابن مردنيش، واستمرت المعركة طوال اليوم على شرب الماء في الوادي المذكور، غير أن تكافؤ قوات الفريقين آلت إلى افتراقهم دون حسم المعركة، وكان ذلك في شعبان سنة (٥٦٠هـ/١١٦٥م)، وسميت هذه المواجهة بمعركة وادي لك^(٥٣)، وكعادة الموحيدين عقب كل معركة، كتب الشيخان أبو سعيد وأبو عبدالله إلى الخليفة أبو يعقوب في مراكش يطلعانه على مجريات المعركة، وعلى ما لقيه عسكر الموحيدين من هول ومشقة في ساحة القتال، طالبين منه في الوقت نفسه العون والإنجاد^(٥٤).

ويرى الغنای أن معركة وادي لك، انتهت إلى انتصار قوات ابن مردنيش، بدليل أن ابن صاحب الصلاة يشير إشارة إلى انتصار الموحيدين، ولم يصرح بانتصار قوات ابن مردنيش، وهذه الإشارة أقرب إلى الدعاء بالنصر عنها إلى الإثبات، ويقدم برهانه على صحة رأيه بقوله: "هو أن قائدي الجيش بعثا برسالة إلى العاصمة الموحدية يطلبان فيها النجدة، وعند وصولها ذكر ابن صاحب الصلاة أن السيد الأعلى أبا حفص قد أخذته لله غيرة عظيمة وعسكر في يومه وأمر بالتغير إليهم والإسراع بالموحيدين الصابرين ونخبة الفرسان الأبطال"^(٥٥). ولعل ما ذهب إليه الغنای أقرب إلى الصواب فميول ابن صاحب الصلاة وولائه الموحيدي، لا يسمحان إليه إعلان الهزيمة، غير أن إشاراتهما فيها إحياء للهزيمة مثل قوله وصول كتاب الشيخين إلى الأمير بمراكش "مستغيثين ملبين"^(٥٦).

الحجة ٥٦٠هـ/ ١٥ تشرين أول ١١٦٥م وصل الموحدون إلى فحص مرسية، الكائن على بعد عشرة أميال من مرسية ونزلوا بموضع منه يعرف بـ "فحص الجلاب"، هذا في الوقت الذي عسكر فيه ابن مردنيش بقواته قبائلهم^(٧٤). وفي الحال أخذ الجانبان التأهب والاستعداد للقتال، فالموحدون على ما جرت عليه عادتهم عند كل حرب يخوضونها، قاموا بتمييز جيشهم حسب أجناسهم وصنوفهم لكي يعرف كل قبيل وصنيعه، وذلك لأنه كان لكل جنس وصنف في الدولة الموحدية رتبة لا يتعدها غيرهم، ولا ينزل كل صنف إلا في موضعه لا يتعده^(٧٥)، فنظمت قبائل الموحدية من أهل هرغة وتينمل وهناتة وجدميوة وجنفيصة وغيرهم من قبائل الموحدية في صفوف ومواقع خاصة، كذلك الأمر بالنسبة للعرب من قبائل الهلاليين والرياحين والجشميين والزغبين، كما نظم جند المرتزقة والعبيد من حرس الخليفة في صفوف ومواقع، ثم تعاقد الجميع على الثبات والصبر في ساحة القتال حتى يكتب لهم أحد أمرين، إما النصر أو الشهادة في سبيل الله^(٧٦).

ويظهر أن هذا التنظيم الذي اعتاد عليه الموحدون في حروبهم كان يعطي حافزاً للقبائل حسب أجناسها لبذل أفضل ما عندها في الحرب، والثبات في ساحة القتال، لما لذلك من أثر في أحداث التفاضل بين القبائل المشاركة لتحقيق النصر من جهاتها، أو على الأقل ألا تكون سبباً في الهزيمة.

ويبدو أن ابن مردنيش كان له أسبقية البدء بالقتال، إذ ما أن حط بجيشه قبالة الموحدية، حتى بادروهم بالهجوم، وكان ذلك مع وقت الزوال متبعاً في البداية أسلوب الكر والفر لمعرفة مدى قوة الموحدية، فأغار أولاً على أجناد العرب، ثم عاد وهاجم أجناد الموحدية في كرتين متتاليتين^(٧٧)، ويذكر ابن الخطيب أنه والى الكر المرة بعد المرة^(٧٨)، ثم نشبت بعد ذلك معركة عظيمة بين الفريقين، أبلى فيها الموحدون والعرب أشد البلاء، واستمرت المعركة حتى مغيب الشمس، وانجلت عن انهزام ابن مردنيش، بعد أن أوقع الموحدون بجيشه مقتلة عظيمة، حتى أن ابن أبي زرع يذكر أن الموحدية قتلوا في هذه المعركة جميع من مع ابن مردنيش من القوات النصرانية البالغ عددهم ثلاثة عشر ألفاً^(٧٩).

الموحدون إلى التجمع والتعسكر في وادي القشتالي المشرف على بسطة، لبعض الأيام في انتظار وصول تعزيزات عسكرية موحدية من جند ورماة من حامية غرناطة^(٨٠)، وفي خلال مقام تلك الأيام انتهز السيد أبو حفص هذه الفرصة فبعث فرقة خاصة من أجناد الموحدية والعرب أغارت على نواحي غليهر^(٨١) (Galera) وقرباكة^(٨٢) (Caravaca) وجبال شقورة^(٨٣) (Sequra)، فغنموا من تلك الجهات نعم لا تحصى من الدواب والبقر والغنم، ولما وصل العسكر المنتظر من غرناطة تابعت الحملة مسيرها تجاه لورقة، واستطرد ابن صاحب الصلاة في إعطاء تفاصيل مسير الحملة، فيذكر أن الموحدية بعد أن استأنفوا زحفهم من نواحي بسطة، انتهوا إلى حصن قلية^(٨٤) (Cullar)، وكان أن بادروا أهل ذلك الحصن إلى إعلان الولاء والطاعة من فورهم، ثم حاصر الموحدون مدينة بلش (بلج)^(٨٥) (Vilches) بما فيها من حصون وقلاع، فأذعن قائدها الذي اكتفى ابن صاحب الصلاة بتسميته الشرقي دون إعطاء مزيد من التفاصيل عنه، للتسليم والانصياع دون قتال أو صراع^(٨٦).

ثم واصلت الحملة تقدمها نحو مدينة لورقة حتى وصلت إلى مشارفها، فلما انتهت هذه الأخبار إلى ابن مردنيش خشي سقوطها بيد الموحدية، فحشد جميع أهل شرق الأندلس وكل من له عليه طاعة، وأرسل إلى حلفائه النصاري في قشتالة وأرغونة^(٨٧) (Aragon) طالباً العون والنجدة^(٨٨)، فحضر إليه من نواحيهم ثلاثة عشر ألفاً^(٨٩)، وخرج بهم ابن مردنيش من مرسية لاعتراض طريق الموحدية، عند لورقة والحيلولة دون تقدمهم إلى مرسية، ويذكر البيذق أن الموحدية ملكوا لورقة ووحدوا أهلها قبل وصول ابن مردنيش^(٩٠)، ونزل ابن مردنيش بجمعه المضيق الجبلي المؤدي من لورقة إلى مرسية، مغلقاً بذلك الطريق على الموحدية، ولما رأى السيد أبو حفص صعوبة اختراق هذا الطريق الجبلي الوعر، وجه الحملة إلى التحول إلى غرب لورقة، ومن هناك انحدروا إلى السهل المسمى "الفندون" وهو السهل الواقع بين لورقة وقرطاجنة، ثم اخترقوا السهل نحو مرسية^(٩١)، وابن مردنيش يسير في عسكره بمحاذاتهم عن طريق الجبل، فلما كان ظهر يوم الجمعة ٧ ذي

١. انتزاع الموحدين عدداً من الحصون والقلاع من يد ابن مردنيش، كان أهمها حصن أندوجر الذي لم يفتأ في تشكيل خطر دائم على سلامة مدينة قرطبة.
٢. تأديب ابن مردنيش من خلال ضربه في عقر داره، ومحاصرته في قاعدة ملكه.
٣. تكبيد ابن مردنيش وحلفائه خسائر فادحة وصلت إلى أكثر من ثلاثة عشر ألف قتيل من قوات التحالف النصرانية.
٤. أظهرت الحملة ضعف ولاء أهل شرق الأندلس لابن مردنيش، بدليل تسابق أهل الحصون وقادتها لإعلان الطاعة والتوحيد بمجرد وصول الموحدين إليها، مثال ذلك حصن قلية، وحصون وقلاع مدينة بلش.
٥. كانت موقعة فحص الجلاب بداية النهاية لثورة ابن مردنيش، فقد توالى الهزائم عليه بعد ذلك، وتشتت قواه، وانحطت مكانته بين أنصاره ومؤيديه.
٦. شكل انتصار فحص الجلاب محفزاً قوياً للموحدين للقضاء نهائياً على ثورة ابن مردنيش.

٢/٢) ٣- تزعم والي غرناطة الشيخ أبو عبد الله الهزرجي حرب ابن مردنيش

كان أول ما التفت إليه الخليفة أبو يعقوب يوسف بعد انتهاء احتفالات النصر على ابن مردنيش في فحص الجلاب، هو تعيين والي لإشبيلية التي كانت إمارتها شاغرة منذ توليه الخلافة سنة (٥٥٨هـ/١١٦٣م)، فقرر بعد مشاورة أخيه السيد أبو حفص أن يعين لولايتها الشيخ أبا عبدالله وهو ابن الشيخ أبو إبراهيم إسماعيل بن يسلا الهزرجي أحد أصحاب المهدي العشرة^(٨٥)، وعين لمعاونته وزيراً هو أبا يحيى زكريا ابن يحيى بن سنان، لعلمه ونجابته، وتكريماً لأبيه الذي كان من أهل خمسين، وكان أبو عبدالله قد وصل إلى إشبيلية يوم الخميس مطلع شهر رجب من سنة (٥٦١هـ/١١٦٦م)، غير أنه لم تكد تمض سوى أشهر قلائل على انفراده بولاية إشبيلية، حتى أرسل الخليفة أبو يعقوب أخوه السيد أبو إبراهيم إسماعيل بن عبد المؤمن والياً على إشبيلية وتقرر أن يبق معه الشيخ أبو عبدالله بحيث يتولى الأمور العسكرية، ثم أصدر الخليفة أبو يعقوب أمره بتعيين

وفر ابن مردنيش على ضوء الهزيمة فيمن بقي معه من فلول قواته، فارتد إلى مرسية مستغلاً في ذلك جنحة الظلام، وامتنع بداخلها، بينما بات الموحدون ليلتهم في ساحة المعركة، فلما كان صباح اليوم التالي ٨ ذي الحجة ١٦/ تشرين أول، سار الموحدون في أثر ابن مردنيش حتى نزلوا بظاهر مرسية، ومن فورهم بدأوا بالغارات على أحوازها، يتلفون زروعها، ويدمرون بساتينها، واستمروا على ذلك مدى أيام حتى امتلأت أيديهم بالغنائم والأقوات، وكانوا قد عيدوا هناك عيد الأضحى، ووصلت طلائعهم إلى مدينتي أوريولة^(٨٠) (Orihuela) وألش^(٨١) (Elche)، ومن مضرب محلتهم بظاهر مرسية بعث السيدان أبو حفص وأبو سعيد إلى الخليفة أبي يعقوب بكتاب الفتح والبشرى، يطلعانه فيه على الفتح العظيم الذي حققه الموحدون على ابن مردنيش، فوصل الكتاب إلى حضرة الخليفة بمراكش صبيحة يوم الأحد الثالث والعشرين من ذي الحجة من العام المذكور، فقرأ الكتاب أولاً في قصر الخليفة ثم قرأ في المسجد الجامع على كافة الناس، واحتفاءً بهذه البشرى ارتفعت أصوات التكبير والتهليل، وضربت الطبول وعم السرور، سائر بلاد العدو^(٨٢).

هذا وقد ارتأى السيدان أبو حفص وأبو سعيد إلى رفع الحصار عن مرسية بعد عدة أيام، وذلك بعد أن قاما بوضع حاميات موحدية في الحصون التي استولوا عليها، وعادا أدراجهم دون أن تذكر الروايات تعليلاً لذلك^(٨٣)، ولما وصلا إلى قرطبة تخلف بها السيد أبو سعيد بإذن الخليفة ليتولى بها مهام منصبه في الولاية عليها، بينما جاز السيد أبو حفص البحر عائداً إلى مراكش، فوصل إليها في ضحى يوم السبت ١١ ربيع الآخر من سنة ٥٦١هـ/ ١٥ كانون ثاني ١١٦٦م، واستمر احتفال الموحدين بعودة العسكر من الأندلس لمدة خمسة عشر يوماً، عم خلالها النعيم والسرور على جميع الموحدين^(٨٤).

ومما تجدر ملاحظته هنا أن حملة الموحدين على بلاد ابن مردنيش في شرق الأندلس سنة (٥٦٠هـ/١١٦٥م)، قد نجحت في تحقيق أهدافها، وأن معركة فحص الجلاب، قد أتت أكلها، إذ افرزت لنا مجموعة من النتائج، لعل من أهمها:

وقت العصر، انتهت بانتصار الموحدين، وأسرهـم ثلاثة وخمسين رجلاً من النصارى، استاقوهم إلى غرناطة فـضرب الشـيخ أبو عبد الله أعناقهم^(٩١).

٢/٢) ٤- دخول ابن همشك في طاعة

الموحدين ومنازلته ابن مردنيش

سـاءت أوضاع ابن مردنيش في أعقاب هزيمة فـحص الجلاب ومحاصرة الموحدين لقاعدة ملكه ومقر رئاسته، لدرجة أنه فقد الثقة في أقرب الناس لديه، فأخذ بالإكثار من جموع النصارى واتخذ منهم أجناداً وأنصاراً له، في حين عمل السيف وتفنن في قتل كل من شك في ولائه له من أهل شرق الأندلس، وفي ذلك يقول المراكشي: "تكر أكثر الرعية له، فقتل من أولئك القادة والذين اتهمهم جماعة بأنواع القتل، بلغني أن منهم من بنى عليه في حائط وتركه حتى مات جوعاً وعطشاً، إلى غير هذا من ضروب القتل، واستدعى النصارى، فجعلهم أجناداً له، واقطعهم ما كان أولئك القادة يملكونه، وأخرج كثيراً من أهل مرسية وأسكن النصارى دورهم"^(٩٢).

ويؤكد ابن الخطيب ما جاء به المراكشي فيقول: "وابتلى لجيشه من النصارى منازل معلومات وحانات للخمور، وأجحف برعيته لأرزاق من استعان به منهم، فعظمت في بلاده المغارم وثقلت"^(٩٣)، ويقول في موضع آخر: "واستعان بهم - أي النصارى - على تدبيره، ورتب منهم اعواناً وجنداً، وأفرد لهم بمرسية منازل من الحانات والبيع، واضطر إلى المال، فتخيف الرعية بكل وجه من وجوه الجور"^(٩٤).

وكان ابن مردنيش قد بدأ انقلابه على أعوانه وكبار قادته بنكبه لصهره يوسف ابن هلال، حيث كان يوسف هذا أميراً شجاعاً حازماً، فاحظاه ابن مردنيش وصاهره، وأقطعه حصن مطريشة^(٩٥) (Moutornes) ومواقع كثيرة، ثم لم تلبث أن ساءت العلاقة بينهما بعد موقعة الجلاب فقبض عليه ابن مردنيش ونكبه وعنف به واستخلص ما كان تحت يده وتركه، فلجأ ابن هلال إلى ميرتلة وثار بها، وتحالف مع صاحب برشلونة مقابل تصيير كل ما يملكه له، فأعانه بخيل من النصارى، استطاع به أن يوقع هزيمة نكراء بابن مردنيش في عقر داره بنلسية^(٩٦).

الشيخ أبو عبد الله والياً على غرناطة وذلك في أواخر شعبان من سنة (٥٦٢/١١٦٧م)، فخرج إليها أبو عبد الله من إشبيلية في مطلع شهر رمضان وبصحبه حفاظه الواصلين معه من مراكش، ليستقر أمره في ولاية مدينة غرناطة حتى جمادى الأولى من سنة ٥٦٤هـ/ شباط ١١٦٩م^(٨٦)، وكان له خلال هذه المدة جهاد ومنازلات مع ابن مردنيش خلدت ذكراه.

فابن صاحب الصلاة يشير إلى أنه ما كاد أن يصل إلى مقر ولايته الجديدة غرناطة، حتى خرج غازياً إلى حصن لبسة (Labas) الواقع بين غرناطة ووادي آش في منتصف المسافة بينهما^(٨٧)، وذلك أن ابن مردنيش كان قد أسكن في هذا الحصن قوة من أحلافه النصارى، واستخدمهم في الاغارة على أحواز مدينة غرناطة بين الفينة والأخرى، لإحداث القلاقل والروع بين أهلها، ونشر الخراب والدمار في أنحائها، وبلغ من أمرهم أن وصلوا إلى أسوار مدينة غرناطة في فاتحة عهده، فهاجم أبو عبد الله الحصن بشدة، وافتتحه عنوة، وأخرج جميع من كان فيه من النصارى، ثم هدمه وخربه، مخلصاً بذلك أحواز غرناطة من شره، وعاد ظافراً إلى غرناطة في يومه، وكتب للخليفة أبو يعقوب يخبره بفعله وغزوه، فجاوبه الخليفة برسالة مؤرخة في التاسع من ذي الحجة من سنة (٥٦٢/١١٦٦م) يعرب فيها عن شكره ورضاه، داعياً إياه لمواصلة جهاد أعداء الدين من نصارى وخارجين^(٨٨)، وهذا ما شجعه لغزو حصن بسطة من نفس العام، كما ألحق هزائم متكررة بقوات ابن مردنيش وحلفائه الإسبان^(٨٩).

وفي جمادى الآخرة من العام التالي بعث ابن مردنيش بعض قواته من النصارى المرتزقة للإغارة على نواحي مدينة رندة^(٩٠) (Ronda)، فغزوا وادي شنيل وتقدموا جنوباً حتى وصلوا أحواز رندة، محدثين الخراب والفساد في المنطقة، فلما بلغ أنباء ذلك إلى الشيخ أبي عبد الله، بادر بإرسال قوة موحدية من حامية غرناطة قطعت على النصارى طريق عودتهم وهم بالغنائم منصرفون، على مقربة من وادي آش، وعندما عاين النصارى جيش الموحدين لجأوا إلى جبل قريب لعله يأويهم، إلا أن الموحدين صعدوا عليهم الجبل والتحموا معهم في موقعة عنيفة استمرت من صلاة الظهر إلى

وملامح الانشقاق كانت قد ظهرت قبل ذلك بفترة عندما تأخر ابن همشك عن مساعدة صهره ابن مردنيش في الدفاع عن بياضة^(١٠٤) (Baeza) رغم وجوده في جيان على مقربة منها^(١٠٥)، هذا ناهيك عما تشير إليه الروايات من انقطاع العلاقة وانعدام الزيارة زماناً بين ابن مردنيش وابن همشك، قبل حادثة الطلاق، لا بل يشير ابن الآبار أن ابن مردنيش وطئ أعمال ابن همشك ودوخها، ثم التفت إلى زوجته ابنة غريمه فطلقها^(١٠٦). ومن هنا يمكننا التوفيق بين الروايات المختلفة، بالقول إن طلاق ابن مردنيش لزوجته ابنة همشك كانت قاصمة الظهر التي قضت على أي مجال للعودة إلى سابق العلاقة بينهما، هذا إن لم تكن حادثة الطلاق نتيجة من نتائج ذلك الخلاف.

وكيفما كان الأمر، حدث الانشقاق، وفسدت العلاقة بين الحليفين السابقين، ابتداءً من سنة (٥٦٢/١١٦٦م)، وتطورت الأمور بينهما تبعاً إلى أن نشبت بينهما حروب عنيفة هلك فيها كثيراً من رعايا الطرفين، وأدت إلى محنة وفتنة شديدة، نجم عنها استيلاء ابن مردنيش على الكثير من أملاك ابن همشك^(١٠٧). وعندما عجز ابن همشك عن الصمود في وجه ابن مردنيش وغزواته المتواصلة التي استمرت لمدة عامين متتالين، استغل في سنة (٥٦٤/١١٦٩م) وصول رسالة الخليفة أبو يعقوب إلى ابن مردنيش والمؤرخة في الأول من رمضان من سنة (٥٦٤/١١٦٩م)، والتي تتضمن تجديد الدعوة لابن مردنيش للدخول في طاعة الموحدين، وذلك بعد أن كان والده الخليفة عبد المؤمن قد كتب له بهذا الشأن في سنة (٥٤٨/١١٥٣م). مبيناً له أن دخوله في طاعة الموحدين يعني العفو عما سلف والحفاظ على مركزه ومكانته كحاكم لشرق الأندلس، هذا ناهيك عن المكاسب الروحية التي تتمثل في "سعادة الأبد، ومنال النعيم السرمد" في حال تعلقه بالدعوة الموحدية، ومنوهاً له في الوقت نفسه أن الشيخ أبو حفص عمر قد جاز للأندلس في هذه المدة بنية الجهاد والغزو، ولكنه مع ذلك أمره أن لا يقترب من أملاكه ولا يبادره بالهجوم، إلى حين يأتي رده، فإن كان الجواب قبول الطاعة والتوحيد سلم وغنم، وإن كان غير ذلك فقد خاب مكده^(١٠٨).

أثار تنامي قوة ابن هلال في مورتلة وما جاورها غضب ابن مردنيش، فلجأ هو الآخر لطلب النجدة من حلفائه النصاري في قشتالة، فسيروا له جريدة خيل مكنت ابن مردنيش من غزو مورتلة، فلقى ابن هلال صدفة خارج مورتلة فقبض عليه وهدده بإخلاء مورتلة وإلا نزعته عينه فأبى ذلك، فأمر ابن مردنيش فأخرجت عينه اليمنى بعود، ثم قرب من مورتلة وطلب من زوجته وأصحابه إخلاء الحصن أو تخرج عينه الأخرى، فلم يجبه أحد، فأخرجت عينه اليسرى^(٩٧). ثم اتبع ابن مردنيش ذلك قتل وزيريه ابني الجذع^(٩٨)، وبناهما في الحائط بمرأى منه، وقتله لابن صاحب الصلاة الغرناطي وغيره بالجوع^(٩٩).

أثرت هذه المشاهد في نفسية ابن همشك، فخاف على نفسه من صهره، فانقطع عن مواصلته وزيارته، ويذكر ابن الآبار أن بداية الخلاف بينهما كان في سنة (٥٦٢ هـ / ١١٦٦م)، بعد الوقعة العظمى بفحص الجلاب^(١٠٠)، ويبدو أن مما زاد الخلاف بينهما ما أقدم عليه ابن مردنيش من إعلانه طلاق ابنة همشك وطردها إلى أبيها مهانة^(١٠١)، ويجعل ابن الخطيب حادثة الطلاق تلك سبب الشحنة والعداوة بين ابن مردنيش وابن همشك، وفي ذلك يقول: "ولما فسد ما بينه وبين ابن مردنيش بسبب ابنته التي كانت تحت الأمير أبي محمد بن سعد بن مردنيش إلى أن طلقها، وانصرف إلى أبيها، وأسلمت إليه ابنتها منه، مختارة كنف أبيها إبراهيم، نازعة في انصرامه إلى عروقتها"، ويضيف ابن الخطيب أن والدها عندما سألها عن ابنها قالت: "جرو كلب، جرو سوء، من كلب سوء، لا حاجة لي به، فأرسلت كلمتها في نساء الأندلس مثلاً"^(١٠٢)، ويذكر ابن صاحب الصلاة شيء بهذا المعنى عن سبب الخلاف، فيقول: "وطلق ابن مردنيش في هذه المدة ابنة إبراهيم بن همشك طلاقاً بتلاً، وبانت عن عصمته بياتاً، وطردها إلى أبيها مهانة مستهانة باكية بدموعها إصراره وهجرانه، فغشيه من حديثها الكرب، واتصلت في نفسه له الحرب"^(١٠٣).

وعلى الرغم من أن حادثة طلاق ابنة همشك قد تكون مبرراً قوياً لحالة الخلاف التي نشبت بين ابن مردنيش وابن همشك، إلا أن ذلك لا يعني أنها السبب الأوحد لانقطاع الوصل بين الزعيمين، فبؤادر الخلاف

ويظهر أن هجمات ابن مردنيش كانت مؤلفة بالنسبة لابن همشك، إلى حد جعل ابن همشك يسير بنفسه إلى مراكش عام (٥٦٥هـ/١١٧٠م)، فالتقى بالخليفة الذي اعترف له بمكانته وأقره على ما في يده^(١١٥)، ثم قرر الخليفة بعد مشاورة أكابر وأشياخ الموحدين، أن يرسل أخيه السيد أبو حفص بعسكر ضخم لغزو ابن مردنيش وحلفائه النصاري، استجابة لنداء استغاثة ابن همشك، خاصة بعد أن أكد الشيخ أبو حفص الهنتاتي من قرطبة صدق ابن همشك فيما استغاث به من عدوه^(١١٦).

(٢/٢) ٥-نهاية ثورة ابن مردنيش وسقوط

مملكته

بناءً على ما أجمع عليه رأي الموحدين من تسيير حملة ضخمة لغزو ابن مردنيش وحلفائه النصاري بعد أن ثبت صدق استغاثات ابن همشك، خرج السيد أبو حفص عمر من مراكش في أول شهر ذي القعدة سنة (٥٦٥هـ/ آب ١١٧٠م)، على رأس جيش ضخم مؤلف من عشرين ألفاً من الموحدين والمتطوعة، فجاز البحر من أقرب النقاط إلى جزيرة طريف، وبصحبتة أخوه السيد أبو سعيد عثمان، وجماعة من أشياخ الموحدين؛ مثل أبو عبدالله بن أبي إبراهيم والي غرناطة، وعدد من زعماء الأندلس مثل محمد سيدراي بن وزير، وأخيه أبا الحسن علي وزيره، هذا إلى جانب مجموعة من القادة النازلين في مراكش في تلك المدة، صحبهم للاستفادة من معرفتهم بالأندلس وحروبها. ووصل في عسكره إلى إشبيلية في أوائل عام ٥٦٦هـ/ أيلول ١١٧٠م، وهناك وافاه من قرطبة الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتي وإبراهيم بن همشك، فتم عقد مجلس حرب شارك فيه بالإضافة إلى السادة اخوة الخليفة وولاة الأندلس ممثلين عن أشياخ وقادة وزعماء الأندلس والعدوة من عرب وموحدين، وتقرر توجيه قوة عسكرية بقيادة السيد أبو سعيد إلى مدينة بطليوس لتأمين تلك الجهات من غارات النصاري التخريبية، في حين تتأهب بقية الحملة لما هو قادم حتى ينظر ما يعود به السيد أبو سعيد من خبر^(١١٧).

وفقاً السيد أبو سعيد في غزوته تلك إذ أجبر مملكة البرتغال على توقيع الصلح^(١١٨)، ثم عاد بجيشه إلى إشبيلية في ربيع الأول سنة ٥٦٦هـ/ تشرين ثاني ١١٧٠م،

وما أن خلس لعلم ابن همشك خبر تلك الرسالة حتى سارع إلى إعلان الطاعة والتوحيد كسبيل له للخلاص من نير ابن مردنيش والحفاظ على ما تحت يده من أملاك، وفور وصول الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي بمن معه من قوات موحدية إلى قرطبة بادر إلى مكاتبتة عارضاً عليه توبته وتمكين الموحدين من جميع ما تحت يده من بلاد^(١١٩).

رحب الشيخ أبو حفص بتوبة ابن همشك وطاعته، وعلى ضوء ذلك سار ابن همشك إلى قرطبة في رمضان عام ٥٦٤هـ/ حزيران ١١٦٩م، فاستقبله واليها السيد أبو إسحاق إبراهيم والشيخ أبو حفص وأكابر الموحدين استقبالاً في غاية الود والترحيب، فبادلهم ابن همشك حسن الاستقبال بأن أعلن أمامهم أنه قد "عاهد الله تعالى بالتزام الأمر العزيز المطاع، والدخول في حكم التوحيد بأكمل الإجماع"^(١٢٠)، واتبع ابن همشك إعلانة التوحيد في قرطبة، أن كتب للخليفة أبو يعقوب في مراكش يعلن له توبته ويبلغه دخوله في طاعته، سائلاً إياه العفو وحسن المثاب، فجأوبه الخليفة بالقبول، وأمر بتقريبه وإكرامه، وبذلك اتصلت البلاد التي كانت بيد ابن همشك اعتباراً من منتصف عام (٥٦٤هـ/١١٦٩م) ببلاد الموحدين، وارتفع ما كان بتلك النواحي من مرق ونفاق^(١٢١).

أما عن موقف ابن مردنيش من توحيد ابن همشك وردت فعله على ذلك، يذكر ابن عذاري أن خبر توحيد ابن همشك نزل كالصاعقة عليه، إذ ما أن علم بذلك حتى سقط على يده، فكسر ساعده من عضده، وانتقاماً من الاثنتين، حملته الأنفة والعجلة أن وجه قاداته وأجناده لمهاجمة بلاد ابن همشك، فألحت قواته عليه مدة أكثر من سنة كاملة، ويبدو أن ابن همشك لم يستطع أن يحتمل هجمات ابن مردنيش، فأرسل يستغيث بالموحدين عليه ويستصرخهم إلى غزوه^(١٢٢). فكان أن كتب بذلك أولاً، ثم عندما استبطأ قدوم الموحدين لنجدته، أرسل وزيره أبو جعفر^(١٢٣) إلى مراكش في سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م) مهتئاً الخليفة بعيد الفطر، ومستصرخاً إياه على ابن مردنيش الذي تغلب على الكثير من معاقله^(١٢٤).

مرسية يعلنون دخولهم في دعوة التوحيد، ويسألونه النصر والإنجاد^(١٢٣).

لم يصدق السيد أبي حفص خبراً، فاقطع من حينه ببعض قواته إلى لورقة، فملكها واستوطن أرباضها، وأصر أبي عثمان ومن معه من عسكر وأعوان على التحصن في قصبتها، ومن لطيف الله وقدره أن وقع محمد ابن القائد أبي عثمان في قبضة سرية من جند الموحدين أثناء تجوالها في أحواز المدينة، فسيق للسيد أبي حفص الذي أمر أن يحمل إلى جوار القسبة على مرأى من أبيه، عسى أن يدفعه ذلك إلى التسليم، إلا أن أبا عثمان استمر في عناده وامتناعه، فضيق عليه الموحدون الحصار حتى نفذت ما لديه من مؤن وأقوات، وتحت ضغط الجند النصارى الذين الحوا عليه بالقول والكلام، أذعن أبو عثمان لرأيهم في التسليم، بعد أن منحه الموحدون الأمان على نفسه وجنده ومن معه من نصارى، وهكذا سلمت القسبة، ودفع الموحدون الابن إلى أبيه الذي انصرف مع صحبه إلى مرسية، وانصرف الجند النصارى إلى بلادهم، لتخلص بذلك مدينة لورقة للموحدين، وبعد أن اطمأن السيد أبو حفص على تأمين جهاتها غادرها على الفور ومن معه من موحدين ليُمضي في حصاره لمدينة مرسية^(١٢٤).

ويذكر ابن صاحب الصلاة أن السيد أبو حفص ما أن وصل محلته بفحص مرسية، حتى قدم عليه أهل حصن ألش معلناً دخولهم في دعوة التوحيد، وتبعهم في ذلك أكثر أهل الحصون المجاورة، مما شجع ذلك السيد أبو حفص على إخضاع المزيد من المدن والحصون، فبعث الشيخ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم على رأس حملة موحدية جعل وجهتها مدينة بسطة، فافتتحتها عنوة وادخلها في طاعة الموحدين^(١٢٥).

ويظهر أن حالة فقدان الثقة بابن مردنيش في تلك الفترة قد أخذت بالتصاعد حتى وصلت إلى أبناء العمومة، إذ نجد أن ابن عمه وصهره على ابنته وهو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد بن مردنيش، المعروف بـ "ابن صاحب البسيط"^(١٢٦)، قد خلع طاعته في مدينة المرية، وأعلن دخوله في دعوة التوحيد، وتعاون مع محمد ابن هلال أحد قادة ابن مردنيش السابقين، وقبضاً على ابن مقدم والي المدينة من قبل ابن مردنيش

وما كاد يصل إشبيلية، حتى عقد السيد أبو حفص اجتماعاً حريياً مع صفوة القادة والزعماء الموحدين، استقر فيه الرأي على غزو بلاد ابن مردنيش وتحطيم سلطانه بلا رجعة^(١٢٧).

وبدأ تحرك الجيش الموحي لتحقيق هذه الغاية في أول شهر رجب من سنة (٥٦٦هـ / آذار ١١٧١م)، فلما وصلوا قرطبة أقاموا فيها أياماً، وبعد أن نظموا صفوفهم تنظيمًا هجوميًا، زحفوا نحو مرسية، فكانت أول مدينة ينازلونها من بلاد ابن مردنيش مدينة قيجاطة (Quesada)^(١٢٨) فافتتحوها بعد قتال ونزال، وقبض على حاكمها الشرقي وضرب عنقه بمشورة ابن همشك، ثم استأنفوا زحفهم نحو مرسية، فاستولوا في طريقهم على بسائط واسعة لابن مردنيش، حتى وصلوا إلى فحص مرسية، فاستولوا أولاً على حصن الفرج (Aznalfarache) المحاذي للمدينة خارج أسوارها، وكان متزهاً لابن مردنيش، ثم استباحوا الجنان والبساتين وكل ما اتصل بمدينة مرسية من بسائط وقرى، وابن همشك في هذه الأثناء يدل الموحدين على أسهل الطرق وأيسرها، ومواطن ضعف ابن مردنيش وعوراته، مما أذهب عنهم مفاجاته وروعته، وما هي إلا أيام حتى كان الموحدون يحاصرون مرسية أشد الحصار^(١٢٩).

أما عن ابن مردنيش فقد لجأ خلال هذه الأثناء إلى استصراخ حلفائه النصارى لإنجاده، لكن على ما يبدو أنهم شعروا بدنو عاقبته، فنكسوا عن مساعدته، إذ أثروا الاحتفاظ بجندوهم لمواجهة ما تشكله القوات الموحدية الكثيفة من خطر على ممالكهم، ولم ينجده إلا بنحو أربعمائة فارس^(١٣٠)، بعث بهم إلى مدينة لورقة، حصن مرسية الأمامي، للانضواء تحت قيادة أبي عثمان بن عيسى، أنجب قادته وأخلصهم، فضبط أبي عثمان بهم المدينة وحصنها، لكن عندما طالت مدة حصار الموحدين لمرسية، وشعر الناس أن أمر ابن مردنيش زائل لا محالة؛ لما اشيع بينهم من اضطراب أحواله، واعتلاله بالمرض، ثارت العامة من أهل مدينة لورقة، ودعوا للموحدين، وقاموا بمحاصرة قائد المدينة أبي عثمان ومن معه من نصارى وأعوان لابن مردنيش في قسبة المدينة، وبعثوا في الوقت نفسه إلى السيد أبي حفص بمحلته بظاهر

(Alfonso II) وريث قطلونية والذي أصبح ملك أرغون منذ عام (٥٦٠/١١٦٤م)، وورث بعد ذلك كل المناطق الجنوبية لفرنسا^(١٣١)، وجد في ضغط الموحدين على ابن مردنيش فرصة مناسبة لغزو أراضي بلنسية المتاخمة لحدود قطلونية، فاستولى على عدة مواقع وحصون منها، ثم أرسل حملة برية وبحرية لغزو بلنسية، فتولى أبو الحجاج يوسف أخو ابن مردنيش مدافعة القوات البرية، وتولى ابن قاسم قائد اسطول ابن مردنيش مدافعة السفن النصرانية فهزمها وأحرق بعض سفنها^(١٣٢).

وفي الوقت الذي كان فيه ابن مردنيش يكابد الأمرين؛ استيلاء الموحدين على معظم بسائطه، ومحاصرتهم لقاعدة ملكه من جهة، وغارات ملك أرغون من جهة أخرى، ناهيك عن انشقاق معظم قادته ووزرائه وقربائه، جاءت الضربة القاضية بعبور الخليفة أبي يعقوب يوسف نفسه إلى جزيرة الأندلس يوم ١٧ رمضان سنة (٥٦٦/١١٧٠م)، في جموع جرارة ناهزت المائة ألف فارس من العرب والموحدين، فوصل إشبيلية يوم الجمعة ١٢ شوال من نفس العام، وكان نزول خبر جواز الخليفة يوسف للأندلس كالصاعقة على ابن مردنيش فأيقن أن نهايته قد حانت لا مناص، وأن الخليفة ما جاء إلا لإتمام تملك الجزيرة والتغلب على ما في يده من أعمال^(١٣٣).

ولما بلغ للسيد أبي حفص نبأ عبور الخليفة للأندلس، بادر إلى رفع الحصار عن مرسية وذلك في آخر شهر ذي الحجة من سنة (٥٦٦/١١٧١م)، وسار إلى إشبيلية للقاء أخيه أبي يعقوب، فوصلها في ١٥ محرم سنة (٥٦٧/١١٧٢م)، فتلقاها الخليفة بتبريز عظيم وسرور جسيم، وكان أن وفد معه جماعه من أعيان وفرسان شرقي الأندلس من مرسية وما جاورها راغبين في البيعة والتوبة، فأنعم عليهم الخليفة بمال كثير وكسوة كاملة^(١٣٤)، "وأمر لهم بظواهر كتبت لهم بتحرير أموالهم، وتقرير آمالهم، فتسامع أهل الشرق بما فعل معهم فجاءوا عند ذلك أفواجا، أفراداً وأزواجاً، حتى انفرد صاحبهم ابن سعد وتمادى به فكره إلى القبر والحد"^(١٣٥).

حاول ابن مردنيش عبثاً أن يستغل مسير السيد أبي حفص بعسكره إلى إشبيلية، فخرج بقواته متنفساً الصعداء، لاسترداد جزيرة شقر من ابن هلال الذي

وقتلاه، ثم بعثا إلى السيد أبي حفص وهو في محلته بفحص مرسية يبلغانه بأمرهما، ويسألانه عونه وإنجاده، فوجه إليهم قوة من الموحدين لإعانتهم، ولما خلصت هذه الأنباء لابن مردنيش اختل عقله فأمر بقتل اخته زوجة محمد ابن عمه وأولادها، فحملوا إلى البحر بقرب بلنسية واغرقوا فيه على أشنع حال وأقبح مقال^(١٣٧).

توالى مدن شرق الأندلس بالتوحيد وخلع طاعة ابن مردنيش، فعندما بلغ أهل جزيرة شقر^(١٣٨) (Jucar) توحيد مدينة بسطة والمرية، بادروا هم بدورهم إلى إعلان الطاعة والتوحيد، فهاجموا النصارى الذين كانوا ببلدتهم وأخرجوهم منها، ثم توجهوا للسيد أبي حفص في محلته بظاهر مرسية، فأحسن إليهم ووجه معهم والياً عليهم قائدهم السابق أبو أيوب بن هلال الشرقي^(١٣٩).

كانت هذه رواية ابن صاحب الصلاة، أما ابن الآبار فله رأي آخر في توحيد جزيرة شقر، فيقول أنه لما ضعف أمر ابن مردنيش في شرق الأندلس، وخلع صهره ابن همشك طاعته في جيان، ثم ابن عمه أبو عبدالله محمد بالمرية، واستوحش ابن مردنيش حتى من نفسه، خاف أبو بكر أحمد بن سفيان والي جزيرة شقر لابن مردنيش على نفسه من سيده، فأعلن الدعوة للموحدين، وعندما علم ابن مردنيش بذلك أمر أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بقتاله، فسير إليه أبي الحجاج قوة من الفرسان، حاصرت جزيرة شقر وضيق عليها بدءاً من منتصف ذي شوال من سنة (٥٦٦/١١٧٠م)، وحتى منتصف ذي الحجة من نفس العام، وإمدادات ابن مردنيش وأخيه أبو الحجاج تتوافد على حصار المدينة، وفي الوقت الذي ظن فيه ابن مردنيش أن المدينة شارفت على التسليم، وقد سار بنفسه لمحاصرتها، اقتحمت قوة موحدية بقيادة أبو أيوب بن هلال - معاون ابن صاحب البسيط - الجزيرة فتولى ضبطها والدفاع عنها بعد أن تنازل له ابن سفيان عن ذلك، واستمر ابن هلال في دفع الحصار اشهرًا حتى اعتل ابن مردنيش ولحق بمرسية قاعدته ومقر رياسته، ولم يفك الحصار إلا بوفاته^(١٣٠).

لم تنقطع المصائب في التكالب على ابن مردنيش، والتي كانت جميعها تنذر بان عاقبته قد دنت، ولكن هذه المرة جاءت من حيث لا يحتسب، وذلك أن الفونسو الثاني

تغلب عليها باسم الموحدين، لكنه سرعان ما اكتشف عجزه عن استردادها، فأرسل إلى أخيه أبي الحجاج في بلنسية أن يأتيه بنفسه على وجه السرعة لمعاونته ضد ابن هلال، وهنا تضطرب الروايات التاريخية في تحديد موقف أبي الحجاج من أخيه في ظل هذه الظروف الصعبة التي يمر بها، فابن صاحب الصلاة يذكر روايتين متناقضتين، يقول في الأولى أن أبا الحجاج قد حضر لأخيه لكنهما عجزا عن استرداد الجزيرة، فعادا منها خاسرين خائبين، ثم أن أبا الحجاج بعد عودتهما من جزيرة شقر أظهر التوحيد، فلما علم بذلك ابن مردنیش زادت علة بالذهول، وحضرت منيته^(١٣٦). أما الرواية الثانية فيشير فيها إلى أن أبي الحجاج لم يستجب لنداء أخيه ابن مردنیش في معاونته ضد ابن هلال ومحاصرة جزيرة شقر، وذلك لأنه في هذه الأثناء كان قد أعلن التوحيد، فيقول: "وظهر من يوسف بن مردنیش لأخيه محمد في منازلته جزيرة شقر التقصير به وعدم المعونة لمذهبه في قتال ابن هلال عدوه، وتحقق من أخيه الانحراف، والميل إلى الموحدين والانعطاف، فزاد كيده المأ، واتصلت نفسه سقماً، فرجع إلى مرسية لغير طيه، ولازمته العلة المزمنة بأسباب المنية.. وقل عون من الله ومن الناس هناك، وعاد صبحه كالليل الحال ك وفزع من اذايته أهله وقرباته"^(١٣٧). ويبدو أن الاضطراب والغموض الذي شهدته فتنة ابن مردنیش في أيامها الأخيرة، قد انعكس حتى على الروايات التاريخية وهذا ما نلمسه في تباين روايات المؤرخ المعاصر ابن صاحب الصلاة.

أما ابن الخطيب فيلمح إلى أن أبا الحجاج قد فر عن أخيه محمد إلى الموحدين قبل عبور الخليفة أبو يعقوب إلى الأندلس، أي في سنة (٥٦٦/١١٧٠م)^(١٣٨)، وفي رواية أخرى أن أبا الحجاج لما رأى تجهم الحوادث مع أخيه، دعا في بلنسية لبني العباس وكاتب الخليفة المستجد بالله، فكتب له بالعهد والولاية ثم بايع للموحدين سنة (٥٦٦/١١٧٠م)^(١٣٩)، وعلى الرغم مما عليه هذه الروايات من تباين إلا أنها تتفق جميعاً على أن توحيد أبو الحجاج يوسف بن سعد تم في سنة (٥٦٦/١١٧٠م)، وأن توحيد كان آخر الضربات الموجهة التي نزلت بأخيه من قرباته وأعوانه، فألزمته

ومهما يكن من أمر، ظل ابن مردنیش على عناده فلم يهن ولم يتنازل عن كبريائه فيعلن خضوعه للموحدين، غير أن علة التي لازمته السنة الأخيرة من حياته لم تمهله، فمات وهو على كرسي عرشه، في مقر رئاسته في مدينة مرسية، في العاشر من رجب سنة ٥٦٧/٦ آذار ١١٧٢م، وهو في الثامنة والأربعين من عمره^(١٤١).

هذا وقد تباينت الروايات التاريخية في تعليل السبب المباشر لوفاة، فالبيدق المؤرخ المعاصر يذكر أن ابن مردنیش اغتاض لما حل به من قيام أخيه بلنسية، وخروج صهره بجزيرة شقر، فحمق من أجل ما حل به، حتى كانت وفاته^(١٤٢)، في حين أن ابن صاحب الصلاة وابن الأبار وابن عذاري يتفقون على أن وفاته كانت من العلة التي لحقت به أثناء محاصرته لجزيرة شقر في أواخر سنة (٥٦٦/١١٧١م)، جراء علمه بالتحاق أخيه يوسف بالدعوة الموحدية، فغادر جزيرة شقر عليلاً إلى مرسية، وهناك اشتدت عليه علة فم يزل في حالة ذبول، وفسدان عقل وذبول، إلى أن حضرت منيته^(١٤٣).

ويورد ابن خلكان في خبر وفاة ابن مردنیش روايتين، جاء في الأولى أن الأمير أبو عبدالله محمد بن مردنیش لما علم بدخول الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى جزيرة الأندلس في سنة ست وستين وخمسمائة وفي صحبته مائة ألف فارس "حمل على قلبه فمرض مرضاً شديداً ومات"^(١٤٤). وجاء في الثانية "أن أمه سقته السم، لأنه كان قد أساء العشرة مع أهله وخواصه وكبراء دولته، فنصحته وأغلظت عليه في القول، فتهددها وخافت بطشه، فعملت عليه فقتلته بالسم"^(١٤٥). ويورد السلواي رواية بنفس المعنى فيقول: "قيل أن أمه سمته لأنه كان قد أساء إلى خواصه وكبراء دولته، فنصحته فتهددها وخافت بطشه فسمته"^(١٤٦).

أما ابن الخطيب فيقول في وفاة ابن مردنیش: "فقضي عليه عقب انصرافه من منازلته جزيرة شقر، بادر إليها بعد اقلاع السيد عنها، وعجز عن قتالها، فكر

الموحدين ليتسلم المدينة ويتقبل طاعته، وعندما وصل السيد أبو حفص إلى مرسية بادر أهلها إلى الخروج إليه للترحيب به، فبادلهم حفاوة الترحيب ووعدهم بالخيرات ورفع المظالم عنهم، ثم وعظهم وحثهم على تقوى الله تعالى وطاعة الخليفة^(١٥٢).

وبعد أن استقر السيد أبو حفص في مرسية، سار أبو القمر هلال إلى إشبيلية وبصحبه جميع اخوته وأصحاب أبيه من قادته وكبراء أجناده، فوصلها في آخر يوم من شهر شعبان مع طلوع هلال رمضان من سنة (١١٧٢/٥٦٧م)، وكان قد خرج لاستقباله السيد أبو زكريا وأخوه أبو إبراهيم أخوا الخليفة مع جماعة من الموحدين، فلقوه على بعد عدة أميال من إشبيلية، ودخل في صحبتهم إلى مجلس الخليفة^(١٥٣)، وبعد السلام على الخليفة قدم هلال بيعته بحضور السادة الأخوة وأشياخ الموحدين، ثم أنزله الخليفة وصحبه في قصره والدور المتصلة به، وغمرهم بوافر عطفه وإكرامه، وفي اليوم التالي حضر أصحاب ابن مردنيش القادمين مع ابن هلال إلى مجلس الخليفة، وفي مقدمتهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى كبير أجناد الشرق، فقدموا بيعتهم وطاعتهم، ولما أكملوا البيعة أبدوا رغبتهم للخليفة في أن يقوم بغزو ما جاورهم من بلاد النصراني، فوعدهم الخليفة بتحقيق هذه الرغبة^(١٥٤).

وهكذا تم للموحدين إخضاع شرق الأندلس، فعادت بذلك أجزاء الجزيرة تشد بعضها بعضاً تحت راية الموحدين، بعد فترة صراع استمرت قرابة ربع قرن، وعلى الرغم مما أبداه ابن مردنيش من عناد وحرب للموحدين وغزو لقواعدهم، حفظ الخليفة أبو يعقوب لآل مردنيش مكانتهم بعد أن أخضع بلادهم، فعين أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش والياً على بلنسية وجهاتها، وعين غانم بن محمد بن مردنيش قائداً على أساطيل العدو في مدينة سبتة، واستبقى أبو القمر هلال أكبر أبناء ابن مردنيش لديه، فعاش في حضرته رفيع الرتبة، عالي المنزلة، ثم أنه اتبع ذلك كله بزواجه من ابنة ابن مردنيش "زائدة" مانحها التفضيل والتقديم على جميع زوجاته.

ويذكر ابن الخطيب أن الخليفة أبو يعقوب ما استبقى لآل مردنيش سلطانهم في شرق الأندلس، وحفظ لأبناء

إلى مرسية، فتوفي عاشر رجب من عام (١١٧٢/٥٦٧م)^(١٥٧).

بينما اكتفى المراكشي بالإشارة إلى أن وفاته كانت خلال الحصار، فيقول: "ودخل محمد بن سعد مدينة مرسية مستعداً للحصار، فضايقه الموحدون، وما زالوا محاصرين له إلى أن مات وهو في الحصار حتف أنفه"^(١٥٨).

وكيفما كان الأمر، بادر أبناء ابن مردنيش على أثر وفاة والدهم بإعلان الإذعان والطاعة للأمير أبي يعقوب يوسف، وفي هذا الشأن يذكر البيهقي أن طاعة أبناء ابن مردنيش ودخولهم في الدعوة الموحدية، جاءت تنفيذاً لكتاب العقد الذي بعث به ابن مردنيش في آخر أيامه للخليفة أبي يعقوب والذي يعلن فيه أنه خليفة على أولاده من بعده^(١٥٩). في حين يورد لنا المراكشي في نفس الموضوع روايتين، جاء في الأولى أن أقارب ابن مردنيش وحاشيته عملوا على كتم خبر وفاته، إلى أن حضر أخيه أبو الحجاج يوسف بن سعد من بلنسية، وكان قد دخل في طاعة الموحدين من قبل، فتدارس الأمر مع أكابر أبناء أخيه، واتفق رأي الجميع "على أن يلقوا أيديهم في يد أمير المؤمنين أبي يعقوب، ويسلموا إليه البلاد، ففعلوا ذلك"^(١٥٠).

وجاء في الثانية أن ابن مردنيش لما حضرته الوفاة، جمع أولاده الثمانية، وهم: هلال - يكنى أبا القمر، وهو أكبر أولاده وإليه أوصى - وغانم والزبير وعزيز ونصير وبدر وأرقم وعسكر، فكان فيما أوصاهم به أن قال "يا بني إني أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر، واتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد في طاعتهم، وإنني أظن أنه لا طاقة لكم بمقاومتهم، فسلموا إليهم الأمر اختياراً منكم، تحظوا بذلك عندهم، قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم، وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها عنوة، ففعلوا ما أمرهم به"^(١٥١).

ويؤكد ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر للأحداث، أن أبا القمر هلال قد خلف أباه في الحكم، ثم بادر بالاتفاق مع قادته وأشياخه بالطاعة إلى الموحدين، فكتب بذلك للخليفة أبي يعقوب معلناً له توحيدته وتسليمه مدينة مرسية، فقبل منه الخليفة ذلك أحسن القبول، ووجه إليه أخاه السيد أبو حفص بعسكر من

هذا التأثير، بدليل أنهم لم يبايعوا الموحيدين إلا بعد أن انتهى أمر ابن مردنيش أو شارف على ذلك، فنجد مثلاً أن أبو عبد الله بن الفرّس^(١٥٩)، وهو أحد علماء الأندلس في الفقه والحديث والقراءات، ظل يتنقل بين بلنسية ومرسية طوال فتنة ابن مردنيش، وتولى في هذه الأثناء الشورى في مرسية والقضاء في بلنسية ثم تفرغ للتدريس في مرسية إلى أن كان نهاية ثورة ابن مردنيش، ثم ذهب لإشبيلية لإعلان البيعة للموحيدين^(١٦٠).

٦. كانت ثورة ابن مردنيش إحدى البذور التي أضعفت دولة الموحيدين منذ قيامها، لما كان لها من دور في استنزاف الكثير من وقتهم ورجالهم وأموالهم^(١٦١).
٧. غرست ثورة ابن مردنيش مفهوم التمرد والثورة لدى القبائل الخاضعة لسلطان الموحيدين، إذ لم تكد تمر إلا سنوات قليلة على نهاية ثورة ابن مردنيش حتى اشتعلت الثورة في أماكن أخرى من بلاد المغرب الأدنى والأقصى، هذا ناهيك عن ثورة بني غانية في الجزائر الشرقية^(١٦٢) سنة (٥٨٠/١١٨٤م)، والتي استنزفت قوى الدولة لقرابة نصف قرن حتى سنة (٦٣١/١٢٣٤م)^(١٦٣).

ابن مردنيش منزلتهم، إلا لأنه عندما علم ما أشهد محمد بن مردنيش على نفسه عندما يؤس من أمره، وعلم بتصيير ملكه للموحيدين، بإيصاله الخليفة أبي يعقوب على ولده وأهله، ورغب منه قبول ذلك، كان أن رق الخليفة لهذا القصد وأخذ الوصية على محمل الجد^(١٥٥).

ثالثاً: آثار ثورة ابن مردنيش على الدولة الموحدية

لقد كانت ثورة ابن مردنيش من أكبر الثورات وأخطرها التي شهدتها بلاد الأندلس خاصة ودولة الموحيدين عامة في عهد الخليفة الموحيدي الثاني أبي يعقوب يوسف، وعلى الرغم أن الموحيدين استطاعوا في آخر الأمر أن يقضوا على هذه الثورة ويضموا بلاد شرق الأندلس إلى حدود دولتهم بصورة أو أخرى، إلا أن ابن مردنيش استطاع بثورته تلك أن يترك أثراً جسيمة على الدولة الموحدية، بآثارها على مختلف نواحي الدولة السياسية والعسكرية والمادية والمعنوية، ولعل من أبرزها ما يلي:

١. أنهكت الثورة قوة الموحيدين وألتهتهم عن الاستعداد لمواجهة عدوهم الرئيسي هناك وهو الإمارات والممالك النصرانية، الذين وجدوا في ابن مردنيش قوة أندلسية تحارب المسلمين نيابة عنهم.

٢. شغلت ثورة ابن مردنيش الموحيدين، وجعلتهم يركزون جل قواهم ضد ابن مردنيش، مما اتاح الفرصة للطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا تلك الفرصة ويشقوا عصا الطاعة^(١٥٦).

٣. اضطر الخليفة أبو يعقوب إلى مهادنة النصارى لكي يتفرغ لمواجهة ابن مردنيش، وهذا ما هز هيبة الموحيدين وسلطانهم وقوتهم في نفوس الأمراء المسلمين، والنصارى الإسبان^(١٥٧).

٤. استطاع ابن مردنيش تكبيد الموحيدين خسائر فادحة بالأموال والأرواح، وهذا ما أظهر للأسبان أولاً وللأندلسيين ثانياً وللمغاربة ثالثاً، أن الموحيدين ليسوا قوة لا يمكن قهرها^(١٥٨).

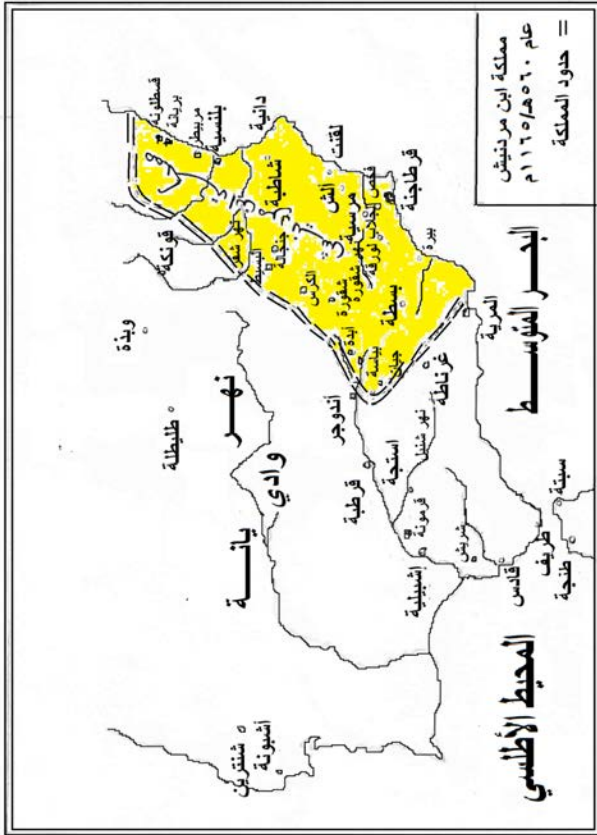
٥. ظلت ثقة أهل شرق الأندلس بالدولة الموحدية مهزوزة طيلة فترة ثورة ابن مردنيش، نظراً لعجزهم أمام

الملاحق

خاتمة

خارطة رقم (١)

تبين حدود مملكة محمد بن مردنيش في الأندلس



خلصت هذه الدراسة التي تناولت ثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس وجهود الموحدين في القضاء عليها (٥٤٦-٥٦٧/١١٥٢-١١٧٢م)، إلى مجموعة من الحقائق، أهمها:

أثبتت الدراسة أن محمد بن مردنيش يرجع في نسبه إلى أصل أسباني، وأن جده اعتنق الإسلام فتسمى "محمد"، لينال بذلك شرف النسب العربي كسائر الأسر التي نشأت بجوار دار الإسلام وكانت ترنو إلى هذا النسب لأسباب دينية أو دنيوية، وأن ابن مردنيش لم يكن يتوجس خيفة من اظهار أصله ونسبه هذا من خلال تشبهه بالنصارى في زيهم من اللباس الضيق، وإيثاره التحدث باللغة القشتالية على العربية، وإكثاره في جيشه من المرتزقة النصارى القشتاليين والبشكنس والقطلان. أظهرت الدراسة أن ابن مردنيش كان حليفاً مخلصاً للنصارى الإسبان، ومناصرراً لهم على المسلمين منذ بداية إمارته على شرق الأندلس وحتى وفاته، وأن النصارى ما وقفوا إلى جانب ابن مردنيش وشدوا من أزره، إلا لأنهم وجدوا فيه وسيلة لتنفيذ مشاريعهم ومخططاتهم نيابة عنهم في الأندلس الإسلامية.

بدأ النزاع العسكري الفعلي بين ابن مردنيش والموحدين منذ عام ١١٦٠/٥٥٤م، وكانت الحرب سجالاً بينهما، فكانت النتيجة تتفاوت بين النصر تارة والهزيمة تارة أخرى، وكان من أشهر المعارك بين الطرفين؛ معركة وادي لك ومعركة فحص الجلاب سنة ١١٦٥/٥٦٠م.

على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت من قبل الموحدين للقضاء على ثورة ابن مردنيش من خلال إرسال الحملات والجيوش العديدة بقيادة أخوة الخليفة ومشايخ وولاة مدن الأندلس، إلا أن حسم تمرد ابن مردنيش وإنهاء ثورته لم يأت إلا بعبور الخليفة أبي يعقوب يوسف نفسه إلى جزيرة الأندلس سنة ١١٧٠/٥٦٦م، في جموع جرارة ناهزت المائة ألف فارس؛ إذ ما أن وصل خبر عبور الخليفة للأندلس لعلم قادة ووزراء ابن مردنيش وسكان مدن شرق الأندلس حتى أعلنوا خلع طاعته، أما ابن مردنيش فجاء خبر عبور الخليفة لمسامعه كالصاعقة، إذ حمل على قلبه وأصيب بمرض ألزمه الفراش عاماً حتى حضرت منيته.

الإحالات المرجعية:

التي تفصل بين إسبانيا وفرنسا. انظر: البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٩٤٨٧/٩٤م): جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، ط١، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٦٨م، ص٧٩. سيشار إليه لاحقاً: البكري، جغرافية الأندلس.

(١٣) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج٢، ص١٢٣-١٢٤، ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص٢٦-٢٦١.

(١٤) **شتنمية الشرق**: مدينة بالأندلس، تقع قرب أحد فروع نهر إبره (Ebro) إلى الشرق من مدينة شنتبرية، وشمال شرق مدينة مجريط. انظر: البكري، جغرافية الأندلس، ص٦٩.

(١٥) ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج٢، ص٢٣٣، أبو رميلة، هشام، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، ط١، دار الفرقان، عمان ١٩٨٤م، ص١٠٨. سيشار إليه لاحقاً: أبو رميلة، علاقات الموحدين.

(١٦) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد الباجي (كان حياً سنة ٥٩٤/١١٩٨م)، **تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين**، السفر الثاني، ط١، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٤م، ص١١٥. سيشار إليه لاحقاً: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**.

(١٧) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج٢، ص١٢٢.

(١٨) **بلنسية**: مدينة مشهورة تقع في شرق الأندلس على ساحل البحر المتوسط. انظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص٩٧.

(١٩) الدوري، تقي الدين عارف، **تاريخ العرب المسلمين وحضارتهم في الأندلس**، ط١، منشورات جامعة ناصر الخمس، ليبيا ١٩٩٧م، ص٢٦٢. سيشار إليه لاحقاً: الدوري، تاريخ العرب المسلمين.

(٢٠) الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد (ت ٥٩٩/١٢٠٢م)، **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، جزء١، ط١، تحقيق: إبراهيم الليباري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٩م، ج١، ص٦٤. سيشار إليه لاحقاً: الضبي، **بغية الملتمس**.

(٢١) **لورقة**: مدينة كبيرة بالأندلس، وهي قاعدة كورة تدمير، بينها وبين مرسية أربعون ميلاً. انظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص٥١٢.

(٢٢) هو عبد الرحمن جعفر بن إبراهيم المعافري، يعرف بأبي محمد بن الحاج، وهو من أهل لورقة وسكن مرسية، وقد برع في الآداب، واستدعي للكتابة بحضرة مراكش سنة (٥٢٨/١١٣٤م)، ثم عفي، فعاد إلى مرسية هاجراً خدمة الأمراء، زاهداً في الدنيا، فلزم المسجد إلى أن ولده المرسيون أمرهم سنة (٥٣٩/١١٤٤م)، وكانت وفاته بعد سنة ٥٥٥/١١٥٥م. انظر: ابن التبار، **المعجم في أصحاب القاضي الصدفي**، ط١، تحقيق: إبراهيم الليباري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٩م، ص٢٣٨-٢٤٠. سيشار إليه لاحقاً: ابن التبار، **المعجم الضبي، بغية الملتمس**، ج٢، ص٤٧.

(٢٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد الخشني، من أهل مرسية، يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن أبي جعفر، وكانت وفاته سنة ٥٤٠/١١٤٥م. انظر: ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص٢٥٨، ابن التبار، **التكملة** لكتاب الصلة، ٤ أجزاء، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت ١٩٩٥م، ج١، ص٣٦٥. سيشار إليه لاحقاً: ابن التبار، **التكملة**.

(٢٤) ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج٢، ص٢٢٨.

(١) **طرطوشة**: مدينة في شرق الأندلس، على ساحل البحر المتوسط، تقع في سفح جبل إلى الشمال الشرقي من بلنسية. انظر: الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت ٨٦٦/١٤٦١م)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ط٢، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤م، ص٣٩١. سيشار إليه لاحقاً: الحميري، **الروض المعطار**، ابن غالب، محمد بن أيوب الغرناطي الأندلسي (عاش في القرن ١٢/١٢م)، **قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة**، تحقيق: لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ١، ج٢، نوفمبر ١٩٥٥م، ص٢٨٥-٢٨٦. سيشار إليه لاحقاً: ابن غالب، فرحة الأنفس.

(٢) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٥٦٨١/١٢٨٢م)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٨ أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، دار صار، بيروت (د.ت)، ج٧، ص١٣١. سيشار إليه لاحقاً: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**.

(٣) **أفراغة**: مدينة بالأندلس، تقع إلى الغرب من مدينة لاردة، بينهما ثمانية عشر ميلاً. انظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص٤٨.

(٤) ابن الخطيب، لسان الدين (ت ٥٧٧٦/١٣٧٤م)، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ٤ مجلدات، ط١، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٤م، ج٢، ص١٢١-١٢٢. سيشار إليه لاحقاً: ابن الخطيب، **الإحاطة**.

(٥) ابن التبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت ٥٦٥٨/١٢٥٩م)، **الحلة السيرة**، جزء١، ط٢، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م، ج٢، ص٢٣٢. سيشار إليه لاحقاً: ابن التبار، **الحلة السيرة**، ابن الخطيب، تاريخ إسبانية الإسلامية، أو **كتاب أعمال الأعلام في من يبيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، ط٢، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت ١٩٥٦م، ص٢٥٩. سيشار إليه لاحقاً: ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج٢، ص١٢١.

(٦) **شدونة** (Sidonia): هي كورة جلييلة القدر بالأندلس، متصلة بكورة مورور، من مدنها قادس وشريش. انظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص٢٩٤، الحميري، **الروض المعطار**، ص٣٣٩.

(٧) **تدمير** (Tudmir): كورة بالأندلس، تقع شرق مدينة قرطبة، وهي من بنیان الأمير الأموي عبد الرحمن بن الحكم، ومسافة ما بينها وبين قرطبة للراكب القاصد سبعة أيام. انظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٨) ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج٢، ص٢٣٢، أبو الفضل، محمد أحمد: شرق الأندلس في العصر الإسلامي (٥١٥-١٢٨٧/١١٢١-١٢٨٧م)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة ١٩٩٦م، ص٩٧. سيشار إليه لاحقاً: أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي.

(٩) ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج٢، ص٢٣٢، حاشية رقم (١).

(١٠) **قرطاجنة الحلفاء**: مدينة بالأندلس، تقع بالقرب من لش من أعمال تدمير، وهي فرضة مدينة مرسية. انظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص٣٣٩، ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله البغدادي (٥٦٢٦/١٢٢٨م)، **معجم البلدان**، ه أجزاء، دار صادر، بيروت ١٩٧٩م، ج٤، ص٣٢٣. سيشار إليه لاحقاً: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**.

(١١) أبو الفضل، **شرق الأندلس في العصر الإسلامي**، ص٩٨.

(١٢) **البشكنس** (Vascones): هم سكان بلاد نافار (Navarra) التي كانت بنبلونة عاصمة لها، وتقع نافار شرق مملكة ليون، محاذية لجبال البرت

(٣٧) **وادي آش**: مدينة كبيرة بالأندلس، تقع ضمن كورة البيرة، بين غرناطة وبجاية، بينها وبين غرناطة ثلاثة وخمسون كيلو متراً. انظر: حتاملة، **موسوعة الديار الأندلسية**، ج٢، ص١١٩.

(٣٨) هو أبو مروان عبد الملك بن شلبان، تولى ضبط مدينة بلنسية بعد مقتل صاحبه الثائر بها علي ابن مردنيش، أبي الحجاج يوسف بن حامد، غير أنه لم يلبث أن قتل سنة ١١٥٢/٥٤٧م، على يد ابن همشك. انظر: ابن التبار، **المعجم**، ص١٨٤، ابن التبار، **التكملة**، ج٢، ص١٢.

(٣٩) ابن التبار، **التكملة**، ج٢، ص١٢، ابن التبار، **المعجم**، ص١٨٤، عنان، محمد عبد الله، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، وهو العصر الثالث من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٤م، ق١، ص٣٣٥. سيشار إليه لاحقاً: عنان، **عصر المرابطين والموحدين: الغناي**، قيام دولة الموحدين، ص١٢-١٢١.

(٤٠) بروفنسال، ليفي، **مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية**، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط ١٩٤١م، ص٣٥-٣٧. سيشار إليه لاحقاً: بروفنسال، **مجموع رسائل موحدية**.

(٤١) انظر رسالة ابن طاهر للخليفة عبد المؤمن في: ابن القطان، **نظم الجمان**، ص١٠١-١٢٢.

(٤٢) ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج٢، ص٢٣٣.

(٤٣) علام، عبد الله علي، **الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي**، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨م، ص١٩-١٩١. سيشار إليه لاحقاً: علام، **الدولة الموحدية بالمغرب**، أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص١١٢-١١٣.

(٤٤) عنان، **عصر المرابطين والموحدين**، ق١، ص٣٧٥.

(٤٥) السيد، محمود: **تاريخ دولتي المرابطين والموحدين**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ٢٠٠٧، ص٥٤. سيشار إليه لاحقاً: السيد، **تاريخ دولتي المرابطين والموحدين**؛ خلف الله، ابتسام مرعي: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي ٥٢٤-١١٣٠/٩٣٦-١١٢٩م، دار المعارف (د.م) ١٩٨٥م، ص١١٤. سيشار إليه لاحقاً: خلف الله، **العلاقات**.

(٤٦) ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (كان حيا سنة ٥٧١٢/١١٢٢م)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين**، ط١، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت؛ دار الثقافة، الدار البيضاء ١٩٨٥م، ص٧٣-٧٤. سيشار إليه لاحقاً: ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين؛ ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص٢٦١.

(٤٧) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج١، ص٣٠١-٣٠٢؛ خلف الله، **العلاقات**، ص١١٣.

(٤٨) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص٢٦١.

(٤٩) سالم، **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ٢٠٠٨م، ص٧١٢. سيشار إليه لاحقاً: سالم، **تاريخ المغرب**.

(٥٠) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص٢٥١.

(٥١) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص٢٦٩-٢٧٠؛ أبو رميلة، **علاقات الموحدين**، ص١٢٢.

(٥٢) Huci, Miranda, Historia Politica Del Impeerio Almohade, t1, Tetwan 1956, p225. (

(٢٥) هو محمد بن عبد الرحمن بن أحمد القيسي، من أهل مرسية ورئيسها في الفتنة، حيث رأس بعد انقراض الدولة المرابطية بسيراً ثم تخلص عن ذلك رغبة في السلامة، توفي بمراكش سنة (٥٧٤/١١٧٨م). انظر: ابن التبار، **التكملة**، ج٢، ص٤٧؛ ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج٢، ص٢٢٧-٢٣٣؛ ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي الكتامي (كان حياً في منتصف القرن ١٣/٥٧م)، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، ط٢، تحقيق: محمود علي مكلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٠م، ص١٠١. سيشار إليه لاحقاً: ابن القطان، **نظم الجمان**.

(٢٦) هو أبو محمد عبد الرحمن بن عياض، كان أحد كبار قادة جند الثغر في بلنسية قبل أن يدعو أهل مرسية لتولي أمر مدينتهم، توفي سنة ١١٤٧/٥٤٢م. انظر: ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج٢، ص٢٣٠-٢٣٢؛ الدوري، **تاريخ العرب المسلمين**، ص٢٦٢.

(٢٧) الضبي، بغية الملتمس، ج١، ص٦٥؛ ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج٢، ص٢٣٠-٢٣٢.

(٢٨) سالم، السيد عبد العزيز، **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية ١٩٨٥م، ص٧٥. سيشار إليه لاحقاً: سالم، **في تاريخ وحضارة الإسلام؛ الصلابي**، علي محمد، **تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الأفريقي**، ط١، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠٥م، ص٩. سيشار إليه لاحقاً: الصلابي، **تاريخ دولتي المرابطين والموحدين**.

(٢٩) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج١، ص٢٩٩.

(٣٠) **برشلونة**: تقع في الركن الشمالي الشرقي من اسبانيا، على ساحل البحر المتوسط، بينها وبين طركونة خمسون ميلاً. انظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص٨٦.

(٣١) **قشتالة**: تشكلت مملكة قشتالة في الأراضي الواقعة بين مملكتي ليون في الغرب، ونبرة في الشرق. انظر: حتاملة، محمد عبده، **موسوعة الديار الأندلسية**، ج٢، ص٨٤٢-٨٤٦. سيشار إليه لاحقاً: حتاملة، **موسوعة الديار الأندلسية**.

(٣٢) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص٢٦٠؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج٢، ص١٢٤.

(٣٣) أبو الفضل، **شرق الأندلس في العصر الإسلامي**، ص٩٩؛ الغناي، مراجع عقيلة، **قيام دولة الموحدين**، ط١، المكتبة الوطنية، بنغازي ١٩٧١م، ص١١٩. سيشار إليه لاحقاً: الغناي، **قيام دولة الموحدين**.

(٣٤) الصلابي، **تاريخ دولتي المرابطين والموحدين**، ص٣٥٥.

(٣٥) هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي، ولد في قرية تاجرة من عمل تلمسان سنة ٩٤/٥٤٨٧م، وبويع بالخلافة عقب وفاة المهدي صاحب الدعوة الموحدية سنة ١١٣/٥٥٢٤م، وهو الذي قضى على دولة المرابطين وملك ديارهم، توفي سنة ١١٦٣/٥٥٥٨م ودفن في تينملل إلى جوار شيخه المهدي. انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٣، ص٢٣٧-٢٤١؛ المراكشي، أبو محمد عبد الواحد بن علي (ت ١٢٤٧/٥١٢٥م)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ط١، شرحه واعتنى به: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت ٢٠٠٦م، ص١٤٨. سيشار إليه لاحقاً: المراكشي، **المعجب**.

(٣٦) **بسطة**: مدينة بالأندلس، من أعمال كورة جيان، تقع بالقرب من مدينة وادي آش، بينها وبين جيان ثلاثة مراحل. انظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص٨٦.

فاس، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٢م، ص. ٢١. سيشار إليه لاحقاً: ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، السلاوي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن خالد الناصري (ت ١٨٩٢/٥١٣١هـ)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ٣ أجزاء، ط ١، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٧م، ج ١، ص ٢٧٧. سيشار إليه لاحقاً: السلاوي، **الاستقصا**.

(٧٢) البيهقي، أبو بكر بن علي الصنهاجي (كان حياً في النصف الثاني من القرن ١٢/٥١٢م)، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧١م، ص ٨٨. سيشار إليه لاحقاً: البيهقي، **أخبار المهدي**.

(٧٣) عنان، **عصر المرابطين والموحدين**، ق ٢، ص ١٦.

(٧٤) ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج ٢، ص ٢٦، أبو الفضل، **شرق الأندلس في العصر الإسلامي**، ص ١٢٤، Huci, Historia, t1, pp.227-228.

(٧٥) العبادي، أحمد مختار، **صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس**، ط ١، منشأة المعارف، الإسكندرية ٢٠٠٠م، ص ١٥١. سيشار إليه لاحقاً:

العبادي، **صور من حياة الحرب والجهاد**.

(٧٦) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٢٧٣.

(٧٧) أبو الفضل، **شرق الأندلس في العصر الإسلامي**، ص ١٢٥.

(٧٨) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج ١، ص ٨٤.

(٧٩) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ٢١.

(٨٠) **أوريولة**: مدينة وحصن بالأندلس، وهي قاعدة كورة تدمير، بينها وبين ألبس خمسة عشر ميلاً. انظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص ٦٧.

(٨١) **ألبس**: مدينة بالأندلس، تقع جنوبي غربي لقنت، على بعد عشرين

كيلو متراً منها. انظر: ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**، ج ٢،

ص ٢٧٣؛ عنان، محمد عبد الله: **الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال**، ط ٢، مؤسسة الخانجي، القاهرة ١٩٦١م، ص ١٥١. سيشار إليه لاحقاً: عنان، **الآثار الأندلسية**.

(٨٢) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٢٧٣-٢٧٦. وعن معركة فحص الجلاب انظر أيضاً: ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ٨٩-٩٠؛ ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ٢١؛ السلاوي، **الاستقصا**، ج ١، ص ٢٧٧؛ عنان، **عصر المرابطين والموحدين**، ق ٢، ص ١٦-١٧؛ الغناي، **قيام دولة الموحدين**، ص ١٣٩-١٤٠؛ Huci, Historia, t1, pp.227-228.

(٨٣) السامرائي، **تاريخ العرب وحضارتهم**، ص ٢٦٦؛ الغناي، **قيام دولة الموحدين**، ص ١٤.

(٨٤) جعل ابن صاحب الصلاة تاريخ وصول أبو حفص لمراكش يوم الحادي عشر من ربيع الآخر، بينما ابن عذاري جعله يوم الثاني عشر من نفس الشهر، أما عنان فيرى أن يوم العاشر من ربيع الآخر هو تاريخ وصوله. انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٢٨٩؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ٩١؛ عنان، **عصر المرابطين والموحدين**، ق ٢، ص ١٩.

(٨٥) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ٩٢.

(٨٦) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٢٩٣-٢٩٧.

(٨٧) حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، ج ٢، ص ٩٣.

(٨٨) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٣٢٣-٣٢٥.

(٨٩) السامرائي، **تاريخ العرب وحضارتهم**، ص ٢٦٧.

(٥٣) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ٨٨؛ عنان، **عصر المرابطين والموحدين**، ق ٢، ص ١٥.

(٥٤) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ٨٨.

(٥٥) الغناي، **قيام دولة الموحدين**، ص ١٣٩.

(٥٦) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٢٧.

(٥٧) ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج ٢، ص ٢٦.

(٥٨) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ٨٨-٨٩؛ أبو الفضل، **شرق الأندلس في العصر الإسلامي**، ص ١٢٣.

(٥٩) **أندوجر**: حصن بالأندلس، يقع على نهر الوادي الكبير، إلى الشرق من مدينة قرطبة. انظر: أرسلان، **شكيب، الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية**، ط ١، ٣ أجزاء، المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٦م، ج ١، ص ١١٩. سيشار إليه لاحقاً: أرسلان، **الحلل السندسية**.

(٦٠) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٢٧.

(٦١) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ٨٨؛ Huci, Historia, t1, p.225.

(٦٢) عنان، **عصر المرابطين والموحدين**، ق ٢، ص ١٦؛ أبو الفضل، **شرق الأندلس في العصر الإسلامي**، ص ١٢٤.

(٦٣) **غليربة**: تقع شمال مدينة بسطة، جنوب قرياق، وإلى الغرب من بلش. انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٢٧١؛ Huci, Historia, t1, p.226.

(٦٤) قرياق: حصن بالأندلس، يقع إلى الشما من مدينة مرسية، ينسب إليه الشاعر أبو الحسن العباس القريافي. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٤، ص ٣١٩.

(٦٥) **شقورة**: مدينة بالأندلس، تقع إلى الشمال من مدينة مرسية، بينها وبين اقلش ثلاثة مراحل، وكانت شقورة حسب رواية ياقوت الحموي دار إمارة ابن همشك. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٣، ص ٣٥٥؛ أرسلان، **الحلل السندسية**، ج ١، ص ١١٦.

(٦٦) **قلية**: حصن صغير بالأندلس، يقع إلى الشمال الشرقي من مدينة بسطة. انظر: المراكشي، **المعجب**، ص ٢٦٦؛ ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**، جزء ١، ط ٤، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة (د. ت)، ج ٢، ص ٨٧. سيشار إليه لاحقاً: ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**.

(٦٧) بلش: أو بلج، بلدة صغيرة في شرقي الأندلس، تقع غربي مرسية، بين لورقة وبسطة. انظر: المراكشي، **المعجب**، ص ٢٦٦-٢٦٧؛ Huci, Historia, t1, p.226.

(٦٨) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(٦٩) **أرغونة**: قامت مملكة أرغونة أو أرغون في الجهة الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة الليبرية، في شريط ضيق من الأرض جنوب جبال البرت (البرانس). انظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص ٢٩؛ أشباح، يوسف: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، ط ٢، ترجمة: محمد عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي، القاهرة ١٩٥٨م، ص ٩. سيشار إليه لاحقاً: أشباح، **تاريخ الأندلس**.

(٧٠) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ٨٩؛ السامرائي، خليل وآخرون: **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل (د. ت)، ص ٢٦٦. سيشار إليه لاحقاً: السامرائي، **تاريخ العرب وحضارتهم**.

(٧١) ابن أبي زرع، علي الفاسي (ت في منتصف القرن ١٤/٥٨م)، **الأنيس المطرب بروض القرباس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة**

- (١١٧) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ٢١١.
- (١١٨) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٣٩٩-٤٠٠.
- (١١٩) عنان، **عصر المرابطين والموحدين**، ق ٢، ص ٤٥-٤٦؛ الغناي، **سقوط دولة الموحدين**، ص ١٠٩-١١٠.
- (١٢٠) **قيباطة**، وتكتب كذلك قيشاطة، وهي مدينة بالأندلس من عمل جيان، تقع إلى الشمال الشرقي منها، بينها وبين شوذر ١٢ ميلاً.
- انظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص ٤٨٨؛ حتاملة، **موسوعة الديار الأندلسية**، ج ٢، ص ٩٢٣.
- (١٢١) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٤٠٣؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١١٢.
- (١٢٢) الغناي، **سقوط دولة الموحدين**، ص ١١.
- (١٢٣) عنان، **عصر المرابطين والموحدين**، ق ٢، ص ٥٠.
- (١٢٤) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١١٢-١١٣؛ أبو الفضل، **شرق الأندلس في العصر الإسلامي**، ص ١٣٣-١٣٤.
- (١٢٥) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٤٠٥.
- (١٢٦) **البسيط** (Albacete): مساحة واسعة من الأرض، تفصل بين كور قرطبة وغرناطة ومرسية وبلنسية، وقد قامت فيها عدة حصون مثل اللج وشلبطرة وجنالة. انظر: ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج ٢، ص ٢٢٣-٢٢٤.
- (١٢٧) البيهقي، **أخبار المهدي**، ص ٨٨-٨٩؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١١٣-١١٤.
- (١٢٨) **جزيرة شقر**: مدينة صغيرة من بلاد الأندلس، سميت بذلك لاحاطة نهر شقر بها من جميع جهاتها، قبل مصبه في البحر المتوسط جنوب بلنسية، وهي على مسافة ١٨ ميلاً من بلنسية، و ١٢ ميلاً من شاطبة. انظر: المراكشي، **المعجب**، ص ٢٦٥؛ أرسلان، **الحلل السندسية**، ج ٢، ص ١٠٩-١١٠.
- (١٢٩) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٤٠٥-٤٠٦.
- (١٣٠) ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج ٢، ص ٢٦٧-٢٦٨.
- Charles E. Champan: A History of Spain, 2nd, New Yourk 1966, p79. (١٣١)
- (١٣٢) عنان، **عصر المرابطين والموحدين**، ق ٢، ص ٥١-٥٠.
- (١٣٣) المراكشي، **المعجب**، ص ١٨٣؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١١٨.
- (١٣٤) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٤٠٨-٤٠٩، ٤٦٢.
- (١٣٥) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١٢١.
- (١٣٦) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٤٧٠-٤٧١.
- (١٣٧) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٤٠٦-٤٠٧.
- (١٣٨) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص ٢٧٠-٢٧١.
- (١٣٩) عنان، **عصر المرابطين والموحدين**، ق ٢، ص ٥١.
- (١٤٠) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١٢٢.
- (١٤١) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٤٧١.
- (١٤٢) البيهقي، **أخبار المهدي**، ص ٨٨-٨٩.
- (١٤٣) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٤٧١؛ ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج ٢، ص ٢٦٨؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١٢٢.
- (١٤٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج ٧، ص ١٣١.
- (١٤٥) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج ٧، ص ١٣١.
- (١٤٦) السلوي، **الاستقصا**، ج ١، ص ٢٧٩.
- (١٤٧) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص ٢٦٢.

- (٩٠) رندة: مدينة حصينة بأرض الأندلس، من أعمال تاكرنا قديماً، تقع غربي مالقة على نهر ينسب إليها، هو نهر رندة. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٣، ص ٧٣-٧٤.
- (٩١) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١٠٩-١٠٩؛ أبو الفضل، **شرق الأندلس في العصر الإسلامي**، ص ١٢٧؛ أبو رميلة، **علاقات الموحدين**، ص ١٢٥.
- (٩٢) المراكشي، **المعجب**، ص ١٨٣.
- (٩٣) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج ٢، ص ١٢٤.
- (٩٤) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص ٢٦١.
- (٩٥) **مطريشة**: لعله مطرنيش، وهو حصن في شرق بلاد الأندلس، كان يؤمن بلاد الاسلام من ناحية مملكة أرغون. انظر: ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص ٢٦٦؛ ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج ٢، ص ٢٢٤-٢٢٥.
- (٩٦) أبو رميلة، **علاقات الموحدين**، ص ١٢٧.
- (٩٧) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص ٢٦٢-٢٦٣.
- (٩٨) يذكر عبد الهادي التازي في تعليقه على أبنني الجذع أنه لم يهتد بعد البحث الطويل لاسم هذين الوزيرين اللذين عرضا لهذا المصير الرهيب، في حين يترجم ابن سعيد في كتابه "المغرب في حلل المغرب" إلى أخوين يعودان في نسبهما إلى ابن الجذع وهما: أبو يعقوب بن الجذع، وأبو محمد عبد الله بن الجذع، منوهاً إلى أنهما من كتاب ابن مردنيش، ولعل هذين الأخوين هما المقصودان في حادثة التعذيب تلك. انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٢٨٨، هامش رقم (٢)؛ ابن سعيد، **المغرب في حلل المغرب**، ج ٢، ص ٢٥٤-٢٥٥.
- (٩٩) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١٠٨.
- (١٠٠) ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج ٢، ص ٢٦١.
- (١٠١) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١٠٨.
- (١٠٢) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج ١، ص ٣٠٢.
- (١٠٣) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٣٨٨-٣٨٩.
- (١٠٤) **بياسة**: مدينة تقع على تل مرتفع مطل على نهر الوادي الكبير المنحدر إلى قرطبة، وتبعد إلى الشرق من جيان مسافة عشرون ميلاً. انظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص ١٢١.
- (١٠٥) أبو الفضل، **شرق الأندلس في العصر الإسلامي**، ص ١٢٩.
- (١٠٦) ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج ٢، ص ٢٦١؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١٠٨.
- (١٠٧) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج ١، ص ٣٠٢.
- (١٠٨) بروفنسال، **مجموع رسائل موحدية**، ص ١٤٩-١٤١.
- (١٠٩) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٣٨٩.
- (١١٠) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٣٨٩.
- (١١١) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١٠٨.
- (١١٢) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١٠٨-١٠٩.
- (١١٣) هو أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد الوقشي، من أهل قرية وقش بنواحي طليطيرة، قام بأمر ابن همشك، ضابطاً لأعماله ومصلحاً لأحواله، وعندما دخل ابن همشك في طاعة الموحدين تبعه في ذلك، وعرف عنه براعته في الأدب والشعر، توفي بمدينة مالقة سنة ١١٧٨/٥٥٧٤ م. انظر: ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج ٢، ص ٢٥٧-٢٦٦.
- (١١٤) ابن التبار، **الحلة السيرة**، ج ٢، ص ٢٦١-٢٦٠.
- (١١٥) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج ١، ص ٣٠٢.
- (١١٦) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١١١-١١٠.

- (١٤٨) المراكشي، **المعجب**، ص ١٨٤.
- (١٤٩) البيهقي، **أخبار المهدي**، ص ٨٩.
- (١٥٠) المراكشي، **المعجب**، ص ١٨٤.
- (١٥١) المراكشي، **المعجب**، ص ١٨٤.
- (١٥٢) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٤٧١.
- (١٥٣) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص ١٢٢.
- (١٥٤) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٤٧٢-٤٧٣؛ عنان، **عصر المرابطين والموحدين**، ق ٢، ص ٥٦.
- (١٥٥) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص ٢٧١.
- (١٥٦) الصلابي، **تاريخ دولتي المرابطين والموحدين**، ص ٣٥٦.
- (١٥٧) العروي، عبد الله: **مجلد تاريخ المغرب**، ٣ أجزاء، ط ٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠٠٠م، ج ٢، ص ١٧١. سيشار إليه لاحقاً: **العروي، مجلد تاريخ المغرب**.
- (١٥٨) الغنای، **سقوط دولة الموحدين**، ص ٩١.
- (١٥٩) هو محمد بن عبد الرحيم الانصاري الخزرجي، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الفرس، وهو من ولد سعد بن عباد، ولد سنة ١١٥٧/٥٥٠ م، وكانت وفاته بإشبيلية سنة ١١٧٢/٥٥٦ م، وحمل منها ودفن في غرناطة. انظر: ابن التبار، **المعجم**، ص ١٨٤؛ ابن التبار، **التكملة**، ج ٢، ص ٣٨-٣٩.
- (١٦٠) أبا الخيل، محمد بن إبراهيم: **جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى (١٠٩٠م - ١٢٤٢م)**، ط ١، دار أصداء المجتمع للنشر والتوزيع، بريده - السعودية ١٩٩٨م، ص ٢٢٥. سيشار إليه لاحقاً: **أبا الخيل، جهود علماء الأندلس**.
- (١٦١) الغنای، **سقوط دولة الموحدين**، ص ٩٢.
- (١٦٢) **الجزائر الشرقية (البليار)**: تقع هذه الجزر إلى الشرق من الأندلس في البحر المتوسط، وتتكون من ثلاثة جزر كبيرة هي: ميورقة ومنورقة ويابسة. انظر: البكري، **جغرافية الأندلس**، ص ٦٦.
- (١٦٣) السامرائي، **تاريخ العرب وحضارتهم**، ص ٢٦٨-٢٧٥.

طبقة العامة بالمغرب الأوسط

عهد الدولة الزيانية

د. نادية عبد الرحمن ميلود معاطي

الأستاذ المشارك في التاريخ الإسلامي

قسم التاريخ – كلية الآداب

جامعة صرّاتة – دولة ليبيا

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بمدلول كلمة العامة وما السمات التي وصفت بها وما نظرة المصادر التاريخية لها من الناحية الاجتماعية والأخلاقية وكذلك السياسية وأخيراً الدينية، مع إبراز لشرائح المكونة لهذه الطبقة باعتبارها جزءاً لا يتجزأ وعاملاً من عوامل تكويناتها الأساسية، ومدى تأثيرها في المجتمع المغربي في العهد الزياني خاصةً من الناحية الاقتصادية، وكما أنها تلقي الضوء على السمات العامة لأوضاعهم الاجتماعية، ووقفت الدراسة على جوانب من حياتهم اليومية بالإشارة لمساكنهم وطبيعة ملابسهم ومأكولاتهم ومدى تأثيرهم بالمجاعات والأوبئة مع إبراز لدور كل من السلطة والفقهاء والأولياء في الوقوف إلى جانب هذه الطبقة في أوقات المحن. هذا البحث اعتمد المنهج التاريخي الوصفي الذي يسرد حياة شرائح هذه الطبقة في الظروف العادية وفي ظروف الكوارث الطبيعية من مجاعات وأوبئة، ومقارنتها بحياة طبقة الخاصة، كما استعمل المنهج الاستنتاجي في استخلاص النتائج حيث أظهرت الدراسة أهمية هذه الطبقة في الحياة الاجتماعية باعتبارها تمثل السواد الأعظم من السكان.

كلمات مفتاحية:

العامة؛ المجاعات؛ الزيانية؛ المغرب الأوسط؛ المجتمع الزياني

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٠ ديسمبر ٢٠٢٤

تاريخ قبول النشر: ١٣ يناير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.446494

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

نادية عبد الرحمن ميلود معاطي، "طبقة العامة بالمغرب الأوسط عهد الدولة الزيانية"، - دورية كان التاريخية، - السنة الثامنة عشرة - العدد السبعون: أغسطس ٢٠٢٥، ص ١٠٥ - ١١٩.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: nadia.muati@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

تُشر هذا المقال في دورية كان التاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

أولاً: مفهوم طبقة العامة

١/١-مدلول كلمة العامة

العامة هم خلاف الخاصة^(١) ويراد بالخاصة أصحاب الخليفة من ذوي قرياه ومن رجالات الدولة البارزين كالوزراء والكتاب والقواد والأشراف والقضاة والشهود، علاوة على بعض المقربين من أهل الفن الموهوبين والعلماء وأهل الأدب^(٢). وردت كلمة العامة في القرآن الكريم باسم المستضعفين^(٣) والمستضعفون هم الذين لا ينالون من الثروة إلا النزر اليسير وهم المغلوبون على أمرهم، ويقصد بهم عادة في المصادر التاريخية السواد الأعظم من السكان أي الجمهور الذي شكل سفح الهرم الطبقي^(٤)

أما سبب تسمية العامة بهذا الاسم فيعود إلى كثرتهم وعدم إحاطة البصر بهم وبذلك اختلفوا عن الخاصة، ولم يكن اختلافهم بكثرة عددهم فقط، بل بكونهم ليسوا من أصحاب السلطة، فهم سواد الناس الذين لا يملكون السلطة، ويعيشون في عالم له أبعاده الفكرية والدينية التي تتدنى عن مستوى عالم "الخاصة"^(٥)، وقد أشار ابن منظور إلى ذلك بلفظين: مصطلح سواد الناس الذي يشمل عوامهم وكل عدد كثير، مقابل "بياض الناس" الذي يطلق على الأعيان والرؤساء^(٦).

ويبدو أن النظرة إلى العامة لم تكن تتطوي على احترام. فنجد بعض التسميات الأخرى المرادفة لكلمة العامة لا تخلو من استهانة أو نقد، فمن ذلك قول المسعودي "بأن الناس قد أجمعوا على تسميتهم بالغوغاء"^(٧)، ويطلق هذا اللفظ في الأصل على الجراد حين تظهر أجنته فيموج بعضه في بعض، ومن ذلك قيل لرعاة الناس الغوغاء^(٨)، كما نعتوا بـ "السفلة" وهو لفظ ألصق عادة بهم، "والسفلة هم السقاط من الناس"^(٩)، وسميت العامة أيضاً "بالأرذال" وتعني الدون من الناس وسفاههم، وهم أهل الخصاصة والمسكنة، ففي معظمهم جوع وبرد^(١٠)، ومن الأوصاف الأخرى التي أطلقت عليهم "الأوباش" ويطلق هذا اللفظ كما يقول الثعالبي^(١١) "على جماعة من الناس إذ كانوا أخلاطاً وضروباً متفرقين".

كان المجتمع المغربي في العهد الزياني كغيره من المجتمعات الوسيطية مجتمعاً تراتبياً، فالمجتمع في هذه الفترة تميز بتفاوت في الثروات، وفي ملكية وسائل الإنتاج سواء في المجال الزراعي أو الحرفي وهو ما يؤكد دور العامل الاقتصادي الحاسم في البناء الطبقي بوصفه البعد الأساسي المحدد لكل أبعاد التراتب الاجتماعي الأخرى كنمط العيش والجاه والسلطة واستناداً لذلك يمكن التمييز بين طبقتين رئيسيتين هما: الخاصة التي احتلت المنزل الأعلى في الهرم الطبقي، وطبقة العامة التي شغلته قاعدته وأسفل الهرم وضمت القوى المنتجة في المدن والبوادي على السواء، بالإضافة لفئة العبيد والفئة المهمشة.

ومن خلال هذه الدراسة حاولت الباحثة الإجابة على عدد من التساؤلات منها: ما مدلول كلمة العامة وما هي صفاتهم من خلال المصادر التاريخية؟ وما الشرائح المكونة لهذه الطبقة وما دورها داخل المجتمع الزياني؟ كيف كانت حياتهم اجتماعية من ناحية المسكن والمأكولات والملابس ومقارنتها بحياة طبقة الخاصة؟ بماذا تميزت أوضاعهم المعيشية عن غيرهم من طبقة الخاصة؟ ما مدى تأثير المجاعات والأوبئة على طبقة العامة؟ ما الدور الذي لعبه كل من الدولة والفقهاء والأولياء في التخفيف من حدة المجاعات والأوبئة على هذه الطبقة؟

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي الذي يقوم على طريقة استنباط الحقائق التاريخية من خلال تحليل وتوضيح النصوص ونقدها. وقد قُسم البحث إلى المحاور الآتية: البحث الأول: مفهوم طبقة العامة. البحث الثاني: بنية طبقة العامة. البحث الثالث: مظاهر الحياة الاجتماعية لطبقة العامة. البحث الرابع: أثر المجاعات والأوبئة على طبقة العامة. البحث الخامس: دور السلطة والفقهاء والقضاة والأولياء في مواجهة المجاعات والأوبئة.

رديئة ومعارفها خسيصة، بينما المكي^(٢١) يرى "بأن العوام بسطاء وأنهم معترفون بجهلهم لذلك فهم إلى الرحمة أقرب".

ومن الناحية الاجتماعية، يلاحظ أن معظم المصادر وقفت موقفاً معادياً من العامة وعرتهم من كل الفضائل الاجتماعية ووسمتهم بالكذب والتصنع والملق وغيرها من الصفات الذميمة فلا يبيعون إلا القهورة والإيمان الخائشة، كما وصفوا بالفسق والدعارة والنهب، واللصوصية، والبغي، والنفاق^(٢٢).

أما من الناحية السياسية، فالمصادر التاريخية تنظر للعامة على أنهم يتسمون بالعناد والقيام بالسلب والنهب الفوضى وإثارة الشغب والقتال^(٢٣)، وإن وصلوا إلى سدة الحكم يطغون ويظلمون ويعتدون على الناس ظلماً وبهتاناً^(٢٤) ومن ثم انحصر دورهم في المهام الأمنية، إذ لم يسمح لهم أن يتقدموا الخاصة إلا في ثلاثة مواطن: إن ساروا ليلاً، أو خاضوا سيلاً أو واجهوا خيلاً^(٢٥)، وبعض المصادر دعت إلى عدم مجالستهم وتعاطي الحديث معهم^(٢٦)، ومنهم من منعهم من الخوض في علم الكلام والتعاطي للسياسة^(٢٧).

ومن الناحية الدينية يرجع أصل تسميتهم بهذا الاسم بسبب جهلهم بالأمور الدينية التفصيلية والتزامهم بالعموم فقط فهم يقرون بالله وبرسوله وكتابه وما جاء به رسول الله، ولهذا أيضاً وصفوا بأنهم لا يعرفون أسرار الشرع، وكذلك وصفوا بأنهم لا يعرفون علم الكلام والفلسفة^(٢٨)، كما وصفتهم المصادر التاريخية "بالعاجزون عن التمييز بين الفاضل والمفضول، الفضل والنقصان، ولا معرفة للحق من الباطل"^(٢٩)، وفي ذلك اتهاماً صريحاً لهم بتقصيرهم في القيام بواجباتهم الدينية باعتبارهم جماعة لا عقل لهم ولا ديانة، وامتزجت كثير من مفاهيمهم الدينية بالكثير من الخرافات لأنهم كانوا في العادة يطلبون الله عن طريق الحواس، كما أثر واقعهم المعيشي على أدائهم لشعائر الدين وفروضه، وبعضهم من تحرر من عقال القيم الدينية وانغمسوا في المعاصي، وفي ذلك يقول ابن الجوزي^(٣٠) : "فإن وبخوا تكلموا كلام الزنادقة"، كما وصف عدد من الناس بأنهم من العامة على أساس أنهم

كما نعتوا بالسوقة^(٣١) ويقول ابن منظور^(٣٢) في ذلك: "السوقة بمنزلة الرعية التي تسوقها الملوك وسموا سوقة لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم. يقال للواحد سوقة وللجماعة سوقة". ومن معاني العامة قيل الرعاع والزنادقة والهمج وأصل الهمج البعوض والهمج من الناس الذين لا نظام لهم^(٣٤)، وهم الطررون والغواة وأصحاب الإهانات، وأهل البدع والفتن^(٣٥).

ويتضح مما سبق؛ أن طبقة العامة ذهبت ضحية أحكام مسبقة من قبل المؤرخين وكتاب التراجم، فالمصادر التاريخية وقفت موقفاً معادياً منها واستنزلت عليها اللعنات ووصفتها بأوصاف حقيرة ونعتتها بعبارات الذم والقدح، وأدارت لها الظهر رغم مساهمتها الجادة والفعالة في بناء المجتمع وتطويره.

ويبدو أنه من المشاع لدى القدامى التمييز بين طبقتين رئيسيتين هما: "العامة والخاصة" إلا أن هذا التمييز لا يحمل دلالات طبقية، فبينما احتلت الخاصة المنزلة الأعلى في الهرم الطبقي شغلت العامة قاعدته، فالسوقة والجمهور هي أدنى المراتب^(٣٦)، بل وصمت شرائح كبيرة من العامة بنعوت حقيرة وخسيصة وقذرة مثل: الصباغ التي ضربت بقذارة رائحته المثل، أما الإسكافي فكان بيته مضرب الأمثال فقيل عنه "بيت الإسكافي فيه كل جلد رقعة ومن كل آدم قطعه"^(٣٧). وقد تأثرت طبائع العامة وعاداتهم بالعمل الذي هو مصدر رزقها فالتجار الصغار والباعة المتجولون يشتهرون بالمماحكة والغش وتعاهد الإيمان الكاذبة على الأثمان، أما الفلاحون فقد وصفوا بالجهل والجفاء والقسوة والمذلة بسبب المغارم حيث "يكون الغارم ذليلاً بائساً"^(٣٨).

٢/١- صفات طبقة العامة

تعدّ أبرز صفات العامة الجهل، حتى أصبح لفظ العامي يقابله العالم، فالعامة هم الذين لا يستضيئون بنور العلم، منهم جاهلون، فابن رشد^(٣٩) حرم على العامة الخوض في مسائل العلم لأنها فوق أفواههم وقد يؤدي بهم إلى التشبث والفتنة، فالعامة كما يقول أبو حيان التوحيدي^(٤٠) لا يعرفون العقل "إن قلت لا عقول لهم كنت صادقاً، وإن قلت لهم أشياء شبيهة بالعقول كنت صادقاً"، فالعامة متهمة بمعارفها، فنفسها خبيثة وعقولها

- مزارع موسمي: يعمل بالأجرة في أوقات الحرث والحصاد.

ومن الملاحظ، أن هذه الفئة عانت من كثرة الضرائب خاصة في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية مما دفع الكثير منهم لترك أراضيهم والبحث عن أعمال أخرى ومزاولة حرف أخرى كالصناعة التقليدية مثل المنسوجات والأواني المنزلية وغيرها. وكما عمقت الكوارث الطبيعية من سوء أوضاعهم المعيشية كتوالي سنوات القحط والجفاف ومهاجمة أسراب الجراد للأراضي المزارعين مما جعل الكثير منهم يعوضون خسارتهم بالالتجاء إلى الرعي الذي يتطلب الترحال.^(٢٥)

٢/٢- فئة ذوي المهن

مثلت هذه الفئة غالبية سكان الدولة فالقاطع الحرفي يعد القاطع الإنتاجي الثاني في المغرب الأوسط بعد الفلاحة، ويتضح ذلك من خلال ما ذكرهم به يحيى ابن خلدون إذ وصفهم بـ "الفلة"، فالزيانيون تميزوا بتنوع حرفهم وصناعاتهم، فكانت دار الصناعة تعج بهم، من دراق، ودراع، ولجام وسراج، ونجار، وحداد، وصناع، ودباج، وغيرهم حيث تسمع صوت آلاتهم وتعرض منتوجاتهم أمام السلاطين، فينصف العاملون من أرقاقهم عدلاً.^(٢٦)

ومما يؤكد تنوع الحرف والصناعات أن العاصمة الزيانية اشتهرت بكثرة الأحياء التي تعج بهؤلاء الصناع والحرفيين، حيث كانت جميع الصناعات موزعة على مختلف الساحات والأزقة، وتعرف أسماء بعض طوائف الصناع والحرفيين في مدن الدولة مثل: حي الحرازين، وحي القصارين، ودرب السمّار، وسوق البراذعين، ودرب الصباغين، والحدادين، والخراطين، والحجامين والعطارين^(٢٧). ولم تقتصر الصناعات على داخل المدينة فحسب، بل كان بعضها يقام خارج أسوارها لما تحدثه من تلوث في محيط المكان أو تسبب إزعاجاً للسكان، وكذلك بعضها كان يحتاج إلى تدفق المياه فأقيمت في الغالب على ضفاف الأنهار والمنحدرات كدباغة الجلود والصباغة والحدادة والأرحية^(٢٨).

لم يقلدوا مذهباً معيناً ولم يتخذوه منهجاً لهم في عبادتهم^(٢٩).

ومما سبق يتضح؛ أن معظم المصادر أدارت ظهرها لأي دور حقيقي للعوام في البناء الحضاري، بل جندت كل طاقاتها لتشويهمهم، وإعطائهم صورة قاتمة، وهو ما يعني تشويه سمعتهم ونفيهم عن عياض حضارة الإسلام، وهو ما جعل الدارسين يواجهون مشكلة تاريخية حقيقية إبان هذه الطبقة^(٣٠).

ثانياً: بنية طبقة العامة

عرف المجتمع الزياني كغيره من المجتمعات الإسلامية المعاصرة له الطبقة نتيجة للظروف السياسية والاقتصادية والثقافية فحسب ما أورده ابن خلدون^(٣١) أن وضع الطبقات مراتب فيها طبقة بعد أخرى حتى ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد غالبية وفي أسفل إلى من لا يملك ضرا ولا نفعا بين جنسه وبين ذلك طبقات متعددة. كما أن هذه الطبقات تختلف بين سكان المدن والقرى من حيث عددها ونوعيتها بين القرى وعاصمة الدولة وبقية مدنها. وقد ضمت طبقة العامة شرائح اجتماعية متنوعة شكل دخلها المحدود القاسم المشترك بينها، فشملت الفلاحين وصغار التجار وأصحاب المهن وغيرهم ممن تدفقوا على المدن بحثاً عن العمل فضلاً عن المهمشين والعيبد.

١/٢- فئة الفلاحين

يُعدّ الفلاحون أهم شريحة من شرائح طبقة العامة في المغرب الأوسط، على اعتبار أن الفلاحة أهم مصدر لكسب العيش، وهذا ما ينطبق على ما ذهب إليه ابن خلدون^(٣٢) في إشارته لكسب المعاش وأصنافه فذكر أن الفرد بإمكانه "تحصيل الرزق وكسبه من انبات في الزرع والشجر بالقيام عليه وبإعداد ثمره".

ويمكن تقسيم المزارعين إلى ثلاث أصناف:

- مزارع مستأجر: وهو الذي يكتري أرض غيره لمدة سنة أو أكثر، ويلتزم بدفع الكراء إلى صاحبها.
- مزارع مشارك لصاحب الأرض: ويعرف بالخماس، وكان عليه أن يقوم بجميع الأعمال بما في ذلك خدمة الحيوانات مقابل مشاركة الأرض بنسبة الخمس في إنتاج الأرض.

واستقر بتملسان^(٤٥) وهذا المثال يوضح الفرق الكبير بين الحال الذي يعيشها بعض الحرفيين خصوصاً الأجراء منهم، وحال التجار الذين يجنون من أسفارهم التجارية الأموال الطائلة.

٣/٢- صغار التجار

مثلت هذه الفئة أعداد كبيرة من المجتمع الزياني، وهذا الصنف من التجار كانوا يمارسون عملهم بمفردهم وأغلبهم يستأجرون المحال والمتاجر من كبار الملاك أو من الأقباس وبعضهم يعملون كمتجولين ببضائعهم من مدينة لمدينة ومتقلين ما بين القرى.^(٤٦) وكان التاجر الصغير يلجأ إلى التاجر الكبير المستورد في مختلف الأسواق، لتموين زبائنه بالسلع والبضائع التي تختلف أسعارها، حسب تكلفة إنتاجها ومشقة إحضارها. وكانت مدينة تلمسان تقدم خدمات كثيرة في مجال التجارة المتنوعة بالجملة والتجزئة. وكان هؤلاء التجار يسوقون بضائعهم في المحلات والدكاكين المتواجدة في كل حي ودرب من المدينة، وكذلك حول المسجد والقيصارية، أما البضاعة المستوردة تباع مباشرة لتجار التجزئة في المدينة؛ ويحول الباقي منها إلى القرى والأرياف والموانئ لتوزيعها على تجار هذه المناطق عن طريق الوسطاء.^(٤٧)

وهناك صنف آخر من سكان المغرب الأوسط ارتبطوا أشد الارتباط بالأنشطة التجارية كانوا ينتمون إلى فئة صغار التجار على الرغم من الأعمال الشاقة التي يقومون بها في الأسواق والورشات الصناعية كالحمالين والدلالين والبراحين ومرافقي القوافل التجارية، والمكلفين بحراستها، ويعد هؤلاء من أفقر العاملين في القطاع التجاري.^(٤٨) وعلى الرغم من محاولة هؤلاء تحسين أوضاعهم المعيشية إلا أنهم كانوا يعانون من كثرة الضرائب وحدتها، فكانت تؤخذ على كل البضائع التي يتاجرون بها حتى انتشرت بينهم ظاهرة التهرب من الجباية الجمركية، وللحد من هذه الظاهرة حاول بنو زيان وضع بعض الإجراءات الجمركية بوضعهم على أبواب مدينة تلمسان عمالاً من أهل الذمة (اليهود والنصارى) يقومون بتفتيش التاجر بحثاً عن السلع الخاضعة للضريبة، ولم يقتصر هذا الإجراء على التجار الرجال فحسب وإنما شمل حتى النساء أوكل بهن

ومن الجدير بالذكر أن هذه الفئة لاقت اهتماماً من طرف السلاطين الزيانيين، مثال ذلك: أبو حمو الثاني الذي كان يشجع أصحاب الحرف، فكان يجالسهم في قصره يوم الجمعة، وكان من بين انجازاته تشييده لدار الصناعة سنة (٧٦٦هـ/١٣٦٥م) وقد استقطبت هذه الدار الصناع على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ودياناتهم وصناعاتهم^(٤٩).

ولم تقتصر الحرف والصناعات عن الرجال فحسب، بل كان للمرأة الزيانية المنتمية لعائلات فقيرة دورها في المجال فكانت تحاول تحسين وضعها المعيشي إذ كانت تصنع في بيتها النسيج من القطن والحرير والصوف، بعد شرائه وتنظيفه بالغسل والمشط، والغزل، والنسج، ثم تقوم ببيعه بعد ذلك. وكان نسيج البرانس للرجال والبرينسات^{٥٠} للأطفال، وكذلك الزرابي والحبال في الغالب من غزل النساء ونسجهن، في منازلهن أو في بعض الورشات الخاصة.^(٥١)

أما عن الأوضاع المعيشية للحرفيين والمستخدمين بالأجر اليومي فقد اتسمت بالدخل الضعيف مما يجعلهم يحيون حياة الكفاف، أو شبه ما يكون بحياة الفقر والبؤس، ففي بعض الأحيان لا تتعدى أجورهم النصف دينار لكل شهر^(٥٢)، مقارنة بأرباب الحرف والصناعات، والقائمون على الورشات والأشغال العمومية وعرفاء الصنائع، وأمناء الحرف، الذين كانوا يعيشون وضعية ميسورة، بسبب الرواتب المرتفعة، والأرباح العالية، التي كانوا يتلقونها من أعمالهم.^(٥٣) وقد نوهت بعض المصادر أيضاً عن حالهم السيئ فالغبريني^(٥٤) يذكر أن الفقيه أبا زهر الربيع كان يكتب في بجاية عند بعض الولاة، وبعد اعتزاله المهنة احترف الخياطة فسأت حاله، والحال نفسه بالنسبة إلى أبي العباس القطان الذي كان في شبابه يمتحن حرفة الخياطة، لكنه شكّا ابن الجد سوء حاله وضيق معيشته، فأشار عليه هذا الأخير بالزواج، لكن ابن القطان أجابه قائلاً: "أنا أشكو عن إقامة حالي فكيف بالزوجة ولي والدّة كبيرة لا أستطيع القيام بمئونها"، ولكن ابن مرزوق الجد أصر على إنكاحه من إحدى قريباته؛ فدفع له صداقها وأعطاه مالاً وأصبح ابن القطان بذلك يخرج مسافراً للتجارة إلى فاس وسبتة وبجاية حتى تيسر حاله

صعبة وظروف مزرية وصلت إلى حد الإذلال، ولم تحترم كرامته، فقد كانوا يورثون كما تورث الأملاك أو الأراضي، ولا يتخلصون من قيد العبودية إلا إذا ترك أسيادهم وصايا تنص على تحريرهم^(٥٤) وهذا ما يدل على مدى معاناة هذه الشريحة داخل المجتمع الزياني آنذاك. فقد كان خضوع العبد لسيده يكاد يكون مطلقاً، ولا يحق له التصرف في أمر من أموره إلا بإذن من سيده، بالإضافة إلى انتشار بعض الأمثال الشعبية بين العامة تحتقر هؤلاء العبيد وتنتهي عن مخالطتهم ومجالستهم ومن بينها: "مَنْ خالط الخدم ندم"، أو مثل: "الخدم لا يكون نديم"^(٥٥) كل هذه الأمثال دعت إلى تجنب الاختلاط بهم وضرورة استعمال الشدة والقسوة في معاملاتهم حيث كان شتمهم أو إهانتهم من الأمور المألوفة داخل المجتمع آنذاك.^(٥٦)

٥/٢- الفئة المهمشة

أما مَنْ لم يسعفه الحظ في إيجاد حرفاً ما، فسلوك طرقات أخرى من أجل العيش، نذكر منهم قطاع الطرق واللصوص الذين يترصدون بالناس والتجار الغرباء القادمين من مصر وإفريقية والأندلس وبلاد السودان وغيرها.^(٥٧) ومنهم كذلك المتسولة الذين كانوا يتكفون الناس ويعيشون منهم، فكانت تعج بهم شوارع المدن الكبرى حيث سلوكوا طرقاتاً مختلفة لكسب عطف الناس عليهم، وتجدر الإشارة أن التسول انتشر بين الرجال والنساء على السواء، فمنهم من كان يدق أبواب المنازل، ومنهم من كان يجلس على الطرقات أو قرب المسجد، فابن عبدون ذكر أنهم كانوا يستغلون فرصة يوم الجمعة لولوج المساجد قصد استعطاف المصلين، لذلك نبه القائمين على شؤون المسجد "ألا يترك ساع في رحاب جامع"^(٥٨). ومنهم من كان يقومون باستغلال المناسبات والمواسم الدينية لكسب عطف الناس ولتلقى عطائهم^(٥٩). ومنهم البطالين وأهل السجون وارذال الناس، إضافة إلى فئة تدعى الغرباء كانوا يستخدمون طرقاتاً ملتوية للأكل أموال الناس بالباطل وانتزاعها منهم بشتى الطرق.^(٦٠)

يهوديات وهي عميلة انفرد بها جباة تلمسان عن غيرها.^(٤٩)

٤/٢- فئة العبيد

يأتي العبيد أو ما يعرف بالرقيق الأسود في أسفل السلم الاجتماعي، فقد كانوا موجودون من بين العناصر الاجتماعية المختلفة التي عرفها المغرب الأوسط فقد كانوا يجلبون من بلاد السودان حيث كانوا يصطادونهم من حافات الغابات الإفريقية فيسبون الرجال والنساء والأطفال ويبيعونهم لتجار المغرب واليهود الذين ينقلونهم إلى الشمال الإفريقي، ومنها إلى العالم الإسلامي وأوروبا لزيادة الطلب عليه وقد حققوا من وراء هذه التجارة أرباحاً طائلة^(٥٠).

ثم أخذت أعدادهم تتضاعف في عهد الدولة الرستمية نظراً لما تمتعت به تاهرت من رخاء اقتصادي وتجاري، وتزايدت أكثر في عهد الدولة الزيانية وذلك لأن الحياة الاقتصادية في المدن والحقول تعتمد على اليد العاملة المستأجرة، حتى أصبحت تجارة الرقيق تأتي في المرتبة الثانية بعد تجارة الذهب.^(٥١) وتمحورت أهم مهامهم في العمل في القصور والحقول والجيش، ومنهم من الجوّاري اللائي يسخرن للخدمة في المنازل والقيام بشؤون الأسرة وتربية أبنائها فقد كان في كل بيت تلمساني عريق خادم ووصيفة وأكثر من خادم عند الطبقة الميسورة، كما كانوا يرافقون أسيادهم في سفرهم وترحالهم لخدمتهم ومساعدتهم.^(٥٢)

ولكثرتهم في المجتمع الزياني ازدهرت أسواق النخاسة والرقيق فقد كانت أثمانهم تتراوح ما بين ٢٥ إلى ٦٠ ديناراً، والأمة السودانية بيعت في بلاد المغرب بألف دينار وأكثر، وكان سعر العبد في قصور توات التابعة لنفوذ بني زيان في المتوسط يساوي أوقيتين من الذهب، أما الفتاة التي لا يزيد عمرها عن خمس عشرة سنة تساوي ستة مثاقيل، أما الأطفال وكبار السن فيقدر ثمنهم بنصف ذلك. ومن الملاحظ ويتضح من ذلك أن أسعار العبيد كانت تخضع لأعمارهم وحالته الصحية وقوته البدنية.^(٥٣)

ومن الجدير بالذكر، أن هذه الشريحة عانت من سوء الظروف الاجتماعية فقد عاشت هذه الفئة المتمثلة حياة

ثالثاً: مظاهر الحياة الاجتماعية لطبقة العامة

لم يكن غريباً على مجتمع تميز بتفاوت طبقي وقائم على أساس حيازة الثروة أن ينعكس بشكل واضح على مظاهر الحياة الاجتماعية للطبقات المشكلة له، فطبقة الخاصة تلونت ألبستها وموائدها وتمتعت بأعيادها وأفراحها، بينما قل رزق العامة رغم التأثير الذي مارسه على التطور التاريخي للمجتمع. فقد أغلقت أمامها كل القنوات لتحسين وضعها الاجتماعي وكانت عرضة للجوع والقهر والذل مما انعكس على حياتها الاجتماعية والذهنية.^(٦١)

١٣-١- المأكّل

تخضع نوعية معيشة أهل المغرب الأوسط كغيره من سكان الحواضر الإسلامية إلى المستوى الاجتماعي والمادي كلا حسب التصنيف الطبقي للمجتمع الزباني، فإذا كانت الطبقة الخاصة تتأقن في الأكل والمشرب، وتتفنن في ضروبه وأصنافه، ولا تبخل على أسرها وتتوسع في النفقات عليها، فالطبقة العامة من الناس كانت تتميز بالبساطة^(٦٢)، فعامة الناس غالباً ما كانوا يضطرون لقلّة كسبهم إلى الإقبال على العناصر النباتية الأرخص سعراً والأسهل منالاً، ينطبق نفس الشيء على المأكولات المتخذة من الشعير والخضر والبقول، وأصناف الحبوب مثل الأسفنج والثريد والمسمنات والخبز، واحتل الفول مكانة خاصة من بين المأكولات الأساسية للعامة، والبادنجان الذي وصفته العامة بأنه "زبد في وعاء"^(٦٣)

كما كانت أكلة الكسكسي والدشيش في مقدمة المأكولات للطبقة الفقيرة كانت تستعمل هذا النوع من الطعام يومياً كوجبة للغداء والعشاء، وفي بعض الحالات يكون مصنوع من الشعير، وكذلك الخبز. ومما يدل على ذلك ما أورده ابن مريم في ترجمته لسيد محمد بن عثمان بن يعقوب الورنيدي فقال في شأنه رضي الله عنه لا يأكل إلا خبز الشعير بالإدام.^(٦٤) ولم تكن الشرائح الفقيرة تتناول خبز القمح لغلائه واستهلكوا بدلاً له خبزاً صنع من الشعير^(٦٥). وكثيراً ما اكتفت العامة تحت ضغط الفقر والفاقة إلى أكل الخبز واللبن أو الخبز والعسل أو الخبز وزيت أركان التي لم تكن على مستوى الأصناف الجيدة. وبالمثل انعكس التمايز الطبقي على

صناعة المري فإلى جانب المري الجيد كمري الحوت وغيرها من الأنواع التي دأبت طبقة العامة على استهلاكها هناك "مري العامة المتخذ من دقيق الشعير والعسل المحروق"^(٦٦).

ونظراً لانخفاض المشكلات الاقتصادية وانخفاض المستوى المعيشي لطبقة العامة اقتصر بعضهم على صنف واحد من الطعام لا يتعداه في غالب الأوقات، بينما كان غيره لا يزيد غذاؤه على العصيدة يومياً.^(٦٧) وفي أوقات المجاعات اعتاد أهل المغرب الأوسط على أكل الجراد بأن أصبح وجبة أساسية في موائدهم لأنه حلال ويسد الرمق رغم علمه بمضاعفاته الصحية السلبية فهو "حار يابس قليل الغذاء وإدامة أكله تورث الهزال".^(٦٨)

كما اعتاد العامة في إبان المجاعة على جمع بلوط الغابات ونشره حتى يجف ثم يطحن ويخلط بحشائش أخرى ويصنع من دقيقه الخبز والرغيف، وكما أقبل الجياع على أكل علف الماشية مثل نبات الشيلم الذي كان "يطحن ويختبز ويعتصد ويعاش منه في المحل"^(٦٩). كما اقبل الجياع في بعض سنوات المجاعة على أكل فيتور الزيتون لأنه كان كثير بالبوادي الخالية فتجلبه الضعفاء ويقتاتون منه، كما اضطروا إلى أكل خسيس الحيوان^(٧٠).

٣-٢- الملابس

وإذا كنا لم نعر على تفاصيل كثيرة عن الملابس فيجب علينا الرجوع إلى ما قبل عصر بني زيان وهو العصر الموحيدي، لأن تلك الملابس لا تتغير بين عشية وضحاها^(٧١). ومن الملاحظ أن اللباس يعكس الفروق الاجتماعية أكثر مما كان يعكسها الغذاء. فالزي يحمل دلالات اجتماعية بالغة الأهمية تكشف عن الاختلافات العميقة بين مكونات المجتمع المغربي في العصر الوسيط ففي الوقت الذي كانت فيه ملابس طبقة الخاصة مصنوعة من القطن والحريز والكتان والصوف الرفيع، كما ان الوانها وخفتها وخشونتها تخضع لفصول السنة فكانت لهم ملابس خاصة بالصيف وأخرى خاصة بالشتاء^(٧٢)، فكانت لهم "ثياب النزهة، وثياب الحمام، وثياب العرس لكل حال ما يليق بها".^(٧٣)

البربر منذ عصور ما قبل التاريخ، ولم يكن لبس السراويل شائعاً في صفوفهن.^(٨٢)

٣-٣- السكن

وبالمثل انعكس التمايز الاجتماعي على سكن طبقة العامة، وكان اقتناء عليّة القوم للقصور الشاسعة والمزخرفة بشتى الألوان والأشجار دليلاً ناصعاً على عمق التمايز الطبقي بالمغرب، على عكس طبقة العامة فقد كانت بيوتها مغطاة بالطين أو الكلاء (الديس) وهذا النوع يعبر عن الدور البسيطة التي يطلق عليها اسم القربى في بلاد المغرب الإسلامي ويكون مغطاة بالنباتات الجافة كالديس والحلفاء ومن بين الذين تعرضوا للمنازل ابن مريم^(٨٣) فيقول عن تلك المساكن أنها مزودة بإصطبلات الخيل وهي منفصلة عن المساكن وبالقرب منها بيوت مخصصة للضيوف. ونظراً لتفاقم وضعية العامة الاقتصادية فإن عدة شرائح دفعته الفاقة والفقر المدقع إلى سكنى الكهوف والمغاور، والربط، ومنهم من لجأ إلى المسجد أو السكن مع الجيران أو في المقابر أو الخيام.^(٨٤)

أما ما تحتويه منازلهم من أثاث فهو متواضع وبسيط يقدم صورهم عن مستواهم المعيشي البسيط فبجانب الأدوات الضرورية والمصنوعة من الخشب أو من الخزف لتحضير الأطعمة والاحتفاظ بها، توفرت دور العامة على حصور بالية ووسادات من الدوم للجلوس والنوم، كما أنها مزودة بالقليل من الأدوات المنزلية كسراج للإضاءة والقذور وأطباق، فضلاً عن أرحاء لطحن الحبوب، بينما استعمل بعض العامة جلود السلاحف معاجن للدقيق^(٨٥).

٤-٣- أوضاع المرأة في المجتمع الزياتي

دفعت سوء الأوضاع الاقتصادية نساء العوام تحت ضغط الحاجيات المعيشية الملحة لتحصيل الرزق والانخراط في الحياة الاقتصادية في كفاح يومي من أجل الحصول على لقمت العيش. فقد نجحت بعضهن في سوق العمل، فمهن القابلات، والجنازات، والطباخات، والخادومات، والأمينات، والماشطات، والغازلات، للصوف.^(٨٦)

أما العوام فامتازوا -على تباين فتاتهم- بين الجبة والكساء والعمامة والسراويل والبرانيس والدراعة وغيرها والغالب على تلك الألبسة أنها مصنوعة من الصوف على اعتبار أن لباس الصوف يعد لباساً عاماً شاع استعماله في بلاد المغرب، فتشير المصادر التاريخية إلى لبس الجبة المصنوعة من الصوف في شتى أنحاء المغرب والأندلس^(٨٧)، وكان أهل البوادي يلبسون الألبسة الخشنة والبسيطة من الكتان والصوف ويرتدي الصناع لباساً قصيراً ويتعمم قليل منهم، ويضع البعض منهم الآخر قلانس على رؤوسهم بدون ثياب وينتعلون نعالاً، تعلوا نصف الساق وهم أناس بسطاء يتحلون بالأدب، ويتقنون عملهم بمهارة^(٨٨)، ومنهم من اتخذوا لأقدامها الخف المصنوع من الدوام والحلفاء، وكانت غالبيتهم حافية الأقدام وخاصة في البوادي.^(٨٩)

أما زي العرب فإنهم كانوا سواسية في لبس المخيط وربما ألقوا رداء على ظهورهم والتفوا بإزار، واتخذوا العمائم التلمسانية والبرنوس الزناتي ونستخلص مما رواه القلقشندي عن زيههم في العصر الموحي أن الأشياء والعامة كانوا على زي واحد، لا يمتاز بعضهم على بعض إلا في شيء واحد لا يكاد يظهر ولا يبين وهو الذي يتمثل في صغر العمائم، وضيق القماش^(٩٠)، كما أنهم يتلثمون تحت أذقانههم بأطراف عمائمهم متأثرين في ذلك بزناطة.^(٩١)

ويضاف إلى ذلك ما يصفه ابن صاحب الصلاة في قوله: "وكسى جميعهم بالقباطي"^(٩٢) والقمص والغفائر^(٩٣) والعمائم. وفي موضع آخر يقول: "ثم أعطى الكسوات للموحدين والأشياخ من كل قبيلة ولطلبة الحضر والعرب بأن أعطى كل واحد ستة أثواب: عمامة، وغفارة، قبطية، مبطنة، ومقطعين ومهدويين وكساء".^(٩٤) ويتضح من النصوص السابقة أن زي العامة من العرب بالمغرب كان القبطية، والقمص والغفائر والعمائم.

ولم يختلف لباس النساء كثيراً عن لبس الرجال فقد اتخذت النساء الفقيرات الكساء والملحفة والإزار علاوة على البرنس والجبة وتزينت بأقراط وخواتم مصنوعة من الحديد والنحاس، بينما تحسنت بعضهن بوسائل مختلفة منها الوشم والذي يعتبر من العادات المتبعة عند

الرصاص بها، وهو يزاوِل دراسته الابتدائية فقد سافر المؤدب الذي كان يدرسهم وخلا المسجد من الصبيان بسبب هذا الوباء الذي لا نعلم زمنه تحديداً^(٩١)

كما شكلت المجاعات خطراً حقيقياً على السكان بشكل عام وعلى طبقة العامة بشكل خاص خلال العهد الزياني فبفعل الحصار الذي فرضه المرينيون على عاصمة الدولة الزيانية تلمسان من سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٩م) واستمرارها إلى غاية (٧٠٦هـ/١٣٠٦م) ولطول فترة الحصار والذي دام تقريباً ثماني سنوات وثلاثة أشهر تعرضت عاصمة الدولة الزيانية لمجاعة قاسية راح ضحيتها أعداد كثيرة من السكان فكادت عاصمة الدولة أن تكون خالية من سكانها الذين كان عددهم يفوق تقريباً مائة وخمسة وعشرون ألف نسمة^(٩٢)، كما لا يفوتنا ذكر تأثيراتها الاقتصادية إذ تسببت هذه المجاعة في تراجع العديد من الصناعات والحرف التي اشتهرت بها بلاد المغرب الأوسط خلال هذه الفترة بسبب هلاك أغلب الصناع والحرفيين إبان هذه المجاعة ويصف ابن أبي زرع صورة عن الانهيار الذي تعرضت له تلمسان جراء هذا الحصار بقوله " وأضعف أهل تلمسان بشدة الحصار حتى أشرفوا على الهلاك^(٩٣)، وكان نتيجة لإعصار الذي ضرب تلمسان سنة (٧٧٦هـ/١٣٧٤م) هلاك المزارع وموت الحيوانات مما تسبب في حدوث مجاعة كان لها أثارها على عامة المغرب حتى أكل الناس بعضهم بعضاً^(٩٤)

وكان لتوالي انتشار وباء الطاعون على بلاد المغرب الأوسط أثره المباشر على طبقة العامة بالخصوص فوقعه لم يكن كوقعه على باقي الفئات الاجتماعية الأخرى وإنما كان أكثر فتكاً في الفقراء والضعفاء، ففي عهد السلطان أبو سعيد عثمان الثاني (٧٤٩ - ٧٥٣هـ/ ١٣٤٨ - ١٣٥٢م) تفشى وباء الطاعون وقضى على خلق كثير من الناس وكانت العاصمة الزيانية أشد تضرراً منه، إذ قضى على عائلات بأكملها ويصفه ابن الخطيب بقوله " ووجدنا الطاعون في بيوتهم قد نزل، واحتجز منهم الكثير إلى القبور.." ^(٩٥) ثم عاد مرة أخرى في عهد حكم السلطان أبو حمو موسى الثاني (٧٦٠ - ٧٩١هـ/ ١٣٥٩ - ١٣٨٩م) ليفتك ممن تبقى من سكان البلاد، وكان

وفي المجال الزراعي ساهمت المرأة في البداية رغم ضعف وسائل الإنتاج في تنمية ممتلكات الأسرة حيث إنها تشتغل إلى جانب زوجها برعي المواشي والعمل في الحقول، مثل الاعتناء بالأشجار وجمع ثمارها والحصاد وجمع الزرع، إلى جانب الأشغال التي يتطلبها البيت كسقي الماء، واحتطاب الحطب للطبخ والتدفئة، كما كانت تسهر على إعداد الخبز، وهذه الأعمال كانت مألوفاً لدى المرأة منذ القدم^(٩٧).

وعلى الرغم من السلبات والنقائص التي ارتبطت بوضعية المرأة فإن كثيراً من الأنشطة أمنت لها قدراً من الحرية الاجتماعية تجلت في مظاهر شتى كالخروج للأسواق وبيع منتوجاتهن، أو لشراء احتياجاتهن الضرورية، فضلاً على ارتيادهن الحمامات، ومشاركتهن في الاحتفالات، إلا أنه في ظل تفاقم الأزمات الاقتصادية دفعت بقسم منهن لاحتراق التسول، أو الدعارة والاتجار بالأعراض^(٩٨).

٣/٥-الاحتفالات بالأعياد الدينية

كان للعوام حضور في إحياء الاحتفالات الدينية على الرغم من الأزمات الاقتصادية وازدياد الفاقة والفقر فحظي شهر رمضان بمكانة لا تقل عنه عند العامة، فهو شهر الغفران وتقدم فيه الصدقات والعطاءات للمعوزين والفقراء، فضلاً عن إحياء ليلة السابع والعشرين منه باعتباره مناسبة لإقامة السماع والرقص والذكر في المساجد والمنازل، كما لم يفوتهم الاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى ففيها تخرج الزكاوات على المحتاجين^(٩٩)، إلى جانب هذه الأعياد احتفل المغاربة بعيد المولد النبوي الشريف فكان السلطان أبي حمو موسى الثاني منذ توليه العرش الزياني سنة (٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م) فكان يدعو كافة الناس، خاصتهم وعامتهم بحضور هذا الاحتفال حيث كانت توزع عليهم أصناف من الأطعمة^(١٠٠)

رابعاً: أثر المجاعات والأوبئة على طبقة العامة

كانت أعداد الموتى جراء الأوبئة والطواعين في مجتمع المغرب الأوسط إبان هذه الحقبة يتصدرها أناس من العامة والفقراء بسبب قلة الإمكانيات وسوء التغذية، خصوصاً منهم الأطفال والصبيان، فقد مات الصبيان في تلمسان جراء وباء كان قد أصابها في فترة استقرار

خامساً: دور السلطة والفقهاء والأولياء في مواجهة المجاعات والأوبئة

١/٥- دور السلطة

من المعلوم أن الدور السلطوي في المجتمع إبان الأزمات كان نابغاً من منطلق رغبة السلطان في تثبيت أركان ملكه، وذلك من أجل الحصول على شرعيته للحكم على أساس موالاة الرعية له تستلزم عليه الوقوف إلى جانبهم في أوقات المحن، والنظر في أحوالهم عندما تحل بهم جائحة من جوع أو مرض، أو سيل أو عدو أو غير ذلك من الأزمات^(١٠١)، ويتجلى ذلك بوضوح من خلال الوصايا الملكية التي صاغها السلطان أبو حمو لابنه وولي عهده، حتى يكسب ثقة رعيته ويستتب له الملك، ويقول في ذلك "كان زمن القحط ومحل ومجاعة واقعة وازل، فترفق بهم في المخازن والمجاني، وتحسن لضعفائهم المحتاجين وتحابى، وتؤثرهم مما ادخرته لشدائدهم في زمن الرخاء من فوائدهم، فتعمر أسواقهم بما اخترنته من الطعام مما يقام به أود الناس في ذلك العام، فإذا كنت يا بني عاملاً على هذا الأسلوب جبلت على محبتك كل القلوب، ودعت لك الرعية ببقاء الدولة والتمهيد والنصر والتأييد، وفي ذلك الصلاح التام لدولتك والخير العام لرعيته"^(١٠٢). ومن خلال هذا النص يتضح أن السلطة لم تتوان عن مساعدة عامة المجتمع كلما سنحت لها الفرصة، وخصوصاً عند قيام أي خليفة بإصلاحات جديدة داخل المجتمع.

وقد حاولت السلطة الزيانية اتخاذ عدة إجراءات احترازية لمواجهة بعض الكوارث الطبيعية كالحقوطة والمجاعات على سبيل المثال ومنها: ادخار الطعام في أوقات الرخاء، ففي هذا الصدد عمل حكام وسكان بلاد المغرب خلال العصر الوسيط على إنشاء مخازن للغلال (الأهراء) لتخزين المؤن والأطعمة القابلة للتخزين؛ لتخفيف من حدة القحط والمجاعة^(١٠٣)، فقد أدى القحط الشديد الذي شهدته بلاد المغرب على مدى سنوات عدة إلى ارتفاع الأسعار مما جعل الدولة تفتح المخازن وتبيع الحبوب بأثمان زهيدة، حيث أمر السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني (٧٦٠ - ٧٩١ هـ / ١٣٥٩ - ١٣٨٨ م) بفتح مخازن الطعام وبيعه للناس بعد تخفيض

وباء سنة (٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) أكثر ضرراً إذ أجمعت المصادر على أنه أتى على الصغار والضعفاء بل لم ينجوا منه حتى العلماء فقد توفى به عالم تلمسان ومفتي بلاد المغرب الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن المغراوي الشهير بابن زاغو، وهو دليل على أن هذا الوباء أصاب العامة والأسياذ والشيوخ بدون تمييز^(٩٦) ولعل من الأسباب المساعدة في ارتفاع عدد الوفيات بهذا الشكل سوء التغذية، والأمراض التي كانت تفاجئ السكان من الحين إلى آخر، وقلة النظافة والوعي الصحي بين أوساط العامة من الناس خاصة الطبقة الفقيرة منها.

وبسبب المجاعات والأوبئة المتلاحقة التي شهدتها المنطقة مجال الدراسة ردود فعل متباينة من قبل عامة السكان عبروا عنها بأشكال مختلفة في إطار سعيه للحد من خطورة هذه الكوارث، متبعين في ذلك سلوكاً عدوانياً؛ كإتهان البعض لحرفة السرقة والنهب وقطع الطرق^(٩٧)، وهذه الظاهرة تزداد ويستفحل أمرها في أوقات الضيق والشدة الناجمة عن هذه الكوارث، فقد أشار لها ابن قنفذ^(٩٨) الذي اضطر للإقامة في تلمسان لمدة شهر بسبب انعدام الأمن في الطرقات جراء المجاعة التي ضربت البلاد سنة (٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م)، كما كانت مجاعة سنة (٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) سبباً في ظهور قطاع الطرق واللصوص بمدينة تلمسان، فأصبحت الطرق غير آمنة، يذكر العبدري^(٩٩) في رحلته لها أنه وجد طريقها منقطعاً مخوفاً يسلكه الناس بحذر، ولا يسلم منع أحد. فاللصوصية خاصة خلال المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية أصبحت مهنة يكتسب أصحابها أموالاً طائلة، وعلى سبيل المثال تعرض له الرحالة المصري عبد الباسط خليل للسرقة عندما كان مقيماً بمدينة تلمسان، وكذلك الحسن الوزان الذي سُرقت جواده في أثناء زيارته لإحدى الأسواق بقلعة بني راشد^(١٠٠)

ومما سبق يتضح؛ أن الأوضاع غير المستقرة أثرت سلباً على القيم الأخلاقية للإنسان، فاستفحلت ظاهرة السلب والنهب، وانتفى بسببها التعايش داخل المجتمع في مراحل حرجة استهدفت فيها مصادر عيش الإنسان، سواء المنقولة أو الثابتة.

الأوسط وباع قاعة كانت ملكاً لرجل غاب عن وطنه، وصرف ثمنها على أولاده في وقت المجاعة، واستشير قاضي الجماعة في صحة هذا الاجتهاد فأقر صنيعه^(١٠٩).

وقد منع الفقهاء والقضاة أيضاً على التجار أوقات المجاعات احتكار السلع، وقاموا بحثهم على إخراج الطعام المدخر وبيعه في الأسواق لحاجة الناس إليه بسعر معقول، كما أنهم شددوا العقاب على التجار إذا ما تبين امتناعهم عن إخراج سلعهم لبيعها، كما شددوا النكير على ملتقى السلع في الفنادق وألزمهم بإنزالها إلى الأسواق ليدركها الضعيف والقوي^(١١٠).

ولا ننسى دور شرفاء المغرب الأوسط أيضاً ممن كانت حالهم ميسورة في هذا المجال، من خلال أعمال البر والتكفل بالفقراء، فيقول أبو عبد الله محمد الشريف عن أحد الشرفاء: "أما محمد الأصغر بن محمد بن خالد بن عمران بن صفوان مكث بزاوية أبيه بمدينة بحوز تلمسان أقام بحقها، وكان يكسي العريان ويطعم الجائع ويفدي الأسارى وكان مقصود لذلك"^(١١١).

٥/٣- دور الأولياء

الدور الريادي الذي لعبه الولي في بلاد المغرب الأوسط جعله المرشح لأن يكون بمثابة الزعيم الروحي في المجتمع، علماً أن الاعتقاد به والإيمان العميق بكل الطقوس الصادرة عنه؛ من كرامات وخوارق ومكاشفات ظلت ذهنية راسخة في نفوس أفراد هذا المجتمع حكماً ومحكومين^(١١٢).

والظاهر أن العامة وجدت في الأولياء والمتصوفة ما يتناسب مع أوضاعها ويوافق تطلعاتها، فهو إفراز لواقعها المعيشي، واعتباراً لثقل ما عانته من الآم ومشاق متنوعة، وما صادفته من صعوبات في تغيير واقعها، اعتقد العوام في الخوارق والكرامات ووجدوا فيها عزا التخفيف من ويلات الدنيا ومجالاً للتمني وانتظار الفرج والحلم بحياة أفضل^(١١٣).

وقد لعب المتصوفة دوراً في إغاثة المحتاجين ومد يد المعونة للمعوزين، وذلك للتخفيف من حدة التناقض الاجتماعي بين بذخ الخاصة وفقر العامة، وانتشرت بذلك عادة الإحسان إلى الفقراء من تقديرات نقدية أو

سعره أثناء المجاعة الكبرى التي وقعت سنة ٧٧٦هـ/١٥٧٤م، كما تصدق بنصف جبايته لفقراء تلمسان، وقسم عليهم الأرزاق بالعدل، وضم الفقراء والمحتاجين في بيمارستانات، يأتهم رزقهم بشكل يومي حتى نقضت المجاعة^(١١٤).

كما لم تتوان السلطة في إغاثة، الفقراء والمحتاجين ومساعدتهم فكان السلطان أبا الحسن المريني يعتني بهذه الشريحة أثناء استيلائه على تلمسان ومكوثه بها، فقد وزع على فقراء تلمسان اثنا عشر ألف دينار اثنا عشر ألف كساء، ومن الطعام مطامير لا تحصى كثرة^(١١٥). وكانت له صدقات جارية، مستمرة على اليتامى ويجمع صبيان العامة للختان، وفي يوم عاشوراء ويكسوهم، ويقدم لهم بعض المال وما يكفيهم من اللحوم^(١١٦).

وفيما يخص الدور الصحي الذي تجسده البيمارستانات فبالإضافة استقبالها المرضى ووصف الدواء المناسب لهم، كان لهذه المؤسسة دور آخر تجلّى بوضوح أوقات الأزمات، فقد تحولت إلى ملاجئ خيرية يأوي إليها غالبية الفقراء والمساكين، الذين تجمعهم الدولة حتى يسهل عليها توزيع الصدقات عليهم والاهتمام بهم على أكمل وجه، وفي ذلك يقول يحيى بن خلدون: "ثم اقتضى نظرة الكريم (السلطان أبو تاشفين الزياني) أن ضمهم أجمعين بيمارستانات بآتيهم فيها رزقهم بكرة وعشيا شتاء السنة"^(١١٧).

أما في أثناء انتشار الأوبئة فالسلطة اتخذت إجراءات وقائية عند حدوث الوباء كأن تمنع الناس من الدخول إلى المدينة الموبوءة أو الخروج منها، كوسيلة لاحتوائه والحد من انتشاره في مناطق أخرى^(١١٨).

٥/٢- دور الفقهاء والقضاة

تدرج جهود الفقهاء والقضاة في مجتمع المغرب الأوسط زمن المجاعة ضمن مهامهم التنظيرية، سواءً على مستوى التشريع الفقهي بتقديم بعض الرخص أو على المستوى الفعلي للتخفيف من آثار هذه الأزمات على الناس، فقد أجاز الفقهاء بيع بعض الأراضي المحبسة على الفقراء وصرف ثمنها عليهم زمن الشدة خوفاً عليهم من الهلاك والجوع، فقد اجتهد أحد قضاة المغرب

مثقال فيطعم به كل الفقراء فكانت زاويته ملجأ للغرباء حتى كثر عدد مريديه^(١٢٣).

ولم تكن كرامات تجاوز أزمة الجوع لتتبع بعد موت الأولياء، بل تستمر في نظر المجتمع بعد حتى موتهم، فقبورهم كانت بالنسبة إليهم من مقدسات العامة ومن المزارات التي يلجؤون إليها من كل حذب توسلاً بهؤلاء الصلحاء في تفريج الكربات؛ خاصةً وهم يعتقدون بأن الدعاء عند قبورهم مستجاب، وحتى في أوقات المجاعة عرفت قبور الأولياء إقبالاً كبيراً؛ وحسبنا في ذلك ما فعله ابن قنفذ الذي زار قبر الولي أبي مدين شعيب زمن مجاعة سنة؛ فدعاء عند قبره أن يخفف الله عنه مشقة السفر، ويأمنه من الخوف فيقول مخاطباً، فسهل الله له في سفره وانقلب الشر كله خير ببركة هذا الولي^(١٢٤).

وقد أشار ابن قنفذ أيضاً وجود جماعة من المتسولين أو الفقراء والمحتاجين بإزاء قبر أبي مدين زمن هذه المجاعة؛ لعل الزائرين يشفقون عليهم ويتصدقون عليهم بما يحملونه إلى هذه القبور من طعام ومال، ولا شك أن الزوايا في هذه الأوقات قد كان لها دور كبير أيضاً في توزيع الصدقات التي يأتي بها الزائرون فيتصدق بها شيوخها على الفقراء كما سبق الإشارة^(١٢٥).

ومن خلال صور التضامن والتكافل هذه نستطيع القول إن السلطة والصلحاء في مجتمع المغرب الأوسط قد شكل ثنائية كان إحداثياتها متوازنين أن لم نقل أن الثقل قد مال في كثير من الأحيان إلى جهة الصلحاء، ففرضت الأولى نفسها على المجتمع بقوة الملك والسلطان، وفرضت الثانية نفسها بقوة الكرامات والزهد والإيمان وبساطة العيش وخوارق العادات، وساهم كل منهما إلى جانب بعض الفئات ميسورة الحال في تحسين مستوى المعيشة فيه، والتقليل من درجة الفقر والمساهمة في رآب فجوة التفاوت الطبقي بين فئات هذا المجتمع.

مواد استهلاكية^(١٢٦)، فتصدق أبو العباس أحمد بن مرزوق بمطامير من القمح والزيت والفحم كانت له على الفقراء والمحتاجين ولا يرجع إلى بيته إلا بعد أن يفرغها^(١٢٧)، كما كان يتصدق بالخبز كل يوم وبالثياب كل سنة، وتضيف رواية أخرى أن ابن عم ابن مرزوق تصدق بكل غلاة داره وقت أن كانت تلمسان في حالة من الضيق^(١٢٨) وكذلك تصدق أبو الفضل بن محمد القرشي القرطبي (ت ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م) لأحد فقراء بجاية ممن لا يملكون قوت يومهم بصرة من الدراهم، ولم يكن المال لينقص منها على الرغم من شراء الفقير عدة أشياء حتى تيسر حاله^(١٢٩)، وقد كان أبو عبدالله بن أبي بكر بن مرزوق يهب المال لمن يريدون التجارة فيجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة^(١٣٠)، وكان يشتري بالقليل من المال الأشياء غالية في حقيقتها، فقد اشترى كبشاً بربع درهم، كما لم يكتف عن هذا الصالح بذلك بل كان يكتال من زراعة للضعفاء طوال السنة، ويخرج لهم مقدار من المال والقمح صدقة كل جمعة^(١٣١).

وقد أصبحت الزاوية المكان الذي يأوي إليه هؤلاء الفقراء والمحتاجين لأنهم وجدوا فيها ما يحتاجون من الخيرات التي ترد على شيوخها، فقد كان الشيخ محمد الهواري الذي تأتيه الصدقات من كل البلاد يتصدق بها كلها على الفقراء ولا يترك لنفسه شيئاً، وكان يحث كل الواردين عليه من تجار وأغنياء " بإخراج الزكاة وأنها مطهرة للمال"^(١٣٢)، ومثله في ذلك الشيخ الحسن أبران الذي كانت تأتيه الصدقات من كل البلاد حتى من السودان؛ فيجمع كميات كبيرة من الذهب ولا يذخر لنفسه شيئاً بل يفرقه على المساكين وطلاب العلم^(١٣٣)، ولم يكتف الشيخ الصالح أحمد الغماري بتفريق ما يصله من الذهب والذي يقدر بمائة والمائتين أو الصدقات على الفقراء والمساكين، بل كان يقوم بخدمة المرضى منهم بنفسه ويحمل الطعام والماء إلى منازلهم ويطمئن على أحوالهم^(١٣٤).

وذكر لنا الوزان أن أحد الأولياء الصلحاء القاطن في إقليم البطحاء قد اشتهر بالغنى وكانت تصله الصدقات من كل البلدان لأن صيته قد ذاع في الأفاق؛ فيجمع سنوياً من ذلك مبلغ يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف

الإحالات المرجعية:

- (١) ابن منظور: **لسان العرب المحيط**، تحقيق: نخبة من العاملين بدار المعارف، بيروت، (د.ت)، م٤، ص٣١١٢.
- (٢) بدري محمد فهد: **العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري**، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٦٧، ص١١.
- (٣) سورة سبأ - القرآن الكريم.
- (٤) أحمد المحمودي: **عامة المغرب الأقصى في العصر الموحد، رؤية للنشر والتوزيع**، القاهرة، ٢٠٠٩، ص٢٢.
- (٥) جمال أحمد طه علي: **مظاهر الحياة الاجتماعية في عصري المرابطين والموحدين (٥٤٠هـ/١١٤٠م إلى ٦٦٨هـ/١٢٦٩م)**، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة جنوب الوادي، كلية الآداب بسوهاج، ٢٠٠٠م، ص٧٢.
- (٦) ابن منظور، مصدر سابق، ص٢١٤١ - ٢١٤٢.
- (٧) **مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ**، باعتناء س باربيهدمينار، باريس، ١٨٧٧، ج٥، ص٨٧.
- (٨) أحمد المحمودي، مرجع سابق، ص٢٣.
- (٩) ابن منظور، مصدر سابق، ص٢٠٣١.
- (١٠) أبي العباس المقرئ: **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، تحقيق: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٧، ص١٥.
- (١١) **فقه اللغة وأسرار العربية**، دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٩٨٩، ص١٤٢.
- (١٢) الخوارزمي: **مفاتيح العلوم**، دار الكتب، بيروت، (د.ت)، ص٧٧.
- (١٣) ابن منظور، مصدر سابق، ص٢١٥٦.
- (١٤) ابن سيدة: **المخصص**، مطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣١٩هـ، ج٣، ص٩٤.
- (١٥) أحمد المحمودي، مرجع سابق، ص٢٤.
- (١٦) نفسه، ص٢٤.
- (١٧) الثعالبي: **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، طبعة القاهرة، ١٩٠٨، ص٢٤١.
- (١٨) ابن خلدون: **مقدمة**، تحقيق: عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون، الدار البيضاء، ٢٠٠٥، ج٢، ص٢٦٨.
- (١٩) ابن رشد: **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**، تحقيق: محمد عمارة، دار المعارف، مصر، ١٩٧٢، ص٣٦.
- (٢٠) **الامتاع والمؤانسة**، تحقيق: أحمد أمين، أحمد الزين، القاهرة، ١٩٤٢، ج١، ص٢٥.
- (٢١) **قوت القلوب**، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٣٥١هـ، ج٢، ص١١.
- (٢٢) أحمد المحمودي، مرجع سابق، ص٢٦.
- (٢٣) المقرئ: **نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج١، ص٤٦٢.
- (٢٤) الطوطا: **غرر الخصائص الواضحة وغرر النقائض الفاضحة**، مطبعة دار الطباعة العامرة، القاهرة، ١٢٨٤هـ، ص٧٦.
- (٢٥) مجهول: **تحفة الوزراء**، تحقيق: رجبناها نيك، بيروت، ١٩٧٥، ص٤٩.
- (٢٦) الحضرمي: **كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة**، تحقيق: رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١، ص٩٦ - ٩٧.
- (٢٧) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣، ج١، ص٩٧ - ٩٨.
- (٢٨) بدري محمد فهد، مرجع سابق، ص١٥ - ١٦.

خاتمة

- من خلال دراسة موضوع طبقة العامة بالمغرب الأوسط في العهد الزياني يمكن استخلاص الآتي:
- ساهم العامل الاقتصادي بشكل فعال في صياغة البناء الطبقي للمجتمع المغربي في العهد الزياني واحتلت فيه طبقة العوام القاعدة الدنيا رغم مساهمتها في تشكيل عصب الإنتاج في المجتمع آنذاك.
 - ذهبت طبقة العامة ضحية أحكام مسبقة من قبل المؤرخين وكتاب التراجم فالمصادر التاريخية وقفت موقفاً معادياً منها واستنزلت عليها اللعنات ووصفتها بأوصاف حقيرة ونعتتها بعبارات الذم والقذح كالسفلة، والأوباش والسوقة وغيرها من العبارات، وأدارت لها الظهر رغم مساهمتها الفعالة في بناء المجتمع وتطويره.
 - أن الشرائح المكونة لطبقة العامة ليست كلها متجانسة لا من حيث دخلها ومستوى عيشها، ولا من حيث مالها وأفاق تطورها، ولا من حيث مالها وأفاق تطورها، كما أنها لا تجتلي كلها نفس الموقع في عملية الإنتاج.
 - مظاهر الحياة الاجتماعية العامة من مأكّل وملبس وسكن واحتفالات وغيرها كانت انعكاساً للتمايز الطبقي الذي هو من نتائج الوضع الاقتصادي.
 - كان تأثير المجاعات والأوبئة على العامة قوي جداً وذلك نتيجة لضعف الإمكانيات وسوء التغذية ويتجلى ذلك واضحاً في ارتفاع ضحايا الموتى وزيادة أعدادهم مقارنة بطبقة الخاصة التي تمتلك كل الإمكانيات الطبية والوقائية.
 - تباينت مواقف السلطة اتجاه العامة إبان المجاعات والأوبئة حسباً لقوة الاسرة الحاكمة وضعفها، وتقديمتها المساعدة كان بهدف تدعيم أركان دولتها، تنوعت هذه المساعدات بين فتح الأهرار (مخازن الطعام) وتوزيعه على المحتاجين، والتصدق بمبالغ مالية بهدف مساعدتهم، وكذلك عملت على تحويل البيمارستانات إلى ملاجئ خيرية يأوي إليها العوام في أوقات المجاعات وانتشار الأوبئة.
 - تجلت علاقة العامة بالمتصوفة بالخصوص في الجانب الإنساني والإحساني الذي ظهر خاصة في أوقات المجاعات والأوبئة.

- (٥٨) ابن عبدون، رسالة في الحسبة ضمن ثلاث رسائل في آداب الحسبة **والمحتسب**، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٥٥، ص ٢٢.
- (٥٩) يحيى بن خلدون: **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق: عبد الحميد جاجيات، الكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٨٠، ج ٢، ص ٤٠، حنان محمد سويد، مرجع سابق، ص ٣١١.
- (٦٠) عبد العزيز الفيلالي، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٥.
- (٦١) أحمد المحمودي، مرجع سابق، ص ٩٤.
- (٦٢) عبد العزيز الفيلالي، مرجع سابق، ص ٢٦٥.
- (٦٣) أحمد المحمودي، مرجع سابق، ص ٩٦.
- (٦٤) **تاريخ الدولة الزيانية**، ج ٣، ص ١١٣.
- (٦٥) الحسن الوزان، ج ٢، ص ٩٦.
- (٦٦) أحمد المحمودي، مرجع سابق، ص ٩٦.
- (٦٧) الحسن الوزان، ج ١، ص ٩٦.
- (٦٨) عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس** (ق ٦ - ٨هـ / ١٢ - ١٤م)، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٨، ص ١٨٩.
- (٦٩) نفسه، ص ١٨٢.
- (٧٠) نفسه، ص ١٨٦، ١٩٠.
- (٧١) مختار حساني، مرجع سابق، ج ٣، ص ١١٨.
- (٧٢) عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ص ٢٦٧.
- (٧٣) ابن سعيد: **اختصار القدر المعلى في التاريخ المحلي**: ت. إبراهيم اللبباري، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠، ص ١٩٦.
- (٧٤) مجهول: **الحلل الموشية في الأخبار المراكشية**، حققه: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص ٢٧.
- (٧٥) عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ص ٢٦٦، ٢٦٧.
- (٧٦) أحمد المحمودي، مرجع سابق، ص ٩٩، ١٠٠.
- (٧٧) الفلقشندي، **صبح الأعشى في كتابة الإنشاء**، ج ٥، ص ١٤٢.
- (٧٨) مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: **القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين وبني مرين**، ديوان المطبوعات ص ٢٣٨.
- (٧٩) **قباطي**: جمع قبطية، هي الثوب الأبيض الرقيق من الكتان. مصطفى أبو ضيف، مرجع سابق، ص ٢٣٩.
- (٨٠) **الغفائر**: جمع غفر، كساء يلبس فوق آخر. المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- (٨١) ابن صاحب الصلاة، **تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة جعلتهم الوارثين**، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧، ص ٢٩١، ٤٣٧، ٤٥٠، مصطفى أبو ضيف، مرجع سابق، ص ٢٣٩.
- (٨٢) أحمد المحمودي، مرجع سابق، ص ١٠١، ١٠٢.
- (٨٣) ابن مريم: **البيستان في ذكر الولاة والعلماء بتلمسان**، تحقيق: محمد بن أبي شنب، الطبعة التعاليلية، الجزائر، ١٩٠٨، ص ٣١٦.
- (٨٤) أحمد المحمودي، مرجع سابق، ص ٤٠.
- (٨٥) نفسه، ص ٥٠.
- (٨٦) نفسه، ص ١٠٧.
- (٨٧) مختار حساني، مرجع سابق، ص ٢٠٢، ٢٠٣.
- (٨٨) أحمد المحمودي، مرجع سابق، ص ١٠٨.
- (٨٩) نفسه، ص ١١١، ١١٢.
- (٢٩) المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: محمد محيي الدين، مطبعة دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣، ج ٢، ص ٣٣٥.
- (٣٠) **تلبيس ألبليس**، دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٤٢٦.
- (٣١) أحمد المحمودي، مرجع سابق، ص ٣٠ - ٣١.
- (٣٢) نفسه، ص ٣١.
- (٣٣) ابن خلدون، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٦١، مختار حساني، **تاريخ الدولة الزيانية**، منشورات الحضارة، الرباط، ٢٠٠٩، ج ٣، ص ٨٣.
- (٣٤) المصدر نفسه، ص ٨٠.
- (٣٥) مختار حساني، مرجع سابق، ص ٢١٢، ٢١٣.
- (٣٦) يحيى بن خلدون: **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، طبع بمطبعة بونطانة للاخوين وشركائهما الشرقية في الجزائر، ١٠١٠، ج ٢، ص ١٦١.
- (٣٧) حنان محمد سويد، مرجع سابق، ص ٣١٣.
- (٣٨) البكري: **المغربي في بلاد إفريقية والمغرب** (جزء من المسالك)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت)، ص ٧٩.
- (٣٩) يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٦١.
- (٤٠) ابن منظور، مرجع سابق، ص ٧٥.
- (٤١) يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص ١٦١.
- (٤٢) ابن مريم: **البيستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، طبع في المطبعة الثعلبية لصاحبها أحمد بن مراد التركي وأخيه، الجزائر، ١٩٠٨، ص ٣٩.
- (٤٣) الفيلالي: **تلمسان في عهد الدولة الزيانية** (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٢، ج ٣، ص ٢٢٢.
- (٤٤) **عنوان الدراية فيمن عُرّف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨، ص ٥٨ - ٥٩.
- (٤٥) ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ٢٠٠٨، ص ١٦١ - ١٦٢.
- (٤٦) حنان محمد سويد، مرجع سابق، ص ١٨٢.
- (٤٧) الفيلالي، مرجع سابق، ج ١، ص ٢١٧.
- (٤٨) نفسه، ص ٢١٩.
- (٤٩) نفسه.
- (٥٠) نفسه، ص ١٨٥.
- (٥١) عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ج ١، ص ١٨٥، حنان محمد سويد، مرجع سابق، ص ٣١٤.
- (٥٢) عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٤.
- (٥٣) مارمول كرخال، إفريقيا: ترجمة محمد حجي وآخرون: دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، ١٩٨٩، ج ٢، ص ٣٠٠.
- (٥٤) ابن رشد: **فتاوي ابن رشد**، تحقيق: المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧، ج ٢، ص ١٣٢٨.
- (٥٥) الزجالي: **أمثال العوام بالأندلس**، تحقيق: محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس الثقافية، ١٩٧١، ص ٢٢٦.
- (٥٦) إبراهيم القادري بوتشيش: **الإسلام السري في المغرب العربي**، دار سينما للنشر، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.
- (٥٧) عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٥.

- (٩٠) عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ص ٢٨١ - ٢٨٢.
- (٩١) **فهرست الرضاغ**، تحقيق: محمد العنابي، الكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧، ص ١٤ - ١٦.
- (٩٢) خالد بلعربي: **آثار المجاعات والأوبئة على تراجع الحرف والصناعات**، مجلة البحوث الاجتماعية والتاريخية، العدد ٤، جوان، ٢٠١٣، ص ١١٥.
- (٩٣) ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور لطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص ٣٨٦.
- (٩٤) خالد بلعربي، مرجع سابق، ص ١١٦.
- (٩٥) ابن الخطيب: **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، تحقيق: السعدية فاغية، مطبعة النصاب الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٩، ص ٩٠.
- (٩٦) ابن زرع، مصدر سابق، ص ٢٧٣.
- (٩٧) عبد الهادي البياض، مرجع سابق، ص ٧٨.
- (٩٨) ابن قنفذ، **أنس الفقير وعز الحقيق**، تحقيق: محمد الفاسي، أدولف فور، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٥، ص ١٠.
- (٩٩) العبدري، **الرحلة المغربية**، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٢٥.
- (١٠٠) مختار حساني، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٨١.
- (١٠١) سميرة مزدور: **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (٥٨٨ - ٩٢٧هـ / ١١٩٢ - ١٥٢٠م)**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري - قسنطينة / كلية التاريخ والآثار، ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩، ص ١٤٤.
- (١٠٢) أبو حمو بن زيان العبد وادي: **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، طبع بمطبعة الدولة التونسية باضرتها المحمية، ١٢٧٩هـ، ص ٨٧ - ٨٨.
- (١٠٣) ريم محمود راشد: **الأمراض والأوبئة وأثرها على مجتمع المغرب الأوسط الزياني خلال القرن السابع الهجري السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي**، مجلة عمر المختار للعلوم الإنسانية، جامعة عمر المختار، م ٣٩، ع ١ لسنة ٢٠٢١، ص ٤٣.
- (١٠٤) يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٧٥ - ٥٧٦.
- (١٠٥) ابن مرزوق: **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن أبي الحسن**، دراسة وتحقيق: ماريا خيسوسيغرا، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ١٩٨١م، ص ١٩٢ - ١٩٣.
- (١٠٦) فيلالي، مرجع سابق، ص ٢٥٥.
- (١٠٧) يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٢٦.
- (١٠٨) ريم محمود راشد، مرجع سابق، ص ٤٣.
- (١٠٩) مزدورسمية، مرجع سابق، ص ١٤٧.
- (١١٠) العقباني: **تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر**، تحقيق: علي الشنوفي، ص ١٢٧ - ١٣١.
- (١١١) مزدورسمية، مرجع سابق، ص ٧١.
- (١١٢) نفسه، ص ١٤٩.
- (١١٣) أحمد المحمودي، مرجع سابق، ص ١٥.
- (١١٤) نفسه، ص ١٥٥.
- (١١٥) عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ص ٢٥٥.
- (١١٦) مزدورسمية، مرجع سابق، ص ١٥٤.
- (١١٧) الغبريني، مصدر سابق، ص ١٦١.
- (١١٨) ابن مرزوق، **المناقب المرزوقية**، ص ١٦٢.

لمحات تاريخية عمرانية ومعمارية عن مدن من الغرب والشرق الجزائري دراسة في رحلة الألمانى مالتسان خلال القرن التاسع عشر الميلادي

د. حسن بربورة

دكتوراه تاريخ الدولة العثمانية

مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور

جامعة يحي فارس المدينة – الجمهورية الجزائرية



ملخص

تعتبر الرحلات الأجنبية إحدى المصادر المهمة في دراسة تاريخ الجزائر، وقد قام الرحالة الألماني "هاينريش فون مالتسان" برحلته إلى الجزائر أواسط القرن التاسع عشر الميلادي وقضى فيها ثلاث سنوات ١٨٥٦-١٨٥٩ م، ليقدّم كتابه "ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا"، حيث تضمّنت يومياته نظرة شاملة عن بعض المدن الجزائرية شرقاً وغرباً وحملت رحلته العديد من المشاهد والمفارقات التي تتعلّق ببلد تحوّل إلى معسكر لا مكان فيه للمدنيين إلا باحتقار تام. والذي يظهر من خلال الدراسة، أنّ مالتسان قد توصّل إلى معرفة العديد من العادات والتقاليد، وحتى الأساطير في مختلف الجهات التي زارها وأقام فيها، وضمّن رحلته عديد المعلومات التاريخية، السياسية، الاجتماعية، العمرانية والمعمارية وحتى الطبيعية، إضافة إلى تجاربه الشخصية وملاحظاته الخاصة، والتي تبقى وجهة نظر أجنبية من حقّقنا مناقشتها. ومن أهم الفوائد التي نخرج بها من دراسة هذا النصّ الرحلي أنّه يُعرّفنا على الحياة الاجتماعية، الاقتصادية، وشرائح المجتمع في الجزائر أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، والتطوّر الذي وقع لمدننا وقرانا في بداية المرحلة الاستعمارية، وما رافقها من محاولات طمس للهوية، وتغيير واقع المدن والمجتمع الجزائري.

كلمات مفتاحية:

مدن جزائرية؛ كتب الرحلة؛ هاينريش فون مالتسان؛ الجزائر العاصمة؛ الرحلات الأجنبية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٦ ديسمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٣٠ يناير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.347999.1197

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسن بربورة، "لمحات تاريخية عمرانية ومعمارية عن مدن من الغرب والشرق الجزائري: دراسة في رحلة الألمانى مالتسان خلال القرن التاسع عشر الميلادي"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة- العدد السابعون، أغسطس ٢٠٢٥، ص ١٢٠ - ١٣٣.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: barbora.hacen@univ-medea.dz

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

الجزائر^(٥)، وهو الذي لم يكتف مشاعره وتحيزه للفرنسيين وغبطته باحتلالهم مدينة الجزائر^(٦).

هذا وقد تمكّن مالتسان من التجوال في الجزائر شرقاً وغرباً، لنفوز منه بيوميّات دقيقة، وبرحلة تحمل العديد من المشاهد والمفارقات التي تتعلّق ببلدٍ تحوّل إلى مُعسكرٍ لا مكان فيه للمدنيين إلّا باحتقار تامّ، وقد ترجمت الرحلة من الألمانية إلى العربية بفضل الأديب والمؤرخ "أبو العيد دودو"^(٧)، والذي حرص على ترجمة العديد من الأعمال التاريخية - رغم أن التاريخ لم يكن اختصاصه - وكان وراء حرصه على ذلك أهدافاً سامية كما يؤكد بنفسه: "ولا أخفي أنه كان لي هدفٌ وهو أن أفتح نافذةً أخرى غير النافذة التي نُطلُّ منها إلى الخارج عبر اللُّغة الفرنسيّة، فلَكم كان يحزُّ في نفسي أن أرى جزائرياً يكتب تاريخ الجزائر، وهو لا يُحسنُ غير الفرنسيّة، أو آخر لا يُحسنُ غير العربيّة، فيُعدُّ كلاهما تابِعاً للمؤرّخين الفرنسيّين، بواسطةٍ أو بدون واسطة"^(٨).

أولاً: تقديم المصدر

هاينريش فون مالتسان Heinrich Von Maltzan عالم آثار ورَحالةٌ ألماني، ولد في مدينة دريسدن، في السادس سبتمبر ١٨٢٦م، وتعلّم في مدارس هايدلبيرك، ودرس القانون في جامعة مونشن، وهارلانغن، وتعلّم إلى جانب ذلك اللُّغات الشرقيّة، وبعد وفاة والده سنة ١٨٥١م الذي ترك له ثروة كبيرة، اشتغل بعد تخرّجه في وظيفة حكوميّة لفترة قصيرة، ولاعتلال صحته أمضى بقية حياته في أسفار بين البلدان الدافئة، فسافر إلى المغرب والجزائر، ثمّ مصر وفلسطين والشرق العربي، كما زار مكة مُتكرراً في زِيّ حاجٍ وكتب تقريراً عن رحلته تلك في كتاب حجّي إلى مكة المكرمة Meine Wallfahrt nach Mecca، وفي سنتي ١٨٥٦م سافر مرّةً أخرى إلى الجزائر، ثم زار بعد ذلك ممباي، وبعدها عاد ليتجوّل في جزر البحر المتوسط، ليعود في النهاية إلى مدينة بيزا، التي أنهى فيها حياته بطلقة مسدس في ٢٢ فيفري ١٨٧٤م، وهذا بعد أن اشتدّ عليه مرضه العصبي^(٩).

جاءت رحلة مالتسان في أربعة أجزاء، خصّ الجزائر بثلاثة منها، ويصف في الرَّابع بعض مدن المغرب

منذ سنة ١٨٣٠م هاجر الكثير من الألمان نحو الجزائر بعد أن كانت هجرتهم في أوّل الأمر نحو الأمريكيتين وأستراليا، وهذا بسبب معاناة فرنسا من الرّصيد البشري الكافي لاحتلال الجزائر، حيث غادرت الكثير من العائلات، الطلبة، المثقفين، وحتى المغامرين من مدن ريناميا Rhenamie، بافيير Baviere، ولوديشي دو باد Le Duche de Bade نحو مدينة لوهافر الفرنسيّة ثم نحو المستعمرة الجديدة، أين خُصّصَت لهم سُلطات الاحتلال مراكز استيطان في الجزائر كالدويرة، بوفاريك، وكذا في تلمسان، ومركز الغزوات بوهران، وشاركوا في قوات اللّيف الأجنبي^(١).

وقد قام الرَّحالة الألماني "هاينريش فون مالتسان" برحلته إلى الجزائر خلال الخمسينيات من القرن التاسع عشر الميلادي، أي في فترة بدايات الاحتلال الفرنسي للجزائر، وقضى فيها ثلاث سنوات ليقدّم كتابه "ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا"^(٢)، حيث تضمّنت يومياته نظرةً شاملةً عن المدن الجزائرية وواقعها أثناء الاحتلال الفرنسي قياساً بما ورد في كتابات أجنبية أخرى^(٣)، ولعلّ هذا بالذات ما يميّز كتاباته عن الكتابات الأخرى التي وضعها بعض مواطنيه، فقد اكتفى "سيمبر" Wilhelm sempre في رحلته إلى الجزائر سنة ١٨٣١م، والتي مكث فيها بضعة أشهر - إذ أرجعه المرض إلى بلاده في صيف سنة ١٨٣٢م - بوصف مدينة الجزائر ونواحيها والتّعريف بسكّانها وأوضاعهم الاجتماعيّة والحديث عن الحركة الصّناعيّة والتّجاريّة والثّقافيّة، واكتفى الأمير "موسكاو" von Pückler-Muskau ١٨٧١-١٧٨٥م بوصف بعض مناطق السّاحل الجزائري، والتّعليق على بعض الأحداث التي وقعت خلال زيارته للجزائر، وكان "فاغنر" Wagner Moritz قد اقتصر بدوره على مناطق مُعيّنة، وأُتيح له ما لم يُتَح لغيره، وهو زيارة مدينة معسكر وما يليها من المناطق التي كانت تابعة لدولة الأمير عبد القادر^(٤)، كما كتب سيمون بفايفر George Simon Pfeiffer مذكراته عن السنوات الخمس (جويلية ١٨٢٥ - سبتمبر ١٨٣٠م) التي قضاهما في قصر الخزانجي أفندي بالجزائر (لمحة تاريخية عن

ثانياً: الرحلة الأولى (من الجزائر العاصمة إلى مدينة معسكر غرباً)

يبدأ مالتسان رحلته في (الجزء الثاني) من مدينة "أرزيو"، ويمرُّ بعدد من القرى الصغيرة وهو في طريقه إلى وهران، ثم تلمسان ومعسكر، وبها تنتهي رحلته في الغرب الجزائري، ليعود إلى وهران، ثم إلى الجزائر العاصمة مباشرة عبر رحلة بحرية. ونشير إلى أنَّ مالتسان كان يسافر كثيراً على ظهور الجياد، ولم يركب السفينة إلا مرتين، وكان يرافقه في رحلته أحياناً بعض السواح من محبي الآثار، كما يصحبه البعض بصورة رسمية أو بصفة غير رسمية.

يقول مالتسان أنَّ مدينة أرزيو القديمة، والتي كانت تُسمى "أرزيناريا" أو "أرسينا" مدينة غنية بالآثار، ونقوشها الفينيقية لا تزال موجودة بمتحف الجزائر، أمَّا أرزيو الحالية (القرن التاسع عشر الميلادي) فلم يستقر بها الفرنسيون إلا سنة ١٨٤٦م، ويبلغ عدد سكانها ألف أوروبي نصفهم من الإسبان^(١٣).

وفي طريقه من أرزيو لوهران يمرُّ الرحالة بالكثير من القرى: كسانت ليوني (بوقايطيس) والتي يعاني سكانها بؤساً شديداً تحت الاستعمار، وقرية سان كلو (قديل). ويشير مالتسان هنا إلى نقطة مهمة وهي أنَّ عملية استغلال الأراضي وتعميرها قد نجحت في منطقة وهران أكثر من غيرها، والسبب يعود إلى وجود جاليات أخرى غير الفرنسيين كالأندلسيين والسويسريين والألزاسيين وحتى الروسين، ومن القرى الأخرى بالمنطقة: قرية كليبر (سيدي بن يبقى)، وقرية أركول (بير الجير) وهي مستعمرة أخرى أنشئت سنة ١٨٤٨م، وكذا قرية فلوروس (حسيان الطوال).

أمَّا وهران وبالنظر لمبانيها فيرى بأنَّه يمكن أن تكون في أوروبا، فليس هناك في الجزائر مدينة فقدت طابعها العربي مثلما فقدته هاته المدينة، وهذا بسبب أنَّها بقيت بأيدي الإسبان حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وبذلك فهي لم تبقى تحت حكم داي أكثر من ثلاثين سنة، وهو قول غير صحيح فمدينة وهران رغم الاحتلال الإسباني الطويل لها قد حافظت على طابعها الإسلامي، وهذا باعتراف كتاب إسبان معاصرين للفترة، ويظهر

الأقصى التي زارها والحياة فيها^(١٠)، حيث طبع الجزء الأول سنة ١٩٧٦م، وتحدث فيه المؤلف عن مدينة الجزائر وما حولها، أمَّا الجزء الثاني فنُشر سنة ١٩٧٩م، وصور بعض المدن الجزائرية التي أقام فيها حيناً أو أحياناً، ونُشر الجزء الثالث سنة ١٩٨٠م، وسجّل فيه رحلته إلى شرق البلاد وجنوبها، حيث ينطلق من قسنطينة نحو الصحراء، فيزور مدن الأغواط، الجلفة وعين ماضي وغيرها، وضمَّ الكتاب عموماً عدّة معلومات، لا سيما ما تعلّق بالشخصية الجزائرية، لذا فقد حاولت دراستنا، توظيف العديد من النصوص للاتصال أكثر بالرحلة، ومعرفة وجهها لا ظهرها.

وحسب المترجم فإنَّ مالتسان بنى أحكامه غالباً على التجربة والملاحظة الدقيقة^(١١) وهذا رغم إشارته لبعض المصادر التي لم يضع لها قائمة ببليوغرافية -على الأقل في الجزء الذي أطلعنا عليه- أو ربما لأن كتابه يكتسي طابع الرحلة التي تعتمد الملاحظة والتجربة الميدانية أكثر من شيء آخر، ولكن مع ذلك ومن خلال ما تضمّنه الكتاب، يمكن الإشارة إلى بعض المصادر التي اعتمدها المؤلف مثل: كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب للبكري عبيد الله، وكتاب البلدان لليعقوبي بن واضح، ونزهة المشتاق في اختراق الآفاق لمحمد الشريف الإدريسي، وشرف بني زيان لمحمد التنسي، وخارطة الطرق لأنطونين وكتاب Le Registre Sacré de L'Église Africaine لأسقف الجزائر ديبوش Debuche Voyage de la Région D'Alger، وكتاب التّاريخ الطّبيعي لماك كارتى Mac Carty، وكتاب التّاريخ الطبيعي Plinius Histori Naturalis لبليوس كاسيلوس Cacilius Secundus وغيرها من المصادر التاريخية.

وبالحديث عن الجزء الثاني من الكتاب موضوع الدراسة، فقد جاء ضمن حوالي ٢٨٣ صفحة، تطرّقت لثلاث رحلات أساسية^(١٢)، الرحلة الأولى (من الجزائر إلى معسكر غرباً)، الرحلة الثانية (من الجزائر إلى جبال جرجرة شرقاً)، والرحلة الثالثة (مواصلة الرحلة شرقاً وزياراً بعض المدن الداخلية)، كما تضمّنت الرحلة ملحقات -ضمن أوراق سميكة غير مرقّمة- تحمل رسومات لبعض المدن والمناطق الجزائرية (١٢ صورة) كوهران، بجاية تلمسان وقلعة المشور.

غير أن مدينة وهران بالمقابل قد عرفت في الفترة الأولى للاحتلال الإسباني ازدهاراً لم تطل مدته، "فَالكُتُبُ التَّارِيخِيَّةُ تُحَدِّثُنَا أَنَّ كِبَارَ اسبانيا وجنوب إيطاليا، كانوا يلتقون في وهران شتاءً، فكانت حياة البذخ والتَّرف واللَّهُو تُسيطر على المدينة، ومن هنا أطلق عليها الإسبان اسم القصر الصَّغير"^(١٧). وبتزايد قوة أتراك الجزائر (العثمانيون)^(١٨) انتهى الاحتلال الإسباني لوهـران^(١٩)، ويُشيدُ المؤلِّفُ بمعاملة الحَضَرِ الحسنة للأسباني الوحيد الذي بقي في وهران بعد استعادتها من الإسبان، وعاش فيها إلى أن احتلها الفرنسيون بعد ذلك بسنوات عديدة، ولا شكَّ أنَّ كلاماً من هذا النوع لا يمكن أن نقرأه في أيِّ نصٍّ من النُّصوصِ الفرنسيَّة.

واصل مالتسان رحلته من وهران إلى تلمسان على ظهر الحصان، لأن السَّفر كما يقول بهذه الطريقة يسمح للسَّائح بمشاهدة النقاط المهمة البعيدة عن الطَّرِيق، وينقلُ بعضاً ممَّا كُتِبَ عنها في الفترة الوسيطة، فينقل عن الإدريسي مثلاً: "وقد ذكر الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق أنَّ وهران تَبَعُدُ عن تلمسان بمرحلتين كبيرتين أو صغيرتين، وقد وجدتها كذلك"^(٢٠)، ويمر في طريقه على قرية "مَسْرَغِينَ" والتي يُسمِّيها الإسبان Rio Saldo مقدراً عدد سكانها بحوالي ١٣٠٠ نسمة، ليصل بعدها إلى المستعمرة الأوربية قرية "بوتليس"، ثم منطقة "سيدي البارودي" وسهل "ملية" الواسع الخصب، والذي توجد حول بحيرته مساكن أولى القبائل العربية التي تحالفت مع الفرنسيين، وعانت من القبائل الأخرى أثناء حربها مع الأمير عبد القادر^(٢١)، ويشير مالتسان إلى أنَّ أتراك الجزائر (العثمانيون) والكرغلة، بل حتى حضر العامة الأصلاء والمثقفون في تلك الفترة كانوا يحتفرون الأمير ورعاياه، ويصفونهم بالقسوة والهمجية، وأنهم كانوا يُفضلون الحكمَ الفرنسي على حكم الأمير ورعاياه الغلاظ، ولكنهم لا يعدُّون بحُكم الأتراك (العثمانيون) حُكماً آخر.

بعد ذلك يصل مالتسان "عين تيموشنت" (مستعمرة أوربية)، ويُقدَّر عدد سكانها ما بين ٧٠٠ و ٨٠٠ نسمة، ويقدم وصفاً لأهم آثارها الذي اكتشفه ديفرني^(٢٢)، ويُشير إلى عبث المستوطنين الفرنسيين بكثيرٍ من هذه الآثار فيقول: "...وَعُثِرَ أيضاً على رسمٍ آخر في عين

ذلك من خلال نسيجها العمراني ومعالمها الإسلامية من مساجد وقُصورٍ ودُورٍ، وهي كثيرةٌ بعضها ما زال قائماً إلى اليوم، وقد بقيت تحت حكم الدايات أزيد من ٣٩ سنة منذ تحريرها الثاني فبراير ١٧٩٢م، وإلى غاية الاحتلال الفرنسي للمرسى الكبير في ديسمبر ١٨٣٠م ودخول مدينة وهران في الرابع يناير ١٨٣١م على يد الجنرال الكونت دنيس دامريمون.

وموقع وهران كما يصفه مالتسان غير منتظم، حيث تتكون من مدنٍ صغيرةٍ متعدِّدة، تفصل بينها هُوةٌ عميقةٌ إلى حدٍّ ما، يسيل عبرها واد الرَّهَى (الرَّحي)، ولا شكَّ أنَّ المدينة الإسبانية القديمة التي أُعيدَ بناؤها اليوم من أجمل أقسام المدينة، ففيها بناية البحرية والمستشفى العسكري، والكنيسة الرئيسيَّة، وهي إسبانيةٌ في الأصل، أمَّا القسم الفرنسي الأعلى من المدينة فيحتوي على التُّكنة وبعض البنايات العامة، ويحتوي كذلك على أحسن الفنادق والمقاهي"^(٢٤)، ويتعجب مالتسان من التَّعداد السُّكَّاني القليل للمدينة، حيث من الصَّعب أن يُصدِّق المرء أنَّ وهران رغم أهميَّتها، لا يَسْكُنُهَا إلَّا ٢١٠٠٠ نسمةً، منهم: ٤٧٠٠ من الفرنسيين، وحوالي ٨٠٠٠ من الإسبان، و ١٠٠٠ من ذوي الجنسيات الأوربية المختلفة، و ٧٠٠٠ من الأهالي (الجزائريين) أغلبهم من اليهود الذين يتمتَّعون بالنِّزَاء والغرور^(٢٥).

وعن تاريخ مدينة وهران، فيُسمِّيها المؤرخ بطليموس visa colonia، أمَّا "بير بروجير" فيعتقد أنها مدينةٌ عربيَّةٌ، وعندما احتلها الإسبان سنة ١٥٠٩م، قام الكاردينال المتعصب "خيمينيس" بِضَمِّها إلى النَّاجِ القشتالي، بعد أن فُتِحَ المرسى الكبير بأمرٍ منه سنة ١٥٠٥م. وينتقدُ مالتسان فظائع الإسبان في المدينة، ويسخر من الكاردينال خيمينيس بالوصف: "وحضر أكبر فقهاء المسيحيين... وبعد أن استولى على القلعة والمدينة، لم يعرف أيَّ عمل يستدعي سرعة التَّنفيذ غير اتِّخاذ تدابير تدلُّ على عُنْصَرِيَّتِهِ وتعصُّبِهِ، فقد حَوَّلَ الجامعين الرئيسيَّين إلى كنيستين، وأنشأ دِيرَيْنَ لتصير المسلمين، ونَصَّبَ مفتشاً لمتابعة الزنادقة (المسلمين)، ولم يتورَّع الإسبان المتدينون هؤلاء المسيحيون الطَّيِّبُونَ.. عن نهب المدينة وذبح الآلاف من حَضَرِها"^(٢٦).

كُوي، وهناك بُرجان مُستديران في الجهة الأمامية باتجاه المدينة، يجعلان منظرهما مُهيأ، كانت هذه القلعة التي أصبحت اليوم ثكنات ومكاتب عسكرية فرنسية، تمثل قديماً قصر بني زيان الفخم.. وقلعة المشور تشبه حمراء غرناطة وقَصَبَةُ الجزائر، فهي مدينة صغيرة، تحتوي زيادة على مسجدتها الجميل على ستين داراً، وَحَيُّ الكراغلة أكثر أحياء المدينة علواً وأنسبها صَحَّةً^(٢٥).

ومن الأشياء الجميلة التي تُضفي على كتاب مالتسان طابع الرحلة والنزهة المشوقة حضوره حفلة ختان عربية، يصف فيها الكثير من عادات وتقاليد أهالي المنطقة، كما لم يفته زيارة ضريح سيدي بومدين وحضور جانب من حلقات المتصوفة حيث يقول: "دخلت هذا الضريح عبر باب قديم يشبه باب الحمراء يَقُودُنِي حارسه، وكان فيه قبر المرباط الذي يُغَطِّيهِ رداءٌ من الحرير الأخضر، وكان الشيوخ المصلون يُؤدُّون صلاتهم حوله، بينما ترتفع أصوات عميقة تُسَبِّحُ بحمد الله وتُصَلِّي على رسوله، وقد أثار في نفسي هذا المشهد، فأقمت فيه مدةً طويلة، فقد أدهشتني قُوَّةُ هذه العبادة الجليلة رغم وسائلها البسيطة"^(٢٦). ويبدو أن مثل هذه الآراء هي التي فتحت له قلوب المواطنين.

بعد تلمسان ينطلق مالتسان باتجاه مدينة معسكر، حيث قضى الليلة الأولى في طريقه في خيام قبيلة أولاد ميمون، ويقدم في هذا الجزء من رحلته بعض التفاصيل عن القيادة وطريقة تعيينهم من قبل السلطات الفرنسية آنذاك^(٢٧)، ليواصل الرحلة باتجاه مدينة سيدي بلعباس، التي يصفها بأنها مدينة عسكرية، تتواجد بها حامية لا تقل عن ٥٠٠ جندي، وقد زار في طريقه أحد قباب سيدي عبد القادر الجيلالي التي قال أنها تكثر بالمنطقة، ليصل في اليوم الرابع من خروجه من تلمسان إلى المنطقة التي تقيم فيها قبيلة الحشم (قرب بوحنيقية)، وهي القبيلة التي قويت بها شوكة الأمير عبد القادر، إضافة إلى قبيلتا البرجية والغرابية، والتي هاجر قسم كبير منها إلى المغرب بعد صلح الأمير مع فرنسا.

يقول مالتسان -مُناقضاً نفسه- أن مدينة معسكر تحتل مكان المدينة الرومانية (فيكتوريا)، لكنه لم يستطع أن يجد بها أي أثر! ويعود منها مباشرة إلى وهران

تيموشنت، يمثل مشهداً من مشاهد إله الخمر باخوس ولكنه - لسوء الحظ - فقد نتيجة لجهل المعمرين الفرنسيين، أو حطّم من طرف الفندال المُحدثين بما لهم من عبث ومُجُون^(٢٨)، وينتقل بعدها إلى "حجر الروم" على ضفاف واد يسر الذي يبعد ٢٠ كلم عن تلمسان، ويصف الكثير من طبيعته ونباتاته وأشجاره التي أعجبت، كما يسرد بعضاً من تاريخه، اعتماداً على ما كتبه ماك كارتني.

بعد وهران يصل مالتسان إلى مدينة تلمسان، والتي يرى أن أهميتها الحديثة قليلة جداً إذا قُورِنت بِعُهود مَضَتْ، حيث اعتبرت تاج المغرب في العصور الوسطى، وليس هناك مدينة في الجزائر تستطيع أن تُنافسها في ذلك، بل لعلّ تونس وفاس ومراكش هي المدن الوحيدة التي يمكن أن تقف إلى جانبها. هذا ويقدم مالتسان في هذا الفصل تاريخاً مفصلاً عن تلمسان قديماً أو(بوماريا) أو(منيارا)، ليختم حديثه التاريخي عنها بالقول: "وكيفما كان الأمر فإن تلمسان كانت مستعمرة رومانية قليلة الأهمية نسبياً"^(٢٩)، حيث إنها لم تصبح مدينة عظيمة إلّا في العصر الوسيط، أين جعلها أدارسة فاس في القرن التاسع الميلادي عاصمةً من عواصمهم. ويرى العرب أن يوسف بن تاشفين هو من أطلق عليها هذا الاسم وتعني (الهدف) بلغة الشلحة، إلى أن استقل بها يغمراسين (من قبيلة زناتة)، وأسس مملكة بني زيان التي سيطرت على قسم كبير من المغرب خلال ثلاثة قرون، إلى أن انتهى حكم بني زيان، كما تنتهي الأشياء الجميلة فوق هذه الأرض، بسبب حياة الترف والبذخ من جهة، والأتراك (العثمانيون) من جهة ثانية، إلى أن ضُمَّت للممتلكات الفرنسية سنة ١٨٤٢م بصفة نهائية.

وبعد اللّحة التاريخية عن تلمسان يقدم الرحالة وصفاً لموقعها الحالي (القرن التاسع عشر الميلادي) وأقسامها الثلاثة: (حي الكراغلة أين توجد قلعة المشور، مركز المدينة حيث يسكن الأوربيون واليهود وتوجد فيه أغلب المنشآت الفرنسية، ثم الحي الذي يسكنه العرب والحضر)، وخلال ذلك يضيف وصفاً دقيقاً للأبنية والمساجد وزخرفتها، فقلعة المشور مثلاً: "هي عبارة عن مربع، يبلغ طولها ٨٠٠ قدم، وعرضها ٥٢٠ قدماً، ولها أسوارٌ مُسنَّنة يبلغ ارتفاعها أربعين قدماً، وبابان وعدة

لجنة فهو مستمد في الأصل من اسم (بني جناد)، وهي قبيلة كانت تسكن في هذه المنطقة منذ القدم. يصل بعدها إلى دلس اللطيفة كما يصفها أو (روسوكورم) الرومانية القديمة، وكان اسمها "تادلِس" في العصور الوسطى، واكتسبت أهمية تجارية في تلك العصور نظراً لمينائها الممتاز، لكن بالرغم من أنها مدينة قريبة من العاصمة فإن الفرنسيين لم يحتلوها إلّا في وقت متأخر نسبياً، أي في الحملة التي قام بها المارشال بيجو سنة ١٨٤٤م، وهو ما يبين مدى قوة المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي في بداياته.

ومن أهم ما يورد مالتسان في هذا الفصل، تاريخ بعض أبطال الجزائر، كقصة (لالا ثريا) البطلة الشابة، التي تحدت إرادة أبيها، وأبت عليه استسلامه للطغاة، وراحت تثير الشباب ضد فرنسا وتدعوهم إلى مناهضتها، فكانت تزرع بذور الثورة ضد المستعمر أينما حلت، إلى أن وقعت أسيرة في أيدي الفرنسيين إثر وشاية، وكان مالتسان قد التقى بها في طريقها إلى المعتقل، وشاهد بعينه تبجيل الشعب الجزائري لها^(٣٠).

وبوصوله إلى ساحل القبائل الكبرى يحدثنا مالتسان عن القبائل البربرية الموجودة حول دلس، ويذكر منها بني تور (توارقة)، بني سليمان، بني واقتو، وفليسة. وعن تاريخ منطقة "تيجيسيس" Tigisis وأسقفها سيكوندوس، وكذا المدينة الرومانية "يومنيوم" Jomnium، كما يحدثنا عن زواوة أو (العشائر الخمس)، وكيف كانت تحت حكم شيخ قبائلي لم يذكر اسمه (يقصد أحمد بن القاضي)، ويسرد قصته تحالفه مع الإسبان، وإرسال باشا الجزائر للإنكشارية التي استطاعت بسهولة أن تستولي على الحصن الذي وعد به الإسبان، وكانت النتيجة خضوع "ملك كوكو" للبasha، بعد أن كانت تبعيته له اسمية فقط، وسلم الإسبان للأتراك بعد أن غدر بهم.

ويشير مالتسان إلى قلة المصادر عند القبائل البربرية، فهم لا يقيمون وزناً للروايات التاريخية، ولا يعرفون أصلهم. وهناك كثير من شيوخهم يحاولون أن يعودوا بنسبهم إلى العرب، وساعدتهم العقيدة الدينية على تبني الكثير من أحكامهم المسبقة، كما ليس لهم تصور واضح للأحداث التاريخية التي وقعت في فترة ما قبل الاحتلال الفرنسي، وعندما يتحدثون عن الأتراك

(السانية بالضبط والتي أنشئت سنة ١٨٤٤م)، ماراً في طريق عودته ببني شقران، ثم سيق "سان دينس"، والتي يصفها بالمحطة العسكرية، ويصف خلال ذلك ميدان معارك "سيق والهبرة"، حيث ألحق الفرنسيون بالأمير عبد القادر سنة ١٨٣٥م هزيمة مُكررة، وذلك بعد انتصاره الحاسم في معركة "المقطع".

ثالثاً: الرحلة الثانية (من الجزائر العاصمة إلى جبال جرجرة شرقاً)

بعد انتهاء رحلة مالتسان في الغرب الجزائري، يعود من وهران إلى الجزائر مباشرة عبر السفينة، ليبدأ مرحلة ثانية من رحلته باتجاه المناطق الشرقية هذه المرة، وتمثلت المرحلة الأولى منها في زيارة المناطق الساحلية بداية بمدينة "دلس" على العربة، إلى أن انتهى به المطاف إلى بجاية، وزيارته وادي الساحل والمناطق الجبلية، وعدة مدن في الهضاب: كبرج بوعريريج، سطيف، وسور الغزلان، فمدينة "دلس" تقع على الساحل شرقاً، على بعد ٩٥ كلم عن العاصمة، ويوجد في محيطها عدد من القرى: فوردي لو (برج البحري) الذي بناه الفرنسيون حديثاً (سنة ١٨٥٦م)، لارسوطا (وادي الخميس) وهو واد قليل المياه، كاب ماتيفو أو (رأس تامندفوس) الذي يشكّل أقصى نقطة شرقية في ميناء الجزائر، وتوجد بقربه ثلاث قرى صغيرة هي: عين طاية، عين البيضاء وماتيفو. بعدها يواصل مالتسان رحلته فوق الجبال، أين يصل إلى "مرسى الدجاج"، واضطر للمبيت على شاطئ البحر، حيث كانت له قصة مع أحد الصيادين ذا الملامح الحربية عكس عمله الهادئ تماماً، وينقل لنا جانباً من حوارهم معه: "وسألتُه هل قتلت كثيراً من النصارى؟ فالتمعت عيناه بشكل مخيف كما لو أنها تريد أن تقولاً: أجل كثير جداً ولكن فمه نطق بعكس ذلك، فقال أنه لم يقتل أحداً قط، فقد كان يُسلم جميع النصارى في سوق العبيد لحساب الباشا، وهذه هي طبيعة جميع القُرصان الذين تعرفت عليهم في الجزائر^(٣١)، فلا أحد يود أن يتحدث عن مغامراته، ولا يذكرون شيئاً خاصة فيما يتعلق بالسبائيا"^(٣٢).

في الصباح يغادر الرحالة باتجاه جنات (مرسى جنة) المذكورة عند ابن حوقل والبكري، أمّا الاسم الحقيقي

(الموحدية)، انتقلت في مرحلة أخرى من تاريخها للدولة التونسية، حيث عرفت ازدهاراً لحركة التجارة، وبدأ البيسانيون ثم البندقيون والجنويون يقيمون علاقاتهم مع "بوجيا"، واستطاعوا المحافظة عليها حتى بداية الاحتلال الإسباني أين تراجع دورها الحضاري، يقول مالتسان: "وفي القرن الخامس عشر الميلادي بدأت بجاية تفقد سمعتها عند التجار المسلمين، إذ بدأ سكانها يستسلمون للقرصنة، عدوة كل حركة تجارية ويبدو أن الإسبان كانوا أول من عانى من قرصنة البجاويين، ولوضع حد لهذه الحالة أرسل الكاردينال خيمينيس سنة ١٥١٠م حملة بقيادة الأمير بيدرو دي نافارو إلى بجاية، فاستولى عليها بعد مقاومة قصيرة قام بها الأمير التونسي عبد الرحمان" (٣٥)، غير أن السلطة الإسبانية لم تدم طويلاً، بسبب ظهور قوة جديدة تمثلت في القراصنة (البحارة المجاهدين) الأتراك (العثمانيون)، وعلى رأسهم الأخوان عروج وخير الدين اللذين حاربا الحكومة الإسبانية دون هوادة (٣٦)، حيث لم يكن النجاح حليفهما في البداية، ففي سنة ١٥١٢م فقد بابا عروج ذراعه أمام بجاية عندما حاول فتحها، ولكن حلفاء لم يعرفوا الراحة إلى أن تمكنوا في النهاية من طرد الإسبان من هذا الموقع الهام، فقد استسلم سنة ١٥٥٥م "الدون ألفانسو دي برالتا" آخر الحكام الإسبان في بجاية، فدخلت المدينة في ملكية صالح رايس باشا الجزائر (٣٧)، وبقيت بجاية كذلك إلى أن احتلها الفرنسيون في ٢٣ سبتمبر ١٨٣٣م، لكن إخضاع بلاد القبائل حقيقة لم يتم إلا في سنة ١٨٥٧م.

وخلال ذلك يحدثنا الرحالة أيضاً عن بعض أحداث المنطقة في تلك الفترة، (أو كما سمّاها الثائر)، في قصة اغتيال القائد الفرنسي "سولومون دي موسي" وترجمانه وبعض الضباط سنة ١٨٣٦م، من طرف الشيخ سعد محمد اومزيان ولد اوعمر شيخ قبيلة بني تازمالت، وهذا بعد أن أغراههم بالصلح، ثاراً لإعدام الجنود الفرنسيين لعنايته (وهو مرابط عجوز مسكين ارتكب خطأ باقتراجه من مركز فرنسي). وأخيراً يختم مالتسان رحلته في بجاية بزيارة جبل قوراية، واصفاً طبيعته ومناظره الخلابة على الساحل والمروج الخضراء لكنه يزدري الآن

(العثمانيون)، وعمّا فعلوه في بلاد القبائل الكبرى، فليست لهم سوى فكرة غامضة! (٣٨). وتعميم مثل هذا غريب جداً من مالتسان، وفيه تجني كبير، ولا ندري أين الخطأ عندما يعود القبائل بنسبهم - كرواية من الروايات التاريخية على كثرتها في أصل البربر - إلى العرب، وهو ما أشار إليه كثير من المؤرخين كابن خلدون (٣٩). كما يروي مالتسان قصص بعض ضحايا الاستعمار من الفرنسيين أنفسهم، في صورة امرأة لم تستطع أن تحتفظ بأطفالها الستة في منطقة آزفون، ذلك أن سكان شمال فرنسا ومثلهم الألمان والانجليز، لا يستطيعون العيش في مناخ جزائري، دون أن يتأثروا صحياً، عكس سكان جنوب الطليان والإسبان.

يواصل مالتسان الرحلة ماراً بالعديد من المناطق في طريقه إلى بجاية منها "رأس سيغلي" المشتق من (روس أسيس) أي الرأس الحصن، ثم "رأس كوريلين" أكبر وأهم خليج في الجزائر، أين يتراءى له خليج بجاية، وجباله المرتفعة: "ومن بين هذه الجبال التي ترتفع فوق خليج بجاية، كانت هناك ثلاثة جبال يراها المرء أينما وجد.. هي جبل الريبور في الشرق (سنة آلاف قدم).. وجبل كندروة أو (بني خليل) في الجنوب، أما في الغرب فيرتفع جبل بني ميمون فوق غابات غنية بأشجار البلوط" (٣٣).

في الفصل الثالث يحدثنا مالتسان عن مدينة بجاية المهمة في الجزائر قديماً وحديثاً، فهي تحتل مكان المدينة الرومانية القديمة (صالداي)، ويخصص ثلاث صفحات كاملة لتاريخها في العصرين القرطاجي والروماني، بالاعتماد على كتابات بطليموس وبلينيوس وسترابو، وحتى بعض الأثرين كمانيرت وليون ريني وشو، كما يصف بعض النقوش التي وجدت بالمنطقة، كنقوش أوفيدوس هونراتوس التي يحتفظ بها في متحف الجزائر.

أما بجاية القرن العاشر الميلادي، فقد ظهر فيها الصنهاجيون (بنو حماد)، الذين اتخذوها مقراً لمملكتهم، وأطلقوا عليها اسم بجاية، وينقل ثناء الإدريسي الذي زارها بعد قرنين: "ولعل بجاية كانت في ذلك الحين أهم مدينة في شمال إفريقيا" (٤٠)، ويواصل سرد تاريخها العريق، حيث وبسقوط دولة بني حماد عام ١١٥٢م على يد عبد المؤمن الموحي الذي ضمها إلى الدولة المغربية

منظر القلعة الفرنسية التي تُكَلِّ قَمَّةَ الجبل، والتي يؤذي منظرها المسلمين.

لم تفتح الطُّرُق إلى داخل القبائل إلَّا حديثاً (يونيو ١٨٥٧م) وهو التاريخ الذي تمَّ فيه إخضاع جميع قبائل المنطقة بالقوة، وتعتبر المنطقة من أواخر من اعترف بالسلطة الفرنسية في الجزائر، وبالحديث عن الطرق الرومانية القديمة التي تميز بلاد القبائل، فهي تنقسم حسب مالتسان وفقاً لطبيعتها الجغرافية إلى قسمين كبيرين: قسم يقع جنوب سلسلة جبال جرجرة وقسم شمالها، وينطلق مالتسان شرقاً بجانب وادي الساحل أو (واد بومسعود)، والذي يسميه بطليموس نسافا Nasava عبر أراض خصبه تحيط بها جبال شامخة، ويصل منطقة قبيلة "فتاية"، التي كانت عداوتها للفرنسيين سابقاً مضرب المثل يقول بهذا الصدد: "وكانت قرية فتاية هي التي حرّضت الشيخ سعد أكثر من غيرها على قتل القائد العسكري دي موسي"^(٣٨)، ولا ينسى مالتسان أن يشير إلى اقتصاد أهالي المدينة منذ القديم ألا وهو الزيتون، كما مرَّ في هذه المنطقة بآثار المدينة الرومانية (توبوسوبتوس)، التي ذُكرت عند المؤرخين القدماء، ويحدثنا عن بعض قبائل المنطقة كقبيلتي آيت يمل، وآيت مسيسينة.

بعدها يجتاز مالتسان منطقة "آيت ورلي"، ليصل قرية قبيلة "آيت اورسلاغن"، أين قضى ليلته لأوّل مرّة منذ مجيئه للجزائر في بيت قبائلي، مقارناً إياه في معرض وصفه بالخيمة العربية. ينتقل بعدها إلى منطقة يلوله، وهي كما يقول عنها قبيلة كبيرة من قسمين رئيسيين، وهي: "يلولة أمالوه" في الشمال و"يلولة أزمورة" في جنوب سلسلة جبال جرجرة، حيث تقع قرية شلاتة التي تتواجد بها زاوية يُكوّن معلّموها وتلامذتها معظم سكان القرية، ويحدثنا عن بيت الآغا الذي يختلف عن بيوت شيوخ القبائل، "فقد بُني على الطريقة الحضرية في الجزائر، وكان الآغا الذي كانت معنا رسائل له، غائباً في تلك الفترة لأنه كان يقيم في أغلب الأوقات بسهل وادي الساحل، ويسكن بناية تبعد عن شلاتة بحوالي ٧ كيلومترات، كانت الحكومة الفرنسية قد أمرت ببنائها له سنة ١٨٥٥م"^(٣٩)، وزار مالتسان أيضاً المسجد والزّاوية، ووصف كتابها ومرابطيها.

يواصل الرّحالة سيره شرقاً، عبر سهل وادي الساحل، ليصل منطقة "أوزم" الأثرية ثم "أقبو" (برج الآغا)، ويحدثنا عن ظاهرة "الصُّفوف" الخاصة ببلاد القبائل، وهي عبارة عن تقسيمات فرضتها طبيعة المنطقة (الفوقاني والتحتاني)، ونشأت خلال قرون عديدة بسبب الاضطرابات والتّحزّبات التي تميل إليها هذه القبائل كلّ الميل، كما يروي أساطير ربما يكون لها الأثر في نشأتها. وبعد أن ودّع مالتسان "آغا يلوله" يواصل رحلته واصفاً منطقة جرجرة وجبالها السوداء.. أين يلتقي في طريقه الرجل الأوّل في قبيلة آيت مليكش (هذه القبيلة المحاربة)، والتي كانت لها حوالي ٣٠ قرية أغلبها في منحدرات وادي الساحل، وقسم منها على جبال جرجرة المنحدرة، وقد مرّ بعدد من القرى الواقعة في أماكن منخفضة، حيث توقّف في إحداها، ودخل بعض البيوت القبائلية، يقول: "ولم تفرّ القبائليات عند رؤيتنا، وذلك ما تعودت البدويات والحضرية فعله، وكُنَّ كلّهن سافرات، على غرار جميع الجزائريات اللواتي يسكنن الأرياف، ولم أكتشف بينهن امرأة ذات جمال كبير، والسبب في ذلك أنهن يقمن وحدهن تقريباً بالعمل في الحقل والبيت، ويُقال أنهن جميلات في ريعان شبابهن، غير أن برودة الطّقس في الشتاء وحرارة الشّمس في الصيف التي يتعرّضن لها دائماً، يجعل من ابنة العشرين بالإضافة إلى الأعمال الشّاقّة التي تقوم بها، تظهر بمظهر امرأة في الخمسين"^(٤٠). ويشير الرّحالة إلى بعض الصّفات التي لم تزل رضاه في هذه القبيلة وفي القبائل البربرية عموماً، والتي لا نتفق معه فيها، بحكم أنّها تبقى حوادث شخصية وفردية لا ينبغي تعميمها^(٤١)، وبالمقابل ينقل مالتسان صفحات خالدة من تاريخ هذه القبيلة، التي لم يتم إخضاعها إلّا سنة ١٨٥٧م، حيث كانت تُكوّن نواة تحالف قبليّ قاده (بوبغلة)^(٤٢) ضدّ الفرنسيين، ويروي قصته نقلًا عن شيخ قبيلة مليكش الذي حدّثه عن البطل وحياته ونضاله ضد الاستعمار كما لم يفته الحديث عن بعض عادات وتقاليد أهالي المنطقة حال حضوره حفلة ختان وتسجيل ملاحظاته المتعلقة بتنافس الأغاوات في التّبرّع بالنّقود فيها.

ومن سطيف يعود مالتسان مرةً أخرى إلى وادي الساحل، تاركاً على يساره القلعة العربية القديمة، والتي ازدهرت في (القرن الثاني عشر الميلادي) زمن الإدريسي، وكانت تمثل قديماً مدينة "زبا الموريطانية" الواقعة جنوب برج بوعريريج، ويمر في طريقه بجبل "تمغوت" أعلى قمة في سلسلة جبال جرجرة، أين أقام الولي سيدي تمغوت قبته هناك، ثم سافر للحج ولا يزال الناس ينتظرون عودته من الحج، وقد مرت قرون على سفره، لكن مريديه لا يشكون في عودته في يوم من الأيام! كما يروي قصة المrapطة "للا خديجة" التي اتخذت صومعتها في سفح جبل جرجرة وأسطورة زواجها^(٤٥).

يصل مالتسان مدينة "سور الغزلان"، والتي أنشئت سنة ١٨٤٠م فوق آثار مدينة "أوزيا" Auzia الرومانية، وفي موضع قلعة بناها الأتراك، سموها (سور الغزلان) أي عين الغزلان، وكان عدد سكانها حوالي ١٠٠٠ معظمهم جنود، ويحدثنا عن النقوش الثمانية عشر التي عُثر عليها هناك. بعدها ينفذ الرحالة إلى عمق بلاد القبائل، بداية بعين بسام أين وجد -كما يفترض- بقايا الأبنية الرومانية للقلعة الأوزيانسية^(٤٦)، ثم يصل منطقة الشرفاء، فذراع الميزان، وهي القرية الصغيرة التي أنشأها المعمرون قبل فترة قصيرة وتتواجد بها قبيلتا بني سكة وزواوة، هذه الأخيرة التي يقدر عدد أفرادها بمائة ألف نسمة، وتنقسم بدورها إلى (زواوة الشرقية - زواوة الغربية - وآيت إيراثن). وعنها يقول: "لا تتكون قبيلة زواوة من عناصر متجانسة مثل أغلب المجموعات القبلية الأخرى.. فمن الغريب أن هناك فروقاً كبيرة بين نماذج الوجوه والملامح لدى أفرادها، فتجد أنف العربي الطويل الأفتى بملامحه الجميلة المستقاة، وتجد بجانبه وجه البربري الواسع المستدير، كما تجد أنف الزنجي الأفطس، وتجد بالتالي العيون الزرق، والشعور الشقر الخاصة بشعوب الشمال"^(٤٧)، كما ينقل كثيراً من عاداتها، ويروي بعض الأساطير كأسطورة غابة بومدين^(٤٨).

وعبر طرق صخرية وعرة ينتقل مالتسان باتجاه قلعة نابليون، التي بنيت وسط قبيلة إيراثن، حيث يقول: "وقد أنشئت هذه القلعة التي لم يمر على وضع حجرها

وبعيداً عن منخفضات وادي الساحل يسلك مالتسان أحد الفروع الجانبية "وادي مغير الصغير" باتجاه جبال البيان، التي قاد منها "الدوق دورليان" حملة على المنطقة فاعتصمت القبائل خلفه مستميتة في الدفاع عن وطنها، وبوصله إلى مدينة برج بوعريريج، يصفها بالقرية الصغيرة التي يسكنها حوالي ٢٠٠ من الأوربيين ومثلهم من العرب منذ سنة ١٨٥٠م، وقد كانت لها أهمية أكبر مما قد يتصوره المرء، باعتبارها خطاً مواصلات، وسوق تباع فيه القبائل المجاورة مصنوعات، فكانت قبيلة آيت مليكش تسوق أبقارها، وآيت عباس تباع فيها منتجاتها من الزيت والصناعات اليدوية الأخرى وقبيلة أولاد أبي بكر تزود سوقها بالعسل، وتباع فيها قبائل مجانية أغنامها الكثيرة وكان الوناغوة يحملون إليها صناعاتهم الجميلة"^(٤٩).

يُعرّج الرحالة بعدها في زيارة سياحية لآثار "سيوليا" الرومانية التي تقع في قرية "بشيلغا" القريبة من برج بوعريريج، ومنها إلى المدينة الرومانية "سيطيفيس" التي نافست يوليا القيصرية عاصمة موريطانيا لمدة طويلة. وسيطيفيس هي "سطيف" الحالية التي استولى الفرنسيون على آثارها لأول مرة سنة ١٨٢٨م، ففي سنة ١٨٤٧م أمرت الحكومة بإنشاء مدينة فيها، وفي الطريق وكلما اقترب مالتسان من سطيف كثر عدد القرى الأوربية، والمستعمرات الصغيرة أين كانت (الشركة الجونيفية للمستعمرات السويسرية بسطيف) تبنيتها، رغم قلة عدد السكان.

وعن مدينة سطيف يقول مالتسان: "هي مدينة فرنسية تماماً، يسكنها حوالي ٢٠٠٠ من الأوربيين، وعدد أفراد حاميتها أكثر بكثير من سكانها"^(٤٤)، ويصف شوارعها التي تحمل أسماء تاريخية كشارع ترجان، شارع جوستيان، وشارع القديس أوغسطين ومن الطبيعي أن تكون للمدينة ثكناتها، وأسواقها، كسوق الأحد، والذي يُقدر عدد من يتسوقون به ما بين (٨-١٠) آلاف، أما القلعة الرومانية فيعتبرها أفضل ما تقدمه سطيف للسائح محب الآثار التاريخية، وهي عبارة عن حصن روماني قديم، أسواره سليمة إلى حد ما، تتمتع بفضاء معماري بيزنطي شيد أيام عظمة روما.

من تخليصها، وبقيت بأيديهم خلال الفترة (١٦٦٤-١٨٢٩م).

ومن جيجل يتجه مالتسان نحو مدينة "القل" الساحلية، وهي "كولوبس" Collops أو خولو القديمة Ghulu، أهم الموانئ في العصور الوسطى، التي اشتهرت بصباغتها الأرجوانية، ليصل خليج استورة أو سكيكة (روسيكادا قديما)، وهي مدينة فرنسية حديثة، لم يُعجَب بها لرتابتها وتشابه منازلها، فلا بيت حضري، ولا فناءً عربي ولا أسواق، ولا أروقة ذات طابع شرقي، ولا مسجد ولا منارة^(٥٣). يقول: "لم أكن قد وصلت إلى الجزائر لأرى نسخة طبق الأصل من مدينة بضواحي باريس، ولذلك لم تطل إقامتي بسكيكة، فركبت السفينة وواصلت سفري من استورة نحو عنابة"^(٥٤)، حيث انفتحت أمام عيناه أنظار خليج عنابة، أكبر خلجان الجزائر بعد خليج بجاية، وقبل وصوله يصف الكثير من المناطق التي مر بها كرصيف استورة، وكاب فيرو (راس الحديد)، وبرائتانة وكولوسيتانة، وجزيرة الحديد الصغيرة (صخرة العرب)، التي يروي بخصوصها وبكثير من التجني والحدق على المسلمين أسطورة القرصان (مجاهد البحر) العربي الذي كان يسكنها^(٥٥).

عنابة يقول مالتسان هي بونة، الاسم المحرف من هيبونا Hippona أو كما تعنيه (المدينة الفاخرة)، أو كما يصفها (محبوبة الملوك القدامى)، إلا أنه لا ينبغي للمرء أن يغتر بذلك، ويتصور أن مدينة أغوستينوس القديمة كانت تقع في مكان المدينة الفرنسية الحالية، فيعتقد "شو" Shaw أن بونة هي أفروديسيوم كولونيا Aphrodisium colonia التي ذكرها بطليموس، بينما ينقل "ماينرت" Mannert هيبو إلى مكان بونة نفسها، ومع ذلك فقد يستطيع المرء أن يعرف لماذا سُميت بونة المدينة باسم قريب من اسم هيبو فسترابون يتحدث عن مدينتين ملكيتين Hippones Regii تقعان على الساحل.

وعن المدينة يقول مالتسان: "وجدت عنابة مدينة لطيفة، يَغْلُبُ عليها الطابع الأوربي إلى حد كبير، ويسكنها حوالي ١٢ ألفاً، يُشكّل الفرنسيون أكثر من نصف سُكَّانها، وكان لها ثلاثة موانئ"^(٥٦)، ميناء كاسران Pont des cassarins، وميناء الخروب وميناء فور

الأساسي أكثر من ستّة أشهر بسرعة، وتمّ بناء القسم الأكبر منها.. وكان هناك ما يزيد عن ألفي جندي يهتمون بإقامة السور. وكان المارشال راندو قد استولى على هذه القرية - قرية آيت اتمايرن - في شهر ماي ١٨٥٧م، بعد مقاومة شديدة من طرف سُكَّانها^(٥٩) ولا يفوته في نهاية هذا الجزء من رحلته وصف جبال جرجرة وقممها، والتي يُطلق عليها القبائل كلمة تيزي: تيزي آيت حدو، تيزي اغرن، تيزي عزولة، تيزي كويست، تيزي تكرات، تيزي اكفادو.. الخ^(٥٠).

رابعا: الرحلة الثالثة (مواصلة الرحلة شرقا وزيارة بعض المناطق الداخلية)

انتهاز مالتسان فرصة توقف الباخرة الحكومية في بجاية، لیسافر عبرها إلى مدينة سكيكة في رحلة بحرية على امتداد ساحل نوميديا القديمة، حتى صوله إلى مدينة عنابة كما يتوغّل داخل البلاد، فيزور: قلعة، سوق اهراس وتبسة.

في البداية تعبر السفينة خليج بجاية الرائع، أين يعود مالتسان للحديث عن العديد من المدن القديمة في المنطقة: موسلوبيوم Muslubium، وخوبا Ghoba، والمحطة الفينيقية يارست، وزياما Ziama القديمة، ليصل بعدها مدينة جيجل التي تقع فوق شبه جزيرة صخرية، وهي مدينة صغيرة مهدمة إلى حد كبير نتيجة زلزال ليلة ٢٢ أوت ١٨٥٦م الذي قضى عليها لعدة سنوات على الأقل^(٥١)، يبلغ عدد سكانها حوالي ١٠٠٠ من الحضر و ٥٠٠ من الأوربيين، كانت في العصور الوسطى مدينة تجارية مزدهرة حتى القرن السادس عشر الميلادي أين جعل منها بابا عروج مركزا لأعمال القرصنة (الجهاد البحري) لمدة طويلة، "وكانت تُشكّل في ذلك الحين أفضل سوق في إفريقيا لبيع العبيد المسيحيين، وكان بعض الأمراء الأثرياء يزودون حريمهم بالجميلات اللواتي يُعرَضن للبيع فيه... ثم حلت بها كارثة غير متوقعة فقضت على نشاطها وازدهارها بصورة نهائية.. ذلك أن لويس ١٤ اختارها لموقعها المناسب، ليجعل منها حصنا تستقر فيه جالية فرنسية"^(٥٢)، وكان ذلك سنة ١٦٦٤م بقيادة دي بوفور، لكن الأتراك تمكّنوا

القديمة، ومليئةً ببقايا الفن المعماري الذي تركه سادة العالم القديم^(٦٠)، حيث المسرح الروماني، وقلعة كلاما البيزنطية، وكذا آثار "عنونة" الرومانية التي تبعد نصف ميل عن قلعة، والتي يعتقد أنها "كاستيلوم فبتيانوم" التي ورد ذكرها في اللوحة البويتينية، في حين يعتقد كثير من المؤرخين أنها آثار مدينة "تيليس" Tibilis.

وطبعاً وكعادته يقف مالتسان أمام كل منطقة، أو معلّم تاريخي فاحصاً مدققاً فالمسرح الروماني نصف الدائري بغالمة (قالمة)، يشبه إلى حد كبير المسرح اليوناني في "سيغسته" Segeste قرب ألكامو Alkamo بصقيلية، لكنه يمتاز عن المسارح الرومانية بالمقصورات المخصصة لجلوس الأعيان والقيصرة، وكان "بير بروجير" Louis Adrien Berbrugger قد اكتشف نقشاً قرب غالمة ذكر فيه تأسيس هذا المسرح، ويذكر اسم سيدة نبيلة تدعى "أنيا ايليا ريسيتوتا" Annia Aelia Restituta راهبة النذور، بصفتها منشئة مسرح كلاما، ويضيف أنها أنفقت عليه ثلاثين ألف قطعة ذهبية، ويخبرنا النقش أن مجلس المدينة قرّر أن يقيم لها خمسة تماثيل، لكنّها رفضت ذلك تواضعاً، واكتفت بأن يوضع لها هذا النقش، الذي يتحدث عن كرمها وتواضعها في آن واحد، وكان المبلغ الذي صرفته يوافق مليونان، حسب القيمة النقدية للفترة التي تمت فيها الرحلة، وهكذا نرى أن (كلاماً) كانت مدينة مهمة دون شك، ولما كان لها مواطنة غنية إلى هذا الحد.

وعن أساطير وروايات المناطق التي زارها ينقل مالتسان أسطورة الملك سيدي ارزاق، وتسمية حمام المسخوطين، هذا الاسم الغريب بالنسبة لهدية طبيعية مفيدة، كما يفيدنا بالأهمية الصحية التي تحتويها مياهه، بفضل الكبريت والعناصر الكلسية الأخرى. وبعد إقامته في قالمة لعدة أيام يواصل مالتسان رحلته نحو مدينة تبسة شرقاً، ليصل بعد ٧ كم إلى قرية أوربية تدعى Betit، وهو اسم تستحقه جميع القرى الأوربية في الجزائر وقضى ليلته بعدها في خيمة من خيام قيادة قبيلة الناظور، ليصل في اليوم الثاني قرية سوق أهراس، والتي تقع في سفح جبل رسغون، ويقول عن سكانها: "ويتكوّن سكّان سوق أهراس من أجناس مختلطة، فقد استقرّ فيها التونسيون.. كما استقرّ بها اليهود

جنوا Fort genois، إلّا أنّ أياً منها لم يكن يتوفر فيه الأمان الذي يبرّر تسميته بالميناء! أمّا في العهود القديمة خاصة عهد الماصيليين، فقد كانت هيبونة محبوبة لدى ملوكها، وأصبحت عاصمةً للولاية كلّها بالتناوب مع قرطبة، ولعبت دوراً هاماً في تاريخ المسيحية، إذ كانت أهم أسقفية في إفريقيا بعد أسقفية قرطاجنة، ومقر القديس أغوستينوس مؤلف كتاب (مدينة الله)، والذي توفي فيها سنة ٤٢٩م أثناء محاصرة الفندال للمدينة. كما لها عدد كبير من القديسين والشهداء، وقد عقد بها مؤتمرات لزعماء الكنيسة أحدهما سنة ٣٩٣م، والآخر سنة ٤٢٦م، واحتوت على عديد الكنائس والتماثيل التي هُدمت تهديةً كاملاً أيام الفندال، باستثناء الكنيسة الأسقفية ومنزل القديس أوغسطينوس، لكن مالتسان لم يكتشف من آثار هيبو شيئاً ذا قيمة باستثناء ما نقله: "قناة تنقل مياه عيون جبل ايدوغ إلى المدينة الرومانية، أنقاض أبار كبيرة حجارة رصيف كبير على شاطئ البحر، بقايا كنيسة.. وهذا كل ما بقي من عظمة المدينة الملكية القديمة"^(٥٧).

بعدها يتوغل مالتسان إلى داخل البلاد ويتجه بدايةً نحو قالمة عبر سهل السييوس الخصب، ويمرّ بعدد القرى العربية: سيدي عواشر وسيدي رماح والقرية الجديدة مندوني Mondoni التي أنشئت سنة ١٨٤٨م ثم قرية النجمة، وهنا يشير الرحالة إلى مفارقة عجيبة لاحظها، فيقول: "وقد بدا لي أن هناك لعنة لحقت باستعمار الفرنسيين لهذه البلاد، فالعربي الذي لا يعرف الكثير عن الفلاحة، ينجح في استغلال الأرض الجذباء، بينما يفشل الفرنسي الذي قدّم له الأرض الحكومية الخصبة، وذلك رغم المساعدات الرسمية التي يتلقاها"^(٥٨). وكعادته لا ينسى مالتسان زيارة الآثار، هذه المرة آثار اسكوروس القريبة من قرية (النجمة)، والتي اشتهرت بالمعركة التي حدثت بين أنصار قيصر وأنصار بومبيوس، الذي وقف إلى جانبه الملك النوميدي، كما لا يفوته تقديم وصف طبيعي بديع للمنطقة وجبال اوريج وفيجوج، لتكون المستعمرة الأوربية "هليوبوليس" هي آخر محطة في هذه الرحلة، قبل الوصول إلى قالمة وكله فضولاً لمشاهدة آثار كلاما Clamma الرومانية أو "كلاما"^(٥٩)، يقول: "إنّ منطقة قالمة كلّها غنية بالآثار

خاتمة

تعتبر الرحلات الأجنبية إحدى المصادر المهمة في دراسة تاريخ الجزائر، ورغم ما حملته رحلة مالتسان من آراء قد لا تتفق معه في بعضها، خاصة حين يركز على التاريخ القديم ويهمل - قصداً أو دون قصد - التاريخ العربي والإسلامي لمدن الجزائر التي زارها إلا أنه علينا أن نأخذها على أنها وجهة نظر أجنبية من حق أي منا أن يناقشها، وقد يرفضها، وعلينا أن لا ننسى أثناء ذلك أن مالتسان يتحدث عن ظروف وأوضاع معينة في فترة تاريخية معينة، ومن أهم الفوائد التي نخرج بها من دراسة هذا النص الرحلي:

أولاً: أنه يعرفنا على الحياة الاجتماعية، الاقتصادية، وشرائح المجتمع في الجزائر أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، والتطور الذي وقع لمدننا وقرانا في بداية المرحلة الاستعمارية، وما رافقها من محاولات طمس للهوية، وتغيير واقع المدن والمجتمع الجزائري، والذي لا يزال متواصلاً إلى يومنا بقصد أو بغير قصد، ونذكر في هذا الصدد تغيير أسماء بعض المدن الجزائرية كعين صالح وعين أمناس... إلخ

ثانياً: أن الآراء الواردة في الرحلة تعتبر حيادية إذا قورنت بما جاء في المصادر التاريخية والرحلات التي وضعها فرنسيون، ومن هنا يُعتبر وجهة نظر ثالثة، بالإضافة إلى وجهة النظر الوطنية، وهذا لا يعني أننا نتبنى هذه المعارف والتجارب بجميع ما فيها، وإنما نتناولها بالدرس والإحاطة والتّحقيق.

ثالثاً: تبين الرحلة اهتمام الأوربيين عموماً بالعالم العربي والإسلامي في إفريقيا ودراسة أوضاعه الطبيعيّة، وأحواله الاجتماعيّة، وإمكاناته الاقتصاديّة، ما يُوفّر للسياسيين والعسكريين معلومات تُساعد على تحديد السياسات والخطط الاستعماريّة.

رابعاً: تؤكد تواصل الأوربيين مع حضارتهم الرومانية القديمة، ومدى حرصهم على تتبع آثارها، وهذا ما كان واضحاً في كل محطات الرحلة، حيث كان الشغل الشاغل لمالتسان، هو بحث ودراسة الآثار الرومانية والتّعريف بها في كل قرية أو مدينة يزورها.

والميزابيون الصّحراويون، وكانت نواة السكّان الأوربيين الصّغيرة بها، سبباً في نشأة حوالي ١٠٠ من البيوت الفرنسيّة، وقد سُميت شوارع هذه المدينة بأسماء مُستمدّة من تاريخ نوميديا مثل: شارع مصنيسا، وشارع يوغرطة، وشارع سيبيون، أمّا فيما يخص الآثار القديمة فإنّي لم أستطع اكتشاف شيء يستحق الذكر^(١١). أمّا "تيفاش" فيشير مالتسان بأنها قرية صغيرة تقع في أخصب وهاد قسنطينة، ومع ذلك يُفضل أهلها تربية المواشي على الفلاحة.

وبعد وصوله تبسة أو (تفستة القديمة)، يقول بأنها تُذكرنا بسلالة العالم! لا ببنائاتها فحسب وإنما بسكّانها أيضاً: "فهناك شعب غريب يعيش في هذه المدينة الأثرية، فليس له قرابة مؤكّدة بالقبائل البربرية والقبائل العربية المجاورة.. والواقع أن عاداته وتقاليده وأسلوب معيشته، بل حتى ملامحه تختلف عن ملامح جيرانه، وعاداتهم وتقاليدهم ومن يستطيع أن يبرهن على أنهم مُخطئون حين يعتقدون بأنهم من أصل روماني؟"^(١٢)، وهو قول عارٍ عن الصحة، ويدخل ضمن محاولة نفي الأصل العربي أو الأمازيغي عن سكان الجزائر يدخل في محاولات الاستعمار الثقافي المتكررة في فكر الرحالين الأوربيين والأجانب عموماً، ودعم مقولة الأصول اللاتينية للأرض والجغرافيا في كل شمال افريقيا.

وقد أعجب مالتسان كثيراً بتبسة إذ يقول: "لم أر في حياتي ما يُداني تبسة في أصالتها، فهي مدينة قديمة، ولها دور قديمة لا تزال مسكونة، كما كانت في أيام الشعب الملكي! لقد كانت بيوت تبسة كلّها رومية الأصل، أو لأنها بُنيت فوق الأسس القديمة بمواد الآثار الرومانيّة"^(١٣)، والحقيقة أن تأكيد ومبالغة مالتسان في كلّ مرة على الأصل الروماني هو من قبيل الدعاية، حيث ظل الكتاب الأوربيون ينظرون للجزائر على أنها قطعة من الغرب، تعرّضت للافتكاك من الشرق في مناسبتين: في القرن السابع الميلادي من طرف الفاتحين المسلمين، وفي القرن السادس عشر الميلادي مع ظهور الإخوة بربروسا^(١٤)، وإلا كيف نفسر أن الرحالة وعبر ما يقارب الثلاثمائة صفحة من رحلته لا يشير إلى العمارة العربية أو العثمانيّة، من دور وقصور ومساجد وأضرحة، إلّا فيما ندر.

الإحالات المرجعية:

- (١٥) نفسه، ص ٣٤.
- (١٦) نفسه، ص ٢٩.
- (١٧) نفسه، ص ٢٩.
- (١٨) تعددت التسميات التي أطلقت على السُلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر كالأتراك، الأوجاق الأعلاج، العجم وغيرها، لكن تبقى التسمية الصحيحة هي (العثمانيون)، ذلك أنهم كانوا من أنجاسٍ مختلفة اللسان، العرق والجغرافيا، لكنهم يتفقون في ولائهم للإسلام والسُلطان. يُنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ١٥٠٠-١٨٣٠، ج ٢، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨، ص ١٣٣-١٤٢.
- (١٩) تم تحرير وهران بعد ثلاثة قرونٍ من الاحتلال الإسباني على مرتين، حيث تم الفتح الأول على يد الباي مصطفى بن يوسف (بوشلاغم)، واستعادها الإسبان بعدها بفترةٍ قصيرةٍ فقط (٢٤ سنة)، أمّا الفتح النهائي فكان يوم ٤ رجب ١٢٠٦ هـ/ ٢٧ فيفري ١٧٩٢ م على يد الباي محمد بن عثمان الكبير. للمزيد يُنظر: أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: الشيخ المهدي البوعبدلي، اعتنى به: عبد الرحمن دويب، ط ١، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٣.
- (٢٠) مالتسان، المصدر السابق، ص ٣٩.
- (٢١) نفسه، ص ٤١.
- (٢٢) يقول عنه: "وأهم ما عثر عليه في عين تيموشنت الرّسم الذي اكتشفه ديفرني ١٨٤٠ م والذي يمثل موت كليوباترا وتبدوا الملكة المصرية الجميلة فيه وهي بصدد تقريب الحية السامة من صدرها، وهناك عبد يُمسك أمامها برأس جبيها ماركوس أنطونيوس، وكأن إظهار موته بهذه الصورة هو الذي حمل الملكة المقهورة على الانتحار". يُنظر: مالتسان، المصدر السابق، ص ٤٣.
- (٢٣) مالتسان، نفس المصدر السابق، ص ٤٣.
- (٢٤) نفسه، ص ٥٣.
- (٢٥) نفسه، ص ٥٨-٥٩.
- (٢٦) نفسه، ص ٦٣.
- (٢٧) كان "القايد" يسافر إلى الجزائر العاصمة، ويتلقّى من الحاكم الفرنسي برنس من الصّوف السميكة لتنصيبه قائد معترف به من حكومة الاحتلال الفرنسي، وهو تقليدٌ قديمٌ، حيث يروي مؤرخ جوستينيان في القرن السادس الميلادي "بروكوبيوس" Prokopius أن زعماء قبائل شمال إفريقيا كانوا يستلمون برانس التنصيب من الوالي، حيث كانت روما تقر ذلك بمنح شارات (صولجان فضي وتاج مذهب، ورداء أبيض ثمين، وثوب مطرّ بالذهب) لإغراء الزعماء بقيمتها المادية، كما احتفظ الفندال والبيزنطيون بهذا التقليد الروماني، أمّا العرب والأتراك فلم يكونوا يُقدّمون سوى البرنس الأسود، وقدّهم في ذلك الفرنسيون.
- يُنظر: مالتسان، نفس المصدر السابق، ص ٦٧-٦٨.
- (٢٨) أدّى الاحتكاك الحضاري والصراع العسكري بين صفتي المتوسط، إلى تصاعد نشاط القرصنة في حوض المتوسط، واحتلال سواحل المغرب الإسلامي، وقد صرّح الراهب الإسباني خيمينيس أسقف طليطلة، بأنّه أوّل من فكّر في إنقاذ شمال إفريقيا من "الوحشية الإسلامية" لكي تنتصر فيها المسيحية والحضارة. لكن ظهور الاخوة بربروسا أعاد التوازن للمنطقة، وسمح لها بالتصدي للقرصنة
- (١) عمار هلال، احتلال الجزائر من خلال أدب الرحالة الألمان، في: أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة ١٨٣٠-١٩٦٢، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥، ص ٦٢ وما بعدها.
- (٢) هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي أفريقيا، تر: أبو العيد دودو، ج ٣، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠.
- (٣) السعيد بوطاجين، "هاينريش فون مالتسان ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا- المقاومة المركبة"، مجلة الموروث، ع ٢، ١٣، ص ٨٧.
- (٤) للمزيد حول هاته الرحلات ورحلات أخرى قام بها ألمان للجزائر كفيلهلم شيمبر وهرمان هاوف، كليمانس لافينغ، أودفيغ بوفري وغيرهم. يُنظر: أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان ١٨٣٠-١٨٥٥، د.ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٥، ص ١١ وما بعدها.
- (٥) سيمون بفايفر، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، تقديم وتعريب: ابو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤، ص ٥-٣.
- (٦) محمد الهادي الحسني، الاحتلال الفرنسي للجزائر من خلال نصوص معاصرة، د.ط، مؤسسة عالم الأفكار، المحمدية الجزائر، ٢٠٠٦، ص ٦٥-٧٥.
- (٧) أبو العيد دودو: (١٨٣٤-٢٠٠٤م): قاصّ، ناقد أدبيّ، مترجم، ولد بدوار "تمنر" بمدينة العنصر بجيجل، درس بمعهد عبد الحميد بن باديس، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة، ومنه إلى دار المعلمين العليا ببغداد، ثم إلى النمسا، أين تحصّل فيها على الدكتوراه سنة ١٩٦١م، ودرّس بالنمسا، ثم بجامعة كييل بألمانيا، قبل أن يعود إلى الجزائر ويشغل أستاذاً في قسم اللغة العربية بجامعة الجزائر. له أعمال أدبيّة عديدة، كما سمح له إتقان اللغة الألمانية من ترجمة كثيراً ممّا كتبه الرّحالة الألمان عن المجتمع الجزائري قبل وأثناء الاحتلال الفرنسي، ومن بينها: القصة الأولى من ثلاثية (مالتسان) التي كتبها عن الجزائر في القرن التاسع عشر الميلادي، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، قسنطينة أيام أحمد باي. يُنظر: ناصر الدين سعيدوني، "أبو العيد دودو مؤرخاً"، مجلة اللغة العربية، مج ٧، ع ٣، ص ٢٠٥ وما بعدها.
- وللمزيد يُنظر: المجلس الأعلى للغة العربية، الأديب والمترجم أبو العيد دودو مسار وإبداع، ط ٣، دار النشر راجعي، ط ٣، سيدي أحمد الجزائر، ٢٠٠٩.
- (٨) محمد حمودي، "استراتيجية الترجمة عند أبي العيد دودو"، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، ع ٥، الجزائر، مارس ٢٠٠٦، ص ٩٢.
- (٩) هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا، ج ١، تر: أبو العيد دودو، ط.خ (وزارة المجاهدين)، شركة دار الأمة، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ٨٠-٨٥.
- (١٠) أبو العيد دودو، دراسات أدبية مقارنة، ط ١، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٠، ص ٦.
- (١١) مالتسان، المصدر السابق، ص ٤٩ وما بعدها.
- (١٢) تشير إلى أنّ عناوين الرّحلات الثلاث الأساسية الواردة، لا وجود لها في الفهرس الأصلي للكتاب وأضفناها للتّوضيح فقط.
- (١٣) مالتسان، المصدر السابق، ص ١٨.
- (١٤) نفسه، ص ٣٣.

الرحمن دويب، الحياة الثقافية بالجزائر جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني (١٣٠٠ هـ) الشريف بوبغلة بطل ثورة بلاد القبائل، دار المعرفة الدولية، الجزائر، ٢٠١٣.

(٤٣) مالتسان، المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٤٤) نفسه، ص ١٧.

(٤٥) نفسه، ص ١٨٢.

(٤٦) نفسه، ص ١٩٣.

(٤٧) نفسه، ص ١٩٧.

(٤٨) نفسه، ص ١٩٥-١٩٦.

(٤٩) نفسه، ص ٢٠٠.

(٥٠) نفسه، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٥١) نفسه، ص ٢١١.

(٥٢) نفسه، ص ٢١٣.

(٥٣) سعى الاستعمار الفرنسي إلى إبادة كل ما يدل على الهوية الوطنية، ذلك أن العمران شأنه شأن المكان، الصورة، البنيان، اللباس، ولون البشرة، وأثاث الكوخ ومسقياته، إحدى المكونات التي أسهمت في تقوية الحس بالانتماء إلى الأرض المسلوقة، بل لعب هذا الموروث الشعبي دوراً أخطر من بعض السياسات والأيدولوجيات في حقب مختلفة من تاريخ الجزائر. يُنظر: بوطاجين: مرجع سابق، ص ٩٤.

(٥٤) مالتسان، المصدر السابق، ص ٢٢٣.

(٥٥) يكثر مالتسان من سرد الاساطير والروايات في رحلته في كل مرة، والتي تعتقد أنها ليست عشوائية بقدر ما تخفي كثيراً من النظرة الأوربية المتعالية نحو العرب والمسلمين، وتكريس ازدراء العرب والمسلمين، وكل ما هو غير أوروبي وغربي. للمزيد حول ذلك يُنظر: مالتسان، المصدر السابق، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٥٦) مالتسان، نفس المصدر السابق، ص ٢٣٣.

(٥٧) نفسه، ص ٢٣٨.

(٥٨) نفسه، ص ٢٤٢.

(٥٩) حسب الباحث جودا فإن الاسم (كالملا) وجد مكتوباً على ما يزيد على أربعين نقيشة للكتابات البونية الحديثة في قالمقة، غير أنه بعد فك رموز كتابتها وقراءتها تبين أن اسم المدينة القديم يبدو سامياً، وأن اللاتينيين قاموا بقلب الاسم بعد أن (مالكا). يُنظر: أحمد سليمان، تاريخ المدن الجزائرية، دار القصة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٣٧-٣٨.

(٦٠) مالتسان، المصدر السابق، ص ٢٥٢.

(٦١) نفسه، ص ٢٦٣.

(٦٢) نفسه، ص ٢٧٥.

(٦٣) نفسه، ص ٢٧٦.

(٦٤) أبو القاسم سعد الله، "منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر"، مجلة الأصاله، الجزائر، ١٩٧٣، ص ١٢.

الأوربية. يُنظر: إبراهيم سعيود، "القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة القرصنة الإيطالية نموذجاً"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، ١١، ٢٠١١، ص ١٤٧.

(٢٩) مالتسان، المصدر السابق، ص ٨٩.

(٣٠) نفسه، ص ٩٥.

(٣١) نفسه، ص ١٠٥-١٠٤.

(٣٢) لقد تعددت الدراسات التي تبحث في أصول البربر، منها ما اتخذ نهجاً علمياً موضوعياً، ومنها ما اتسم بالذاتية والتحيّز، سيما الدراسات الاستعمارية. وقد جمع المؤرخ "محمد خير فارس" آراء مجموعة من الأنثروپولوجيين، حصرها في مجموعة من التّصوّرات المتنوعة والمختلفة والمتضاربة حول أصول البربر، فهناك الأصل السّامي، الأصل الحامي، والأصل الهندو أوروبي، والأصل الأفريقي المحلي. هذا ويرى ابن خلدون أن البربر من نسل مازيغ بن كنعان، بمعنى أن أصولهم كنعانية مشرقية. يُنظر: محمد خير فارس، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب (١٩٢١-١٩٣٩)، د.ط، دمشق، ١٩٧٢، ص ١٩٢ وما بعدها؛ عبد الرحمن ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٦، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص: ٩٠-٩١.

(٣٣) مالتسان، المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٣٤) نفسه، ص ١١٢.

(٣٥) نفسه، ص ١١٣.

(٣٦) من المعروف أن البلاد الجزائرية دخلت طوعاً تحت السيادة العثمانية في الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، أثناء الصراع الإسلامي المسيحي من أجل السيادة على حوض البحر المتوسط، بين الدولة العثمانية حاملة لواء الجهاد الإسلامي، والدول الأوربية وعلى رأسها اسبانيا الكاثوليكية حاملة شعار الاسترداد المسيحي، فبعد استشهاد (عزّوج) سنة ١٥١٨ بوادي المالح، طلب أعيان الجزائر من خير الدين بربروسا الانضمام للدولة العثمانية للحصول على المدد، وبالفعل ألحقت الجزائر بالدولة العثمانية، وأمدّها السلطان سليم الأول بألفي انكشاري، كان لهم الفضل في إبعاد الخطر الاسباني وتحرير السواحل والمدن الجزائرية، وهو ما يؤكده أيضاً "ولهذا استقبلوا على أنهم حُمّة أكثر من كونهم اسبياداً" للمزيد يُنظر: محمد درّاج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الاخوة بربروس ١٥١٢-١٥٤٣م، الجزائر: الأصاله للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٢، ببليسي دي رينو، حويات جزائرية، تر: دليلا جباري، مج ١، أصالة للثقافة، الجزائر، ٢٠١٣، ص ١٣.

(٣٧) مالتسان، المصدر السابق، ص ١١٤.

(٣٨) نفسه، ص ١٢٧.

(٣٩) نفسه، ص ١٣٣.

(٤٠) نفسه، ص ١٤٨.

(٤١) نفسه، ص ١٤٩.

(٤٢) محمد الأمجد بن عبد المالك الهلالي (الشريف بوبغلة): ولد سنة ١٨١٠م، يُعدّ من أبرز رموز المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي، مات شهيداً نواحي سعيده بالغرب الجزائري، حيث قاد ثورة شعبية خلال الفترة (١٨٥١-١٨٥٤م)، في منطقة جرجرة ببلاد القبائل، حتى استشهاده في ٢٦ ديسمبر ١٨٥٤م، حيث قُطعت رأسه ونُقلت إلى باريس، مع رؤوس أمّاجد آخرين، ولم تستعيد الجزائر رفاتهم إلا مؤخراً. للمزيد حول حياته وجهاده يُنظر: عبد

نظرة الرحالة الأجانب لعرب جنوب شبه الجزيرة العربية دراسة من خلال المصادر

أ.د. حسين أبو بكر عبد الرحمن العيدروس

أستاذ مساعد (متقاعد) قسم التاريخ
كلية التربية – جامعة سيئون
الجمهورية اليمنية



ملخص

كانت الكتابات الكلاسيكية وما زالت من أهم المصادر التي يستقى المؤرخون منها مادتهم لتاريخ الجزيرة العربية، فضلاً عن المذكرات والكتب التي كتبها الرحالة الأجانب في فترات لاحقة أثناء رحلاتهم المتعددة التي قاموا بها إلى مناطق من جنوب الجزيرة العربية، سواء الذين جاءوا على شكل بعثات علمية جماعية أو بشكل فردي، أم كانت لهم مهام أخرى مختلفة وكان لها دور كبير في الكشف عن معلومات سياسية واقتصادية واجتماعية بالغة الأهمية أو الترتيب لمهام دبلوماسية، وتباروا على نشر تقارير رحلاتهم ومحاولة التمييز ولو كان ذلك على حساب حياتهم، فمنهم من توفيق وعاد إلى موطنه ومنهم من بقي حتفه بعدما قام بتسريب مذكراته والمعلومات التي سعى لجمعها. كما تم تدوين الكثير من المعلومات الأخرى ومن بينها مشاهداتهم اليومية، وتعاملهم المباشر مع سكان المناطق أو المرافقون الذين يلازمونهم طوال الرحلة، فتم توثيق الكثير من المشاهدات اليومية أثناء الاستراحة ومن أبرز الموضوعات طريقة تناول الوجبات وتقديمها، وصف الملابس والنظافة والتعامل مع الآخرين، ومكانة المرأة في المجتمع العربي، وأداء الشعائر الدينية (الصلاة، الصوم، الحج...) وغيرها من مناشط الحياة.

كلمات مفتاحية:

المستشرقون؛ عرب شبه الجزيرة العربية؛ أنثروبولوجيا اجتماعية؛ تاريخ جنوب الجزيرة

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٣ ديسمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٠٦ يناير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.446794

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسين أبو بكر عبد الرحمن العيدروس، "نظرة الرحالة الأجانب لعرب جنوب شبه الجزيرة العربية: دراسة من خلال المصادر". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد السبعون: أغسطس ٢٠٢٥. ص ١٣٤ – ١٤٤.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: aidarous777@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made. فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

ومع كل هذا يمكن للباحث أن يجد معلومات متنوعة في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية، فمن الكتاب من عاش لفترة زمنية تكفي لدراسة مختلف الجوانب؛ فالإنسان العربي إنسان طيب القلب، سطحي التفكير، لا يجيد المكر أو الغدر، يُحب ضيوفه ويكرمهم، فيقدم لهم ما يستطيع من خدمات عن طيب خاطر، لذلك انعكس كل ذلك على كتابات الرّحالة الأجانب الذين تجشموا عنا السفر إلى العربية السعيدة، فثاء الكثير منهم وفقد البعض منهم حياته مقابل تحقيق ذلك الحلم، ولم يغفلوا ذكر تفاصيل حياة العربي في تقاريرهم.

أولاً: نظرة الرّحالة للبدو والحضر

من أقدم الرحالة الذين وصلوا إلى اليمن عبر وادي حضرموت هما الأبوين اليسوعيين بائز ومونصرات سنة ١٥٨٩م، وقد نشرت تفاصيل الرحلة في كتاب بائز نفسه بعنوان تاريخ بلاد الحبشة^(٧). وهما أول أوروبيين رأيا مدن وادي حضرموت، فقد أجبرا بادئ ذي بدء على السير وراء الجمال، ثم أركبا على الجمال بعد أن سأل الدّم من أقدامهما، وعجز عن السير الأب مونصرات الطاعن في السن، واجتازا منطقة صحراوية. ولم يستطيعا أن يأكلا الجراد المقلي الذي قدم لهما. وأخيراً وصلا، بعد انقضاء عشرة أيام إلى "تريم"، حيث هدّد الشعب برجمهما، لكنهما استقبلا استقبالا أهدأ في "هينن"، حيث مثلا بين يدي الملك^(٨) الذي يقيم في قلعتها، فقامت بمهمة الترجمة بينهما وبين الملك، امرأة كانت قد أنقذت من الغرق مع ثمانية من البرتغاليين واعتقت الإسلام^(٩). ويذكر بائز في وصفه للبلاد أنها لا تستحق أن تسمى بالعربية السعيدة، ولكن ما تراه كان يقول لو اجتاز العربية الفقراء؟ يقول بائز أن معظم الأرض بائر، وأن السكان لا يزرعون سوى الذرة البيضاء التي لا تغل إلا غللاً هزيلة، وأن الجوع الضارب أطنابه في البلاد، ولكنه رغم ذلك رأى شعيراً وقمحاً وبلحاً، وتعرّف السجينان كلاهما إلى القهوة، فقال عنها بائز: "ماء يُغلى مع قشرة ثمرة يدعونها البُن"^(١٠). ويصف بائز بعض العادات لدى سكان حضرموت بقوله: "أن من عادات

الرحلات الاستكشافية التي قام بها عدد غير قليل من المستشرقين، سواء كانوا بشكل منفرد أو ثنائي أو فريق مكون من تخصصات متنوعة، فكانت وجهتهم إلى جنوب شبه الجزيرة العربية بمناطقها الساحرة التي كانت حلم يساور المغامرون الذين لا حصر لهم. إذ اشتهرت مناطقها قديماً بإنتاج المر واللبن، تلك المواد التي كانت تصدر بكميات كبيرة إلى مناطق شمال حوض البحر الأبيض المتوسط (روما واليونان). فمعظم صادرات الجزيرة العربية تقتصر على هاتين السلعتين، وتعدان ٩٠% من الصادرات^(١)، وقد اشتغل بسبب ذلك الكثير من سكانها وازدهرت مناطقهم وتحولت من محطات صغيرة إلى مدن واسعة حتى القرون الأولى بعد الميلاد بعدما أصبح خط الملاحة البحري هو السائد. وقد أسهم في اتساع شهرتها ما سطرته الكتابات الكلاسيكية وما نشرته من معلومات تكاد تكون أكثر تفصيلاً عن الحياة فيها، وأقدم ما ذكر من معلومات جاء في كتاب الطواف حول البحر الأحمر أو (أيدموند بلاد العرب) أو الطواف حول البحر الاريثري^(٢)، وهو كتاب أو (دليل) لتاجر يوناني من أصل مصري مجهول الاسم قدّم معلومات مهمة^(٣). وقدّم بليني (Pliny) أفضل وصفاً وتقديراً لتكاليف نقل البخور عبر الطرق البرية للجزيرة العربية^(٤). فقد وُصِفَت تجارة الجزيرة العربية بأنها تجارة طويلة المدى، ما أدى إلى وجود عوامل كثيرة تتحكم بها^(٥).

ورغم أن هدف الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية كان استخباراتياً في الأصل؛ إذ يهدف إلى معرفة معلومات عن المناطق التي تنتج هذه المواد غالية الثمن، وفي مرحلة لاحقة كانت تهدف إلى جمع المعلومات الأنثروبولوجية عن سكانها، والخلفية الاجتماعية والفكرية والدينية لمئات الألوف من المهاجرين اليمنيين والمولدين الذين يعود أصلهم إلى اليمن، والذين يعيشون اليوم في بلدان جنوب شرق آسيا، وشرق أفريقيا والخليج العربي ومناطق أخرى كثيرة من العالم^(٦).

مكة، وكتب عن العادات والتقاليد واللغة والدين والأسلحة^(١٩).

يصف لنا الإيطالي رينزو مانزوني (Renzo Manzoni ١٨٧٧ - ١٨٧٨م تعلق الناس بالمداعة (الشيشة) فيقول: "المداعة أو الشيشة أو النرجيلة"، وهي مصنوعة من حبة جوز الهند الكبيرة، وتوضع على صحن من النحاس بثلاث قوائم وتدخل في جوزة الهند قصبتان: الأولى من الخشب (الملتقى) متعامد على الجوزة تحمل وعاء الفخار (البوري) الذي يوضع فيه التبغ والنار وتكاد تلمس قعر الجوزة، أما الأخرى فقصيرة ومائلة (الغدة) وتخرق الجهة العلوية للجوزة وتلتصق بالقضيب الآخر الطويل (القصة) المستعملة للتدخين ويملاً الماء مقدار رُبعين من جوزة الهند^(٢٠).

وأما الرحالة الألماني هانس هيلفريتس (Hans Helfritz)^(٢١) ١٩٣١ - ١٩٣٥م، فقد وصل إلى اليمن ومنها زار "حضر موت"، حيث كانت وجهته الرئيسية إلى مدينة "شبو" التي اعتقد أنها كانت عاصمة الدولة السبئية، وقد وصلها عبر طرق برية فرعية بديلة عبر "المكلا" بعد محاولات ثلاث للوصول إليها وكانت هذه رحلته الثانية، وتم اعتقاله بعد أن ظل الطريق بتهمة الدخول غير المشروع لأراضي اليمن^(٢٢). ونشر هيلفريتس بعض صور من حضر موت وشبو في كتاب "أسرار شبوة" في برلين ١٩٣٥م، وكذلك في كتاب آخر بعنوان "العربية السعيدة" في زيورخ ١٩٥٦م^(٢٣)، وفي كتاب آخر بعنوان "حب الاستطلاع دفعني للتجوال في العالم" في كولون ١٩٩٩م^(٢٤). ورغم أن اهتمامه الأول هو توثيق الموسيقى والرقص في جنوب الجزيرة العربية، إلا أنه قام بتوثيق لكثير من المعالم العمرانية في مناطق مختلفة من اليمن، ومنها مناطق في "حضر موت" مثل مدينة "تريم" التي زار فيها قصورها الطينية، وذكر منها "قصر السيد الكاف بتريم" دون تحديد أي قصر منها، بالإضافة إلى توثيق بعض شوارعها وأبنيتها ومساجدها وحصونها، ويذكر أنه قد تلقى دعماً من أسرة آل الكاف الثرية أثناء ترحاله، ثم زار مدينة شبام التي أطلق عليها اسم كتابه الأول "شيكافو الصحراء"، وزار مدينة "سيئون" ووثق "قصر السلطان الكثيري" وبعض الأبنية المتميزة والمساجد والقباب والمقابر، كما قام بزيارة

سكان حضر موت بأن يدهنوا شعرهم الأجعد بالسمن^(١١).

الرحالة فان دن بروكه (Van den Brukeh) الذي وصل إلى ميناء الشحر في حوالي سنة ١٦١٤م، يصف سكان حضر موت بقوله: "أنهم ذوو استقامة ولطف، يحبون مصادقة الغير، متواضعون، ذوو طبيعة هادئة، ومؤمنون إيماناً ثابتاً برسالة النبي محمد، ونساء الطبقة العالية محجبات، شديداً الإغراء، جميلات المحيا، رشيقات القوام. ويقوم ذوو الفتيات بتزويجهن من الغرباء مقابل قليل من المال، وهن في سن مبكرة"^(١٢).

أما المستشرق النمساوي كارستن نيبور (Carsten Niebuhr)^(١٣) الذي وصل عبر ميناء اللحية في سنة ١٧٦٢م ضمن البعثة الدنماركية، فقد كان وصفه لحضر موت وعشائر البدو المستقلة فيها ومدنها وبخورها وتجارها التي تضاعل شأنها منذ أن قام الأوروبيون بالتجارة بمنتجات الشرق^(١٤). ويذكر نيبور أيضاً: "أن السكان كانوا يسببون لهم كدراً في غالب الأحيان" ولكنه قبل أن يحكم عليهم ويشعر بالإهانة من أي شيء توسل كل ذكائه لفهم هؤلاء الناس. وهكذا لا يلبث أن يقول مَدَقَقاً: "لقد اعتقدنا أننا مُصِيبُونَ في التذمر من مضايقتهم بسبب عدم معرفة البلاد وسكانها، وغاب عن بالنا أن الإنسان لا يمكن أن يسافر حتى في بلاده دون أن يلاقي ازعاجاً"^(١٥).

ويصف هارولد جاكوب (Harold Jacob) مساعد المقيم البريطاني في عدن في مطلع هذا القرن، عندما كتب وصف حالة عدن^(١٦) كما يصف إحدى الحارات أو الأحياء الهندية تماماً. وقال فيما يتعلق بالجانب الترفيهي، إنه توجد في عدن ملاعب وميادين رياضية منذ زمن قديم، ووصفها "بأنها مصانة ومحفوظة، وهي بحالة سليمة جيدة"^(١٧). ومن الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية، إلا أنهم لم يصلوا إلى جنوبها الرحالة الإسباني دومنغو باديا (علي باي العباسي) ١٨٠٧م^(١٨)، الذي انطلق قاصداً المغرب التي تنظر إليها حكومة إسبانيا على أنها الامتداد الأسهل والأقرب لها، فوصل الجزائر وتونس ومصر ثم الحجاز وفلسطين والشَّام وتركيا ووثق أثناء رحلته للحجاز الكثير من المعلومات في

أما هارولد ودورين انجرامز (Harold and Doreen Ingrams) ١٩٣٤-١٩٤٤م، بعد أن أمضيا فترة قصيرة في "عدن" كلفهما الحاكم بعمل دراسة استطلاعية عن "حضر موت" (كانت في ذلك الوقت جزءاً من محمية عدن). وتنفيذاً لهذا التكليف غادرا "عدن" في ٢٩ أكتوبر من عام ١٩٣٤ متجهين إلى "المكلا"^(٢٠). وخلال رحلتها وثقا الكثير من العادات والتقاليد السائدة وكانت حصيلتهما عدد كبير جداً من الصور وثائق العمران والأسواق، والفنون والاحتفالات المختلفة والشخصيات.

المستشرق الهولندي فان در ميلين (Van der Molen)، زار الجزيرة العربية ثلاث مرات، وكان سفيراً في جدة، زار مناطق كثيرة من اليمن ومنها صنعاء وعدن وحضرموت ووثق أثناء رحلاته الكثير من العادات والتقاليد والشخصيات والعمران في صور كثيرة، وكتب عن حضارمة المهجر: "وبدأ تيار خافت ينساب راجعاً إلى أرض الوطن. فبعض الذين حققوا نجاحاً فيما وراء البحار كانوا تواقين للعودة إلى بلادهم وتبناه أنفسهم لتلك اللحظة الكبرى التي سيدفنون فيها في تراب الجزيرة العربية المقدس بعيداً عن ضوضاء الاستحواذ على الثراء، وتأتي معهم ثروات العالم الخارجي لتدخل إلى "حضر موت" الراكدة أبداً. ويأخذوا في تشييد المساجد البيضاء تعبيراً عن شكرهم لله لما أنعم عليهم من رخاء، وربما لحد ما تكفيراً عن الذنوب التي ارتكبوها أثناء حصولهم على الثراء الدنيوي"^(٢١).

وتتقل ليلى انجرامز (Leila Ingrams) في كتابها "أيام في حضر موت" عن والدتها دورين انجرامز من خلال وصف الصور التي التقطتها أثناء رحلتها، فتصف بعض ملابس النساء في "حضر موت" مثل العباءات البرتقالية والأغطية السوداء التي يضعنها حول رؤوسهن، ففي "شباب" يلبسن العباءات الزرقاء وأغطية الرأس السوداء، أما في "سيئون" و"تريم" فمن المفترض أن تلبس نساء السادة فقط العباءات الزرقاء بينما تلبس الخادومات اللون البرتقالي، وبقيّة النساء والفلاحات يلبسن اللون الأخضر^(٢٢). وتستمر دورين في إعطاء صورة طيبة عن سكان "حضر موت" حضرهم وباديتهم وتقول: "عندما كنت أسافر مع البدو وأنا وحيدة بينهم لم

مناطق من "وادي دوعن" في غرب "وادي حضر موت" مثل "بضه" و"الخريّة" وكذلك زار منطقة "الهجرين"، وزار أيضاً "وادي عمد" وعلى مدخله منطقة "حريضة"، وعلى "وادي العين" مرّ بـ "حورة" ووثق خلال زيارته لهذه المناطق بعض الأسواق وبعض الأنشطة مثل ملاعب الكرة والنسيج وبعض المناسبات كالأعياد والتداوي بالحجامة، وفي مناطق من الساحل قام بتوثيق الصيادون وعدد من الحرف والصناعات التقليدية مثل صناعة القوارب وغيرها^(٢٥). وخلال الفترة ما بين ١٩٣١-١٩٣٥م^(٢٦) زار مدينة "عدن" مرات عدة، فكانت بالنسبة له نقطة يزور منها بقية مناطق اليمن، وفي الوقت نفسه منطلقاً لرحلاته في الشرق الأقصى. ويقول هيلفريتس الذي يعشق الموسيقى: "أن "عدن" كانت دوماً بالنسبة لي بمثابة الجنة، وعندما أعود إلى تلك المدينة بعد رحلة طويلة أخوضها على الجمال أجدها مدينة تمثل التحضر ومكاناً للراحة من عناء الحياة اليومية، يكاد يتجاوز حاجز المألوف، ولهذه المدينة قيمة لا يمكن الاستغناء عنها". وقام إلى جانب توثيقه اللامحدود لمعظم ما يشاهده في رحلاته المتعددة لليمن ولمدينة "عدن" على وجه الخصوص بتوثيق جوانب من الفنون تحت مسمى موسيقى ورقص جنوب الجزيرة العربية، وخلال ذلك نجد توثيقه لعازفي الايقاعات التي تتبع الجيش البريطاني^(٢٧) في عدن.

كما قامت آلان فاليارس أثناء رحلتها إلى عدن وحضر موت في ١٩٣٩م بالكتابة عن بعض العادات في تلك المناطق ومنها أغاني البحارة الذين شاهدتهم أثناء تجوالها في شواطئ عدن، تقول: "وكانت أغاني البحارة وهم يجرون قواربهم الطويلة نحو رصيف الملا لها وقع الموسيقى في أذني وأنا أسير على الشاطئ، وكان منظر القوارب المعدة للرحلات الطويلة من الأمور التي تبعث على السرور في النفس، وقد شدد عزمي وخاصة في ذلك اليوم القاطن، وكنت انوي أن استأجر واحداً من هذه القوارب قبل أن ينقضي النهار"^(٢٨). ثم تعقب واصفة شاطئ الملا بقولها: "وقد يكون لشاطئ الملا رائحة كريهة، ولكنه بالنسبة لي كان خيالياً ومكاناً يستدعي الاهتمام برصيفه المواجه لمكة حيث يولي المسلمون وجوههم عندما يصلون"^(٢٩).

ومعاملها وسواحلها، وانطباعاته عن القبائل ونشاط السكان، وأنواع التجارة الواردة للمنطقة أو المصدرة منها^(٤٣)، في كتابه المسمى "الخليج بلدانه وقبائله"^(٤٣).

الرحالة الفرنسي لورون مارسال دوي (Laurent Marcel Depui) (١٩١٩ - ١٩٢٩م)^(٤٤)، زار اليمن ضمن زيارته للحجاز، وكان يرصد الشخصيات الأجنبية التي زارت المملكة ويحرص على الاجتماع بها. فمن ذلك كتابته في مذكرة بتاريخ ١٥/١١/١٩٢٦م أن الدكتور وولفانج فون فيسل (Wolfgang Von Weisl) قد غادر جدة إلى اليمن يوم ٢٥ أكتوبر/ تشرين الأول من أجل إجراء استجواب صحفي للإمام يحيى حميد الدين^(٤٥). كما رافق بعثة الدكتور كارل راثنانز (Carl Rathjens) الجيولوجي من هامبورج الذي يبحث عن الجرافيتيات، وكان معهم الدكتور فيسمان (Wismann) عالم النبات والجغرافيا، وفريادا أبيتز (Frieda Apitz) المستعربة الشابة المكلفة بالنقوش الجرافيتية^(٤٦).

أما المستشرق البريطاني الشهير هاري سانت جون فليبي (Harry St. John Bridger Philby) (١٩٣٦ - ١٩٣٧م)، شخصية متعددة الأبعاد، فهو سياسي ورجل استخبارات بارع ومستكشف رائد وتاجر ماهر وكان السبب المباشر لمجيئه إلى الشرق الأوسط في عام ١٩١٤م، الإسهام في تمكين حكومته البريطانية من إحكام قبضتها على أكبر قدر من تركة الدولة العثمانية في المنطقة^(٤٧). ومن نتائج رحلاته أخرج سفرًا ضخماً بعنوان: "مرتفعات جزيرة العرب" (Arabian Highlands)، سجل فيه مشاهداته في جنوب غرب المملكة العربية السعودية خلال عام ١٩٣٦ - ١٩٣٧م، شملت المناطق الممتدة من السليل شرقاً حتى البحر الأحمر غرباً، ومن مكة المكرمة شمالاً حتى الحدود اليمنية جنوباً^(٤٨)، وله مؤلفات أخرى مثل كتاب "حاج في الجزيرة العربية"، وكتاب "قلب الجزيرة العربية".

وعندما نقرأ وصف كارستن نيبور (Carsten Nebur) لشبه الجزيرة العربية نجده قد اطلع على الكثير من شؤون العرب طبقاتهم وسلاسل الأنساب وطبقة الأشراف والدين والخلافات المذهبية القائمة بين الفرق الإسلامية والتأثر للدم والاجراءات القانونية الصحيحة للتأثر الذي يسبب الكثير من النزاع الدامي بين

يكن يخالجنى أدنى شعور بالخوف، لقد كان سيسرني أن أقطع أي صحراء برفقتهم"^(٣٣).

يشير فان در ميولن إلى بعض الشخصيات المهمة في "حضر موت" بشكل مباشر ومرة أخرى بشكل غير مباشر، ويذكر مرة فيقول: "لقد واتانا الحظ السعيد في الرحلة الأولى فوجدنا الفرصة لمقابلة الحضرمي المرموق على أيامه"^(٣٤)، وأنعم علينا بعطفه ومساعدته وفتح لنا الطريق إلى قبر هود، وهو طريق ظل حتى تلك اللحظة مغلقاً أمام الأجانب، وأمدنا بالبضائع وقدم لنا التسهيلات للقيام بالرحلة؛ بل وساعدنا فوق ذلك على الذهاب إلى الغار المرهوب "بركان برهوت" الذي ظل منذ أيام بطليموس والهمداني يغلفه ضباب كثيف من الروايات والأساطير والأسرار والرعبة^(٣٥).

ومن المهام التي قام بتنفيذها فان در ميولن أثناء ابتعائه إلى "حضر موت" من قبل حكومة هولندا للوقوف على أوضاع البلاد التي تأتي منها مجموعة صغيرة من رعاياها لكنها ذات نفوذ كبير والذين ما زال لأغلبهم صلات منتظمة معها، حيث يقول: "ظهرت بعض اختلافات في وجهات النظر بين الحضارمة أنفسهم في مواطن الهجرة وخصوصاً في جنوب شرق آسيا، وانتشرت أصداء الصراعات والضجيج إلى جزر الهند الشرقية، وكان هذا سبباً من أسباب رحلة فان در ميولن الأولى إلى "حضر موت" في بداية عام ١٩٣١م^(٣٦). وقد سبقه في مهمة مماثلة المستشرق سنوك هورخرونيه، الذي بعثته حكومة هولندا إلى مكة المكرمة وعمل تحت إشراف المستشرق الألماني نولدكه ١٨٨٠ - ١٨٨١م^(٣٧)، لتتعرف على واقع الحياة في مكة وتأثيراتها في جزر الهند الشرقية^(٣٨).

كانت رحلة الألماني أولريخ زيت سن ١٨٠٢م^(٣٩)، إلى اليمن فوصف فيها زيارته لمناطق متعددة منها صنعاء وتعز والحديدة وبيت الفقيه وزبيد ويريم وذمار، وقام بنسخ النقوش من المواقع الأثرية في ظفار التاريخية وكانت من نتائجها أن بلغت حمولة ارساليته من اليمن ومكة عشرين جملًا من المخطوطات اليمنية القديمة^(٤٠). ثم رحلات المستشرق البريطاني صمويل بارت مايلز (S. B. Miles) ١٨٦٦م إلى الخليج العربي وعمان وحضر موت وعدن في الجنوب^(٤١)، وقدّم وصفاً للمناطق

بين يديه، وإذا قاس المسافر أبعاد أحد الأعمدة اعتقدوا أن ذلك العمل طريقة من الطرائق السحرية^(٥٤). ويصف هيلفريتس البدو بالمجرمين ويقول: "أن جميع هؤلاء البدو مجرمين ولا شيء يمكن أن يمنعهم من النهب والقتل، فمثلاً قام صبي منهم بطعن أبيه لأنه صفعه حينما رفض أن يبحث عن جمل تائه، وهم يرون هذا الأمر عادي"^(٥٥).

ويأتي الرحال الألماني هرمان بورخاردت (Hermann Burchardt) الذي زار اليمن ثلاث مرات ولقي حتفه في الرحلة الثالثة والأخيرة قرب وادي الدور عام ١٩٠٩م^(٥٦). قدّم وصفاً للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والجانب الديني في شمال اليمن في عهد الإمام يحيى، ووصف بعض المناطق فيها مثل صعدة وحجة وعمران ورداع والمخا ومناخة وسوق الخميس، ووصف علاقة الإمام بحكم الأتراك والبريطانيين، كما وصف شوارع الحديدة ونظافتها ومياهها والسلع التي تصدر منها وأهمل البن^(٥٧).

وعندما وصف هارولد جاكوب (Harold. F) مجتمع حضرموت قال: "إن جميع السادة في "حضرموت" أقويا وعندهم مواهب تجارية قوية وكبيرة وفعالة"^(٥٨)، ثم يواصل بقوله: "والسادة رغم كل شيء هم الذين يحكمون بالفعل في "حضرموت" وهم الذين يديرون حاجات مُريديهم الذين يسمونهم بطريقة فنية أخدام (أو خدم) وسلطتهم تلك متمتعاً بخصائص الحكومة الدينية أو الكهنوتية"^(٥٩).

وعند وصفهم لطريقة تناول الطعام يقدم لنا ويندل فيلبس وصفاً لطريقة تقديم الطعام في "بيحان" التي كانت تابعة لمحمية "عدن"، وذلك عندما وصل إليها قادماً من "عدن" وكان برفقته شارلز أنجي (Charles Angie) مدير دائرة الآثار في مستعمرة عدن البريطانية، فقد قدّم لهما الشريف (عواد شقيق) الحاكم الفعلي لـ"بيحان" واجب الضيافة غداءً على الطريقة البيحانية الحقّة، إذ أنه بعد أن أخذ كل منهما مكانه على الأرض أحضر وعاءً كبيراً تحرسه أسراب من الذُّباب ويقول: "نظرت إلى داخل الوعاء الكبير فوجدت أنه مليء بخليط عجيب يشبه في مظهره القمح المغلي (العصيد) على الطريقة الهندية. وقد رُتّب على شكل جوزة الهند الممتلئة

العشائر، ويطلع على عادات المأكل والمسكن والاستقبال والتحية والملبس والزواج^(٤٩)، ولم يقتصر على ذلك فحسب؛ بل قام بتوثيق الكثير من القصص والأساطير والخرافات^(٥٠) وغيرها من المعلومات الأخرى في مختلف جوانب الحياة.

وبما أن تقاليد مجتمع شبه الجزيرة العربية بشكل عام والمجتمع اليمني بشكل خاص لا تسمح عادة للرجل من دخول عالم المرأة ودراسته بشكل دقيق فقد اختار أحد الباحثين^(٥١) أن يكرس هذه الدراسة لتناول صورة المرأة اليمنية في كتابات ثلاث من أشهر النساء الغربيات اللاتي زرن اليمن وعشن فيه خلال القرن العشرين وهن: البريطانية (فريا ستارك)، والألمانية (إيفا هوك)، والفرنسية (كلودي فايان)^(٥٢).

وفي سياق الحديث عن الانطباعات والآراء الشخصية حول عامة الناس من العرب يذكر نيبور علاقته بعامة اليمنيين فيقول: "أن سكان اليمن مُهذبون إزاء الأجانب وفي وسع الإنسان أن يسافر في امبراطورية الإمام حُرّاً آمناً كما يفعل في أوروبا"، ولكن يجب على الأوروبيين ألا يمسوا إحساس سكان البلاد، وفي الإمكان بسهولة تامة اكتساب صداقة السكان باطلاعهم على المعارف لأن العرب بعكس الأتراك لا يخلجون التعلم من الأوروبيين. يجب على المسافر أن يتجنب انتقاد ما لا يعجبه مع العلم أنه يجب ألا يتوسل الخداع لاستمالة العرب لأنهم يحبون الصدق، وهم يعرفون أنهم لا يخلون من النقائص، ولكنهم لا يريدون أن يهزأ الغير من نقائصهم هذه"^(٥٣).

يصف المستشرق يوهان لودفيج بوركهاردت (Johann Ludwig Burckhardt) نظرة البدوي العربي للرحالة الأجانب عند زيارتهم للمعالم الأثرية القديمة فيقول: "من المؤسف أن فكرة الكنوز الدفينة في الأبنية القديمة راسخة عميقاً في أذهان العرب والأتراك، فهم لا يكتفون بمراقبة كل خطوة يقوم بها المسافر بل يعتقدون أنه يكفي الساحر الحقيقي أن يرى ويتفحص الأماكن التي اختفت فيها الكنوز التي يعتقدون أن له علماً مسبقاً بها من مطالعته للكتب القديمة التي وضعها الكفار الذين كانوا يقيمون في هذه الأماكن كي يصبح قادراً على أن يُصدر متى شاء أمراً إلى الجنى حارس الكنز بإحضاره إلى ما

غرفة الملك سواء كان صاحياً أو راقداً، وهو من الأتراك يلبس ثياباً رائعة ويعقد على وسطه حزاماً غريب الشكل فيه عدد من القطع والشرائط الفضية، وعلى عمامته ورقة نخل موشاة باليد وسلسلة من الفضة تطوقها مراراً كالأساور بالمعصم^(٦٦). ويصف نيبور استقبال الإمام لهم فيقول: "استقبلهم الإمام باللطف الذي استقبل به الفرنسيين فتمكنوا من أن يقوموا بالزيارات التي أرادوها وعنوا بصورة خاصة بالجالية اليهودية في العاصمة"^(٦٧). وفي تقرير المستشرق الفرنسي جان ريمون (Jean Raymond) الذي خصصه للدولة السعودية الأولى ونظام الحكم فيها سمّاه (Memoire Sur L'origine des Wahabys)^(٦٨) تناول بتفاصيل دقيقة الحملات الاصلاحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب ووصول جيشه إلى كربلاء ومسقط وغيرها، وتحدث عن علاقات الدولة السعودية الأولى مع الدولة العثمانية. ويقول عن بعض الشخصيات السياسية: "إذن أصبح محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود على رأس هذه الأمة الجديدة واقتسما فيما بينهما السلطات العليا، فاحتفظ الأول بالجانب الديني والثاني بالجانب الدنيوي وتعاهدا بأن يظل الأمر كذلك على الدوام"^(٦٩).

وبسبب زيارة فيليبي إلى حضرموت برزت إلى السطح بقايا الخلافات بين السلطان القيعطي والسلطان الكثيري وكذلك آثار الصراع العلوي الارشادي الذي برز في جزر الهند الشرقية، المهجر الشرقي للحضارم وأصدائه في حضرموت نفسها^(٧٠). ويصف بورخاردت الاجراءات القضائية في اليمن في عهد الإمام يحيى فيقول: "عندما سرق مني شاب قطعة قماش صدر عليه حكم القاضي في اليوم التالي بإيداعه السجن لمدة عام"^(٧١).

ومن خلال الرحلات التي قامت بها فريا ستارك لاحظت بعض التأثيرات الأوروبية على بعض سكان حضرموت واستخدامهم بعض الملابس غير التقليدية وسمّت ذلك "غربنة حضرموت"، وترى بأن ذلك يعتبر تغييراً في القيم لدى السكان المحليين وتدهور أخلاقهم، من جهة أخرى فهي ترى "أن المسؤولين الحكوميين ليسوا مسؤولين عن كارثة انهيار القيم الأخلاقية التي تسعى الأمم بعزم لا يلين إلى التمسك بها إذ أنهم عادة يعرفون

بوسائل أصفر، ورأيت الأيدي تمتد من كل ناحية كل واحدة تخرج قبضتها ممتلئة من هذا الخليط... ثم تغمسها في ذلك السائل الأصفر، ثم تتجه الأيدي إلى الأفواه يتبع الواحدة منها سرب من الذباب، انفصل عن السحابة الرئيسية التي ترابط فوق الوعاء"^(٦٠). ويصف لنا مانزوني بعض العادات السائدة في عدن ومنها عادة استعمال (البردقان) أو المضغة ويقول: "بأنها مأخوذة حتماً من الهنود وهي خزن التّبغ في الفم، فبعد تحويل التّبغ إلى مسحوق ناعم جداً مسمى بـ (البردقان) يتم وضعه في وسط الكف ويبلل باللعاب فيتحوّل إلى كُرّة تُحشر ما بين الفك الأسفل والشفة السفلى ويتبع هذه العادة السيئة الرجال والنساء وحتى الفتيات"^(٦١).

وتصف آلان فاليارس مياه الشرب في عدن بقوله: "أما مياه الشرب فقد كانت كما قلت سابقاً في قرب من جلود الغنم ومعرضة بشكل دائم لحرارة الشمس، الأمر الذي يجعل مذاقها غير سائغ ويفسدها على مر الأيام"^(٦٢). وأما فليبي فقد اكتفى في ضيافة الشيخ مبارك بن منيف في قعوضه بالأرز ولحم الضأن، فقد استطاع أن يلمس أيضاً مدى تأثر المائدة الحضرمية في الثلاثينات من القرن الماضي بالأكل الغربي والجاوي^(٦٣).

ثانياً: النظرة للحكام العرب

من خلال تقرير كتبه المستشرق الفرنسي جان دي لاروك (Jean de Roque) في كتابه (رحلة إلى العربية السعودية) يصف زيارته لمدن من اليمن، منها المخا وموزع ويريم وتمز وعدن وجزر في باب المندب وجزيرة سقطرى^(٦٤)، ويصف مقابلتهم واستضافتهم من قبل الإمام المهدي (صاحب المواهب) سنة ١١٢٤هـ / ١٧١٣م، بشأن تجارة البُن اليمني، كما وصف في هذا التقرير شجرة القهوة (البُن) وصفاً دقيقاً^(٦٥). وفي هذا التقرير يصف أيضاً حياة الإمام وهو كما يُسمّى (الملك)، ويقول: "أما فيما يتعلق بحياة ملك اليمن الخاصة فهي تمتاز بطابعها الرتيب، فهو ينهض من نومه مع شروق الشمس ويتناول الطعام في الساعة التاسعة ويرقد من جديد من الساعة الحادية عشرة إلى الثانية تماماً من بعد الظهر، وعندئذ تُقرع الطبول وينفخ الزمارون في آلاتهم. ولرئيس الطباليين ميزة خاصة يحق له وحده أن يدخل

المزيد من المعرفة، وسيؤدي تعليمهن إلى توليد المزيد من الرغبات والطلبات عندهن، ولن يمضي وقت حتى يصبحن راغبات في مساواتنا نحن الرجال. إننا نعيش الآن في رخاء لكن إذا أرادت مطالب النساء فإننا سنجد أنفسنا عاجزين عن تأمين نفقاتنا^(٨٣). ووصفت فريا ستارك الكثير من العادات والتقاليد في كل المناطق التي زارتها مثل "عدن" و"حضر موت" فوصفت عادات الزواج بتفاصيل دقيقة، ووصفت الملابس التقليدية للنساء والحلي الفضية والذهبية وعادات الولادة، وكذلك أساليب العلاج الشعبي الذي خضعت له عندما كانت فريسة لمرض الحصبة في "دوعن" خلال زيارتها الأولى لـ "حضر موت"^(٨٤). وتصف دورين انجرامز آخر أيام رمضان في "حضر موت" واستقبال العيد فتصف نقشة الحناء بقولها: "رأيت فاطمة وهي تفرش أرضية الغرفة متكئة على الوسائد ومسلة يديها إلى امرأتين تتقشانهما بالحناء في خطوط معقدة وهو عمل استغرق خمس ساعات للانتهاء منه"^(٨٥). وفي كتابها (شتاء في شبه الجزيرة العربية) تناولت فريا ستارك مواضيع اجتماعية كثيرة منها جلسات الحناء في حريضة سنة ١٩٢٨م وشرعت إلى تقديم الكثير من العادات الحضرية ومحاولة تفسير جذورها والبيع والشراء في الأسواق ومزاولة بعض الحرف المحلية مثل تربية النحل في دوعن، وتشرح تفاصيل عادات الزواج^(٨٦). كما لم تنس معاناة المرأة المتزوجة والآثار السلبية التي تتركها هجرة معظم الرجال الحضارم وبقاؤهم سنوات طويلة في الغربة والزواج من امرأة أخرى هناك^(٨٧).

ومن خلال وصف المستشرق الفرنسي لاروك لحياة المرأة في قصر الإمام المهدي (صاحب المواهب)، وهو أمر مبالغ فيه، حيث يقول: "ومن الأمارات التي تدل على عظمة هذا العاهل وقوة سلطانه هو العدد الكبير من النساء اللاتي يعيلهن، ويُقال إن في قصره نحو ستمائة أو سبعمائة امرأة يعشن في سرايا خاصة بهن وهن من جنسيات مختلفة، ولكن يؤكد بعض العارفين أن أكثرهن من الشركسيات المشهورات بجمالهن، وهناك أيضاً عدد من النساء العربيات وهن شدييدات البياض"^(٨٨).

شعوبهم ويحبونها ويعملون كل ما في استطاعتهم لحمايتها من أنفسها ويبدلون كل جهد لوقف أي تغيير مغري لها ومضر بها وإنما سبب ذلك هو الخبير الغربي، إذ أن كل ما يسعى إليه هو البحث عن البترول أو الذهب أو المعرفة أو التنقيب عن الآثار وولاؤه الحقيقي لأولئك الذين أرسلوه من خارج البلاد فيأتي إليها ليأخذ منها ما يستطيع أخذه ولا يقدّر عادة الضرر الذي يسببه"^(٧٣).

ثالثاً: النظرة للمرأة والتعليم

تُصور كل من فرياستارك (Freya Stark)^(٧٤)، وايفاهوك (Eva Hoeck)^(٧٥،٧٦)، وكلودي فايان (Claudie Fayein)^(٧٧) المرأة اليمنية^(٧٨) في حالة مُزربة من الجهل، ويُفسّر ذلك بترسخ عدد من العادات الاجتماعية التي تمنع البنت اليمنية من تعلم القراءة والكتابة أو الالتحاق بالمدارس التي كانت نادرة في معظم مناطق اليمن في منتصف القرن الماضي^(٧٩).

تسرد الطبيبة الفرنسية كلودي فايان^(٨٠) المصاعب الكثيرة التي واجهتها حينما أرادت أن تساعد الفتاتين (شريفة وأختها لطيفة) اللتين قدمتا إلى "صنعاء" بعد أن فقدتا والديهما في القرية على التعليم^(٨١). وفي أحد شوارع مدينة "تعز" التقت فايان بعدد من الصبيان والبنات الصغار، ولكي تقرّبهم منها سمحت لهم باستخدام معدات الرسم التي بحوزتها، وتقول: "بدأت بالفتى؛ فالرجل هنا هو الأول دائماً ثم أردت أن أقرر الورق على الفتيات؛ يالها من فضيحة! لقد شعر الصبي بالإهانة، فرمقني بنظرة قاسية واستسلمت الصغيرة في انكسار وتركت الورق، ولكني رتبت الأمر بالطريقة الغربية وأعطيت الفتيات دورهن.. وتهللت أسارير مريم واستبشرت بالانتصارات القادمة للمرأة ورسمت أصابع عشرًا للذراعين رسم خطوطهما الصبي"^(٨٢).

ولم يكن في "شباب حضر موت" إلا مدرسة واحدة للصبيان وتكتفي البنات الصغيرات بحفظ السور القصيرة من القرآن عند إحدى العجائز أو الفتيات، وفي أثناء إقامتها في "شباب" تعرفت ايفاهوك على بنت في غاية الذكاء تدعى (أمينة)، وطلبت من والدها أن يعهد بها إلى معلم خاص ليتولى تعليمها القراءة والكتابة فرد قائلاً: "لو تعلمت فتيتا القراءة والكتابة لسعين إلى

• مجموعة منهم تنظر بعين الاحتقار والتقليل من شأن العرب ونظراتهم كانت قصيرة إلى حد كبير، إذ اهتمت بالجانب الشكلي والتركيز على أثر العامل الاقتصادي، فالمظهر العام المتمثل في عدم الاهتمام باللبس مع ضعف الدخل العام الذي أدى بدوره أيضاً إلى شحة واضحة في المأكّل وأماكن الإقامة وعدم الاهتمام بترتيبها ونظافتها، مما أدى إلى تدهور الجوانب الصحية وقلة الاهتمام بالتعليم والثقافة وانحسارهما في مراكز المدن غالباً ومناطق محددة وتقتصر على فئات بعينها، وحرمان معظم النساء من التعليم، كل ذلك جعل المستشرقين ينظرون بعين يشوبها التقليل من شأن العرب ومعاملاتهم.

• مجموعة أخرى تنظر إلى عرب جنوب الجزيرة العربية بأنهم شعب يمتلك ثروة طائلة ومصادر دخل متعددة، إلا أنه لم يستطيعوا استثمارها أو التصرف فيها بسبب التخلف والجهل ومرد ذلك إلى الأنظمة الاستبدادية التي تحكمهم ومن مصلحتها الإبقاء على الجهل والحرمان من التعليم.

• مجموعة من المستشرقين هدفهم الأساس هو العمل الاستخباراتي الذي تم إيفادهم لأجله بهدف جمع عدد من المعلومات الاقتصادية والاجتماعية التي تتعلق بسكان هذه المناطق، وربما سعت بعض الدول التي ابتغتهم لوضع أهداف شكلية أخرى مثل البحوث والدراسات العلمية، إلا أنها لم تكن الأساس فكان الرحالة يدونون ملاحظات شتى في غير تخصصاتهم، وقد جاء على لسان بعضهم ذكر الأسباب في بعض مذكراتهم كما هو عند ابتعاث فان در ميولن من قبل مملكة هولندا لمعرفة أرض الحضارة الذين كان لهم أثر كبير في موطن هجرتهم.

ومع كل هذا إلا أن مذكرات الكتاب الكلاسيكيين وثقت الكثير من المعلومات في مختلف العلوم، وتعتبر من أهم مصادر دراسة التاريخ، فكثير مما تم توثيقه قد تغير أو اختفى بشكل نهائي، كما أن معظم العادات التي تم توثيقها قد أصابها ما أصابها من التحول والتغيير وربما يعود السبب في ذلك إلى الاختلاط والانفتاح مع تأثير وسائل الإعلام والتواصل لا سيما في وقتنا الحاضر وأصبح ما تبقى منها عرضة للاندثار بشكل نهائي.

ويُعقَّبُ لاروك في وصف الزينة التي يستخدمونها النساء اليمنيات فيقول: "ويضع أكثر نساء هذه البلاد حلقة ذهبية في أنفهن، وقد ثقت خياشيمهن بسبب هذه الزينة، وعلاوة على ذلك أنهن يضعن الأساور في معصمهن وذراعهن والخلخال في رجلهن وأكثر هذه الحلبي من الفضة وهي من الذهب عن الثريّات، وهن مُعطَّرات دائماً وتفوح منهن روائح العطورات القوية. ومن عاداتهن أن يُكحلن عيونهن بالسَّوَاد، وأن يدهن أيديهن وأرجلهن بمادة تكسب هذه الأعضاء الاحمرار الشديد وتجعل الأظافر حمراء أيضاً، وهذا نوع من التجميل في الجزيرة العربية؛ بل في الشرق عامة"^(٨٩).

يصف هانس هيلفريتس حالة النساء في مدينة "تريم" كما جاء في كتابه (شيكاجو الصحراء) يرثي الحالة المزرية التي تعيشها المرأة في هذه المدينة قائلاً: "إن حياة النساء هنا ليست سهلة؛ فهن مستبعدات كلياً من الحياة الاجتماعية والحياة العامة ويقضين كل وقتهم داخل الحريم ولا يحق لهن المشاركة في حفلات الرجال، وإذا غامرت احداهن وخرجت إلى الشارع وهذا ما يحدث نادراً تضع على وجهها حجاباً أسوداً سميكاً به ثقبين للعينين، ومن غير اللائق أن تسافر المرأة أو أن تدخل مسجداً، فهذا لا يجوز إلا للرجال"^(٩٠).

خاتمة

مثَّلت كتابات الرحالة الأجانب إلى شبه الجزيرة العربية عموداً مهماً من أعمدة المصادر التي يستند عليها المؤرخ في كتابة مادته، ورغم تباين الكتابات واختلاف وجهات النظر إلا أن بعض الكتاب استطاعوا نقل صورة حقيقية للأوضاع التي شاهدها في المناطق التي قاموا بزيارتها. ومن خلال كتابات المستشرقين الأجانب ونظراتهم لعرب جنوب شبه الجزيرة العربية نرى تباين نظراتهم واختلافها تبعاً لثقافتهم حيناً؛ وللمهام التي أوكلوا بها خصوصاً إذا ارتبطت بجانب عسكري أو سياسي أو بناء على قدرتهم الذاتية في التغلغل في المجتمع العربي ومعرفة أسراره، فكانت على النحو الآتي:

الإحالات المرجعية:

Berlin, (1990).; Hans Helfritz. *Le Pays sans ombre: au royaume de Saba: Yemen et Hadramaout*, traduit par J, - p. de Dadelsen, Albin Michel, Paris, (1936) **كتاب اليمن من الباب الخلفي**, تعريب: خيرى حماد، دار العودة بيروت، (١٩٦١).

(٢٢) هانس هيلفريتس. **قادني الفضول حول العالم، رحلة موسيقية مصورة لاقتفاء الأثر**، سفارة جمهورية ألمانيا الاتحادية، صنعاء، معهد الآثار الألماني، قسم الشرق، فرع صنعاء، بمشاركة متحف برلين للموروث الشعبي، متاحف برلين الحكومية. (٢٠٠٧)، ص ٣٣، ١٠٦.

(٢٣) هانس هيلفريتس. **المرجع السابق**، (٢٠٠٧)، ص ٤١.

(٢٤) هانس هيلفريتس. **المرجع السابق**، (٢٠٠٧)، ص ١٠٦.

(٢٥) هانس هيلفريتس. **المرجع السابق**، (٢٠٠٧)، ص ١-١٣٧؛ هانس هيلفريتس، **المرجع السابق**، (٢٠٠٧)، ص ٥-٦٨؛ باحاج، عبد الله سعيد.

حضر موت في المؤلفات العربية والأجنبية، بحث في تطور المعرفة الجغرافية والتاريخية خلال خمسة وثلاثين قرناً (١٥٠٠ ق.م - ٢٠٠٤م)، طبعة، مكتبة الدراسات الفكرية والنقدية، (د، م، طبع)، (٢٠٠٤)، ص ٨٦، ٨٥.

(٢٦) هانس هيلفريتس. **المرجع السابق**، (٢٠٠٧).

(٢٧) هانس هيلفريتس. **المرجع السابق**، (٢٠٠٧)، ص ١١٣-١٢٤.

(٢٨) آلان فاليارس. **رحلتي إلى شواطئ عدن وحضرموت، (١) على شاطئ المعلا**، سلسلة دراسات كل شهرين، عدد ٤٠، ترجمة ونشر: المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، سورية، (٢٠١١)، ص ٨.

(٢٩) آلان فاليارس. **المرجع السابق**، (٢٠١١)، ص ٨.

(٣٠) ليلس انجرامز. **أيام في حضرموت، أول أوروبيين اتخذوا من حضرموت وطناً لهم**، ترجمة: عبد الله إبراهيم السقاف، المركز الثقافي البريطاني، صنعاء، وزارة الثقافة، صنعاء، (٢٠١٠)، ص ١٣.

(٣١) فان در ميولن. **رحلة في جنوب شبه الجزيرة العربية**، ترجمة وتقديم وتعليق: محمد سعيد القدال، طبعة، كلية الآداب، جامعة عدن، (١٩٩٩)، ص ١٦.

(٣٢) ليلس انجرامز. **المرجع السابق**، (٢٠١٠)، ص ٣٧.

(٣٣) ليلس انجرامز. **المرجع السابق**، (٢٠١٠)، ص ٣١.

(٣٤) يشير بهذا إلى السيد أبوبكر بن شيخ الكاف، الشخصية الاجتماعية السياسية الثرية المعروفة التي كان لها أثراً كبيراً في تاريخ "حضرموت" الحديث.

(٣٥) فان در ميولن. **المرجع السابق**، (١٩٩٩)، ص ١٧.

(٣٦) فان در ميولن (١٩٩٩). **المرجع السابق**، (١٩٩٩)، ص ١٧.

(٣٧) معراج نواب مرزا؛ ومحمد محمود السرياني. **دوافع رحلة هورخرونيه وقيمتها العلمية بوصفها مصدراً من مصادر تاريخ شبه الجزيرة العربية**، بحث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، الرياض، ٢٠٠٠م (١٤٢٤)، ص ٦٠٦-٦٣٧.

(٣٨) معراج نواب مرزا؛ ومحمد محمود السرياني. **المرجع السابق**، ص ٦٠٦، ٦١٠.

(٣٩) محمد الشيعبي. **رحلة العالم الألماني (أولريخ زيت سن) إلى اليمن وآثارها في إرساء قواعد علم (السبئيات) اليمنية، في أواخر القرن التاسع عشر**، مجلة الاكليل، عددان ٣١، ٣٢، وزارة الثقافة، صنعاء، (٢٠٠٨)، ص ١٧٥-١٨٩.

(٤٠) محمد الشيعبي. **المرجع السابق**، (٢٠٠٨)، ص ١٨٥-١٨٨، والمقصود بالمخطوطات القديمة النقوش المسندية التي جلبها من المواقع الأثرية.

(١) عبد الله بن عبد الرحمن العبد الجبار. **نظرة الكتاب الكلاسيكيين لتجارة الجزيرة العربية**، مجلة الاكليل، عدد ٤٠، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠١٢م، ص ١٠٧-١٢١.

(2) Casson, Lionel (1989). *The Periplus Maris Erythraei*, text With Introduction, Translation, and Commentary, Published by Princeton University Press, Pp. 11, 12.

(٣) مؤلف مجهول (٢٠٠٤). **الطواف في البحر الأحمر**، ترجمة وتعليق: حسين علي الحبيشي، نجيب عبد الرحمن شميري، طبعة ١، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، عدن، ص ٢٨.

(٤) عبد الله بن عبد الرحمن العبد الجبار (٢٠١٢). **المرجع السابق**، ص ١١٢؛ Pliny (1963). *Natural History*, trans, by: H, Rackham. Cambridge, P. 12.

(5) Morley, Neville (2007). *Trade in Classical Antiquity*, Cambridge: Cambridge University press, Pp. 26- 34.

(٦) مسعود عمشوش. **صورة اليمن في كتابات الغربيين، دراسات في تمثيل التخر**، إصدارات جامعة عدن، (٢٠١٠)، ص ٩.

(٧) جاكليين بيرين. **اكتشاف جزيرة العرب، خمسة قرون من المغامرة والعلم**، ترجمة: قدرى قلعي، تقديم: حمد الجاسر، دار الكاتب العربي، بيروت (د.ت)، ص ٦٠، ٦١.

(٨) لا يوجد ملك يحكم تلك المنطقة، لكنه يُعرف بالشيخ.

(٩) جاكليين بيرين (د.ت). **المرجع السابق**، ص ٦١.

(١٠) جاكليين بيرين (د.ت). **المرجع السابق**، ص ٦١، ٦٢.

(١١) جاكليين بيرين (د.ت). **المرجع السابق**، ص ٦٢.

(١٢) جاكليين بيرين (د.ت). **المرجع السابق**، ص ٧٩.

(13) Carsten Niebuhr (. *Beschreibung von Arabien, Kopenhagen, 1772* (Nachdruck: Graz, (1968).

(١٤) جاكليين بيرين. **المرجع السابق**، (د.ت)، ص ١٦٠.

(١٥) جاكليين بيرين. **المرجع السابق**، (د.ت)، ص ١٤٨.

(١٦) علوي عبد الله طاهر. **الحالتان التعليمية والثقافية في عدن خلال فترة تبعيةها للهند**، مجلة الاكليل، عدد ١، السنة ٢، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، (١٩٨٢)، ص ١٠٠؛ راجع أيضاً: Harold Jacob (1923). *Kings of Arabia, Chapter 14 entitled "the Eye of Yemen in 1923"*.

(١٧) هارولد، ف، جاكوب. **ملوك شبه الجزيرة العربية**، ترجمة: أحمد المضواحي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار العودة، بيروت، (١٩٨٣)، ص ٣٥٩.

(١٨) دومنجو باديا. **رحلة أسباني في الجزيرة العربية، رحلة دومنجو باديا (علي باي العباسي) إلى مكة المكرمة سنة ١٢٢١هـ/ ١٨٠٧م**، ترجمة وتعليق: د. صالح بن محمد السنيدي، إصدارات دار الملك عبد العزيز ٢١٧، (١٤٢٩)، الرياض.

(١٩) دومنجو، باديا. **المرجع السابق**، (١٤٢٩)، ص ٢٥٥-٢٤٤.

(٢٠) رينزو مانزونو. **اليمن، رحلة إلى صنعاء ١٨٧٧-١٨٧٨**، ترجمة: ماسيمو خير الله، وحدة التراث الثقافي، الصندوق الاجتماعي للتنمية، صنعاء، (٢٠١١)، ص ٣٤.

(٢١) للرحالة الألماني هانس هيلفريتس ثلاثة كتب صدرت بالفرنسية هي: Hans Helfritz. *Unter der Sonne des Orients*, Berlin, (1931).; Hans Helfritz. *Neugier trieb mich um die Welt'*,

- (٦٧) جاكولين بيرين. **المرجع السابق**، ص ١٥٢.
- (٦٨) جان ريمون. **التذكرة في أصل الوهابيين ودولتهم**، ترجمة وتعليق: د. محمد خير البقاعي، راجعه وعلق عليه: ابو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، كتاب الدارة ه، اصدارات الدارة- ١٥٦، الرياض، (١٤٢٤).
- (69) Jean Raymond. **Mémoire Sur L'origine des Wahabys**, Sur la Nissancce de leur Puissance et sur l' influence don't Ils Jouissent Commenation, Rapport 1806, Document Inédit Extrait des Archeves du Minist- Re des Affaires Étrang-Res de France, Préface de M. Édouard Driault, Imprimé Par L'Imprimerie de L'Institut Frncais D'ar-Chéologie Orientale Pour La Société Royale de Géo-Graphie D'Égypte, (1925).
- (٧٠) جان ريمون. **المرجع السابق**، ص ٥٣.
- (71) Sheba's - مسعود عمشوش. **المرجع السابق**، (٢٠١٢)، ص ٤٦، (71) Daughters : Being a record of travel in Southern Arabia, Pp. 353-354.
- (٧٢) أحمد قايد الصايدي. **المرجع السابق**، ص ٨٠.
- (٧٣) مسعود عمشوش. **المرجع السابق**، (٢٠٠٤)، ص ٦١.
- (74) Freya Stark. **The Southern Gates of Arabia: a journey in Hadhramaut**, ed. John Murray, London. (1936).
- (٧٥) ايفا هوك. **سنوات في اليمن وحضرموت**، تعريب: خيري حماد، منشورات دار الطليعة، بيروت، (١٩٦٢).
- (٧٦) قام د. مسعود عمشوش بترجمة لكتابتها: **شاهدت اليمن من دون حجاب، طبية بين الغرب والشرق ١٩٤٨-١٩٥٠م**، صدر عن دار جامعة عدن للطباعة والنشر، عدن، ٢٠١٢م.
- (77) Claudie Fayein. **Une Française Médecin Au Yémen**, Ministère de la culture et du tourisme, Sana'a, (2004). كلودي فاين. **كنت طبيبة في اليمن**، تعريب: محسن أحمد العيني، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، (٢٠٠٤).
- (٧٨) صدر للمؤلفة كلودي فاين. **حياة النساء في اليمن، حكايات صديقتي فرانس هوس**، ترجمة: بشير زندال، دار جامعة ذمار للطباعة والنشر، ذمار اليمن، (٢٠٠٨).
- (٧٩) مسعود عمشوش. **المرجع السابق**، (٢٠١٠)، ص ١٠.
- (٨٠) كلودي فاين. **كنت طبيبة في اليمن**، تعريب: محسن أحمد العيني، اصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، (٢٠٠٤)، ص ١٥٩.
- (٨١) مسعود عمشوش. **المرجع السابق**، (٢٠١٠)، ص ١٠.
- (٨٢) كلودي فاين. **المرجع السابق**، (٢٠١٠)، ص ٦٧؛ مسعود عمشوش. **المرجع السابق**، (٢٠١٠)، ص ١١.
- (٨٣) ايفا هوك. **المرجع السابق**، (١٩٦٢)، ص ١٩٨؛ مسعود عمشوش. **المرجع السابق**، (٢٠١٠)، ص ١١.
- (٨٤) مسعود عمشوش. **حضرموت في كتابات فريا ستارك**، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، عدن، (٢٠٠٤)، ص ٤٢-٥٢.
- (٨٥) دورين انجرامز. **أيامي في الجزيرة العربية، حضرموت وجنوب الجزيرة ١٩٣٤-١٩٤٤م**، ترجمة: نجيب سعيد باوزير، طبعة ١، مكتبة الصالحية للنشر والتوزيع، غيل باوزير، حضرموت، (٢٠١١)، ص ٦٦.
- (٨٦) مسعود عمشوش. **المرجع السابق**، (٢٠٠٤)، ص ٤٦، ٤٥.
- (٨٧) مسعود عمشوش. **المرجع السابق**، (٢٠٠٤)، ص ٥١.
- (٨٨) جان دي لاروك. **المرجع السابق**، (١٩٨٤)، ص ٧٧.
- (٨٩) جان دي لاروك. **المرجع السابق**، (١٩٨٤)، ص ٧٧.
- (٩٠) مسعود عمشوش. **المرجع السابق**، (٢٠١٠)، ص ٥٣.
- (٤١) سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمي. **القيمة العلمية لجولات القنصل البريطاني س. ب. مايلز في سلطنة عمان**، بحوث ندوة الرحلات الى شبه الجزيرة العربية، جزء ٢، الرياض، ٢٠٠٠م، (١٤٢٤)، ص ٧١١-٧٨٠.
- (٤٢) سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمي. **المرجع السابق**، ص ٧٤٣، ٧٤٥.
- (٤٣) س. ب. مايلز. **الخليج بلدانه وقبائله**، ترجمة: محمد أمين عبدالله، وزارة التراث القومي، عمان، (د. ت.).
- (٤٤) علي محمد الزبيدي. **أهمية مدونات الفرنسي دوي بوصفها مصدرًا لتاريخ المملكة العربية السعودية**، بحوث ندوة الرحلات الى شبه الجزيرة العربية، جزء ٢، الرياض، ٢٠٠٠م، (١٤٢٤)، ص ٨٠٧-٨٤٣.
- (٤٥) علي محمد الزبيدي. **المرجع السابق**، ص ٨٣٥.
- (٤٦) علي محمد الزبيدي. **المرجع السابق**، ص ٨٣٦، ٨٣٧.
- (٤٧) مسعود عمشوش. **المستكشف هاري سانت جون فيليب ورحلته الى حضرموت**، إصدارات جامعة عدن، (٢٠١٢)، ص ٥.
- (٤٨) عبد الله بن عبد الرحمن العبد الجبار. **دراسة تحليلية لكتاب (مرتفعات جزيرة العرب) لجون فليبي**، بحوث ندوة الرحلات الى شبه الجزيرة العربية، جزء ٢، الرياض، (١٤٣٤)، ص ٩٣١-٩٧٦.
- (٤٩) جاكولين بيرين. **المرجع السابق**، ص ١٥٧.
- (٥٠) هارولد جاكوب. **المرجع السابق**، ص ٣٩٧-٤٠٠.
- (٥١) الباحث هنا هو الدكتور مسعود عمشوش.
- (٥٢) مسعود عمشوش. **المرجع السابق**، (٢٠١٠)، ص ٩.
- (٥٣) جاكولين بيرين. **المرجع السابق**، ص ١٤٩.
- (٥٤) جاكولين بيرين. **المرجع السابق**، ص ٢١٢.
- (٥٥) مسعود عمشوش. **صورة اليمن في كتابات الغربيين، دراسات تمثيل الآخر**، دار جامعة عدن، (٢٠١٠)، ص ٦٠.
- (٥٦) أحمد قايد الصايدي. **الرحال الألماني هرمن بورخاردت**، مجلة الاكليل، عددان ٣٧، ٣٨، وزارة الثقافة، صنعاء، (٢٠١٠)، ص ٧٤-١٠٠.
- (٥٧) أحمد قايد الصايدي. **المرجع السابق**، ص ٧٨-٨٠.
- (٥٨) هارولد، ف. جاكوب. **ملوك شبه الجزيرة العربية**، ترجمة: أحمد المضواحي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار العودة، بيروت، (١٩٨٣)، ص ٤٠١.
- (٥٩) هارولد، ف. جاكوب. **المرجع السابق**، ص ٤٠٩.
- (٦٠) ويندل فيليبس. **كنوز مدينة بلقيس، قصة اكتشاف مدينة سبأ الأثرية في اليمن**، تعريب: عمر الديراوي، طبعة ٢، دار الكلمة، صنعاء، (د. ت.)، ص ١٤.
- (٦١) رينزو مانزوني. **المرجع السابق**، ص ٣٤.
- (٦٢) آلان فاليارس. **المرجع السابق**، ص ١٤، ١٥.
- (٦٣) مسعود عمشوش. **المرجع السابق**، (٢٠١٢)، ص ٨١.
- (64) Jean de la Roque. **Voyage de l'Arabie Heureuse**, Traduction: Mounir Arbach, Intrduction: Tomislav Klaric, Centre Francais d'archeologie et de sciences sociales de Sanaa, (2004).
- (٦٥) جان دي لاروك. أول رحلة فرنسية الى العربية السعيدة، (١٧٠٨-١٧١١م، ١٧١١-١٧١٣م)، ترجمة: منير عريش، تقديم: توميسلاف كلاريك، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء، اصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، (٢٠٠٤)، Jean de la Roque. (2004).
- (٦٦) جان دي لاروك. **المرجع السابق**، (٢٠٠٤)، ص ١٥٧-١٦٦، جان دي لاروك. **وفد فرنسي يزور الإمام المهدي (صاحب المواهب) سنة ١٧١٢م/ ١١٢٤هـ**، ترجمة: يوسف شلحد، مجلة دراسات يمنية، العدد ١٨، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، (١٩٨٤)، ص ٧٤.

قضية السفينة الفرنسية "أمير" التي هربت (قراصنة) ريفيين من عقاب المخزن سنة ١٨٩٨م قراءة من خلال وثائق مغربية

د. فريد المساوي

دكتوراه في التاريخ المعاصر
جامعة عبد الملك السعدي
تطوان – المملكة المغربية



ملخص

في سنة ١٨٩٨م، بينما كان المخزن يستعد لإنزال العقاب بقبيلة بوقية الريفية الساحلية بسبب ما كانت تقتطفه من اعتراضات للقوارب الأجنبية، واحتجازها لبعض الرهائن الأوربيين، وما كان المخزن يؤديه بسبب ذلك من تعويضات باهظة. وفي اللحظة التي خطط المخزن ليجهاز فيها على القبيلة ويوقع بها، رست سفينة فرنسية على ساحل جزيرة بادس المحتلة لتحمل عدد من أهالي القبيلة المذكورة مع ذويهم لتهريبهم بعيداً، وتحول دون تعرضهم للعقاب، وبهذا الحدث تأكد ما كان يروج من تورط فرنسا عن طريق عملائها في أحداث الريف. ولكن رغم كل الاحتجاجات التي تقدم بها المخزن فإن فرنسا استطاعت بداهتها وتفوقها الدبلوماسي والعسكري أن تدفع عنها جميع التهم، وتصبح هي الشاكية مما تعرضت له من إهانة بكون تحركات المخزن جاءت كرد فعل على جهودها في مسألة إطلاق سراح الرهائن وإيقاف العمليات (القرصنة). فما حقيقة هذه القضية؟ وما مدى قوة حجج فرنسا لتبرير تدخلاتها بالمنطقة؟

كلمات مفتاحية:

فرنسا؛ المغرب؛ الريف؛ القرصنة البحرية؛ التدخل الاستعماري

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٧ ديسمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢١ يناير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.446796

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فريد المساوي، "قضية السفينة الفرنسية "أمير" التي هربت (قراصنة) ريفيين من عقاب المخزن سنة ١٨٩٨م: قراءة من خلال وثائق مغربية". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد السابعون، أغسطس ٢٠٢٥. ص ١٤٥ - ١٦٣.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: faride87@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

حين حل جنود المخزن بالريف في يونيو ١٨٩٨ لإنزال العقاب بقبيلة بقبوة بسبب ما كانت تنفذه من (قرصنة) ضد السفن الأوروبية العابرة للبحر المتوسط، وما كان يتعرض له المخزن بسبب ذلك من ضغوطات لأجل دفع التعويضات للدول الأوروبية، وكذلك لقبضهم مجموعة من المحتجزين الأوروبيين ورفضهم إطلاق سراحهم حتى يطلق سراح إخوانهم الذين كانوا في السجن بطنجة وآخرون لدى الإسبان بسجن جزيرة بادس. وفي لحظة كان فيها الجند ومتطوعي القبائل يرتبون صفوفهم ويتهيئون للهجوم على القبيلة، قدمت السفينة الفرنسية المسماة أمير (Prince) إلى جزيرة بادس، حيث حملت الكثير من الأسر البقبوية وغادرت بها المنطقة. وكان أول مكان حاولت إنزالهم فيه هو مرسى تطوان، فرفض عاملها السماح لهم بالنزول، ثم أبحرت بهم إلى طنجة فلقيت هناك نفس الموقف، سواء من ممثلي المخزن أو من رئيس السلك الدبلوماسي وهو القنصل الإيطالي آنذاك. وهناك إشارات إلى أنه حاول كذلك إنزالهم بمدينة سبتة المحتلة فرفض حاكمها، فعدت بهم السفينة شرقا حتى أنزلتهم بمنطقة من التراب الجزائري قريبا من مدينة وهران.

ولما بلغ الأمر إلى علم المخزن احتج على فرنسا احتجاجا شديدا، وطالب بإعادة أولئك البقبويين إلى قبيلتهم باعتبارهم في حكم سجناء المخزن، لأنهم مسؤولون على الكثير من أعمال القرصنة وعواقبها الوخيمة مثل التعويضات الباهظة التي كان يؤديها، وعلى احتجاج الأوروبيين عندهم وإصرارهم على عدم إطلاق سراحهم لمدة طويلة، وأن السفينة (أمير) كان الأولى ألا تقترب منهم، أو أن تسلمهم للمخزن لمعاقبتهم، ولو مراعاة لحسن العلاقات بين الجانبين. وطالب المخزن بالتحقق في مكان ركوبهم بالضبط هل من الجزيرة بالفعل أم من الساحل الريفي المقابل لها، فإن كان المكان هو الجزيرة فينبغي رفع الاحتجاج إلى الإسبان أيضا، والمطالبة بمحاكمة حاكم الجزيرة لسماحه بعبور أولئك الرعايا إليها وركوبهم منها.

فهل يمكن اعتبار هذا التدخل السافر لفرنسا دليلا على كونها وراء ما كان يحدث بالريف مما أطلق عليه بالقرصنة الريفية؟ خاصة وأن ذلك هو ما تشير إليه الكثير من الأدلة الأخرى التي تتمحور حول تحركات عملائها ومحبيها، وانكشاف الكثير من الدسائس والمؤامرات التي كانوا يحيكونها بالمنطقة. وكيف كانت ردود فرنسا على احتجاجات المخزن بعد انكشاف تدخلها من خلال قضية الباخرة أمير؟

أولاً: نبذة تاريخية عن ريف آخر القرن التاسع عشر

١/١- التدخل الأوروبي (التهريب والفوضى)

قام المخزن الحسني بإجراءات لمحاربة التهريب والتسرب الأجنبي على السواحل الشمالية، وعمل على تقوية الحراسة الساحلية ومراقبة تجارة التموين مع المدن والجزر المحتلة والتحكم فيها^(١)، وهذا ما أدى بإسبانيا إلى شن حملة لزعزعة استقرار المنطقة، فبدأت تشجع تجارة التهريب التي انخرط فيها بعض الريفيين، وخاصة من قبيلتي بقبوة وبني يطف. ولما حاول القائد زيان الورياغلي إيقافهم اتهمته إسبانيا بالإخلال بحسن الجوار وقدمت ضده شكوى إلى المخزن، إلا أن الريفيون كانوا قد سبقوها بشكواهم بتشجيع إسبانيا لحركة التهريب بالريف^(٢).

ورغم المحاولات التي قام بها المخزن للحد من تجارة التهريب إلا أنها استمرت وبشكل عشوائي، وقد تهادى في ممارستها على وجه الخصوص بعض أهالي بقبوة، ويرى جرمان عياش أن عددهم "لا يتجاوز ١٢ رجلاً، وهؤلاء هم الذين كانوا يتقاسمون احتكار هذه التجارة"^(٣). وهؤلاء ينتمون إلى ثلث إزمورن في الجهة الشرقية من بقبوة، وما دفعهم بالخصوص إلى الانخراط في هذه التجارة هو طبيعة أرض بقبوة القاحلة وانفتاح قبيلتهم على شريط ساحلي طويل يبدأ من خليج الحسيمة إلى ما وراء جزيرة بادس، ثم بسبب احتكار تجارة التموين مع جزيرة نكور من طرف أهالي أيت ورياغل ومع جزيرة بادس من طرف أيت يطف^(٤).

أما ما دفع التجار الأجانب إلى تجارة التهريب فهو الرغبة "في تجنب النقاط الجمركية التي سمح المخزن بتفتيحها على الساحل الريفي (ديوانة مليلية، بادس

الإسبانية، حيث قبضوا منهم مسبقا ثمن مجموعة من البنادق، وهو مبلغ ٥٠٠٠ ريال إسبانية، على أن يجلبوها لهم من إسبانيا، إلا أنهم لم يوفوا بوعدهم ولم يردوا الثمن^(١٢)، وكذلك بسبب قتل أحد أغنياء القبيلة الذي كان يلقب ب (بوسنان) بجزيرة النكور، وكان هذا الثري يتاجر في المواشي مع إسبان الجزيرة إلى أن كسب ثروة كبيرة^(١٣)، فتم اغتياله يوما بالجزيرة في ظروف غامضة، ولم تتدخل إسبانيا لإنصاف أهله ولا للاقتصاص من قاتليه، ولهذا تعاهد تجار وأهالي بقوة على الانتقام لإخوتهم والأخذ بالثأر لهم.

وتجلت أولى بوادر هذا التحول في اعتراض أهالي بقوة طريق السفينة الإسبانية Miguel y Teresa بخليج الحسيمة سنة ١٨٩١م، ومن هذه الحادثة ستبدأ سلسلة من الأعمال (القرصنية) والغارات البحرية، كما سنلاحظ أن الغارات لن تقتصر على السفن الإسبانية فقط، بل ستستهدف الكثير من السفن الأوروبية من مختلف الجنسيات، فبعد أشهر من مهاجمة (مكيل ! تريزا) وبنفس المكان أيضا، تمت مهاجمة سفينة إسبانية أخرى تسمى san Francisco. وفي سنة ١٨٩٣م تم احتجاز سفينة إسبانية صغيرة من طرف قبيلة بقوة كانت تقوم بتهريب الأسلحة^(١٤). وفي السنة الموالية، أي ١٨٩٤م استهدفت بالريف الباخرة الفرنسية san Vicente^(١٥)، كما تم تنفيذ هجوم آخر بخليج الحسيمة استهدف سفينة Mayer البريطانية^(١٦).

وعرفت سنة ١٨٩٥م أكبر عدد من الغارات البحرية مقارنة بالسنوات الأخرى، فقد هوجمت باخرة lentulo الإيطالية، وبعدها Conchita الفرنسية، ثم anna الهولندية^(١٧)، ثم بعدها تم اعتراض طريق سفينة gabaire الإيطالية، ثم سفينة سويدية، وبعدها joven Enrique البريطانية. فبدأت تكثر شكايات الأجانب على المخزن^(١٨)، ففي نفس السنة، وبعد الهجوم البحري الذي استهدف السفينة البريطانية Virgen de los angeles^(١٩)، ارتأى المخزن تعيين إحدى سفنه الكبيرة للقيام بمهمة حراسة السواحل الريفية، إلا أن هذه المسألة اعترضتها الكثير من المصاعب والمشاكل.

والنكور) للتملص من أداء المستحقات من الأعشار^(٢٠). على كل حال، فقد نشطت هذه التجارة المحظورة بهذه الشواطئ البعيدة عن عيون المخزن وزاد من نشاطها ضعف الحراسة الساحلية، فأصبحت المراكب الأجنبية ترتاد هذه الشواطئ حاملة للأسلحة وأنواع أخرى من السلع كالبترول والشموع والنسيج والبنادق والرصاص^(٢١)، بينما يشتري أصحابها بعض المنتجات الفلاحية المحلية كالبيض والثيران وغيرها، فأثر ذلك بشكل سلبي على مداخل الجمارك، إضافة إلى النقص الذي أحدثته وجود جباة أوربيون إلى جانب الأمناء المغاربة يستخلصون لسد ديونهم^(٢٢)، إذ جاء في إحدى الرسائل المخزنية ما يلي: "وبعد فينهي لسيادتكم أنا منذ حللنا بهذه البلدة ونحن نسمع من بعض التجار أن المراكب تحمل السلع من جبل طارق وتضعها بحجرة النكور وبادس وتحمل من الموسوقات كالبيض والثيران وغيرها شتى، ولم يتحقق لدينا شيء يجب إعلامكم به مع أن تأثير ذلك ظهر في الديوانة لقلّة الداخل من المعشرات، والآن قد كشف لنا الغيب بسبب ورود بابور من جبل طارق حاملا للسلع اسمه طارق وضع بحجرة النكور خمسمائة صندوق من الجاز ومن فرود الكتان ما لا ينحصر..."^(٢٣). وجاء في رسالة أخرى أن "أهل مرسى تقيت ومرسى بادس (...) اشتغلوا بإخراج الكنطربند (السلع المهربة) منها من غير نكير عليهم..."^(٢٤)، ومع مر الزمن أصبح المهريون الريفيون يسافرون ليأتوا بالسلع من إسبانيا بأنفسهم وخاصة الأسلحة التي كانوا يخرجونها مختبئة في سلع أخرى بعد تفكيك أجزائها^(٢٥)، وكل هذا لم يكن خافيا على المخزن، بل كان يعلم أن أسباب جميع مظاهر الفوضى التي عرفتها المنطقة كانت تسببها تلك التجارة المحظورة وأن "أصل كل علة من الكنطربند"^(٢٦) كما جاء في الوثيقة.

٢/١- (القرصنة) الريفيون

مع بداية التسعينيات من القرن ١٩، حدث تحول في العلاقة بين أهالي بقوة والإسبان الذين كانت تجمع بينهما تجارة التهريب على سواحل بقوة المهجورة منذ سنوات عدة، وسبب هذا التحول هو الغدر الذي تعرض له بعض البقيويين على يد مهريين من مدينة مألقة

إضافة إلى تحصيل الأموال الطائلة من فدية الأسرى الأوربيين. فما يستفاد من تلك الكتابات أنه قد تكونت آنذاك بالمنطقة طبقة ثرية اغتنت من تلك القرصنة^(٢٤)، في حين أننا نجد في وثائق مغربية أنه لما كان للبقريين إخوة محتجزين لدى الإسبان وآخرين بطنجة، فإنهم كانوا يعترضون المراكب الأوربية لاحتجاز الرهائن كي يبادلوهم بإخوانهم، ولكنهم كانوا "لا يمدون يدهم في شيء من الموسوق"^(٢٥). إلا أن تلك (القرصنة) جرت وراءها قضايا أخرى أعطت لها صدى أكثر ووقعا أصعب على العلاقات بين المخزن والأوربيين من جهة، وبين المخزن والريفيين من جهة أخرى، ومن هذه القضايا أزمة الأسرى والمحتجزين، والتعويضات التي كان يدفعها المخزن للدول على كل غارة بحرية.

٣/١- البقريون وفرنسا

لقد بات من المؤكد أن طائفة من قبيلة بقرية كانت لها علاقات بالمصالح القنصلية الفرنسية فيما بات يعرف بالحماية القنصلية. وإن كانت منطقة الريف هي أقل المناطق من ناحية تفشي الحميات الأجنبية مقارنة بالمناطق الأخرى، إلا أن هناك ريفيون استفادوا من الحماية القنصلية ببعض المدن كطنجة وتطوان وغيرهما، وقام الكثير من هؤلاء باقتراف أعمالا شنيعة بسبب الحماية التي كانت توفرها لهم قنصليات دولهم الحامية. ومن أمثلة ذلك قضية رجل ريفي اشتكى سنة ١٨٩٧م لدى القائد محمد السلاوي من ريفي آخر اعترض طريقه هو وغيره في بقرية و"كشطوه" أي صادروا منه كل ما يملك. وسبب تقديم شكايته بتطوان، هو أنه شاهد أحد أولئك اللصوص في المدينة. فأرسل القائد من يأتي به لمقابلة خصمه فامتنع، وكان مسلحا بمسدس، فاحتالوا عليه ونزعوه منه وقادوه إليه، فلما كانوا قادمين به إلى القائد تعرض لهم تونسي معروف من خدم قنصل فرنسا، فانتزعهم من يدهم وأهانهم وسبهم، كما سب من أرسلهم لإحضاره وكان ذلك بمحضر عدد من الناس^(٢٦).

ولما علم القائد بما حدث اتصل بالقنصل ليستفسر عن سبب هذا التعرض، فأجابته بأن ذلك الشخص كان قادما من بقرية، وأنه كان قد أعلم بقدمه وبأن لا

في سنة ١٨٩٦م هوجم مركب فرنسي ذات ثلاث صوار يسمى Prosper corue^(٢٧)، وتدخلت سفينة إشبيلية Sevilla الإسبانية في محاولة لإنقاذه، والتي تمكنت من تحرير جزء من طاقمه بعد معركة دامية مع الريفيين. وفي ٢٨ مارس ١٨٩٦ تم القبض على السفينة البريطانية san José. وفي سنة ١٨٩٧م (نهبت) سفينة فيدوشيا سالتادو fiducia saltado الإيطالية بخليج الحسيمة، وبعدها بأيام قليلة وبنفس المكان، استهدف أهل بقرية سفينة rosita faro البرتغالية^(٢٨).

وفي شتبر ١٨٩٨م، بينما كانت قوات المخزن مرابطة بالريف لمعاقبة بقرية على أعمالها (القرصنية)، اشتكى نائب الإنجليز إلى سلطان المغرب من حادث هجوم البقريين على "فلوكة نجليزية من ذوات القلاع قرب حجر النكور، كانت موقودة بزيت الكاز والملح من جبل طارق، وحاصروها بضرب البارود فتداركها هبوب الريح وتفلتت من يدهم، وتبعوها بضرب الرصاص..."^(٢٩). وفي ماي ١٩٠٥م اشتكت إسبانيا من مهاجمة بقرية لمركبها خوبن دولويس Joven Dolores الذي كان قادما بالملح من مرسى طريخة عليه السلام كذا عليه السلام إلى جزيرة النكور، فهاجمه زورق لبعض البقريين واستولوا عليه قبل أن تتدخل السفينة سيوداد دي مارون ciudad de marron لتتقذه، ولكنها وجدت أنهم نهبوا منه بعض الأشياء وقدر من المال^(٣٠).

وبعد حوالي ١٥ سنة من تنفيذ المخزن للحملة التأديبية المعروفة ضد قبيلة بقرية، والتي كانت بقيادة القائد محمد بوشتي بن البغداد، وبعد عودة الذين هربوا من بطش المخزن، نفذ أهالي بقرية هجوما على سفينة General concha الإسبانية، ويرى البعض أن ذلك جاء لإنقاذ شرف القبيلة بعد النكبة التي حلت بها، ولكن هناك من لا يدرج هذه العملية ضمن الأعمال القرصنية باعتبار أن الكونشا تعرضت لحادث ارتطام بالصخور بسبب الضباب الكثيف، فغادرها طاقمها بسبب عجزهم عم فكها من مكان ارتطامها وإعادتها إلى البحر.

هذه الحوادث هي التي شكلت ما سمي بالقرصنة الريفية، ومنفذوها وصفتهم الكتابات الأوربية بكونهم قرصنة معتدون، ينهبون السلع والأموال من المراكب،

الجزائر للدخول في خدمة العسكر الفرنسي قبل حدوث حالة من فروا على متن الباخرة أمير، مما يعني أن المسألة كانت ظاهرة شائعة.

ثانياً: موقع المخزن في القضية

١/٢- أضرار المخزن من التدخل الأوربي

كانت أضرار المخزن من التدخل الأوربي في الريف كثيرة ومتنوعة. فمن جهة أدى تفشي ظاهرة تجارة التهريب إلى تراجع مداخيل الجمارك، إذ نجد عدة رسائل لأمناء مليلية تشير إلى "قلة الدخل من المعشرات"^(٣٣). وكان هذا من أسباب ضعف المخزن سواء فيما يتعلق بالجند أو بعناصر الحراسة الساحلية والحدودية بسبب قلة التموين. وحين حاول المخزن القيام بمجموعة من الإجراءات لمنع التهريب والحد من آثاره في المنطقة، كان هناك مجموعة من التجار الذين يخدمون دولاً أوروبية وحصلوا منها على الحماية الفردية، أصروا على الاستمرار في هذه التجارة الممنوعة دون اكتراث لقرارات المخزن، وقد اشتهر من هؤلاء التاجر اليهودي إسحاق بيتتو، وهذا اليهودي من سكان الريف وكان محمي إسباني وفي خدمة البرتغال^(٣٤)، وحين أوقف المخزن بعض قواربه المحملة بالسلع تمشياً مع قراره بحظر الاتجار في سواحل المنطقة، تدخلت كل من إسبانيا والبرتغال معاً، "...وقد كتب نائب الصبنيول فيما ثقف لليهودي بتطوان (...). كما كتب نائب البرطقيز بما كتب بعض رعيته في سلعة أجنبية ثقت أيضاً طالبا التأمل في ذلك، وأجيب بل يتأمل هل لجانب المخزن مرسى مفتوحة بالريف وثقف على أحد من التجار حمل سلعته منها وإليها..."^(٣٥).

من جهة أخرى فإن توالي الهجمات على القوارب الأجنبية كلفت المخزن أداء تعويضات بمبالغ كبرى لمختلف الدول الأوروبية. هذا ما أشار إليه الحاجب أحمد بن موسى في رسالته إلى النائب الطريس حين قال له: "مند ظهر روجان فلانك أهل الريف في فتح أبواب الضرر العظيمة على جانب المخزن والرعية، وشكايات الأجانب تترادف على جانب المخزن بوقائع الهجوم على مراكبهم، والمطالبة بالمغارم التي لم تعهد ولم يسمع بمثلا..."^(٣٦). وكانت الدول الأوروبية في كل مرة تطالب

يعترض طريقه أحد، وهنا ربط المسألة بلا شك بما كانت تقوم به فرنسا من التفاوض بشأن إطلاق سراح الرهائن الأوروبيين الذين كانوا محتجزين لدى بقبوة. كما توجه التونسي المذكور إلى القائد السلاوي وعامله بكلام مهين: "وإن أنت قبضت أحدا منهم فالقنصل يقبضك ويسجنك، ويقول لك أن هذه الدعوى يوجهها لطنجة"^(٣٧). خاصة لما أرسل القائد بعض الحرس ليحرسوا أحد الأزقة بالقرب من دار القنصل لأن المتهم كان بداخله، فخرج التونسي وسبهم، وقال لهم أن من أرسلهم للحراسة سيقبضونه ويربطونه بالسلاسل^(٣٨). كان لهذه الحادثة المهينة وقع كبير على الحالة النفسية للقائد محمد السلاوي، لدرجة أنه جمع الأعيان وممثلي المخزن والتمس منهم إعفائه من الخدمة بسبب هذه المكابدة الصعبة التي لا طاقة له بها، وهم بدورهم ساءهم ذلك وأغاضهم، خاصة وأن ادعاء القنصل الفرنسي وأعوانه أنهم أعلموه مسبقاً بقدوم هذا البقبوي لا أساس له، وأن توجيه من وجههم لإحضاره إليه كان بهدف الاستماع إليه في قضية الشكوى التي قدمت به^(٣٩).

وفي سنة ١٨٩٨م حدث أن كانت مجموعة من البقبويين بتطوان، وفي ظروف مجهولة حدث شأن بينهم وبين بعض اليهود في الفدان^(٤٠)، وتطور الخلاف إلى عراك وفتنة، ولما أرسل القائد ادريس بن يعيش أعوان المخزن لإحضارهم هربوا إلى باب دار القنصل الفرنسي وأشهرروا أسلحتهم. وبعد ذلك عمل القنصل على تهريبهم حتى لا يقبض عليهم المخزن. يقول القائد في رسالته: "أقاموا فتنة كبيرة بالفدان هنا بتطوان مع اليهود، ووجهت أن نقبض عليهم فهربوا جميعاً إلى باب دار القنصل المذكور وبيدهم مكاحل (بنادق). وتأخرت عن قبضهم لئلا تقع فتنة كبيرة أخرى"^(٤١)، ولما سئل القائد القنصل في القضية وعده بالبحث فيها ثم يجيبه، ولكنه لم يجبه قبل أن ينتشر خبر إبعادهم عن المدينة، يقول القائد في رسالته: "ووجهت له وأعلمته بما فعلوا، فأجابني أنه يبحث في تلك الدعوة ويجيبني، وما أجابني عن ذلك. ويوم تاريخه وجههم بحرا وما عرفنا هل توجهوا لبلادهم أم توجهوا لوهران يخدمون في عسكرهم"^(٤٢)، ونلاحظ هنا إشارة القائد إلى اللجوء إلى

تطلب مبالغ ضخمة مبالغ فيها مع ممارسة شتى أشكال الضغط عليه لحمله على الأداء، فهناك برقية لمفوض فرنسا بالمغرب السيد ريفو موجهة إلى وزير خارجية فرنسا حول المبلغ الذي سيطلب كتعويض عن سفينة "Prosper corue"، وهي تكشف عن هذه المبالغة في تقدير مبلغ الخسائر، فقد جاء فيها: "...فالرقم الذي أحصله بهذه الكيفية هو زهاء 83.000 F، وينبغي في نظري أن نضيف إليه ٣٠ ألف عن القرصنة. ومن رأيي أن يخصص قدر من هذا المبلغ لكي يتألف منه التعويض الذي طلبه الريفيون للعدول عن عاداتهم في اللصوصية لو أتاحت الظروف تحقيق هذا المشروع. ولعل المقدار الكامل لمطالبنا سيبلغ 113.000F. وقد يرتفع، لو سمح معاليكم إلى ١٢0.000F حتى نترك شيئاً من الوسع لمصاريف لم تكن منتظرة..."^(٤١).

٢/٢- معاقبة بقية

في أواخر سنة ١٨٩٧م، بينما كان أهالي قبيلة بقوية قد احتجزوا بعض الأوربيين من أجل مبادلتهم بإخوان لهم قبض عليهم بطنجة وكذلك آخرون سجنوا بجزيرة بادس، وبعد أن درس النائب محمد العربي الطريس الوسائل الممكنة لإرغام أهالي القبيلة على إطلاق سراح أولئك الرهائن، طلب من المخزن المركزي إرسال رسائل إلى زعماء قبائل الريف الأخرى ومطالبتهم بالتدخل لإرغام بقوية على إطلاق سراح الأوربيين، وجاء في الجواب الذي تلقاه ما يلي: "...وأما المكاتيب التي طلبت إصدارها للمذكورين (...) فقد تقدم صدورها لهم صعبة ابن عم سيدنا مولاي عبد السلام الأمراني، وحيث يرد جوابه عن ملاقاته بهم يظهر ما يكون إن شاء الله..."^(٤٢). ولكن المخزن أرسل في نفس الوقت ودون انتظار ما سيتوصل إليه عبد السلام الأمراني، قوات ليستعرضها على قبائل الريف ويختبر من ستتضم إليها ومن سترفض ذلك، "ووجه دام علاه ثلاثة من كبراء المحلة السعيدة في شردمة من الخيل على طريق زايان اهتماما بوصولها على طريق البر في أقرب مدة، مصحوبة بمكاتيب شريفة لقبائل الريف المجاورين لهؤلاء الفساد باستنهاضهم للنزول عليهم والتضييق بهم، حتى يفتكوا المساجين من يدهم طوعا أو كرها. ثم أردفهم

فيها بتعويض، وإذا ما ماطل المخزن وحاول التأخر في الأداء أو التفاوض من أجل الخصم من المبالغ المطالب بها، تهدد بإرسال قواتها البحرية إلى مياهه، وهذا ما فعلته هولندا بالفعل حين هوجمت سفينتها أنا Anna في ساحل الريف، وكان ذلك في ٢٨ أبريل ١٨٩٥ بعد الزوال، بينما كانت السفينة متوقفة في عرض البحر، فهاجمتها ٨ قوارب من الريفيين فقتلوا قبطانها وجرحوا نائبه وصادروا حمولتها، فأرسلت الحكومة الهولندية أربعة من سفنها الحربية إلى ساحل المغرب لتطالب بالتعويض^(٣٧).

لم تقتصر المطالبة على تعويض ما كان يصادر من المراكب الأجنبية من سلع وبضائع ومعدات، والتي قد تكون محض ادعاء لا أساس له، بل أيضا تعويض الأشخاص الذين قد يتعرضوا للأذى أو القتل في مختلف الاصطدامات التي كانت تحدث مع الريفيين. ففي سنة ١٨٩٧، حين هاجم الريفيون السفينة الفرنسية Prosper corue بالقرب من خليج الحسيمة، تدخلت السفينة الإسبانية إشبيلية Sevilla لإغايتها، ف وقعت معركة بينها وبين الريفيين سقط فيها ضحايا من الجانبين. فطالبت إسبانيا من المخزن لاحقا دفع دية "القتلى الثلاثة والجرحين الاثني في قضية مضاربة أهل الريف مع بابورهم الوارد لشاطئ الريف بقصد إغاثة البارک الفرنسي (٣٨) (... بحساب خمسة آلاف ريال لكل قتيل وألف ريال لكل جريح"^(٣٨). وكان رد المخزن أن ذلك كثير، وطالب بمراجعة ما قدره لكل من القتلى والجرحين، كما طالب بإسقاط واحد من القتلى مقابل الريفي الذي مات أيضا في المواجهة^(٣٩).

وكانت الدول الأوربية، ومنها فرنسا، تبالغ جداً في تقدير حجم الخسائر التي تلحق بمراكبها في حالة تعرضها للهجوم، وقد تدعي أحيانا أنها فقدت أشياء لم تفقدها مطلقا، كما جاء في إحدى الوثائق "وصل كتابك بما كتب لك به نائب الفرنسي في نازلة فلوكة تجار جنسه التي نهبت على شاطئ بحر الريف، ووقعت لها بسبب ذلك خسارة مبينة (... وطلب منك الكتابة لمولاي عرفة بالوقوف في النازلة فكتبت (... فأجابك بأن لا أصل لها ولم يضع لهم شيء..."^(٤٠). أما عندما يتم تقدير التعويضات النقدية التي ستطلب من المخزن، فكانت

القبيلة اعتباطيا، بل إنه سيركز عليها لتؤازره وترغم بقوة على الإذعان والاستسلام.

يذكر محمد عمر القاضي أن قبيلة بقوة لما تحققت بأن قبيلة بني ورياغل عازمة على مؤازرة القائد ابن البغدادي في تنفيذ ما أمر به ضدها، قامت وقعدت وصارت تستعد لخوض المعركة، ذلك أنها فرضت على كل من بلغ سن الرشد من أهاليها أن يشتري السلاح بأي ثمن كان ليحارب بجانب إخوانه^(٤٩). ولكن رغم استعدادات القبيلة فإن قواد المخزن فضلوا في البداية اللجوء إلى الحيلة والغدر للإيقاع بها، ذلك أنهم ادعوا أن المخزن لا يريد أن يعاملهم بالعنف، بل بالتفاهم والتوصل إلى حل ينهي المسألة معهم دون إراقة دماء، وتلوا عليهم ظهيرا سلطانيا مزيفا بهذا الشأن، ودعوا أعيانهم لزيارتهم في مقر المحلة، حيث سيتم الغدر بهم والإيقاع بهم أثناء تجردهم من السلاح استعدادا للصلاة جماعة.

هنا توصل النائب محمد الطريس برسالة من القائد محمد القناوي يقول فيها: "كما تعلم رعاك الله أنهم كبيرى المحلة كانوا وجهوا عليهم أولا وثانيا، ولما قدموا الفرقة الباغية منهم من الفساد وبقصد الرجوع، اغتتمت الفرصة فيهم وقبض منهم مائة واثنى وعشرون ١٢٢ مساجين مع ٥٧ مكاحيل (بنادق) وبغال وفرسات ٦٣٥ وبقرا ١٣. فأما المساجين المذكورين مع المكاحيل (...) توجه صحبة البابور التركي السعيد، وأما البغال والفرسات مع البقر لازال ذلك هنا بالمحلة لتأمر ما العمل بذلك (...) وقد مات من بقوة ساعة القبض ١٥ ومن العسكر السعيد مات نفرا واحدا ومضروبين مجارح ٥ نفر...."^(٥٠).

كان المثير في مسألة عقاب قبيلة بقوة من طرف المخزن هو احتجاج فرنسا بدعوى أن عزم المخزن على إرسال الحركة التأديبية إلى بقوة جاء نتيجة قبولهم بتوسط علال العبدى نائب قنصلها بتطوان في مسألة تبادل الأسرى، وطالبت بأن تكون العقوبة هي أداء بقوة ذعيرة تناسب أحوالها، ثم بعد ذلك ترحل المحلة، وإلا فأى عقاب آخر سيكون بمثابة إهانة لفرنسا. وهذه مقتطفات من رسالة مفوض فرنسا بطنجة: "المفهوم من خطاب أحد المفوضين الموجهين من جانبك هو أن السبب الأهم عند المخزن في توجيه محلة إلى ناحية الريف هو

أيده الله بمدد آخر، عسكر محمول في بابور بحرا مارين بمياه ذلك الثغر الطنجي..."^(٤٣).

حين وصلت قوات المخزن إلى الريف، بادر القائد حمو الولشيكي بجمع المتطوعين لمعاودة المخزن والهجوم على بقوة، وأنزل محلته بضواحي قرية إزمورن من قبيلتهم، وكان هذا القائد فاسدا مرتشيا ويعرف محليا بلقب (بوتمنت) أي محب العسل. وفي هذه الأثناء بدأ يستغل ما كلف به من طرف المخزن لجمع المال والمؤونة لنفسه، فقد اتصل بحاكم جزيرة النكور وطلب منه تزويد المحلة المخزنية بالمؤونة مدعيا أن المحلة أصبحت عرضة للضياع وعاجزة عن القيام بأي شيء بسبب نقص المواد الغذائية^(٤٤)، وقد كان سبق لهذا القائد أن أرغم تمسمان على الحركة إلى بقوة ولم يقبل المخزن آنذاك "...بما ارتكبه الحاج حمو الولشيكي ببلاد الريف (...)" وأنه زاد على ذلك وربط بين قبيلة بني ورياغل وتمسمان^(٤٥) وجعل يخوض بما لا تحمد عاقبته، وأفضى به الحال إلى أن طلب المؤونة من حاكم النصارى الذين بحجرة نكور..."^(٤٦)، وتلقى رسالة من الحاج أحمد بن موسى يحذره فيها من عودته لمثل هذه الأعمال السيئة، ولوضع حد للاتهامات الموجهة له راح يعمل على إبداء إخلاصه للمخزن وتنفيذ مخططاته بالهجوم على بقوة، خاصة منطقة إزمورن، حيث لم يعطي هجومه أية نتيجة نظرا للمقاومة الشديدة من البقيويين لتوفرهم على أسلحة حديثة^(٤٧).

بعد فشل حملة عبد السلام الأمراني والقائد حمو الولشيكي في مهمة اختراق قبيلة بقوة وإجبارها على إطلاق سراح الرهائن الأوربيين، وبالأحرى إنزال العقاب بها، أرسل المخزن حملة أقوى بقيادة القائد محمد بن بوشتى البغدادي، ونزلت الحملة هذه المرة بتراب قبيلة بني ورياغل أقوى قبائل المنطقة، وهذا ما يتضح من رسالة القائد محمد القناوي إلى نائب السلطان وفيها: "فقد كنا قدمنا الإعلام لسيادتك بحلولنا لقبيلة بقوة، ونزلت المحلة السعيدة بساحل أجدير بتراب ابن ورياغل بمحل مقابل للقبيلة المذكورة بقوة (...)"، بالكتابة إليك في شأن توجيه البابور بالمؤونة عاجلا، لنزوله بساحل أجدير بالموضع الذي نازلة فيه المحلة قريبا لحجرة انكور"^(٤٨). ولم يكن نزول محلة المخزن بتراب هذه

هم المخزن بالقبض عليهم فروا إلى مقر إقامة القنصل الفرنسي وأشهبوا السلاح، وتولى الفرنسيون تهريبهم بعيداً عن أعين رجال السلطة^(٥٣).

أما هذه المرة فحين رفض باشا تطوان الموافقة على نزول الركاب بها، توجه بهم المركب إلى طنجة، ولقي من نائب السلطان ومن كبير السنيدة (المجلس الصحي) نفس الموقف، فتوجه بهم أخيراً إلى وهران، وقد اشترط عليهم أن يخصصوا أربعين من رجالهم للانخراط في الجندية الفرنسية بالجزائر، وكذلك كان^(٥٤). وقد كان هذا بعد أن ذهب ثلاثة من أعيان بقبوّة صحبة علال العبدى نائب القنصل الفرنسي بتطوان إلى سفير فرنسا بطنجة^(٥٥)، وربما هم الذين طلبوا منه إرسال هذه الباخرة (أمير).

أحدث قدوم الباخرة أمير بعد أن سرى خبرها ضجة كبرى، واحتج المخزن بقوة على فرنسا على هذا التصرف الذي فعله ربان هذه الباخرة، لدرجة أن السلطان لم يصدق في البداية إمكانية إقدام باخرة فرنسية على اقتراف مثل هذا التصرف، إذ توصل النائب الطريس برسالة طلب منه فيها "البحث والتقصي في قضية ما جاء في رسالة كبير محلة الريف، من أنهم أثناء الهجوم على بقبوّة قدم مركب فرنسي إلى جزيرة النكور (هنا خلط بين جزيرتي بادس والنكور)، وحمل عدد من الرجال والنساء والأطفال وغادر بهم القبيلة"^(٥٦)، كما تضمنت الرسالة الأمر السلطاني بالبحث وتوضيح حقيقة هذه الحادثة، "وهل البابور المذكور حملهم بإذن من كبير جنسه، وهل بتسريح من الصبنيول (حيث أن النكر له) أم لا، وفي أي محل أنزلهم، وكم عدد الكل"^(٥٧).

وفي رسالة أخرى إشارة إلى أنه لما رفض كبير السلك الدبلوماسي بطنجة، وهو آنذاك مفوض إيطاليا، إنزال أولئك البقيويين بالمدينة، جاء إلى نائب السلطان مفوض فرنسا يطلب منه السماح بإنزالهم، ذاكراً أن أغلبهم صبية ونساء وعجزة، وأنهم استأجروا المركب فأجارهم، وطالبه بإنزالهم في أمان، فأجابته النائب الطريس بأنه "لا أمان عليهم ولا تقبل فيهم شفاعاة"^(٥٨).

هنا توافق المخزن مع إجابات الطريس لمفوض فرنسا، وطلب منه البقاء على جوابه للمفوض أو لأي مسؤول من مسؤولي دولته^(٥٩)، مع الاستمرار في طلب

توسط سي علال عبدى فيما وقع هناك الخريف الفارط (...) كان بعض النصارى مقبوضين عند بقبوّة، وكانوا مشرفين على الهلاك، حيث أن أحدهم مات وآخر لم ينج إلا برفعه من هناك، (...) وكان نائب من المخزن حاضراً هناك، وهو خليفة باشا طنجة وأخوه، (...) أراد أن يعاونه (...) فامتتع الخليفة المذكور لما له من الخوف أن يقبض عليه أهل الريف، (...) وبعدما مضت ثلاثة أشهر ساعد المخزن مع طول المدة على تسريح مساجين أهل الريف من سجن طنجة، وأمكن حينئذ تسريح النصارى، وكان ذلك على يد سي علال، وقد واعدوا أهل بقبوّة بأنهم لا يعودوا إلى ما صدر منهم من النهب في البحر، (...) ما أراد الآن تأديبهم وتدميرهم إلا لكونهم قبلوا عندهم أجنياً وباشروا معه تبديل المساجين، بحيث أن الأجنبي المذكور رعية الدولة الفرنسية، فتبين أن التدمير المذكور المعزوم عليه بالريف سببته الدولة الفرنسية، وأن جور مثل هذا العزم لا يحتاج إلى إقامة الدليل عليه، وأنه لا غرض لنا بناحية الريف، وأن مقصودنا في ذلك كله كان الصلاح والسعي في الخير، (...) نعم فإنه بمقتضى نظرنا أن وجه فصال هذا الأمر الذي لا فصال إنصافي وجميل سواء، هو أن المحلة بعدما تلزم أهل بقبوّة بأداء ذعيرة تناسب أحوالها الضعيفة، تتوجه لبلاد أخرى معلمة أنه مهما يصدر منهم نهب آخر، تجرى عليهم عقوبة جديّة لا عليها من مزيد، وإلا فإن التأديب الذي عزمتم عليه على الكيفية التي بينها أحد المفوضين المذكورين هو إهانة لدولتنا"^(٥٩).

ثالثاً: باخرة "أمير" تكشف المستور

عندما نزلت المحلة المخزنية بالريف لتأديب قبيلة بقبوّة على أعمالها (القرصنية)، وصلت باخرة فرنسية تدعى (أمير) إلى جزيرة بادس، وحملت عدداً من السكان ليفروا بعيداً عن بطش المخزن، فقصدت بهم مرسى مرتيل ليطلب ربانها من باشا تطوان إنزالهم، فرفض هذا الأخير تهرباً من المسؤولية^(٥٦)، خاصة أن مجموعة أخرى من أهالي بقبوّة كانت بتطوان منذ عهد قريب، وكانوا من مخالطي الفرنسيين ويعملون مع القنصل الفرنسي، أحدثوا فتنة بالمدينة ثم هربوا، وحين

أحمد مشبال الغماري ونسبها له وجعل يتردد على القبائل الفاسدة (...) وختم ذلك بأن ورد منهم بجماعة على أنه يوجههم للخدمة في العسكر الجزائري...^(٦٣). والمعلوم عن علال العبدى أنه كان يشجع أهالي بقبوة سرا على مهاجمة السفن الإسبانية وقبض واحتجاز رهائن منهم، وذلك حتى يسهل مهمته المتمثلة في النجاح في تبادل الأسرى، ذلك أن إسبانيا كان بسجونها أسرى ريفيون في حين لم يكن لها أسرى عندهم، فالمحتجزون الأوربيون لدى بقبوة كانوا رعايا فرنسيون وبرتغاليون. ولما تنبه كل من المخزن وإسبانيا لتحركات فرنسا السرية اتفقا وعملا معا على المبادرة بحل مسألة المحتجزين بإطلاق سراح الأسرى مقابل استلام المحتجزين من بقبوة، وكل ذلك من أجل إحباط المخططات الفرنسية^(٦٤).

وكانت فرنسا تحاول تبرئة العبدى وثبت بطلان التهم الموجهة له^(٦٥). وقد طلب السلطان آنذاك التحدث مع قنصلها في هذه القضية "بحضرته الشريفة"^(٦٦)، فالسلطان لم يعد يشك في مسؤولية العبدى عن كل ما حدث بالريف من قلاقل وفوضى. وخلال هذه المحادثات اعترف قنصل فرنسا نفسه بأن "علال العبدى زار الريف رسميا مرتين وصدر منه بالريف كلام لا يصدر من العقلاء، حيث أهل الريف كانوا يلتسمون من يدافع عنهم عند المخزن. وأنه بلغه في آخر يناير ١٨٩٨ أن ثلاثين من أهل الريف توجهوا عند العبدى لتطوان، ثم وجه العبدى ثلاثة منهم للباشدور بطنجة طالبين التوجه لوهرا (٠٠٠) ولم يساعدهم حتى بورقة التسريح يدخلون بها للجزائر..."^(٦٧)، وهكذا انضافت هذه الاعترافات إلى جملة الأدلة التي اعتمدها المخزن في اتهامه لعلال العبدى.

ورغم هذه الاعترافات وكل الأمور الواضحة التي لم تكن تحتاج إلى دليل، استمرت فرنسا في الدفاع عن (براءة) العبدى. وجاء في أحد أجوبة مفوضها بهذا الشأن: "وأما المسألة الأولى فتبين أنها غير صحيحة، وأما الثانية فلم يثبت فيها شيء وبقت في الشك، وأما الثالثة فإن إيهام موجهك في شأنها وإنما استبدال غير مؤسس على صحة مادية، بينما والظاهر فيها بخلاف ما أوهمه هو أنه لو ثبت موافقة بين عبدى وبين أهل الريف

التوضيح بشأن ما جرى والمطالبة بالاقتصاص من ريان الباخرة على ما اقتطفه، إضافة إلى مراسلة مفوض إسبانيا ومسؤوليها بشأن سبب السماح لأولئك الهاربين بالدخول إلى الجزيرة، وكذا السماح للباخرة الفرنسية بنقلهم منها. وطلب منه أن يكلف القائد عبد الله بن سعيد السلاوي بالحديث مع (جانطلي) ترجمان مفوض إيطاليا، ويتلطف معه للحصول منه على المعلومات بشأن سبب عدم السماح للباخرة بإنزال الريفيين بطنجة، وهل كان ذلك بسبب نقص في التراخيص القانونية، وهل كان المركب بصدد ممارسة تهريب غير قانوني. تقول الرسالة: "وكلم القائد عبد الله ابن سعيد بأن يتلطف في مباحثة جانطلي ترجمان الطليان عن سبب عدم قبول البابور الوارد بهؤلاء أهل الريف لما ورد لطنجة، هل لعدم البطينة؟ وهل حملهم في صورة الكطريانض؟ ومن أين حملهم؟ حتى يستخرج منه عين الواقع في ذلك كله، ويطير الإعلام بشرحه ولا بد"^(٦٨).

٢/١- اتهام علال العبدى

- لقد أشار المخزن بأصابع الاتهام إلى علال العبدى نائب القنصل الفرنسي بتطوان، وراسل مسؤولي فرنسا بإدانته، ووجه له أربع تهم وهي:
- أنه عاد من الريف إلى تطوان وصاحب معه بعض الريفيين؛
 - وأنه اشترى زورقاً نسبه لشخص آخر يدعى أحمد مشبال الغماري من أجل التمويه، وذلك ليستعمله في التردد على الريف لتنفيذ مخططاته هناك؛
 - وأنه يحتمل وجود اتفاق بينه وبين الريفيين لما كانوا توجهوا لتطوان،
 - ثم أنه تعرض لبعض أهل الريف^(٦٩) لكي لا يقبض عليهم عامل تطوان^(٧٠).

وجاء في إحدى شكاوى المخزن في هذا الإطار أن علالا العبدى "مند نصب وهو يسعى في المضار للمخزن ويرتكب الخرق عليه في أمور لا تليق، ويتعاطى لما ليس له دخل فيه، ويفسد القوانين الجارية مع الرعية بالبلد المستخدم بها وبغيرها كالريف، باتخاذ فلوكة اشتراها من جبل طارق وتوجه فيها للريف وجعل الرئيس بها

المسألة بكون السفينة أقلتهم بالكراء، ومن جزيرة تحت حكم الإسبان، واعتبرت ذلك أمراً عادياً^(٧٢). ولعلمه أن رئيس المجلس الصحي بطنجة الذي هو مفوض إيطاليا آنذاك قد رفض بدوره نزول أولئك الفارين، أمر بتكليف القائد عبد الله ابن سعيد بمهمة الحصول على المعلومات من ترجمان الطليان بشأن هذه المسألة.

كان المخزن يبحث عن أية نقطة ضعف في العملية التي أقدمت عليها السفينة (أمير)، تعتبر خرقاً للقوانين المعمول بها دولياً أو للاتفاقيات الموقعة بينه وبين فرنسا أو مع باقي الدول الأوربية الأخرى، ليدعم بها احتجاجه ويسند بها شكواه، ففي الشكوى التي قدمها الطريس إلى المفوض دو منبل نستشف ما يشبه استعطاف وطلب العون والمساندة مراعاة لحسن العلاقات بين الحكومتين، كقوله أنه كان "من حق البابور أمير أن لا يحمل فرقة أهل الريف وأن لا يقرب ساحتهم لا بوجه ولا بحال، وبعد ارتكابه لذلك كان من حقه أن يمكن المخزن من ناصيتهم"^(٧٤)، لتكون هذه النقطة أيضاً عاملاً استغلته فرنسا لصالحها، باعتبار أن الطريس لم يسعى للقبض على هؤلاء عند وصولهم لطنجة ولم يطالب رسمياً بتسليمهم، بل اكتفى برفض نزولهم، وذلك لأنه - حسب المفوض - كان يعلم أن أغلبهم شيوخ ونساء وأطفال، ولا يجوز اتهامهم بالجرائم، واستدل على ذلك بكون الطريس نفسه أشار إلى استعداده للتكفل بعشر نساء منهم من ماله الخاص^(٧٥).

وحاولت فرنسا أن تحول مسار القضية لتصبح هي الشاكية والمطالبة للمخزن بالإجابات والتعليقات، وتغطي على تدخل عملائها بالريف وألاعيهم ودسائسهم بإثارة قضايا أخرى مثل اتهام المخزن بأن إرساله المحلة العسكرية إلى الريف جاء بسبب توسط علال العبدى مع الريفيين في عملية تبادل الأسرى، واعتبرت أن هذا يمس بسيادتها، وأن العبدى قام بعمل جليل لم يستطع أن يقوم به حتى عون المخزن ابن خليفة السلطان بطنجة (أحمد بن محمد الطريس) الذي كان حاضراً، وذلك خوفاً من أن يقبض عليه الريفيون، وأن العبدى كان مكلفاً بالمهمة من طرف فرنسا وإسبانيا^(٧٦). كما احتجت واشتكت مما لحق بمجموعة من الريفيين الذين كانوا تحت حمايتها بالريف كإخوانهم أثناء حلول المحلة

لكانوا توجهوا لأقطار الجزائر قاصدين دون أن يلزمهم المرور بتطوان، بل قدومهم هناك يبرهن عدم الموافقة، وأن ورودهم بتطوان كان عبدي على بركة منه، ونحن على يقين من ذلك، وأما الرابعة فإننا قد بيننا كيفية الواقع على ما تخبرنا به منه، وهي وجه آخر غير الوجه المعروض علينا^(٧٨). وأما مسألة إقراره بإمكانية صدور سلوك غير لائق من العبدى، فقد فسره بكونه جاء بناء على معرفته بحب العبدى لوطنه (الجزائر) وحميته عليه، ودأبه على الإشادة بأوضاعه وأحواله وحرية المسلمين هناك، وأن هذا مجرد كلام شفوي لا يجوز الاعتماد عليه وتحريره في كتاب رسمي^(٧٩).

٢/٢- احتجاج المخزن وحجج فرنسا

كان تهريب السفينة الفرنسية أمير للبقيوين المشار إليهم بمثابة ضربة للمخزن، خاصة أنها أقلت على متنها الكثير ممن كانوا متهمين بممارسة (القرصنة)، والذين كانوا قابضين على مساجين النصارى تحت أيديهم، ومنهم الحاج علي عمر وزيان والحاج عمر شعيب ودادي بن مسعود الذي كان يغريهما على عدم تسريح النصارى حتى يسرح إخوانهم المسجونين على يد المخزن^(٧٠). فقد أقلت هؤلاء (الفساد) من العقاب ومن أداء مقابل ما (نهبوه) من مراكب النصارى، وما أداه المخزن كتعويضات على عملياتهم (القرصنية). ولهذا احتج المخزن بقوة على فرنسا وطالب بمحاكمة طاقم هذه السفينة كي يعيد أولئك "الفساد"^(٧١)، ولكن لم يتحقق شيء من ذلك. ومن جهة أخرى كشف مجيء السفينة عن دور فرنسا في أحداث الريف وفضح تواطئها مع (القراصنة) ومؤازرتها لأعيان بقبوة. ورغم أن المهتمين بأعمال القرصنة قد تمكنوا من الفرار إلا أن ذلك لم يثن المخزن عن معقابة القبيلة كلها، وإن كان ذلك يعني تعريضهم لعقاب كان يفترض أن يكون من نصيب المذنبين وليس عامة سكان القبيلة. هكذا استغل القائد بوشتى بن البغدادي الفرصة لإرضاء الأوربيين والاستجابة لشكاياتهم المتكررة^(٧٢).

طلب المخزن المركزي من النائب الطريس تقديم الاحتجاج والشكوى إلى مفوض فرنسا بطنجة بعد التأكد من مكان رسو السفينة، خاصة إن كانت قد حملت السكان المذكورين من بر المنطقة، ذلك أن فرنسا بررت

مفوض فرنسا الأمان للركاب المحمولين حين نزولهم، إذ كيف يمكن قبولهم بهذا الشرط والحالة أنهم لا أمان عليهم لكونهم في حكم سجناء المخزن، ولم يهربوا إلا للمحل الذي حملتهم منه الباخرة^(٨٢).

وأما ادعاء تصريح الفارين النازلين بوهران بأن سبب فرارهم هو النجاة من قتل أو عقاب قد يلحق بهم بدون جرم اقترفوه، بل فقط بسبب القرابة مع بعض إخوانهم الذين دخلوا بطيب خاطرهم للعمل بالجزائر^(٨٣)، فقد أجاب عنه المخزن بأنهم يعلمون أن سبب فرارهم ليست قرابتهم المذكورة بل هو ارتكابهم للجرائم^(٨٤)، وجوابا على طلب فرنسا تأكيد إن كانت المحلة ذهبت بسبب هؤلاء ومن أجل إنزال العقاب بهم، جاء في رسالة النائب الطريس إلى مفوض فرنسا أن "الأناس الفارين هم مساجين المخزن أيده الله، متبوعون له أينما وجدوا أو ظهروا لكونهم معدودين لديه من أهل الجنايات بقبيلة الريف، ومن جملة من كان منهم يقطع الطريق ويأكل الرقيق، ويتعرضون لمراكب الأجناس وينهبون أمتعة الناس، حتى شاع منهم الفساد وعمت مصيبتهم الحاضر والباد، وكثرت بهم شكايات الدول والأجناس، وضاع بسببهم على المخزن أموال عديدة لأجل ما نهبوه لهم بمراكب البحر وقتلوا فيهم، وصار هؤلاء الأجناس يطلبون جانب المخزن بتربيتهم وزجرهم وإظهار العقوبة فيهم، زيادة على ما قبضوه من المعاوضات الخطيرة في ذلك، وأنتم من جملة من قبض من المخزن في شأنهم مال له بال عن المعاوضة، ولا زال المخزن أيده الله متبوعا بحقوق الأجناس عليهم إلى الآن"^(٨٥). وتساءل كيف يمكن الحيلولة بين هؤلاء ومن على شاكلتهم وبين المخزن، وكيف يتم التعرض على المخزن ويسمع لهوسهم وخرافاتهم، وكيف يسوغ قبولهم من طرف الباخرة التي حملتهم.

وفي رسالة أخرى نجد المخزن يحدد هوية أولئك الفارين أو المذنبين بشكل عام، والذين أرسل (المحلة) من أجل معاقبتهم وهم "قبيلة إزمورن الذين هم ثلث بقبوة، وأنه لم يشاركهم غيرهم في ذلك ولا في المغارم التي دفع المخزن معاوضاتها لأرباب المراكب، التي من جملة ما هو لجانب الفرنسيين"^(٨٦)، مضيفا أن المحلة مأمورة بضرب الفساد كلهم على الإطلاق، سواء كانوا هؤلاء أو

المخزنية بالمنطقة^(٧٧). وطلبت فرنسا من المخزن أن يعلمها في أقرب مدة ممكنة، هل صدرت حقا لكبير (المحلة) النازلة بالريف، أوامر تتعلق بمعاينة الأشخاص الذين لهم قرابة مع إخوانهم الذين تربطهم علاقات بفرنسا بالجزائر. وأنه زيادة على ما عسى أن يترتب عن ذلك من الحقوق، فإن فرنسا قد كلفت المفوض رسميا بإعلام المخزن بأنه ما دام الأشخاص الذين حملتهم الباخرة أمير لا يزالوا لا يضمن لهم حق العودة إلى بلادهم، فإن ما يصير عليهم مدة وجودهم في الجزائر يكون محسوباً على الدولة المغربية^(٧٨).

وقد كان رد المخزن على ذلك بأن ذلك واجب ولا دخل للدول فيما يقوم به المخزن داخل إيالته^(٧٩)، وأنه لا يعقل أن مركبا حمل أناسا بالكراء (كما كانت تدعي فرنسا) وتطلب حكومة المكري من مخزن المحمولين الأمان عليهم^(٨٠)، مع العلم أن هؤلاء المحمولين مسؤولين على إفساد صفاء العلاقات بين المغرب وفرنسا وغيرها من الدول، وخلقوا الأضرار للمخزن كالتعويضات الباهظة التي أداها لأصحاب المراكب المستهدفة، ومنها مراكب فرنسية.

وعن احتجاج فرنسا بكون النائب الطريس لم يطالب بطنجة بالقبض على المحمولين بل اكتفى برفض نزولهم، أجاب الطريس مفوض فرنسا عن هذه النقطة في رسالة بتاريخ ١٦ يوليوز ١٨٩٨ ومما جاء فيها: "فإننا قد اقتصرنا في الطلب على عدم نزولهم بهذا الثغر حين ورد بهم البابور المذكور ولم نطلب وقتئذ تسليمهم من نايب أشغال السفارة من قبلكم على وجه رسمي ويكون الأناس فيهم النساء والصبيان والشيوخ ولا يسوغ لأحد أن يرميهم بالجرائم (...) وعليه فلتعلم أيها العاقل أننا لم نفتصر في الطلب على عدم نزولهم من أول الأمر بل الواقع هو أنه كان ورد علينا نائب أشغال هذه السفارة المذكور بطلب نزول من ذكر ذاكرا أن جلهم النساء فأجنباه عن النساء بأنه لا حكم عليهن وأما الرجال فمتبوعون لجانب المخزن ومن نزل منهم إلى البر يوتى به للسجن امتثالا لذلك فكان الجواب مطابقا لغرض السؤال"^(٨١). ولاحقاً تلقى النائب الطريس من المخزن المركزي تعليمات بشأن ما يجيب به بخصوص هذه النقطة، وهي أنه لم يبق فيها كلام بعد أن اشترط

٣/٣-إسبانيا متهمة أيضا

لقد أقحمت إسبانيا في هذه القضية رغم كونها في الأشهر الأخيرة كانت تتعاون مع المخزن على حل قضية المحتجزين الأوربيين لدرجة قبولها بإطلاق سراح من كانوا تحت يدها من سجناء بقيويين حتى يطلقوا الرهائن، وذلك حتى تسحب البساط من تحت أرجل فرنسا وتساهم في إحباط تحركاتها. وكان هذا الإقحام مند أن ركز الفرنسيون على كون الباخرة أمير حملت البقيويين من مستعمرة إسبانية، جاء في رسالة المفوض الفرنسي دو منبل: "فليعلم جنابك أن البابور المذكور حمل الأناس المذكورين من بنيون دلفميرة^(٩١) التي هي أرض الصبنيول..."^(٩٢)، وأنه إن كان هناك من يستحق العقاب على عبورهم إليها فهم عناصر الحراسة الساحلية من رعايا المخزن.

إلا أن المخزن أشكل عليه أمر فهم هذه المسألة، خاصة حين علم أن هذه السفينة عندما رفض باشا طنجة السماح لها بإنزال الركاب، وكذلك كبير السلك الدبلوماسي، توجهت لسبب (الإسبانية) فقبلت بالرفض أيضا، وجاء في رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب الطريس: "...ذكرت أنه حجرة النكر ثم ذكرت أخيرا أنه توجه بهم لسبب فلم يقبلوه، فأشكل الأمر! لأنهم لو كان حملهم من الحجرة نفسها لقبولهم في سبب^(٩٣)، ولذلك يأمره بالبحث والتحقق من مكان الركوب وأنه إن كان من إحدى الجزر المحتلة فليشتكي بحاكمها إلى المصالح الدبلوماسية الإسبانية، نجد في نفس الرسالة: "...وعليه فلتتحقق المحل الذي حملهم منه، فلو كان (...) هو الحجرة نفسها (...) فلتكتب لباشدور الصبنيول (...) في حالة الفساد وحالة إجراء الحكم بالزجر، ومع ذلك قبل حاكم الحجرة الفارين وتركهم يركبون ليفروا من المخزن، وارتكب خارقا للشروط والقانون...."^(٩٤).

وفي رسالة أخرى أمر المخزن مجددا بالتحقق من المحل الذي رست فيه السفينة وحملت منه السكان المذكورون، على أنه إن تأكد بالحجة حملهم من جزيرة (إسبانية) فلتكن الشكوى للفضل الإسباني مذكورة بتفاصيل القضية "بأن هؤلاء الفساد منذ خرجوا عن

غيرهم من كل من ثبت أنه تعاون أو له يدا أو مشاركة معهم، ومنهم الفارون الأولون وكذلك الفارون بعد وقوع الضرب عليهم^(٨٧).

وبخصوص الفئة الأولى المرتبطة بالفرنسيين بالجزائر أمر المخزن بتذكير المفوض الفرنسي بقوله عنهم بمناسبة الكلام في قضية علال العبدى إنهم لا يقبلون بالجزائر إلا إذا كانوا (بالتصريح) وهو لن يعطيه لهم، إلى أن آل الأمر لتأخير الكلام في هذا الموضوع إلى إبانته، فلم يطابق هذا التعليل ما ذكر ولو صرح وقتها بمثل هذا الكلام لأجيب عنه بالمتعين^(٨٨)، ولكنه (المخزن) اعتبر أن هذا المفوض "واسطة خير فيما فيه الصلاح ومراعاة خواطر الجانبين"، ولذلك يمكن إصلاح الأمور وتدارك الموقف معه، ولكن ذلك لن يتم إلا بإعادة الفارين من الفئة الأولى والثانية معا "والتخيلة عما بينهم وبين مخزنهم ليعرفوا بحقه فيما أسلفوه، وفي ما هم متبوعون به من إجراء الأحكام عليهم لأجله، فينجزروا وينزجر بهم غيرهم، وبذلك تظهر نتيجة عموم الأمن المشترك بين الدول المتحابين، سيما في المياه البحرية التي هي أشد اعتبارا لهذا الشرط"^(٨٩).

نلاحظ أن هذه القضية تطورت من ناحية واحدة وهي أن فرنسا صارت هي السائلة والمطالبة بالأجوبة، وهي من تمثل الشاكي وليست المشتكى به، لدرجة أن مفوضها صار يشتكي من تأخر الأجوبة على الرسائل التي يبعثها إلى أعوان المخزن، خاصة النائب الطريس، بحيث أجيب من المخزن المركزي بهذا الشأن برسالة منها: "غير خفي عنكم أنه إذا كتب لهذا النائب في أمر وكان جوابه ظاهرا لديه، فإنه يجيب عنه بالواقع فيه ولو لم يطلب منه تعجيل الجواب، نعم إذا كتب له فيما لا اطلاع له عليه، فإنه يتعين عليه رفعه للأعتاب الشريفة وتأخير الجواب لمن كاتبه إلى أن يرد عليه الجواب منها، فلم يبق حينئذ موجب للملام ولا عتاب من هذه الحيثية"^(٩٠)، هذا على عكس الإسبان الذين نلاحظ معهم التأخر في الجواب على الشكوى الوحيدة التي وصلتهم بشأن عبور الفارين إلى الجزيرة.

بما يقاسيه جانب المخزن مع هؤلاء الطائفة من المشاق وتصيير الأموال الطائلة، ليرفع الشكوى به لدولته ويجرى عليه من العقاب ما يستحقه، وإلى الآن لم يظهر منك جواب^(٩٩)، مؤكدا أهمية هذه المسألة وأنه لا ينبغي إهمالها، كما جدد الأمر بالكتابة للقتل ومطالبته بالجواب، إذ يقول: "أن ذلك أمره أكيد لا ينبغي إهماله، وعليه فيأمرك سيدنا أيده الله أن تبين مآل الأمر في ذلك، وإن كان لا زال لم يجبك فلتطالبه بالجواب"^(١٠٠).

وإذا كنا لم نقف على جواب إسباني رسمي عن هذه المسألة فإن مفوض فرنسا أشاع في رسائله وتصاريحه تبريرا لها، وكأنه كان يوجه المسؤولين الإسبان ويدلهم على الجواب والتبرير المناسب، إذ كان يقول إن "بابورهم حمل أناس من بقية من حجرة النكر المعبر عنها بنيون دلغميرة"^(١٠١) وهي أرض الصبنيول، وهو إنما عنده المنع مقصورا على ما كان من قبيل الكنطربند كالسلاح وشبهه من الآلات الحربية دون غيره كالفار عنده من الآدمي" إلى ن يقول بأن "البحث والأرصاء في ذلك واجب في حق عسة المخزن المكلفة بذلك في الوارد والصدور، وخصوصا بسواحل الريف ونواحي مليلية فلها أن تقبض على كل من ظفرت به بمحل العسة..."^(١٠٢). بمعنى أنها كانت تريد في جميع الأحوال أن ترد التهمة بالتقصير إلى المخزن وأعوانه ورعاياه بالمنطقة.

الجادة، والمخزن يكابد المشاق في علاج أمرهم كي يستقيموا ويرجعوا عن غيهم، فلم يزداهم ذلك إلا تمردا ونفاقا، وحيث لم يجد بدا من معاقبتهم على القديم والحديث، وهو أي الباشدور على علم من ذلك كله، فكان الواجب ألا يقبل أحدا منهم حالة الصلاح جريا على مقتضى القوانين بين الجانبين، فأحرى في حالة الفساد وحالة إجراء الحكم عليهم بالزجر، فإذا بحاكم الحجرة قبل الفارين منهم وتركهم يركبون ليفروا من المخزن، وارتكب بذلك خرقا للشروط والقوانين بين الدولتين^(٩٥) بل وأضاف في نفس الرسالة إشارة إلى ما يشبه اتهام أو تشكيك في علاقة حاكم الجزيرة بما كان يرتكبه البقيويون "لأنه لا يقدم على ذلك إلا إذا كان له دخل فيما ارتكبه من الفساد..."^(٩٦)، ولكنه كان حذرا من تعكير صفو العلاقة مع الإسبان الذين أبدوا معه بعض حسن النية مؤخرا، ولا يريد أن يكون مبادرا بفتح جبهة أخرى معه في وقت تازمت فيه العلاقات مع فرنسا، ولذلك يقول في الرسالة: "وإن تحقق عندك أنه لم يحملهم البابور المذكور من حجرة الصبنيول وإنما حملهم من تراب هذه الإيالة السعيدة، فأخر الكتب للصبنيول"^(٩٧).

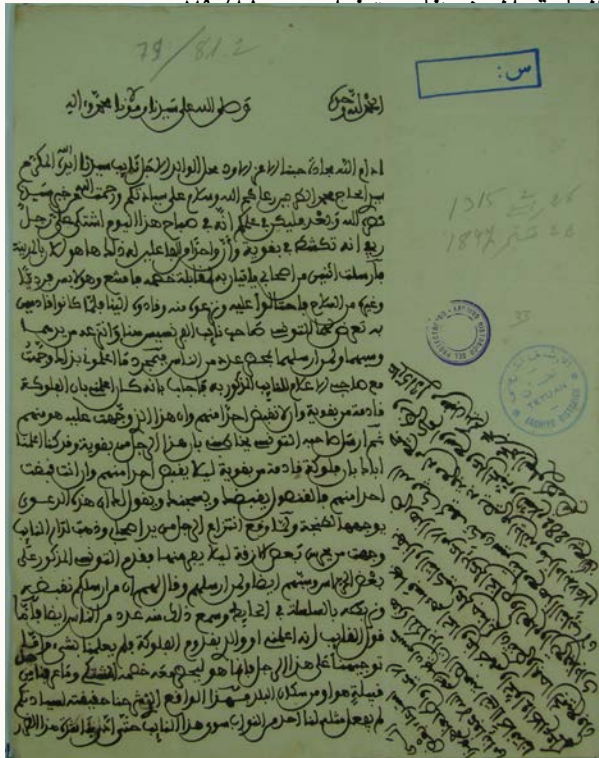
على كل حال، فاهتمام المخزن المركزي بمسألة دور حاكم جزيرة بادس فيما فعلته السفينة أمير هو كون فرنسا اتخذت من ذلك مبررا لتبرئة ساحتها، ولذلك ظل يصر على التحقق منه ويطالب بالتوصل بالجواب في القضية، فمما جاء في رسالة للحاجب أحمد بن موسى إلى النائب الطريس أواخر غشت ١٨٩٨، "وأن تعلم بمآل ما كتبت به لنائب الصبنيول في شأن حمل المذكورين من ترابهم"^(٩٨)، وسبب ذلك على ما يبدو هو أنه لم يتوصل بجواب حين طلب البحث في القضية في شهر يوليو المنصرم، فقد يكون النائب الطريس لم يوجه الرسالة إلى ممثلي إسبانيا أو لم ير أهمية في ذلك، أو أنه راسلهم ولكنهم لم يجيبوه. وإلى حدود التاسع عشر من أكتوبر لم يكن المخزن قد أجيب بعد في هذه النقطة، فكرر الكتابة إلى النائب، ومما جاء في الرسالة: "فقد كان تقدم صدور الأمر الشريف لك غير ما مرة بأن تكلم نائب الصبنيول، في شأن ما ارتكبه حاكم حجرة النكور من قبول الفارين عندهم من فساد بقية وإيوائهم، وتسريحه لهم ركوب البابور الذي فروا فيه، مع علمهم

خاتمة

الملاحق: (نماذج من الوثائق المعتمدة)

الملحق رقم (١)

رسالة من القائد محمد بن محمد السلاوي إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٥ شتبر ١٨٩٧م، المكتبة



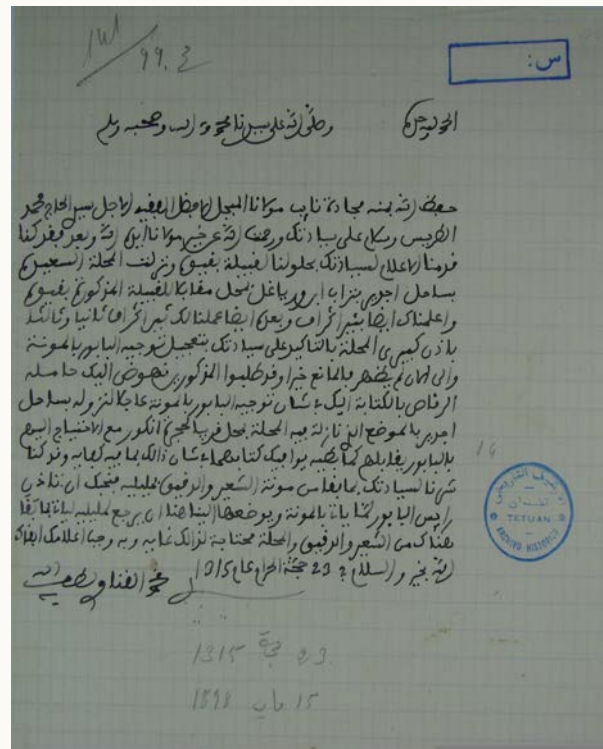
يتبين مما سبق أن ما عرفه الريف من فوضى وعدم استقرار وتجارة تهريب و(قرصنة) بحرية في أواخر القرن التاسع عشر ما هو في الواقع إلا نتاج التدخل الاستعماري الأوربي بالمنطقة، وخاصةً الفرنسي. وإن دور فرنسا أصبح بفضل هذه الوثائق مسألة لا لبس فيها ولا غموض، فقد كانت تدخلاتها بوسائل متنوعة ترمي إلى تعزيز حضورها وخدمة مخططاتها الاستعمارية التي تتطلب خلق الفوضى وزعزعة الاستقرار، وهناك عامل آخر لا يمكن تجاهله في هذه المسألة، وهو التنافس مع إسبانيا التي كانت تعتبر الساحل الريفي مجالاً حيوياً لها دون غيرها من الدول الأوربية، بسبب ما لها من مستعمرات وجزر على طول هذا الساحل.

وكان تدخل السفينة الفرنسية أمير جزء من المخطط ولم يكن مجرد صدفة، إذ يمكن أن نتساءل لماذا كان وصول هذه السفينة في هذه اللحظة بالذات؟ وكيف علم الفارون بقدومها ليتجهوا إلى الجزيرة مصحوبين بأسرهم وأهاليهم؟ فالمصالح الفرنسية كانت قد نجحت في ربط علاقات مع أعيان داخل القبيلة يتعاونون مع المدعو علال العبيدي أو مع غيره ممن يرتبطون بفرنسا، ولما لجأ المخزن إلى التعاون مع الإسبان وإفشال تدخلاتها، عملت على إجلاء من كانت تعتبرهم متعاونيها لتجنيبهم عقاب المخزن.

ويتبين من خلال التطورات التي ترتبت عن قضية الباخرة (أمير) والشكوى التي رفعها المخزن بطاقمها، تفوق فرنسا وقدرتها على المناورة والتلاعب بجميع تفاصيل القضية، ونلاحظ كيف استطاعت جعل كل نقطة في صالحها حتى تحولت من معتمد إلى شاكي، وصارت هي من تطالب المخزن وتلج عليه للإجابة عن بعض أسئلتها الموجهة له، بينما دفعت عنها جميع التهم التي تضمنتها شكوى المخزن وأجابت عنها بمختلف التبريرات والتعليقات.

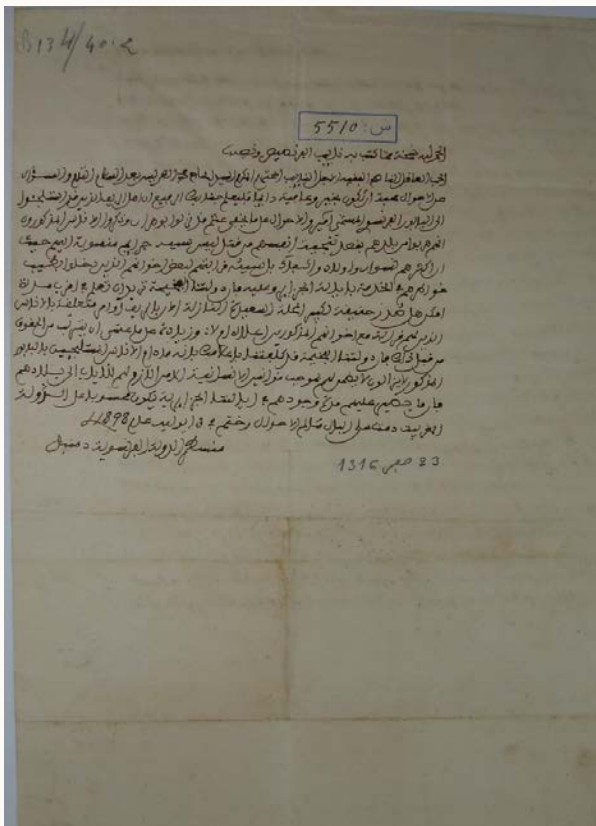
الملحق رقم (٢)

رسالة من القائد محمد القناوي إلى النائب محمد
العربي الطريس بتاريخ ١٤ ماي ١٨٩٨م، المكتبة العامة
والمحفوظات بتطوان، مح ١٤١/٩٩



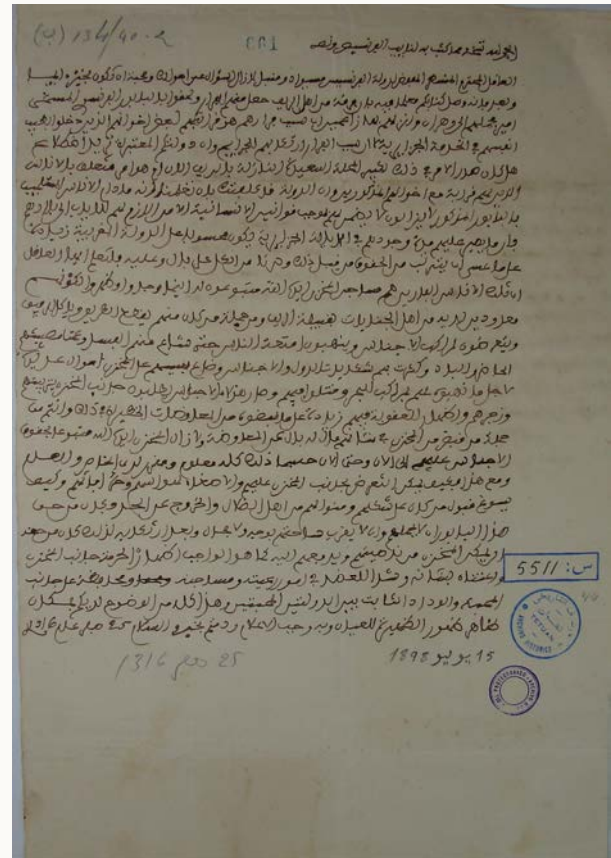
الملحق رقم (٣)

نسخة من رسالة من ممثل فرنسا بالمغرب إلى النائب
محمد العربي الطريس بتاريخ ١٣ يوليوز ١٨٩٨، المكتبة
العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١٣٤/٤٠



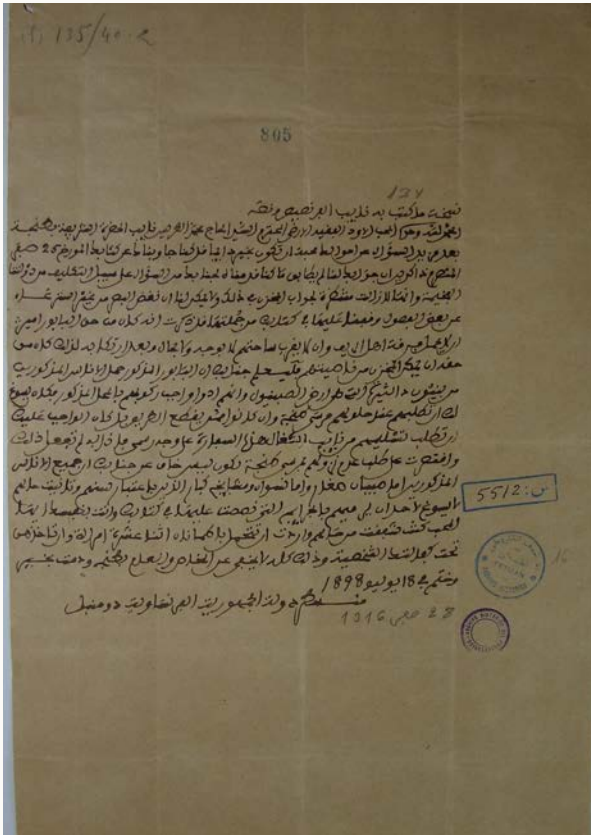
الملحق رقم (٤)

نسخة من جواب النائب محمد الطريس لمفوض فرنسا بتاريخ ١٥ يوليوز ١٨٩٨، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٤٠/١٣٤ (ب)



الملحق رقم (٥)

نسخة من رسالة من مفوض فرنسا إلى النائب محمد الطريس بتاريخ ١٨ يوليوز ١٨٩٨، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٤٠/١٣٥ (أ)



الملحق رقم (٦)

رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد
العربي الطريس بتاريخ ١٩ يوليوز ١٨٩٨، المكتبة العامة
والمحفوظات بتطوان، مح ٢٥/٣٥



- إلى جانب الأمانة المغاربة في النقاط الجمركية بمختلف المدن لتضمن
إسبانيا الحصول على الأموال المتفق بشأنها.
- (٨) رسالة سلطانية إلى النائب محمد بن العربي الطريس بتاريخ ٢٢
جمادى الثانية ١٣١٢ هـ الموافق ٢١ دجنبر ١٨٩٤م، المكتبة العامة
بتطوان، مح ٥٣/٧٨
- (٩) رسالة من السلطان الحسن الأول إلى القائد مبارك الذوبلاني بتاريخ
٢٢ رجب ١٣٠٣ هـ الموافق ٢٥ أبريل ١٨٨٦م، أورها محمد أونيس
"الفرصة الريفية"، م.س، ص. ٤٦
- (١٠) شهادة العربي أبركان وعيسى أحيار حول تجارة التهريب، "وثائق
ونصوص"، ص ص ١٧٥، ٢٠٣، مجلة حوليات الريف، م.س ص ص ١٩٧ -
١٩٩
- (١١) رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد بن العربي
الطريس بتاريخ ١٨ ربيع الأول ١٣١٣ هـ الموافق ٧ شتنبر ١٨٩٧م،
المكتبة العامة بتطوان، مح ٦٥/١٤
- (١٢) مصطفى بوشعراء، "التعريف ببني سعيد السلاويين ونبذة عن
وثائقهم"، ج ١، ١٩٩١، ص. ٥٥
- (١٣) العربي اللوه، "المنهال في كفاح أبطال الشمال"، تطوان، ١٩٨٢،
ص. ٨٥
- (١٤) جرمان عياش، م.س، هامش رقم ٢٨، ص. ٢٠٨
- (١٥) محمد أونيس، "الفرصة الريفية ..."، م.س، جدول رقم ١، ص. ٥٩
- (١٦) نفسه.
- (١٧) نفسه، ص. ٤٢، ٤٣
- (١٨) نفسه
- (١٩) رسالة م.س، مح ٦٥/١٤
- (٢٠) برقية من رئيس الغرفة التجارية بمدينة نانط إلى وزير خارجية فرنسا
بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٨٩٦م، أورها مصطفى بوشعراء، م.س، ص. ٦٦
- (21) "Bargain with Riff pirates: terms agreed upon for an
exchange of prisoners", The New York Times, September
7(th) 1897.
- (٢٢) رسالة من أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ
٢ جمادى الأولى ١٣١٥ هـ الموافق ٢٩ شتنبر ١٨٩٧م، المكتبة العامة
بتطوان، مح ٦١/٢٤، وكذلك مديرية الوثائق الملكية، سجل. ٣٠، ٢٥.
- (٢٣) رسالة من مفوض إسبانيا بطنجة إلى النائب أحمد بن محمد الطريس
بتاريخ ١٨ ماي ١٩٠٥، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح
١٩/١٥٥ (أ).
- (٢٤) نورد في هذا الصدد نص مترجم عن الصحافي اللسباني إنركي
أركيس الذي قضى ليلة في منزل أحد أعيان بقبوة وهو دادي بن
مسعود ويصف بذخه بشكل مبالغ فيه، والنص ترجمته آمنة اللوه
وتناقلته مجموعة من الكتابات المغربية: "الآن نستريح في هدوء
في هذا المنزل الذي تتوفر فيه كل وسائل الرفاهية الممكنة، هنا
في هذه القاعة الفسيحة يتجلس بذخ رجل مثر كبير، يريد أن يتفوق
على خشونة التخزين. سي دادي ينهج في لباسه وفراشه نهج
التطوانيين، شخصيته ومنزله يكشفان عن رغبة في التفوق على
الآخرين، وله أيضًا في تطوان منزل كبير وزوجة تنتمي إلى أكبر
العائلات، وربما كانت هذه الزوجة سبب التغيير الذي طرأ على سي
دادي بدءًا من اللباس وانتهاءً باللهجة، يضع على رأسه عمامة
ملفوفة على طربوش أحمر، استبدل اللباس الريفى بقفطان فاخر

الإحالات المرجعية:

- (١) محمد أونيس، "الفرصة الريفية بين الأسطورة والتاريخ ١٨٥٦ - ١٨٩٨"،
ص. ٣٩ - ٦٠، مجلة حوليات الريف، ع ٢، ١٩٩٩، ص. ٤٤
- (٢) نفسه، ص. ٤٤ - ٤٥
- (٣) جرمان عياش، "المجتمع الريفي والسلطة المركزية المغربية (١٨٥٠ -
١٩٢٠)", دراسات في تاريخ المغرب، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد
العزیز التمسسماني خلوق، الشركة المغربية للنناشرين المتحددين، ١٩٨٦،
ص. ٢١
- (٤) محمد أونيس، م.س، ص. ٥٢
- (٥) محمد أونيس، "المجتمع الريفي قبل المقاومة ١٨٩٧ - ١٩٢١: مقارنة
تاريخية جديدة"، ص ص ٦ - ٢٢، مجلة أمل، ع ٨، ١٩٩٦، ص ص ١٣ - ١٤
- (٦) جرمان عياش، م.س، ص ص ٢٠٩ - ٢١٠
- (٧) بعد حرب تطوان ١٨٥٩ - ١٨٦٠ تم توقيع معاهدة وادراس بين المغرب
وإسبانيا بشأن الصلح وانسحاب إسبانيا من تطوان، وتضمنت
المعاهدة فرض مغارم ثقيلة على المغرب، وما المغرب لم يكون
بمقدوره دفع المبلغ دفعة واحدة، فقد تقرر أيضًا تعيين جياة إسبان

- (٤٣) **رسالة من الحاجب أحمد بن موسى** إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١٧ جمادى الثانية ١٣١٥هـ الموافق ١٣ أكتوبر ١٨٩٧م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٨٨/٢٤.
- (٤٤) عبد الرحمان الطيبي، **"الحملة المخزنية على قبيلة بقبوة سنة ١٨٩٨"**، ص ٦١-٧١، **مجلة حوليات الريف**، م.س، ص ٦٦.
- (٤٥) نلاحظ هنا أن المخزن لم يكن يقبل أن يتم التقريب بين القبائل المتجاورة ولو من أجل مناصرتها، مما يعني أنه كان يراهن على استمرار الصراعات القبلية بين القبائل المتجاورة حتى لا تقوى شوكتها.
- (٤٦) **رسالة مخزنية إلى القائد البشير بن السناح** بتاريخ ٦ رمضان ١٣١٣هـ الموافق ١٩ فبراير ١٨٩٦م، الخزنة الحسنية بالرباط، كناش ٤٣٢، ص. ٣.
- (٤٧) عبد الرحمان الطيبي، م.س، ص ٦٦.
- (٤٨) **رسالة من القائد محمد القناوي** إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٣ ذو الحجة عام ١٣١٥هـ الموافق ١٤ ماي ١٨٩٨م، المكتبة العامة بتطوان، مح ١٤١/٩٩.
- (٤٩) محمد محمد عمر القاضي، **"أسد الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي"**، ط ١، تطوان، ١٩٧٩، ص ٢٤-٢٦.
- (٥٠) **رسالة من القائد محمد القناوي** إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٨ محرم ١٣١٦هـ الموافق ٢٩ مايو ١٨٩٨م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٤/٨٢.
- (٥١) **رسالة من مفوض فرنسا بطنجة دو منيل** إلى الحاجب أحمد بن موسى بتاريخ ٤ يونيو ١٨٩٨م، المكتبة العامة بتطوان، مح ١٣٢/٤٠. (أ).
- (٥٢) شهادة اعمار أبركان وعيسى أحيذار، **مجلة حوليات الريف**، م.س، ص ١٩.
- (٥٣) رسالة م.س، مح ٣٢/٤٠.
- (٥٤) شهادة اعمار أبركان وعيسى أحيذار ...، م.س، ص ١٩.
- (٥٥) انظر: **رسالة جوابية للمخزن المركزي إلى محمد بن العربي الطريس** بتاريخ ٢٥ يوليوز ١٨٩٨م أوردها عبد العزيز التمساني خلو، "وثائق مغربية حول حركة التهريب بقبيلة بقبوة سنة ١٨٩٨"، ص ٨٦-٩٢، **مجلة دار النباة**، ع ٢٣-٢٤، ١٩٨٩، ص ٨٨-٨٩.
- (٥٦) **رسالة من الحاجب أحمد بن موسى** إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١٤ صفر عام ١٣١٦هـ الموافق ٣ يوليوز ١٨٩٨م، المكتبة العامة بتطوان، مح ٢٥/٢٥.
- (٥٧) نفسه.
- (٥٨) **رسالة من الحاجب أحمد بن موسى** إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٣ صفر عام ١٣١٦هـ الموافق ١٢ يوليوز ١٨٩٨م، المكتبة العامة بتطوان، س: ٣١٤٨.
- (٥٩) نفسه.
- (٦٠) **رسالة من أحمد بن موسى** إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ متم صفر ١٣١٦هـ الموافق ١٩ يوليوز ١٨٩٨م، المكتبة العامة بتطوان، مح ٣٥/٢٥.
- (٦١) ربما يقصد الذين تحدثنا عنهم أعلاه والذين أحدثوا فتنة مع اليهود في الفدان.

- وسلهم أزرقي، وفي البيت استبدل الحصر بالزرايبي والستائر الحربية، وفراش النوم المصنوع من القصب بالناموسية ذات التاج المذهب، والصينية النحاسية بالصينية الفضية. كما أنه هذب حركاته وأخضعها لأسلوبه المتحضر الجديد. يعبر عن أفكاره بالعربية الصافية دون أن ينسى لهجته الريفية... " أورده محمد العربي المساري، **المغرب بأصوات متعددة**، سلسلة شراع، كتاب الشهر ٢، ط ٣، طنجة ١٩٩٧، ص ١١٦.
- (٢٥) **رسالة أحمد بن موسى** إلى محمد العربي الطريس بتاريخ ١٧ ربيع الثاني ١٣١٥هـ الموافق ٥ شتنبر ١٨٩٧م، مديرية الوثائق الملكية، سجل ٣٠. ١٢. وكانت جواباً على رسالة للطريس يخبره فيها باعتراض أهل بقبوة لسفينة إيطالية (فيدوشيا سالتادو)، ثم بعدها بفترة وجيزة اعترضوا طريق أخرى برتغالية (روزيتا فارو) أسروا منها مجموعة من الرهائن وأرسلوا السفينتين بحمولتيهما ومن بقي بهما من الركاب.
- (٢٦) **رسالة من القائد محمد بن محمد السلوي** إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٨ ربيع الثاني ١٣١٥هـ الموافق ٢٥ شتنبر ١٨٩٧م، المكتبة العامة بتطوان، مح ٧٩/٨١.
- (٢٧) نفس المصدر السابق.
- (٢٨) نفسه.
- (٢٩) نفسه.
- (٣٠) **الفدان** كلمة عامية مغربية تعني الحقل المزروع، وكان يطلق على مكان خارج أحد أبواب مدينة تطوان العتيقة، والتن يشكل وسط المدينة ولا يزال يطلق عليه نفس الاسم.
- (٣١) **رسالة من قائد تطوان ادريس بن يعيش** إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٧ شوال ١٣١٥هـ الموافق ٢٨ فبراير ١٨٩٨م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٣٢/٤٠.
- (٣٢) نفسه.
- (٣٣) رسالة، م.س، مح ٦٥/١٤.
- (٣٤) مصطفى بوشعراء، م.س، هامش في ص ٨٦.
- (٣٥) **رسالة من الحاجب أحمد بن موسى** إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٥ رجب ١٣١٦هـ الموافق ٨ شتنبر ١٨٩٨م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١٧/٢٥.
- (٣٦) نفسه.
- Jeudi 30 (٣٧) **Le stephais** (Journal), N° 198, Quinzième année, Mai 1895.
- (٣٨) **رسالة مخزنية** إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١٧ ربيع الأول ١٣١٥هـ الموافق ١٦ غشت ١٨٩٧م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٣٩/٢٤.
- (٣٩) نفسه.
- (٤٠) **رسالة مخزنية** إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١٩ ربيع الثاني ١٣١٢هـ الموافق ٩ أكتوبر ١٨٩٤م، المكتبة العامة بتطوان، مح ٢٦/١٣.
- (٤١) **برقية من مفوض فرنسا بالمغرب السيد ريفو** إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ٢١ دجنبر ١٨٩٦، أوردها مصطفى بوشعراء، م.س، ص ٧٣.
- (٤٢) **رسالة مخزنية إلى النائب محمد العربي الطريس** بتاريخ ٢٣ جمادى الثانية ١٣١٥هـ الموافق ٢ أكتوبر ١٨٩٧م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٧٦/٢٤.

- (٨٠) رسالة مخزنة إلى النائب محمد العربي الطريس في فاتح غشت ١٨٩٨ أوردها عبد العزيز التمسسماني خلو، م س، ص ٨٩-٩١.
- (٨١) رسالة من النائب محمد العربي الطريس إلى مفوض فرنسا بتاريخ ١٩ يوليو ١٨٩٨، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح. ١٣٥/٤. (ب).
- (٨٢) رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٣ ربيع الأول ١٣١٦ هـ الموافق ٢١ يوليو ١٨٩٨ م، المكتبة العامة بتطوان، مح. ٣٧/٢٥.
- (٨٣) نسخة من رسالة م س، مح. ١٣٤/٤.
- (٨٤) نسخة من جواب النائب محمد العربي لمفوض فرنسا بتاريخ ٢٥ صفر ١٣١٦ هـ الموافق ١٥ يوليو ١٨٩٨، المكتبة العامة بتطوان، مح. ١٣٤/٤. (ب).
- (٨٥) نفسه.
- (٨٦) رسالة م س، مح. ٣٧/٢٥.
- (٨٧) نفسه.
- (٨٨) نفسه.
- (٨٩) نفسه.
- (٩٠) نسخة من رسالة جوابية من الحاجب أحمد بن موسى إلى مفوض فرنسا بتاريخ ١٣ ربيع الأول ١٣١٦ هـ الموافق ١ غشت ١٨٩٨، المكتبة العامة بتطوان، مح. ١٣٦/٤. (د).
- (٩١) Peñon de la Gomera أي صخرة غمارة، وهو الاسم الذي يطلقه الإسبان على جزيرة بادس.
- (٩٢) نسخة من رسالة م س، مح. ١٣٥/٤. (أ).
- (٩٣) رسالة مخزنة إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١١ يوليو ١٨٩٨، أوردها عبد العزيز التمسسماني خلو، م س، ص ٨٧-٨٨.
- (٩٤) نفسه.
- (٩٥) رسالة م س، س: ٣١٤٨.
- (٩٦) نفسه.
- (٩٧) نفسه.
- (٩٨) رسالة من أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٥ ربيع الثاني ١٣١٦ هـ الموافق ٢٢ غشت ١٨٩٨، المكتبة العامة بتطوان، مح. ٥٢/٢٥.
- (٩٩) رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٤ جمادى الثانية ١٣١٦ هـ الموافق ١٩ أكتوبر ١٨٩٨، المكتبة العامة بتطوان، مح. ٧١/٢٥.
- (١٠٠) نفسه.
- (١٠١) هنا نجد عنده خلط بين جزيرتي بادس والنكور، فالمسملة بنيون دي لا كوميرا Peñon de la Gomera هي جزيرة بادس وليست جزيرة النكور التي كانت تسمى بنيون دي لاوئيماس Peñon de Alhucemas أو جزيرة الحسيمة.
- (١٠٢) رسالة من النائب محمد العربي الطريس إلى أحمد بن موسى بتاريخ ١١ غشت ١٨٩٨، أوردها عبد العزيز التمسسماني خلو، م س، ص ٩١-٩٢.

- (١٢) رسالة من مفوض فرنسا دو منبل إلى الحاجب أحمد بن موسى بتاريخ ١٨ محرم ١٣١٦ هـ ٨ يونيو ١٨٩٨ م، المكتبة العامة بتطوان، مح. ١٣٢/٤. (ب).
- (١٣) شكوى مخزنة أوردها عبد العزيز التمسسماني خلو، م س، ص ٨٦.
- (١٤) رسالة من السلطات الإسبانية موجهة إلى أعيان قبيلة بقوية بتاريخ فاتح نونبر ١٨٩٧، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح. ١٨٠/٣٦. (أ)
- وتتطرق في الرسالة لقبولها عرض المخزن في شأن حل قضية المحتجزين الأوربيين، وتؤكد أن إسبانيا لا تحب تدخل أحد في القضية (إشارة إلى فرنسا وعملائها) إلا المخزن، وأنها بناء على طلب المخزن قبلت بإطلاق سراح السجناء البقيويين، ووقع الاتفاق وأخذ العهود، وسيكون إطلاقهم بعد استكمال الإجراءات الضرورية، وتطالبهم بإطلاق المحتجزين الأوربيين ودفعهم لترجمانهم، وتطمئنهم بأن المخزن سيستحسن هذه المسألة ويقابلهم بالخير.
- (١٥) رسالة من دو مونيل إلى أحمد بن موسى بتاريخ ٨ يونيو ١٨٩٨، أوردها مصطفى بوشعراء، م س، ص ١٢٠-١٢١.
- (١٦) رسالة من أحمد بن موسى إلى محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٧ يونيو ١٨٩٨ أوردها عبد العزيز التمسسماني خلو، م س، ص ٨٦-٨٧.
- (١٧) رسالة جوابية مخزنة إلى محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٥ يوليو ١٨٩٨، وردت بنفس المرجع السابق.
- (١٨) رسالة من مفوض فرنسا، م س، مح. ١٣٢/٤. (ب)
- (١٩) نفسه.
- (٢٠) رسالة مخزنة إلى النائب محمد العربي الطريس في غشت ١٨٩٨، أوردها عبد العزيز التمسسماني خلو، م س، وثيقة ١٢، ص. ٩٠.
- (٢١) نفسه.
- (٢٢) ماريا روسا دي ماداريغا، محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال، ترجمة محمد أونيى وعبد المجيد عزوزي وعبد الحميد الرايس، منشورات تيفراز، ١٠، ١٣، ٢٠، ص. ٤٧.
- (٢٣) رسالة م س، مح. ٣٥/٢٥.
- (٢٤) نسخة من رسالة من مفوض فرنسا بطنحة دو منبل إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١٨ يوليو ١٨٩٨، المكتبة العامة بتطوان، مح. ١٣٥/٤. (أ)
- (٢٥) نفسه.
- (٢٦) رسالة ده مونيل إلى أحمد بن موسى بتاريخ ٤ يونيو ١٨٩٨ أوردها مصطفى بوشعراء، م س، ص ١١٧-١١٨.
- (٢٧) عبر الفرنسي ميشو بيلير عن اندهاشه من "المخزن الذي كان يواجه دائما شكاوى الدول الأوربية محتجا بعدم قدرته كذريعة على عدم التدخل في الرف، والآن ينظم حملة طافت على قبائل الريف لتفتك خاصة ببقيوة بوحشية جعلت أعداد كبيرة من قاطني هذه القبيلة ترحل إلى الجزائر للدخول تحت حمايتنا".
- Michaux Bellaire, LE RIF, direction des affaires indigènes, 1925, p. 26
- (٢٨) نسخة من رسالة من ممثل فرنسا بالمغرب إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١٣ يوليو ١٨٩٨، المكتبة العامة بتطوان، مح. ١٣٤/٤.
- (٢٩) رسالة من النائب محمد العربي الطريس إلى أحمد بن موسى بتاريخ ١٣ يونيو ١٨٩٨، أوردها عبد العزيز التمسسماني خلو، م س، ص ٨٦.

أنشطة المافيا الإيطالية في طنجة لمحات خلال الفترة (١٩٤٥ – ١٩٥٦)

د. محمد عبد المومن

دكتوراه في الآداب
جامعة عبد المالك السعدي
تطوان – المملكة المغربية



ملخص

يستعرض المقال الراهن دور مدينة طنجة خلال سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٢٩ – ١٩٤٥) كمركز مهم لنشاط المافيا الإيطالية، وقد استثمرنا في إنجازها مجموعة من الوثائق الفرنسية والإسبانية والإيطالية بهدف فهم مدى تأثير عصابات الجريمة المنظمة على الأوضاع الأمنية والاقتصادية والاجتماعية على المغرب وجواره القريب خلال السنوات الأخيرة من عمر الحماية. تحاول هذه الدراسة أن تبرز السياقات المحلية والدولية التي ساعدت على امتداد أنشطة العصابات الإيطالية إلى طنجة، كالفوضى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وغياب الرقابة، والتواطؤ بين شبكات الجريمة وبعض العناصر الأمنية والجمركية. كما تلقي الضوء على العلاقة بين نشاط عصابات الجريمة المنظمة وتطور حركات التحرر الوطني في المغرب والجزائر، وفي نفس تناقض البنية التنظيمية لتلك العصابات ووسائلها اللوجستية التي شملت استخدام السفن، السيارات، والطائرات المائية. كما تبرز هذه الدراسة أهمية مدينة طنجة ومدى انفتاحها على ما كان يحدث في العالم آنذاك، وتدعو الباحثين الالتفات أكثر إلى أرشيفات الأجنبية خصوصاً الفرنسية والإسبانية والإيطالية لما لها من أهمية في دراسة مغرب القرن العشرين، بقي أن نشير إلى أننا نقصد بـ "المافيا" عصابة الكوزا نوسترا دون غيرها من العصابات الإيطالية.

كلمات مفتاحية:

طنجة الدولية؛ الجريمة المنظمة؛ فرانكس كونيكس؛ التهريب الدولي؛
العصابات العابرة للحدود

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٧ ديسمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢١ يناير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.446802

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد عبد المومن، "أنشطة المافيا الإيطالية في طنجة: لمحات خلال الفترة (١٩٤٥ – ١٩٥٦)". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد السابعون: أغسطس ٢٠٢٥. ص ١٦٤ – ١٧٩.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: dream-way@hotmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع الإبداعي 4.0 (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

مصادر الدراسة

يفرض البحث في الجريمة المنظمة، وخصوصاً في الظاهرة المسماة بالمافيا، البحث عن مصادر جديدة ومناسبة تمكّن الباحث من تجاوز مشكل صعوبة الحصول على الوثائق، بل استحالة ذلك إن شئنا الدقة، لسببين هما: السرية والتحفّظ اللذان يطبعان نشاط عصابات الجريمة المنظمة، وخصوصاً عصابات المافيا الإيطالية، التي تفرض على أعضائها عدم إفشاء أية معلومات أو تقديم أية تصريحات أو اعترافات للأجهزة الأمنية. وهذا ما يعرف عندهم بقانون الصمت.^(٢) السرية المفروضة من طرف مؤسسات الأرشفة الإسبانية والفرنسية على معظم وثائق الأجهزة الأمنية التي كانت موجودة في المغرب زمن الحماية. بل إن أرشيف طنجة الدولية لا يُعرف مكانه، والراجح أنه مشتت بين العديد من المؤسسات.

لكننا تمكنا، لحسن الحظ، من العثور على عدد من الوثائق التي يمكن الاعتماد عليها في تتبع ودراسة حضور وأنشطة المافيا الصقلية، المعروفة باسم الكوزا نوسترا، في المغرب عامةً، وفي طنجة الدولية خاصةً. ويمكن تصنيفها إلى ثلاثة أصناف:

الوثائق الفرنسية: عبارة عن تقارير أنجزت من طرف مديرية الأمن في منطقة الحماية الفرنسية، التي كانت تتابع عن كثب ما كان يدور في مدينة طنجة، سواء في أوساط الوطنيين المغاربة أو الأجانب. وقد حصلنا عليها من الأرشيف الدبلوماسي الفرنسي، ومقره مدينة نانت، ونرمز له بـ (A.D.F.N).

الوثائق الإسبانية: وهي عبارة عن تقارير أنجزها مراقبو الشؤون الأهلية في المنطقة الإسبانية، انطلاقاً مما وصلهم من معلومات عن طريق مخبريهم في طنجة. معظم تلك التقارير تتعلق بنشاط يخوت التهريب في ميناء خليج طنجة. وهي تقدم معلومات غزيرة عن أعضاء المافيا المستقرين في طنجة، وأنشطتهم، وارتباطاتهم، وتحركاتهم في المغرب وخارجه. وقد حصلنا عليها من الأرشيف العام للإدارة الإسبانية، ومقره مدينة ألكالا دي هيناريس، ونرمز له بـ (A.G.A).

أدت حالة الانفلات الأمني والفوضى التي عرفها المغرب خلال السنوات الأولى من القرن العشرين، والمعروفة عند المغاربة بـ"السيبة"، إلى ظهور عصابات الجريمة المنظمة. وقد نشطت هذه العصابات بشكل خاص في السواحل المتوسطية، حيث مارست السرقة والتهريب وواجهت بالعنف من حاول ردعها، سواء من السكان أو القوات المخزنية.

تشكلت معظم تلك عصابات تلك الفترة من مغاربة تربطهم علاقات دم أو مصاهرة أو صداقة متينة، وكانت هناك عصابات إسبانية تنشط انطلاقاً من إسبانيا وسببة وملييلة المحتلتين.^(١) وما كان نشاط تلك العصابات ليستمر لولا تواطؤ عناصر من الجيش الإسباني ومن السلطات المحلية المغربية الذين غضوا الطرف عن أنشطتها عمداً أو مكرهين. لكن وقوع المغرب في قبضة الحماية الفرنسية الإسبانية وانطلاق المقاومة المسلحة أوقف مؤقتاً نشاط العصابات، ليستأنف من جديد خلال عقد الثلاثينيات.^(٢)

غير أن النتائج المترتبة عن الحرب الأهلية الإسبانية والحرب العالمية الثانية وفرت بيئة مناسبة، ليس فقط لظهور عصابات متمرسة بالجريمة المنظمة، بل لجعل المغرب، وخاصة مدينة طنجة، محوراً مهماً لنشاط المافيا الإيطالية، حيث وفرت لها معبراً مهماً نحو إسبانيا وأمريكا. وقد ساعد على ذلك الموقع الممتاز للمدينة، إضافة إلى توفرها على ميناء نشيط ونظام إدارة فريد من نوعه. وقد أدى تعامل بعض أعضاء المافيا الإيطالية تجار ورجال أعمال مستقرين في المغرب، وخاصة في طنجة، إلى انعكاسات خطيرة على مستوى السياسة والاقتصاد والأمن، تجاوز تأثيرها المغرب ليشمل دول الجوار، وخصوصاً إسبانيا والجزائر.

تحاول هذه الدراسة لفت الانتباه إلى موضوع الجريمة المنظمة وتأثيرها على المغرب خلال العقد الأخير من عمر الحماية، وإلى التعريف بنوع جديد من الوثائق التي يمكن للمهتمين بتاريخ المغرب استثمارها في دراساتهم، وأعني بالخصوص وثائق البرلمان الإيطالي.

٢/١-فوضى ما بعد الحرب العالمية الثانية

شهد البحر الأبيض المتوسط حالة من الفوضى العارمة عقب نهاية الحرب العالمية الثانية. وتجلّت هذه الفوضى في:

- الفراغ السياسي: انهيار نظم الحكم التقليدية في بعض الدول وتراجع تأثير القوى الاستعمارية الكبرى.
- التوترات السياسية: تصاعد النزاعات الإقليمية والتنافس الدولي.
- الأوضاع الاقتصادية المتردية: تفشي البطالة وانهيار البنى التحتية في العديد من الدول المتوسطة.
- فوضى السلاح: انتشار الأسلحة في أعقاب الحرب، ما زاد من احتمالية استخدامها في الأنشطة الإجرامية.

٣/١-إسبانيا المحاصرة

أدت الحرب الأهلية الإسبانية إلى نتائج اقتصادية واجتماعية خطيرة في البلاد. وقد تفاقمّت هذه الأوضاع بسبب العزلة الدولية التي فرضتها القوى الكبرى على نظام فرانكو نتيجة لدعّمه ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية خلال الحرب العالمية الثانية. وعلى الرغم من أن إسبانيا لم تشارك رسمياً في الحرب، إلا أن موقفها السياسي وضعها في مواجهة مباشرة مع الحلفاء، الذين فرضوا عليها حصاراً اقتصادياً خانقاً استمر إلى ما بعد انتهاء الحرب. وقد ترتّب على ذلك:

- شح المواد الغذائية الأساسية، مما دفع نظام فرانكو إلى تبني نظام التقنين والبطاقة التموينية، سواء في البر الإسباني أو في منطقة الحماية الإسبانية بالمغرب.
- تفشي الجريمة والتهريب والممارسات الاحتياطية كنتيجة مباشرة للأوضاع الاقتصادية المتدهورة.
- التضخم وارتفاع الأسعار بسبب ضعف الإنتاج المحلي والاعتماد الكبير على الواردات.
- تفشي الفساد في أوساط النخبة العسكرية الحاكمة، حيث سعى أفرادها إلى تحقيق مكاسب مالية بوسائل غير مشروعة.^(٥)

الوثائق الإيطالية: عبارة عن مجموعات ضخمة من الوثائق المتنوعة التي جمعتها اللجنة البرلمانية الإيطالية المكلفة بالتحقيق في ظاهرة المافيا. وقد نُشرت في عدد كبير من المجلدات تحت عنوان: "الوثائق المرفقة بالتقرير الختامي للجنة البرلمانية المكلفة بالتحقيق في ظاهرة المافيا في صقلية". وقد تضمن المجلد الرابع من المجموعة الرابعة عشرة، الذي نُشر يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٨٠، عدداً لا بأس به من الوثائق المتعلقة بأنشطة المافيا الصقلية في طنجة.

أولاً: سياقات تسرب المافيا الإيطالية للمغرب

لم يكن استقرار عدد من أفراد المافيا الإيطالية في المغرب، وخصوصاً في مدينة طنجة، أمراً اعتباطياً، بل جاء نتيجة لجملة من السياقات المحلية والدولية التي ساهمت في خلق بيئة مواتية لأنشطة الجريمة المنظمة. وتجدر الإشارة إلى وجود أدلة تثبت حضورهم في مدن مغربية أخرى، مثل الدار البيضاء، خلال الفترة التي تناولها دراستنا. ومن أبرز هذه السياقات:

١/١-عودة النظام الدولي إلى طنجة

عاد النظام الدولي إلى مدينة طنجة في عام ١٩٤٥، بعد خمس سنوات من الاحتلال الإسباني. كانت إسبانيا قد استغلت انشغال الدول الأوروبية بالحرب العالمية الثانية لبسط سيطرتها على طنجة، على أمل الاحتفاظ بها. إلا أنها اضطرت إلى التخلي عنها تحت وطأة الضغوط الأمريكية والأوروبية. وقد أسهمت عودة النظام الدولي في انتعاش غير مسبوق لمجموعة من الأنشطة غير القانونية، نتيجة لجملة من العوامل، من أبرزها:

- تراخي السلطات المحلية في مراقبة الأنشطة التجارية والمصرفية.
- تحرير التجارة، مع منح المدينة تشريعات جمركية خاصة بوصفها منطقة حرة مفتوحة للجميع.
- وجود مؤسسات بنكية نشيطة وتشريعات مالية خاصة، ما سهّل عمليات غسيل الأموال وتحويلها إلى الخارج.^(٤)

٤/١-تحولات المافيا الصقلية

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥، تم ترحيل لوكي لوشيانو، أحد أشهر زعماء المافيا الإيطالية-الأمريكية، من الولايات المتحدة إلى إيطاليا. جاء هذا الترحيل نتيجة لانزعاج السلطات الأمريكية من نفوذه المتزايد في الولايات المتحدة، حيث كان له دور كبير في إعادة تنظيم ما يُعرف بـ"عائلات" الجريمة المنظمة، عبر عقد تحالفات قوية واستحداث هيئة تُعرف بـ"اللجنة" (١) عند وصوله إلى إيطاليا، استقر لوشيانو بدايةً في صقلية، مسقط رأسه، قبل أن ينتقل لاحقاً بين عدة مدن إيطالية، منها نابولي. من إيطاليا، لعب لوشيانو دوراً محورياً في توثيق العلاقات بين المنظمات الإجرامية في صقلية ونظيراتها في الولايات المتحدة، مما ساهم بشكل كبير في تطوير أنشطة الجريمة المنظمة على المستوى الدولي. ارتبط اسمه في إيطاليا بعراق مافيا الإيطالية سافاتوري غريكو وتركزت جهودهما بشكل خاص على تهريب المخدرات، والابتزاز، وغسيل الأموال. وقد لعب دوراً بارزاً في تسهيل عمليات تهريب المخدرات عبر البحر الأبيض المتوسط إلى الولايات المتحدة، مما أسهم في تدويل ظاهرة "المافيا" وتحويلها إلى منظمة عابرة للحدود. (٧)

ثانياً: البنية التنظيمية

إن البحث في حضور ونشاط عصابات الجريمة المنظمة بالمغرب خلال فترة الحماية يواجه العديد من المعوقات، أهمها أن القسم الأكبر من نشاط هذه العصابات كان يُمارس في دول أخرى، حيث شكل المغرب ومدينة طنجة تحديداً ساحة من ساحات عديدة نشطت فيها تلك العصابات. بالإضافة إلى ذلك، فإن الطابع السري الذي يميز أنشطة عصابات الجريمة المنظمة حال دون الإحاطة بجوانب كثيرة من هذا الموضوع، خصوصاً فيما يتعلق بطبيعة العلاقات بين العصابات التي كانت تنشط في الخارج، وأولئك الذين كانوا يتعاملون معها في الداخل، إلى جانب المصالح المشتركة بين المستويات التنظيمية المختلفة لهذه الشبكات الإجرامية.

١/٢-رجال الأعمال الذين تعاطوا للتهريب

تشير الدلائل إلى أن عدداً من الإيطاليين (خصوصاً من صقلية ونابولي)، والفرنسيين (خصوصاً من كورسيكا)، كانت لهم علاقات وثيقة بالمغرب خصوصاً على مستوى التهريب الدولي، حيث هربوا إلى المغرب وعبره كميات هائلة من السلع، بما في ذلك الأسلحة والمخدرات والسجائر...

لقد وفر رجال الأعمال المنتسبين للمافيا الإيطالية الدعم المالي واللوجستي، وشبكة علاقاتهم الاقتصادية والسياسية لضمان انسيابية عمليات التهريب عبر البحر الأبيض المتوسط. كما ساعدوا في تبييض الأموال التي جرى تحصيلها من هذه الأنشطة، ما جعلهم عنصراً فاعلاً في تكامل المصالح بين الداخل والخارج ومن بين من تترد أسمائهم كثيراً في الوثائق الفرنسية والإيطالية ممن اتخذوا من طنجة محوراً لعملياتهم:

باسكال مولينيلي: رجل أعمال فرنسي من أصول إيطالية، كان يتنقل بين نيس وطنجة، وكان يملك العديد من المراكب المستخدمة في نقل السلع، ارتبط بعلاقات وثيقة بعصابات الجريمة المنظمة في بليمو ونابولي، وربطته علاقة وثيقة بلوكي لوشيانو، نشاطه المعلن خلال أواسط الخمسينات كان التصدير والاستيراد، أما نشاطه الحقيقي فكان تهريب السلاح من إيطاليا إلى المغرب، تمتع باسكال مالونيلي بنفوذ كبير في المغرب، خصوصاً في طنجة والمنطقة الإسبانية، وقد استغل نفوذه في خدمة مصالحه ومصالح شركائه. (٨)

بول باولي: رجل أعمال فرنسي من أصول كورسيكية، كان هو الآخر يتنقل بين نيس وطنجة، كان يمتلك مشاريع صناعية في فرنسا، ومشاريع تجارية في طنجة، كما كان يملك مراكب تستخدم في نقل السلع، وكان على ارتباط وثيق بعصابات الجريمة المنظمة في الجنوب إيطاليا، تعاطى لتهريب السلاح خلال الخمسينات وتمتع هو الآخر بنفوذ كبير في الجنوب الإيطالي. (٩)

٢/٢-تجار الجملة

هم تجار زاوجوا بين الأنشطة القانونية، وخصوصاً التصدير والاستيراد وتجارة الجملة، وقد ارتبطوا بالمافيا بسبب سيطرتها على خطوط التموين، فقد كانوا

تميز هؤلاء بمعرفة دقيقة بالمسارات والمعابر الجبلية، التي تتيح لهم تفادي الرقابة الأمنية.^(١١) في المقابل، فضلت عصابات الجريمة المنظمة التي كان أعضاؤها من الأجانب، والتي نشطت في المجالات الحضرية، توظيف سائقين أجانب من جنسيات متعددة، مثل: الإيطاليين، والإسبان، والأمريكيين، واليوغوسلافيين. وقد امتاز هؤلاء السائقون بمهارات متقدمة، وخبرات كبيرة في تجاوز نقاط التفتيش الحدودية، ما جعلهم عنصراً أساسياً في نجاح عمليات التهريب.^(١٢)

الهيكل التنظيمي لعصابتي مولينيلي وباولي

مستويات التنظيم		أماكن التمرکز	
عصابة الكوزانوسترا		صقلية - نيويورك	
لاكي لوشيانو - سالفاتوري غريكو		نيويورك - نابولي - بلرمو وأماكن أخرى	
عصابة باسكال مولينيلي Pascal Molinelli		عصابة بول باولي Paul Pauli	
صقلية - طنجة		صقلية - طنجة	
تجار كبار		لويجي بيرسيجي Luigi Persighiti	
سالتيدو M. Salcedo		كوشياز J. occiante	
جيو فاني تسانيلا G. Zanella		سيدني بالي Sydney Bali	
طنجة البيضاء		طنجة البيضاء	

الاستعمارية، حيث كانت سهلة الحمل والاستخدام، ما جعلها ملائمة لحرب العصابات.^(١٣)

ولم تكن طنجة سوى محطة في رحلة طويلة للأسلحة التي هربت عصابات المافيا الإيطالية، فحسب التي تقارير الفرنسية كانت تلك الأسلحة تنقل إلى المنطقة الفرنسية، ومنها صوب الجزائر، التي انفجرت بها ثورة مسلحة سنة ١٩٥٤، سرعان ما تحولت إلى حرب تحريرية طاحنة، وحسب نفس الوثائق فإن المسدسات كانت توجه إلى مدن المنطقة الفرنسية، في حين أن الرشاشات كانت تنقل صوب الجزائر.^(١٤) ونظراً لخطورة هذا النشاط على المصالح الفرنسية، ولضخامة كميات السلاح التي كانت تنقلها المافيا، فقد قامت سلطات المنطقة الفرنسية بتجنيد كل الوسائل الممكنة للقضاء عليه بما في ذلك استهداف اليخوت بالأسلحة وإغراقها، كما حدث مع اليخت إيما Emma الذي تم

يقتنون السلع التي يسوقونها من عصابات المافيا، ومن ثم يعملون على إدخالها للبلاد بطريقة غير قانونية، وجدير بالذكر أن هؤلاء كانوا يركزون على السلع المكننة، كما مارس بعضهم المضاربة، فخزنوا السلع إلى أن ترتفع الأثمان لتسويقها.^(١٥)

٣/٢- الحمالون

لعب الحمالون دوراً محورياً في أنشطة الجريمة المنظمة، حيث كان يقع على عاتقهم نقل السلع والأموال من مكان إلى آخر ضمن شبكات التهريب. ففي المغرب، اعتمدت العصابات المحلية بشكل رئيسي على مهريين راجلين أو مستخدمي للدواب، عُرفوا بـ"الحرايفية". وقد

المصدر: معطيات تجميعية من الصندوق

A.D.F.N. 1MA/200/502

وللمزيد حول الهيكل التنظيمي للمافيا الصقلية يمكن العودة إلى كتاب:

Padovani, M. (1991). Cosa Nostra. Editions de la Seine

ثالثاً: السلع المهربة إلى طنجة وعبرها

١/٣- الأسلحة

لعبت مخلفات الحرب العالمية الثانية من الأسلحة الخفيفة دوراً بارزاً في تسليح حركات المقاومين في المغرب، والجزائر، وعدد من الدول الأخرى. فقد تدفقت هذه الأسلحة، عبر شبكات التهريب والأسواق السوداء إلى الخلايا والتنظيمات التي اختارت العمل المسلح. وقد وفرت هذه الأسلحة، التي شملت بنادق ومسدسات وقنابل يدوية، أداة فعالة في شن عمليات ضد القوات

كانت شحنات الهيروين تصل إلى ميناء طنجة بواسطة يخوت ومراكب قادمة من باليرمو و نابولي، ثم تُعاد تعبئتها في أكبر لاستكمال رحلتها إلى الموانئ الأوروبية والأمريكية. ويشير تقرير اللجنة البرلمانية الإيطالية إلى أن طنجة لم تكن محطة نهائية لهذه الشحنات، بل نقطة عبور حيوية، حيث تم استغلالها لتجنب الرقابة المشددة التي كانت تفرضها السلطات الفرنسية على موانئ أخرى.^(٢٠)

اعتمدت المافيا على نظام دقيق لإدارة هذه العمليات، يشمل وسطاء متخصصين وضمانات لوجستية من رجال أعمال أجنب يعملون لصالحها. كما استفادت العصابات من التسهيلات الجمركية وضعف الرقابة الأمنية في الميناء لتنفيذ عملياتها بسرية تامة.^(٢١)

٤/٣- السكر

أشار الباحث الفرنسي جون لوي ميج في مقال نشره سنة ١٩٥٧، إلى إنه من المفارقات أن يعتبر الشاي المنع مشروباً قومياً في المغرب، لأن كلا مكونيه الرئيسيين أي الشاي والسكر يستوردان من الخارج بكميات كبيرة، ويستهلكان من طرف جميع شرائح المجتمع المغربي، وبالتالي كان ضمان وجوده في الأسواق أولوية.^(٢٢)

عرفت مادة السكر تقلبات عديدة خلال سنوات الحماية، وأسباب عديدة منها أن هذه المادة كانت مطلوبة جداً في السوق المغربي بالإضافة إلى أنها كانت خاضعة للتقنين ما هو داخلي كضعف الإنتاج، وتقلبه بسبب الظروف المناخية ومحدودية الأراضي المخصصة لزراعة قصب السكر، وأسباب خارجية مرتبطة بظروف الحرب العالمية الثانية، واضطراب حركة الملاحة التجارية، ناهيك عن أن الطلب الداخلي ارتفع بشكل كبير، بسبب تغير العادات الغذائية، وانتشار وحدات الصناعة الاستهلاكية التي تحتاج كميات مهمة من السكر، وقد كان من الطبيعي أن يرتفع ثمن السكر في أوقات الندرة، وأن ينخفض في الوفرة كما كانت الأسعار مختلفة بين المنطقتين، مما وفر ظروفاً مناسبة للمضاربين، والمحكرين، وتجار السوق السوداء، وهذا ما دفع

إغراقه يوم ١٨ أكتوبر ١٩٥٥ بعرض سواحل مدينة طنجة.^(٢٥)

٢/٣- السجائر

شهدت سنوات الخمسينيات نشاطاً مكثفاً لعمليات تهريب السجائر من إيطاليا إلى المغرب وإسبانيا، حيث أصبحت هذه التجارة غير القانونية أحد ملامح الاقتصاد الموازي في البحر الأبيض المتوسط. وتشير التقديرات إلى أن المافيا الصقلية هربت إلى طنجة سنة ١٩٥٥ ما يفوق ١٠١,٠٠٠ صندوق بقيمة بلغت ٣,٩٠٠,٠٠٠ ليرة إيطالية ومعظم تلك الكمية جرى نقله من يوغوسلافيا إلى المغرب.^(٢٦)

معظم تلك الكميات كانت تهرب برا صوب مدن المنطقة الإسبانية، كتطوان، والقصر الكبير، حيث كانت تخزن في انتظار الفرصة المناسبة لتهرب مرة ثانية باتجاه مدن المنطقة الفرنسية، خصوصاً وزان، والقيطيرة، وفاس، والرباط، والدار البيضاء، وهذا النوع من التهريب كانت تمارسه عصابات منظمة هربت كميات ضخمة من السجائر، بواسطة السيارات والشاحنات التي كان بإمكانها نقل عدة أطنان في المرة الواحدة، وهذا النوع من التهريب لم يكن ليتم لولا تواطؤ الشرطة، والمخازنية، والجمارك، خصوصاً أن تلك المركبات كانت تقوم برحلات طويلة بين المدن، ورغم ذلك تم إحباط العديد من عمليات التهريب خصوصاً من طرف موظفي الجمارك الفرنسيين والإسبان، الذين خاطروا بحياتهم في مواجهة عصابات خطيرة لا يتردد أعضاؤها في استعمال الأسلحة النارية.^(٢٧)

٣/٣- المخدرات

كانت طنجة خلال السنوات الأخيرة من عمر الحماية محطة عبور مركزية ضمن ما كان يسمى "فرانش كونيكتشن"،^(٢٨) وهي شبكة كانت تديرها المافيا الإيطالية بالتعاون مع منظمات إجرامية أخرى لنقل المخدرات من تركيا إلى أوروبا وأمريكا الشمالية. فبفضل موقعها الاستراتيجي على مضيق جبل طارق ونظامها الجمركي الذي أتاح مرونة كبيرة في التعاملات التجارية، لعبت المدينة دوراً مهماً في تسهيل حركة شحنات المخدرات دون أن تغادر تلك الشحنات حدود الميناء.^(٢٩)

اتفاقيات مع نظيرتها الفرنسية، خصوصاً أن تلك السواحل كانت ممراً رئيساً لمهربي السلاح. وقد وصل نشاط التهريب البحري أوجه خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت هناك العديد من المحاور: (طنجة - جبل طارق، الجزائر-المنطقة الفرنسية، الجزائر- المنطقة الإسبانية، إسبانيا-المغرب- إيطاليا-المغرب). وقد كانت تلك المراكب واليخوت تقوم برحلات طويلة تزور فيها عدة دول، ناقلة سلعاً مختلفة من بلد إلى آخر، مبحرة ليلاً، بأضواء مظفأة حتى لا يتم رصدها من الساحل، وكذلك استعمل بحارتها الإشارات الضوئية للتواصل مع شركائهم.^(٢٤) ونظراً للوضعية الاقتصادية الصعبة التي مرت بها إسبانيا خلال فترة ما بعد الحرب الأهلية، ولجوءها إلى تقنين العديد من المواد الأساسية، فقد تفاوضت السلطات الإسبانية عن نشاط تلك اليخوت التي تحمل إلى موانئها مواداً تموينية كانت في أمس الحاجة إليها، لكنها في مع ذلك كانت تراقبها عن كثب.^(٢٥) أما فرنسا، فقد حاولت أن تراقب السواحل المغربية بصرامة، لدرجة أن قواتها البحرية قامت خلال سنوات الخمسينات، بإغراق عدد من اليخوت التي يشتبه في تهريبها للأسلحة.^(٢٦)

نماذج لنشاط سفن ويخوت التهريب بسواحل طنجة

مراكب التهريب الموجودة بسواحل طنجة ليلة ١٥ دجنبر ١٩٥٣				
اسم المركب	مكان انطلاقه	وجهته	نوعية السلع	الكمية
Eytetue	مجهول	جزر الكناري	السجائر السكر	مجهولة
Almoana	مجهول	جزر الكناري	السجائر السكر	صندوق ٦٠٠ كيس ٦٠٠
Serob	مجهول	المتوسط	مجهولة	مجهولة
Vidra	مجهول	إسبانيا	السجائر	١٠٠ صندوق
Rumos	برشلونة	طنجة	السجائر السكر سلع أخرى	١٥٠٠ صندوق ٢٧٥٠ كيس
مراكب التهريب الموجود بسواحل طنجة ليلة ٢٤ فبراير ١٩٥٤				
اسم المركب	مكان انطلاقه	وجهته	نوعية السلع	الكمية
Silver	المتوسط	برشلونة	السجائر	مجهولة

سلطات المنطقتين إلى التدخل لمنع التهريب والاحتكار المضاربة.^(٢٣)

ونظراً لأن السكر كان خاضعاً للتقنين منذ سنة ١٩٢٧ وكانت الكميات المخصصة لكل أسرة قليلة جداً فقد ازدهر تهريب السكر من الخارج إلى المغرب، خصوصاً سنوات الخمسينات حيث كانت تدخل كميات كبيرة عبر ميناء طنجة، ومنها كان يوزع على أرجاء البلاد من طرف المضاربين، الذين كان معظمهم من تجار الجملة والقياد الذين توفرُوا على مخازن ضخمة لتخزين السلع الاستهلاكية.

هربت عصابات الجريمة المنظمة إلى طنجة الآلات، وقطع غيار السيارات، وأجهزة الراديو، وحتى القطاني وكثير من السلع مما لا يتسع له المقام.

رابعاً: الوسائل اللوجستية

١/٤-المراكب واليخوت

عرفت السواحل المتوسطية المغربية نشاطاً كبيراً لحركة السفن منذ القرن التاسع عشر، وقد استمر هذا النشاط وتطور بوتيرة سريعة خلال النصف الأول من القرن العشرين، وقد ارتبط النشاط الملاحي في الساحل المتوسطي (سواء في المغرب أو خارجه) ارتباطاً وثيقاً بنشاط التهريب، لذلك عملت سلطات الحماية الإسبانية على تعزيز مراقبة السواحل المغربية، وعقدت لأجل ذلك

	سلع أخرى			
Tulia	جبل طارق	مجهولة	مجهولة	مجهولة
Belrock	إيطاليا	طنجة	السجائر سلع أخرى	مجهولة
Almoana	جزر البليار	جزر الكناري	السجائر سلع متنوعة	مجهولة
مراكب التهريب الموجود بسواحل طنجة ليلة ٥ فبراير ١٩٥٥				
اسم المركب	مكان انطلاقه	وجهته	نوعية السلع	الكمية
Eskandus	مجهول	جزر الكناري	السجائر متنوعة	١٨٠٠ صندوق
Alecto	مجهول	جزر الكناري	السجائر سلع أخرى	مجهولة
Paisa	Maria Consuelo	طنجة	السجائر قطع غيار السيارات	مجهولة
	Villa nueva del Grao	طنجة	سجائر قهوة	مجهولة
Maria Isabel	مجهول	مجهولة	مجهولة	مجهولة

تماماً بالنظر إلى أن هذه الطائرات كانت تفرغ حمولتها في عرض البحر، في زوارق ومراكب صغيرة تتولى نقل السلاح نحو الشواطئ القريبة.^(٢٨)

٣/٤-السيارات

شكلت السيارة وسيلة مفضلة لعدد من المهربين، خصوصاً المتخصصين في تهريب المواد الثمينة، حيث تشير الوثائق إلى أن السيارات استعملت خلال الأربعينات لتهريب المواد الثمينة كالساعات والمجوهرات... وفي نقل السلع إلى الحدود، والمعابر الحدودية حيث كان يتم تفرغها، ليتم نقلها عبر الحدود بواسطة الحمالين أو الدواب.^(٢٩) وخلال عقد الخمسينات، استخدمت السيارات بكثافة من طرف العصابات التي كانت تتخذ من طنجة مركزاً لعملياتها، حيث قاد الحمالون السيارات الأمريكية ذات المحركات القوية كشيفروليه، وكاديلاك، وأولدز موبيل...^(٣٠)

المصدر: A.G.A.81/2143. D.A.I. expediente: Embarcaciones del contrabando

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام، أن السلع التي كانت تدخل إلى طنجة بواسطة هذه اليخوت والمراكب، كانت تخزن في مخازن قريبة من الميناء بتواطؤ مع رجال الأمن، في حين أن نسبة مهمة من الأسلحة التي تم إدخالها للمغرب، كانت تخزن في الكهوف والمغارات الموجودة على امتداد الساحل الطنجي، وأن معظم هذه اليخوت كانت تملكها شركات وهمية.^(٣٧)

٢/٤-الطائرات المائية

من المؤكد أن الطائرات المائية استخدمت خلال الخمسينات في تهريب السلاح من طرف عصابات المافيا الإيطالية التي كانت تستخدم في العادة اليخوت والزوارق السريعة، غير عدد الطائرات المستعملة، ونوعيتها، ومدى ترددتها على المغرب، يبقى غير واضح

والجمارك على الطرق الرئيسية بسيارتهم بسرعة جنونية، وكذلك عن إطلاق النار على كل من يعترض طريقهم، ونقرأ في عدد جريدة لا فيجي ماروكان بتاريخ ٢٠ ماي ١٩٥٤ مقالاً بعنوان: "سيارات محملة بالكيف تقتحم الحواجز الجمركية بسرعة ١٠٠ كلم في الساعة"^(٢٤) وفي عدد ٢٢ ماي من نفس الجريدة نجد مقالاً آخر بعنوان: " معارك حقيقية تستعمل فيها البنادق والرشاشات حول حمولة كيف".^(٢٥)

وتؤكد المبالغ وكميات الممنوعات المهربة، التي كانت تعثر عليها وحدات الجمارك والدرك في حال تمكنها من مصادرة سيارات، التي كانت تحمل في غالب الأحيان لوحات ترقيم مزيفة، أو حين تمكنها من اعتقال هؤلاء أن هذه العصابات توفرت على إمكانات مالية هامة، حيث أوردت جريدة لو بوتي ماروكان في عدد ٢٧ يونيو ١٩٥٤، خبر إلقاء القبض على مُهْرَبَيْن ومعهما ٦٠٠٠٠٠ فرنك فرنسي، وفي عدد يوم ١٠ أكتوبر ١٩٥٤ من نفس الجريدة نقرأ خبر اعتقال مهرب ومصادرة ٣,٥ مليون فرنك.^(٢٦)

٢/٥-تسليح المستوطنين الأوربيين

في سياق الأحداث التي عرفها المغرب أوسط خمسينيات القرن الماضي، ظهرت عصابات مسلحة استغلت ما كان يقع في البلاد، فمارست السرقة وقطع الطرق وشتى أنواع الجرائم في حق المواطنين المغاربة والمعمرين، وعادة ما يوصف هؤلاء في الوثائق الفرنسية بالعصابات الإجرامية Bandes de Criminels، في مقابل الفدائيين الذين تصفهم بالإرهابيين Terroristes، هذه الحالة الأمنية المتردية دفعت العديد من المدنيين، خصوصاً المعمرين إلى اقتناء السلاح بهدف استعماله دفاعاً عن النفس، وأيضاً للإحساس بنوع من الأمان، وربما لترهيب وترويع المواطنين المغاربة، وقد اتجه بعض هؤلاء المعمرين للمحلات المرخص لها بيع الأسلحة، غير أن التعقيدات الإدارية دفعت الكثيرين إلى شراء الأسلحة من السوق السوداء، وتؤكد إحدى الوثائق على أن معظم السلاح القانوني والمهرب كان بيد المعمرين، غير أن السلطات الفرنسية كانت متقاعسة في متابعتهم، وفضلت أن تركز جهودها على المجموعات

ومما يبرز خطورة هذه العصابات، قيام أفرادها بإضافتهم لمخابئ سرية في هياكل السيارات، تزوير لوحات الترقيم، واقتحامهم الحواجز التي كانت تقيمها وحدات الجمارك والشرطة، واستعمال الأسلحة النارية لترهيب أفراد هذه الوحدات، مما خلف قتلى وجرحى في صفوفهم.^(٢٧) وقد خصصت الصحافة الصادرة آنذاك بالمنطقة الفرنسية، مقالات يومية للمواجهات المسلحة بين أفراد العصابات وقوات الأمن والجمارك، والمطاردات التي كانت تتم بالسيارات والتي وصفت بالهوليودية.^(٢٨)

خامساً: بعض نتائج نشاط المافيا الإيطالية في المغرب

١/٥-تفاقم الانفلات الأمني

أدت الجهود التي قامت بها المؤسسات الأمنية الفرنسية والإسبانية خلال عشرينيات القرن الماضي، إلى محاصرة الفوضى الأمنية، والقضاء على العصابات المحلية والأجنبية، وتقليص تدفق السلاح إلى المغرب عبر السواحل.^(٢٩) لكن الأحداث التي شهدتها المغرب خلال الفترة الممتدة فيما بين ١٩٥٣ و١٩٥٦، وفرت من جديد، بيئة مناسبة لظهور وتطور عصابات منظمة، كان من بين أنشطتها التهريب والسرقة والابتزاز والاعتقال... وقد اتخذت عصابات الجريمة المنظمة من المدن الكبرى مركزاً لنشاطها كطنجة والدار البيضاء وفاس... وتصف العديد من وثائق الفرنسية هذه العصابات بالمجموعات الإجرامية Bandes criminelles، Gangsters، تمييزاً لها عن المجموعات الفدائية التي تسميها بالمجموعات الإرهابية Bandes terroristes.

استغلت هذه العصابات الفوضى الأمنية، وانشغال السلطات الفرنسية بقمع الانتفاضات الشعبية المطالبة بالاستقلال، وملاحقة الوطنيين والفدائيين، فمارست مجموعة من الأنشطة المحظورة كتهريب الكيف، والسلاح، والأنشطة الإجرامية، من قبيل السرقة والنهب، وقطع الطرق، والخطير في هذه العصابات أنها كانت تمتلك أسلحة خطيرة، من قبيل الرشاشات والبنادق الهجومية، وكان أعضاؤها لا يتورعون عن اقتحام الحواجز التي كان تقيمها وحدات الدرك

٤/٥-تغير العادات الاستهلاكية

ساهم التهريب الدولي، إلى جانب عوامل أخرى، في حدوث تغييرات على أنماط الاستهلاك في المغرب، حيث كان له دور في تغيير وتعديل بعض الجوانب الثقافية المتعلقة بالملبس والمأكل والمشرب.

فعلى سبيل المثال، يمكن القول إن النسيج والألبسة المهربة من إسبانيا قد أسهمت في انتشار اللباس القطني وتراجع الملابس الصوفية، وعلى مستوى آخر أسهم التهريب في ترسيخ بعض الممارسات السابقة على مرحلة الحماية كتعاطي الشاي والقهوة، التي كانت تهرب بكميات مهمة كما كانت تهرب أيضاً آلات طحن البن.^(٤٢)

وفي نفس السياق تزايدت شعبية السجائر الأمريكية المهربة، كما كان يأتي بها الجنود الأمريكيون وخاصة الطيارين، إلى القواعد الأمريكية في النواصر والقنيطرة ومن هناك حيث كانت تجد طريقها إلى السوق المغربي.^(٤٣)

ولعل من أهم التأثيرات الاجتماعية للتهريب انتشار أجهزة الراديو التي كانت تهرب هي الأخرى، فقد كانت انتشارها في البداية محدوداً ومقتصرًا على المقاهي، لكن تطور التقني الذي طرأ على هذه الأجهزة، وتهريب أعداد مهمة منها إلى المغرب، دفع بأثمانها إلى الانخفاض، لتصبح في متناول العديد من الفئات الاجتماعية.^(٤٤)

٥/٥-عودة طنجة الى السيادة المغربية وتأثيره

على أنشطة المافيا

انتهت الحماية الفرنسية في المغرب بشكل رسمي يوم ٢ مارس ١٩٥٦، وتبعتها الحماية الإسبانية في ٧ أبريل ١٩٥٦، وفي شهر يونيو ١٩٥٦ واقترحت بروتوكولاً لنظام مؤقت. وقد وقّع وزير الخارجية المغربي أحمد بلافريج هذا البروتوكول نيابة عن السلطان محمد الخامس في الرباط يوم ٥ يوليو ١٩٥٦. ونتيجة لذلك، جرى تعيين أول عامل مغربي على طنجة يوم ١٠ يوليوز من نفس السنة كما جرى نقل اختصاصات الشرطة الدول إلى السلطات الأمنية المغربية.^(٤٥) وقد أعطى الملك محمد الخامس "عهداً ملكياً" منحت بموجبه طنجة فترة

الفدائية، بسبب خطورتها على الوجود الاستعماري الفرنسي في المغرب، وفي نفس السياق أقبل بعض المدنيين المغاربة على شراء الأسلحة ولنفس الأسباب التي أوردناها آنفاً.

ويمكن أن نميز هؤلاء المدنيين بين عدة فئات، حسب الغايات التي كانت دفعتهم إلى المخاطرة بامتلاك سلاح غير قانوني:

- أصحاب الضيعات الفلاحية ومربو الماشية: يشكل هؤلاء زبناء تقليديين لتجار السلاح، غير أن العمليات الفدائية التي استهدفت ضيعات المعمرين دفعت هؤلاء إلى شراء الأسلحة بمختلف أنواعها.^(٤٦)
- أصحاب المقاهي والمطاعم والفنادق: من المعلوم أن هذه كثيراً من هذه المحلات تبقى مفتوحة أمام المرتادين ليلاً ونهاراً، مما يجعلها عرضة لاعتداءات من طرف اللصوص، كما أن مسرح طبيعي لعمليات الاغتيال السياسي، لذلك تسلح أصحابها والمشتغلون بها بالمسدسات تحسباً لأي طارئ.^(٤٧)

٣/٥-تسليح المقاومين

من المرجح قسم من السلاح الذي مر عبر ميناء طنجة، وصل إلى أيد المقاومين المغاربة، وقسم آخر جرى تهريبه إلى الجزائر من طرف خلايا شكلها مقاومون مغاربة وجزائريون، وقد قدرت السلطات الفرنسية أن ما يقارب ٣٥٠٠ قطعة سلاح كانت تهرب من المغرب إلى الجزائر كل شهر رغم عمليات المراقبة المشددة التي قامت بها القوات الفرنسية براً وبحراً.^(٤٨)

ولابد لنا في هذا المقام أن نذكر أن المخابرات المصرية، ومعها المقاومون الجزائريون والمغاربة استنسخوا أسلوب المافيا الإيطالية، فانطلقت العديد من اليخوت من مصر باتجاه المغرب لنقل السلاح للثوار الجزائريين، ومن أهم تلك اليخوت اليخت دينا دونت تفاصيل رحلته في العديد من منها المذكرات.^(٤٩)

ويمكن القول إن مخازن الجيش الإسباني، والقواعد الأمريكية في القنيطرة والنواصر وميناء طنجة، شكلت أهم مصادر السلاح الذي حصل عليه المقاومون المغاربة.^(٥٠)

خاتمة

يتضح من خلال ما سبق أن مدينة طنجة، كانت خلال السنوات التي تلك نهاية العالمية الثانية مركزاً حيوياً لنشاط المافيا الإيطالية، بسبب من موقعها الجغرافي ونظامها القانوني والاقتصادي الخاص. حيث شكلت معبراً مهماً للسلاح، السجائر، المخدرات، وحتى السكر، مما أثر بشكل مباشر على الأمن والاقتصاد والمجتمع المغربي.

شكلت أنشطة المافيا الإيطالية في طنجة انعكاساً لسياقات محلية ودولية متداخلة، أبرزها الفوضى التي تلت الحرب العالمية الثانية، وضعف الرقابة على الأنشطة الاقتصادية في المدينة، والتواطؤ بين شبكات الجريمة وبعض النخب السياسية والاقتصادية. وقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى تحول طنجة إلى حلقة وصل مهمة ضمن الشبكات الإجرامية العابرة للحدود.

كما أظهرت الدراسة أن حضور المافيا الإيطالية في طنجة لم يقتصر على التأثير الاقتصادي، بل تجاوزه إلى تعزيز ظاهرة تهريب الأسلحة التي ساهمت في حركات التحرر الوطني في المنطقة، بما فيها الثورة الجزائرية. هذا الدور المزدوج، الذي جمع بين الجريمة المنظمة وتداعياتها السياسية، يُبرز أهمية دراسة هذه الأنشطة لفهم التأثير المتبادل بين الأنشطة الإجرامية والسياسات الدولية.

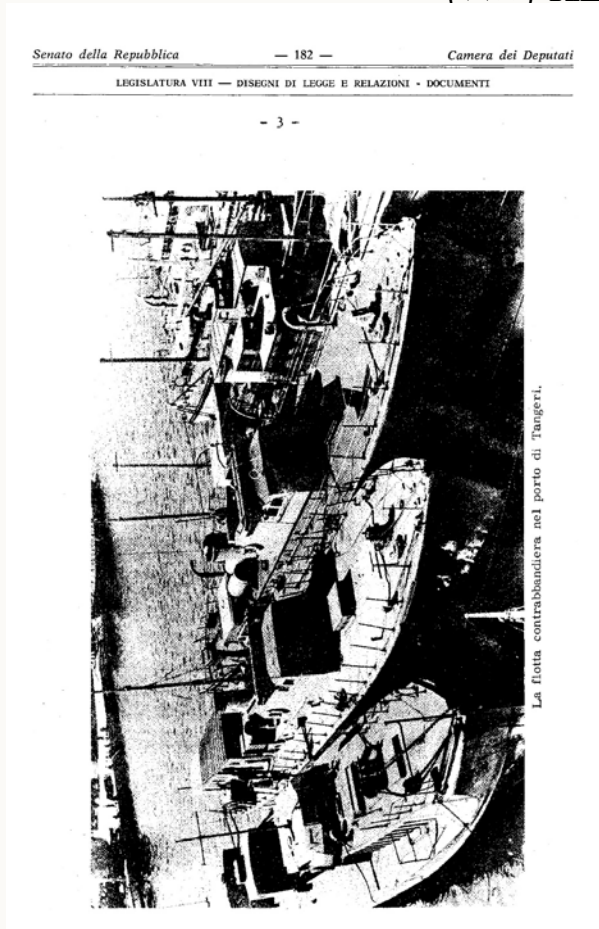
لذلك، ندعو الباحثين لفهم أعمق لديناميات الجريمة المنظمة خلال هذه الحقبة. وإلى دراسة التأثيرات البعيدة الثقافي والاجتماعي لأنشطة المافيا وجماعات الجريمة المنظمة في المغرب عامة وفي مدينة طنجة على وجه، تلك المدينة التي ظلت لسنوات طويلة نموذجاً فريداً ل لقاء المغرب بأوروبا، كما ندعو الباحثين إلى الالتفات للأرشيف الإيطالي.

انتقالية، ونص على استمرار الامتيازات الضريبية وبعض القوانين الخاصة، لتيسير دمج المدينة ومنطقتها ضمن محيطها المغربي، لكن الفترة الانتقالية جرى اختصارها بسبب الاضطرابات التي شهدتها شمال المغرب أواخر الخمسينيات فأُلغي "العهد الملكي"، وانتهت الفترة الانتقالية في شهر أبريل ١٩٦٠، وبذلك انتهى الوضع الخاص لطنجة.^{(٤٦) (٤٧)}

هذه التغييرات العميقة التي شهدتها طنجة خلال السنوات الأولى من ستينيات القرن العشرين، عجلت بتوقف أنشطة المراكب واليخوت المنطلقة من إيطاليا والقاصدة أو المارة عبر المغرب، ويذهب تقرير اللجنة البرلمانية الإيطالية إلى أنه بعد غرق اليخت المسمى كارولا^(٤٨) سنة ١٩٦٣ لم يبق من المراكب التي كانت تقصد جبل طارق وطنجة سوى مركب واحد كان اسمه غوراني،^(٤٩) وكان ذلك إيذاناً بتوقف هذا النشاط الذي استمر سنوات طويلة.^(٥٠)

صورة رقم (١)

صورة ليخوت ومراكب كانت تستخدم في أنشطة التهريب من طرف المافيا الإيطالية وهي راسية في ميناء طنجة (١٩٥٥)



المصدر:

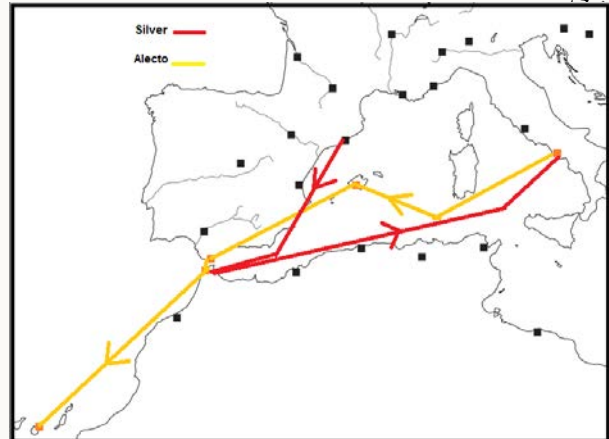
Documentazione allegata alla Relazione conclusiva della commissione parlamentare d'inchiesta sul fenomeno della mafia in Sicilia. Senato della Repubblica Italiana, (Doc.XXIII N.2 - Vi Legislatura), volume quarto tomo quattordicesimo parte prima, Roma 23 Ottobre 1980. P 183.

الملاحق:

خريطة رقم (١)

توضح مسار اليخت سيلفر واليخت أليكتو (شهر فبراير ١٩٥٥) وهي من اليخوت التي كانت تستعملها المافيا الإيطالية لنقل السلاح وبعض السلع المهربة من نابولي

إلى طنجة



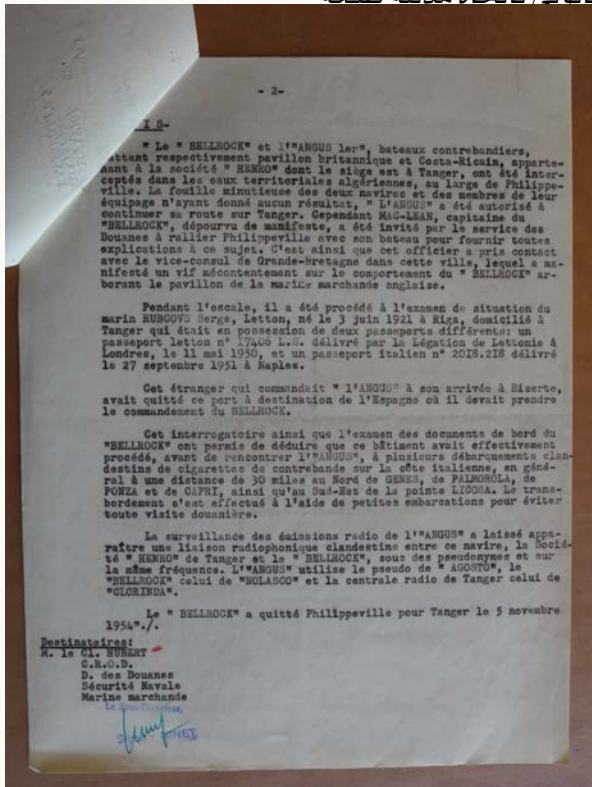
المصدر:

A.G.A. Caja 81/2143, D.A.I, Silver embarcación dedicada al contrabando, expediente: n° 12106, legajo n° 103.

A.G.A. Caja 81/2143, D.A.I. Alecto embarcación dedicada al contrabando, expediente: n° 12250, Legajo n° 103.

صورة رقم (٣)

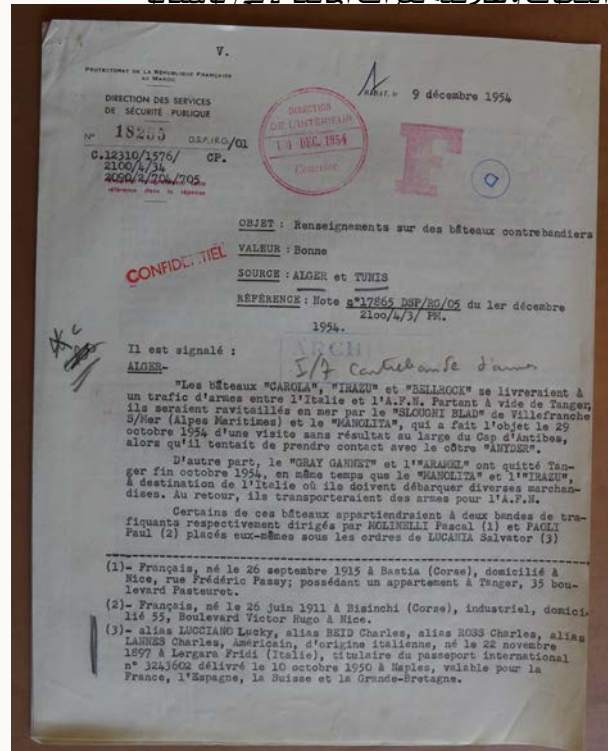
تقرير عن طاقم يخت التهريب **Agnus** ورحلته من
ناهول، باتجاه مدينة طنجة



المصدر: A.D.F.N. 1MA/200/506A

صورة رقم (٢)

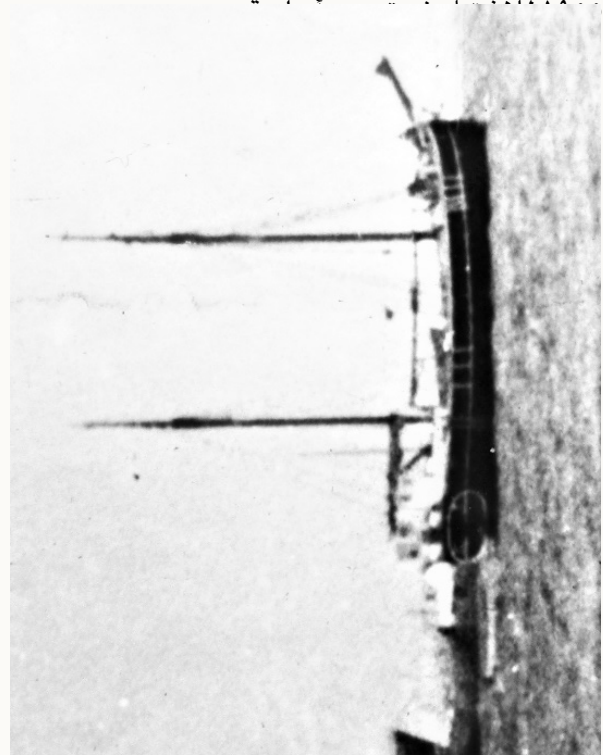
تقرير فرنسي عن مجموعة من نشاط التهريب بواسطة
البخوت وعلاقته بعراب المافيا لأك، له شبانه



المصدر: A.D.F.N. 1MA/200/506A

صورة رقم (٤)

صورة لليخت إيما Emma الذي أغرقته البحرية الفرنسية في عرض سواحل طنجة بتاريخ ١٨ أكتوبر



المصدر: A.D.F.N. 1MA/200/502

صورة رقم (٥)

ملصق فيلم أمريكي صدر سنة ١٩٥٣ وهو واحد من عدة أفلام ركزت على أنشطة التهريب



الإحالات المرجعية:

نشطت فيما بين أربعينيات وسبعينيات القرن الماضي سميت بهذا الاسم بسبب الدور المحوري لميناء مرسيليا في أنشطة هذه الشبكة.

(19) Senato della Repubblica Italiana. Documentazione allegata alla relazione conclusiva, Op.cit, p. 210.

(20) Ibid.

(21) Ibid.

(22) Miège, J. L. (1957). Origine et développement de la consommation du thé au Maroc. **Bulletin Économique et Social du Maroc**, 20(71), 378.

(23) A.G.A. Caja 81/1912. D.A.I, Negociado de información, Expediente: Indígenas de La zona francesa muestra deseos de adquirir azúcar morena.

(24) A.G.A.81/2143. D.A.I. expediente: Embarcaciones del contrabando.

(25) Ibid.

(26) A.D.F.N. 1MA/200/502. Direction des services de sécurité publique, note de renseignement au sujet d'un navire mouillant au large des côtes de la zone espagnole, n° 16432, 12 octobre 1955.

(27) Senato della Repubblica Italiana. Documentazione allegata alla relazione conclusiva, Op.cit. p. 110.

(28) A.D.F.N. 1MA/200/502. " Lettre de la 17 -ème Goum de Commandement et d'Accompagnement de Tabors à la Direction de l'Intérieur ", n° 136/G17/SG.

(29) A.G.A.81/1910, Intervención del Kert, nota n° 3866, 8 enero 1951.

(30) "Deux voitures de fraudeurs saisies, cinq cents kilos de kif confisqués," *La Vigie Marocaine*, June 9, 1953.

(31) A.D.F.N. 1MA/200/502, Lettre de la Direction des Services de sécurité publique au Général de Corps de l'Armée Leblanc, n° 15426, 7 avril 1955.

(32) Quand les douaniers et les fraudeurs sont aux prises..., *La Vigie Marocaine*, 22 mai 1954.

(33) A.D.F.N.1MA/200/502. Direction des affaires indigènes, note au sujet de la contrebande des armes, 29 août 1931.

(34) De véritables combats autour un chargement de kif, *La Vigie Marocaine*, 22 mai 1954.

(35) Ibid.

(36) *La Vigie Marocaine*, October 10, 1954

(37) A.D.F.N.1MA/200/502, Directeur de l'Intérieur, rapport spécial, n° 35/55, 27 juin 1955.

(38) Ibid.

(39) A.D.F.N.1MA/200/502. Direction des Services de sécurité publique, Trafic d'armes, n° 4475, 22 mars 1956.

(1) رسالة من محمد بن الخضر إلى النائب السلطاني محمد الطريس بخصوص عصابة ولاد بيسينطي بتاريخ فاتح شوال ١٣٠٧ (١٨٨٩) المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان مح ١٠/٧٤.

(2) Bouchet, H. (1931, août 11). **Avec les contrebandiers d'armes au Maroc**. Le Journal

(3) Omerta.

(4) A.D.F.N. 1MA/200/508. Direction des affaires politiques, note de renseignement, n° 5573, 16 novembre 1939.

(5) Del Arco Blanco, M. Á. (2010). El estraperlo, pieza clave en la estabilización del régimen franquista. In J. Rodrigo (Ed.), *El primer franquismo. Nuevas visiones, Historia del presente*, 15, 65.

(6) Senato della Repubblica Italiana. Documentazione allegata alla relazione conclusiva della Commissione parlamentare d'Inchiesta sul fenomeno della mafia in Sicilia (Doc. XXIII N. 2 - VI Legislatura), Volume Quarto, Tomo Quattordicesimo, Parte Prima, Roma, 23 ottobre 1980, p. 206.

(7) Padovani, M. (1991). Cosa Nostra. Paris: Editions de la Seine, p 120.

(8) Senato della Repubblica Italiana. Documentazione allegata alla relazione conclusiva, Op.cit, p. 206.

(9) A.D.F.N. 1MA/200/506A. Lettre de la Direction des services de la sécurité publique à la Direction des douanes, n° 18255.

(10) A.D.F.N.15M1/900/267.Region Oujda, dossier organisation de contrebande, N(o) 3654 RO/2, 14 Septembre 1951

(11) Ibid.

(12) A.G.A. 80/1912, Carpeta Contrabando en la zona de Tanger.

(13) Senato della Repubblica Italiana. Documentazione allegata alla relazione conclusiva, Op.cit, P 304.

(14) A.D.F.N. 1MA/200/502. Lettre de l'adjoint principal de contrôle, chef de l'annexe de Tafogalt au contrôleur chef de cercle de Beni Snassen, n° 1198, 17 mai 1955.

(15) A.D.F.N. 1MA/200/502. Note de la Direction des services de la sécurité publique, A/S du navire Emma, 14 octobre 1955.

Senato della Repubblica Italiana. Documentazione (16) allegata alla relazione conclusiva, Op.cit. P 183.

(17) *Quand les douaniers et les fraudeurs sont aux prises...*, *La Vigie Marocaine*, 2 mai 1954.

(18) The French Connection شبكة دولية لتفريب المخدرات من الشرق الأوسط وخصوصا من تركيا باتجاه الولايات المتحدة الأمريكية

- (٤٠) انظر على سبيل المثال: فتحي الديب، **عبد الناصر وثورة الجزائر**، دار المستقبل العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٠. - حمدون شوراق، **الباخرة دينا تسليح المغاربة للثورة الجزائرية**، دار الإحياء للنشر والتوزيع، طبعة ٢٠٢٣.
- Bouzar, N. (1993). *L'Odyssée du Dinah. Récit du premier transport d'armes de la Révolution magrébine* (Préface d'A. Ben Bella). ENAL.
- (41) A.D.F.N.1MA/200/502.
- (42) A.G.A. Caja 81/2143. D.A.I. Sección 2º, expediente: 12160, asunto: Hamido, embarcacion dedicada al contrabando, 1954.
- (43) A.D.F.N 1MA/200/506A. Direction de l'Intérieur, Section politique, bulletin de renseignement de Casablanca, n° 4318 DI-POLC/1.B.
- (44) A.G.A.81/2143. D.A.I. Miguel Molina Martin el americano contrabandista domiciliado en Tánger, n° 12182.
- (45) Cordero Torres, J. M. (1957). La disparition de la Zone internationale de Tanger. *Civilisations*, 7(2), Institut de Sociologie de l'Université de Bruxelles. P 213.
- (46) Vatin, F. (2016). Tanger en toutes franchises: Mondialisation, industrialisation et question sociale. *Esprit*, 424(5), 90.
- (٤٧) **الجريدة الرسمية المغربية**، عدد ٢٤٥٢، ٢٣ أكتوبر ١٩٥٩.
- (48) Carola.
- (49) Guarani.
- (50) Senato della Repubblica Italiana. Documentazione allegata alla relazione conclusiva, Op.cit. p. 270.

مسار تحرر المرأة في تونس قبل الاستقلال وبعده من خلال الشعر الشعبي

طارق محمدي

باحث دكتوراه في التاريخ المعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – سوسة
الجمهورية التونسية



ملخص

تتناول هذه الدراسة مسيرة تحرر المرأة التونسية من فترة ما قبل الاستقلال إلى ما بعده، مركزة على كيفية تمثّل هذه التحولات في الشعر الشعبي بوصفه مرآة للوعي الجمعي والثقافة المجتمعية. ينطلق الباحث من تحليل صورة المرأة التونسية كما عكستها القصائد الشعبية، ليرى التحول العميق الذي عرفته مكانتها الاجتماعية والحقوقية، خاصة مع صدور مجلة الأحوال الشخصية عام ١٩٥٦، والتي أحدثت قطيعة قانونية مع المنظومة التقليدية، حيث منعت تعدد الزوجات وأقرت حق الطلاق وسن الزواج والتعليم للنساء. تؤكد الدراسة على أن الشعر الشعبي قبل الاستقلال عبّر في أغلبه عن نظرة دونية للمرأة، حيث صوّرت ككائن تابع للرجل، محروم من الحقوق، ومحصور في دور الأم والزوجة. ومع صعود الطاهر الحداد وأفكاره التجديدية، بدأ الخطاب حول المرأة يتغير تدريجياً. وقد دعم هذا التحول مشاركة المرأة الفعلية في المقاومة ضد الاستعمار، حيث شاركت بالتموين والاتصال، وحتى حمل السلاح. بعد الاستقلال، بدأ الشعر الشعبي يعكس التغييرات القانونية والاجتماعية، فاحتضن بعض الشعراء بما حققتهم الدولة البورقينية للمرأة من تعليم وحرية، في حين هاجمه آخرون بشدة واعتبروه خروجاً عن الدين والعرف. خلصت الدراسة إلى أن الشعر الشعبي التونسي لم يكن محايداً تجاه تحرر المرأة، بل انقسم بين التأييد والرفض، وهو ما يعكس التحولات العميقة في المجتمع التونسي. كما اعتبرت الدراسة أن تحرير المرأة كان خطوة مفصلية في بناء الدولة الحديثة، رغم ما أثارته من جدل طويل.

كلمات مفتاحية:

المرأة التونسية؛ الأحوال الشخصية؛ الشعر الشعبي؛ الاستقلال؛ التاريخ الثقافي

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٨ ديسمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢٢ يناير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.344982.1192

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

طارق محمدي، "مسار تحرر المرأة في تونس قبل الاستقلال وبعده من خلال الشعر الشعبي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السبعون؛ أغسطس ٢٠٢٥. ص ١٨٠ - ١٩٠.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: tarek1993mhamdi@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

أولاً: وضع المرأة التونسية قبل صدور مجلة الأحوال الشخصية من خلال الشعر الشعبي

١/١- مكانة دونية للمرأة قبل الاستقلال

تُعدّ المرأة جزءاً لا يتجزأ من المجتمع التونسي، ورغم ما حظيت به من مكانة عظيمة طوال التاريخ، والشاهد على ذلك بعض الأسماء التي اشتهرت بها تونس على غرار (عليسة وروى القيروانية وفاطمة الفهرية وعزيزة عثمانة والسيدة المنوبية...)، بالإضافة إلى ما جاء به الإسلام من ضمان لحقوق المرأة والتوصية بإعطائها حقوقها وكرمها الله عز وجل بكونها ليست أنثى فقط، بل هي زوجة وبنت وقبل ذلك هي أم و"الجنة تحت أقدامها"... وهي نصف المجتمع. يقول الرسول (ﷺ) "إنما النساء شقائق الرجال، ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم"^(١). ومن هذا الحديث النبوي نتبين أن الإسلام كرم المرأة أعظم تكريم وتتساوى مع الذكر في إنسانيتها وكل الأمور كالحقوق والواجبات... وهذا ما يؤكد القرآن الكريم في قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً"^(٢) لكن مع مرور الزمن وتغير الأحوال بدأت مكانة المرأة التونسية في التدهور نحو التآخر. حيث تم الرجوع إلى صنيع الجاهلية الأولى وتم تحقيرها والزج بها في البيوت وافتكاك حقوقها. كحرمانها من حق التعلم وحق الميراث وإكراهها على الزواج بدون مشورتها وحرمانها من حق العمل والمشاركة في الحياة وبناء المجتمع، والاكتفاء بدور الزوجة والأم، إن فقدان المرأة التونسية لحقوقها كان نتيجة هيمنة الرجل والالتزام بالضوابط والنواميس القبلية والعادات والتقاليد التي حددها المجتمع التونسي وهذا شاهد على النظرة الجسدية للمرأة التونسية "بنت العشرين لا عقل ولا دين، وبنت الثلاثين تفاحة للناظرين وبنت الأربعين كسكسي ولحم سمين، وبنت الخمسين تولي أم المؤمنين وبنت الستين أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"^(٣).

وهذا التصور الشعبي للمرأة التونسية الذي صاغته الذاكرة الشعبية والتي تغيب الإدراك الديني الصحيح. وتكتفي بظاهر الآية أو الحديث دون الاجتهاد في

نتناول بالبحث في هذه الدراسة: "مسار تحرير المرأة التونسية قبل الاستقلال وبعده". وفي الحقيقة سنسلط الضوء على مكانة المرأة التونسية قبل الاستقلال متحدّثين عن نقاط التحول التي ستشهدتها بعض النخب المثقفة، وعلى رأسهم "الشيخ الطاهر الحداد" فهو نقطة تحول في المشهدية الثقافية التونسية فيما يخص تحرير المرأة. إذ ارتقى فيه الطاهر الحداد إلى أسْمى معاني الإنسانية عن طريق طرحه لنموذج المرأة من الشريعة والمجتمع من خلال كتابه "امرأتنا في الشريعة والمجتمع". ويمكننا الحديث عن وضع المرأة التونسية الصعب قبل الاستقلال، لكن يمكننا الحديث أيضاً عن بداية تشكل نضج ووعي نسبي في المجتمع التونسي. وفي طرح مسألة المرأة التونسية اخترنا مصدراً من مصادر كتابة التاريخ الثقافي والاجتماعي والسياسي ألا وهو "الشعر الشعبي" الذي واكب هذا المسار، بل كان قبل الاستقلال يصور المرأة بصورة تقليدية نتيجة الذهنية التي درج عليها منذ قرون. وبدا تطور صورة المرأة التونسية في الشعر الشعبي بعد الاستقلال. إذ أصبح الشعراء يتغنون بإنجازات دولة الاستقلال ومن بينها "مجلة الأحوال الشخصية". هذه المجلة التي ستخلق تناقضاً وتعارضاً بين الشعراء الشعبيين وخاصة بعد طرح قيم المساواة بين المرأة والرجل وحرية المرأة ومنع تعدد الزوجات والحجاب والتعلم والتجارة..."

ومن هنا نطرح الإشكاليات التالية:

- أي صورة للمرأة التونسية رسمها الشعر الشعبي قبل الاستقلال؟
- وما هو موقف الشعر الشعبي من "مجلة الأحوال الشخصية"؟
- وهل تباينت آراء الشعراء الشعبيين حول حرية المرأة وتحريرها؟
- وإلى أي مدى نجح الشعر الشعبي في مواكبة تحول المسار التحرري للمرأة التونسية؟

التفسير والتأويل. فكانت مكانة المرأة التونسية قبل الاستعمار وخلاله مكانة متردية وضحلة. وما يؤكد هذه المكانة الدونية هو ما كانت تتعرض له من ظلم وجور وقهر وسجن... "دار جواد"^(٤) يقول "الطاهر الحداد"^(٥): "أسسوا لها معهدا خاصا بها لعلاجها هو ما يسمى "دار جواد"، منزل خاص يقيم عليه الشيخ القاضي رجلا قيما يسمى "جيذا" وامراته وتسمى "جيدة"..... ويضيق عليها في طعامها وكسائها وتنام وحدها ليلا "ولا تباح زيارتها إلا بإذن وبمشقة، كل ذلك لتتزلزل الوحشة في قلبها فتطلب بنفسها الرجوع إلى بيت الزوجية تائبة مستغفرة معلنة الرضى والخنوع"^(٦).

وقد وصف الشعر الشعبي حالة المرأة التونسية ونظرة المجتمع لها على أنها متهمة بكل عيب ونقص بمجرد محاولتها الخروج للحياة العامة. إذ يقول الشاعر "عبد العزيز الناي" من الفحص ولاية زغوان، في قصيد بعنوان "إنجازات الاستقلال من ١٩٥٦ إلى ١٩٧٥" في هذا السياق:

والمرأه اخذات الحرية ارتاحت من قبله وقال

متهمة بالعيب برّيه ومكتوفه من غير غلال"^(٧)

ينقد الشاعر وضعية المرأة قبل الاستقلال فيقول إنها كانت تتعرض للقليل والقال والتشكيك في شرفها وعرضها. وتتهم بالعيب والفاحشة وهي بريئة من هذا الفعل، وهي محبوسة ومقيدة بكلام الناس والضوابط التي يضبطها المجتمع الذكوري. وقد كانت القصائد الشعرية الشعبية تقريبا قبل الاستقلال كلها ضد المرأة وتحررها. وهذا مقطع آخر من قصيد للشاعر الشعبي "عبد الرحمان الكافي"^(٨) الذي اشتهر بشعره الجريء والناقد للأوضاع السياسية والاجتماعية والسياسة الاستعمارية والمجال الثقافي "التمدن" أي التشبه بالفرنسيين. كما عرف برفضه الشديد لموضوع تحرير المرأة من الضوابط الاجتماعية والدينية. يقول في قصيد بعنوان "بين الأب وابنته" ومنها:

"عركه وخصومه وقيامه وقحار"^(٩)

ما بين الطفلة حيزية وبوها سي بكار

عركة وفضيحة قدام العموم

ما بين البنت المغرومه وباباها المخروم^(٢)
ومنها ما قالته "البنت"
أسمع ما قالت فطومه للأب المتهقوم^(٣)
ما نحيش نخرج مغموم برقع^(٤) كي الحموم
ولا عصابه سوده زنزيه ولا تكرير عجار^(٥)
نحب نعري كي "ماريه"^(٦) ونمشي للبازار

جواب الأب:

قالها يزي يا غشيمه بطل ها التخمام
إذا كنت لببّه وفهيمه وصاحبة إحترام
إبعد ساحة كل ذميمه ولا تأمن الأيام
راو عرضك في وجهك ديمه ألسنة الناس أقلام
المعري ما عنده قيمه بيراد ويشوام
إسمع يا زين التبسيمه ما تعاند الأروام^(٧)
إذا كان نزعتي التلثيمه^(٨) يقولو بنت حرام
وتولي مثل التلثيمه^(٩) لا قدر ولا مقام
وتجيني منك لأذيه وسب وشتم وعار
ما بين عرب وبلديه ونجوع ودوار

رد البنت:

"قالت البنت الضبضابه^(١٠) ما نحيش عتاب
أنتيكه^(١١) فكرك يا بابا ماهو راي شباب
آش من لذه في العصابه كحلّه مثل غراب
تواتي عجوزه شقلابه لا سنّة لا ناب
المبراصه^(١٢) ولا المجرايه كي تغطيه صواب
أما أنا نهز الكرطابه ونمشي للكتاب
جبيني والقصه صابه وعيوني نشاب
إنحب يشوفوني الخطابه صغار وشياب
لاش زيني نخبيه رزيه ما تشوفاش أنظار
لا عوره لاني دونيه لا وجهي مصفار

جواب الأب:

"قال ليها يكفي يا بويه أغناك م التغليب^(١٣)
في ظني بنتي مرتوبه ما ترضاش العيب
ظهرتي كلبه مكلوبه جيتي بفكر غريب^(١٤)
على الهمله مثل المجدوبه تهفي كالتبيب^(١٥)
كشفتي حالي يا مكبوبه من همك كئيب^(١٦)

ما بقيتش تسوى خروبه^(١٧) في نظر كل حبيب^(١٨)

يظهر جلياً من خلال هذه القصيدة رفض المجتمع التقليدي وأنصار النظرة الدونية للمرأة والرافضين لتحررها وخروجها للتعليم والعلم ورفض مشاركتها في الحياة العامة. وقد صورها عبد الرحمان الكافي على أن خروجها دون "حجاب" (تليثمه) يجلب لأبيها العار والمذلة وهي مصدر كل أذية للعائلة على حد قوله، هذا الوضع الذي كانت تعيش فيه المرأة التونسية نقده الشاعر "أحمد فارس الشدياق"^(١٩) إذ يقول وهو يصور معاناة ومأساة التونسية قبل الاستقلال:

"محبوسة في بيته

مشتومة مزدجرة"^(٢٠)

مأمورة مقهورة

كأنها مستأجرة"^(٢١)

لا تستطيع نظرة

من دون حجب منكرة"^(٢٢)

وما يراها من أحد

وإن يكن من سحرة"^(٢٣)

وراءها هراوة"^(٢٤)

تفلق رأس الصخرة

فإن رأت ما لم ير

أو خالفت ما أمره

طار شظايا رأسها

عنها مطير القبرة"^(٢٥)

من أجل هذا لن ترى

في السوق إلا الذكر^(٢٦)." ^(٢٧)

وهنا يعبر الشاعر عن الظلم المسلط على المرأة التونسية فهي مثل السجينة "المحبوسة" ليس لها الحق في الحياة. وهذا ما دفع ببعض المصلحين المفكرين أصحاب الفكر النير مثل الطاهر الحداد محاولة تقويم وتعديل النظرة القديمة للمرأة التونسية، من خلال كتابه "إمرأتنا في الشريعة والمجتمع". الذي تحدث عن صورة غير مألوفة للمرأة وحاول تدعيم أفكاره بالحجج الدينية (القرآن والسنة وآراء بعض الفقهاء...). ويهاجم الحداد أعداء الحداثة بقوله: "يكفي أن نتصور عجزها عن

الحساب من الواحد إلى ما فوق العشرة وأنها لا تعرف أن تؤرخ الحوادث إلا بعام الطاعون أو المجاعة".^(٢٨) ومن ذاك التاريخ أصبح الناس فريقين: أنصاراً لها وهم قلة ومعارضين لتحررها وهم الأغلبية الساحقة من الشعب والنخب الدينية. وقد تعرض الحداد إلى نقد كبير وصل حد "التكفير"، ورد عليه الشيخ "محمد صالح بن مراد" ففي كتاب "الحداد على امرة الحداد". توفي الطاهر الحداد دون أن ينظر إلى أفكاره النيرة تتحقق على أرض الواقع. وتواصلت منزلة المرأة التونسية في التراجع والدونية. لكن ما قدمته المرأة التونسية من نضال أثناء الفترة الاستعمارية رغم تهميشها لا يخفى عن أحد. ففي ما يمثل دور المرأة التونسية في النضال والمقاومة من أجل الوطن؟ وكيف نافست الرجال في خوض الملاحم والبطولة؟

٢/١- دور المرأة التونسية في النضال والمقاومة

لطالما كانت المرأة ركن من أركان الوطن والمجتمع وعامل من العوامل الفاعلة في تحرر الأوطان من المستعمر. والمرأة التونسية لها نصيب كبير من الفاعلية في حركة المقاومة والنضال السياسي والمسلح. وقد شاركت المرأة لأول مرة بصورة علنية في المظاهرات والاحتجاجات مع الرجل في افريل ١٩٣٨ يوم وقفت المرأة التونسية شامخة في وجه جور الآلة الاستعمارية. يقول الأستاذ عادل بن يوسف في مقال تحت عنوان "في الذكرى الحادية والثمانين لأحداث ٩ افريل ١٩٣٨ : الذكرى والعبرة" "كما خرجت مسيرة نسائية ضمت حوالي ٨٠ امرأة وفتاة رافعات الأعلام التونسية في القصة".^(٢٩) وقد كانت هذه المشاركة نتيجة تبلور وعي لدى المرأة التونسية بضرورة إثبات ذاتها ودورها في النضال والعمل الوطني خاصة بعد تأسيس الجمعيات النسائية من ذلك نذكر: "كانت أول جمعية نسائية تونسية تكونت في فيفري ١٩٣٢" "جمعية النساء المسلمات"^(٣٠).

وهي جمعية خيرية أسستها مجموعة من النسوة من الأوساط البرجوازية. وكانت أبرز جمعية واتحاد تأسس ليكرس مكانة المرأة التونسية هو "الاتحاد النسائي الإسلامي التونسي": "وقد تأسست هذه الجمعية

في الليل استقلينا سيارة وخرجنا من تونس ثم دخلنا مسلكا فلاحيا... وجدنا ثلاثة رجال وامرأتين... أعطاني أحدهم ٨٠٠ ألف فرنك وقال لي سلمها إلى سي الطيب مع رسالة... هذه أول رسالة من الحزب إلى المقاومين^(٩). وفي هذه الشهادة إشارة إلى مشاركة المرأة التونسية الرجال بتسليم المال والسلاح للمقاومين. يقول الشاعر الشعب "عثمان العثماني" من السواشي ولاية المهديّة. حول مشاركة النساء في مواجهة المستعمر أثناء "الثورة المسلحة" في قصيد تحت عنوان "تونس والثورة":

والساحل ضحوا شبّانه
وشيوخ ونسوان
زدموا على حامي نيرانه
بشجاعه وإيمان
وهانوا نفوسهم للجبّانه
في طوع الرحمان^(١٧)

لا يمكن أن ننكر دور المرأة التونسية في مواجهة المستعمر الفرنسي فقد قدمت الغالي والنفيس في سبيل تحرير الوطن. وكان لها دور في العمليات الكفاحية ومساعدة "المقاومين في الجبال بشتى الطرق. كانت النساء تحملن المؤونة والغذاء والذخائر إلى المقاومين في وضع النهار على الحمير. وتشكل دعامة قوية من دعائم الثورة التونسية بشهادة المقاتلين، نذكر من بين هؤلاء النسوة اللواتي سجلهن التاريخ بكل أحقية وعن جدارة: "هنية بنت لطيف من تطاوين: مولودة عام ١٩١٧ ناضلت في الحقل السياسي بداية من ١٩٤٧، ومن رفيقاتها في الكفاح فاطمة الذبيبي ورقية بنت عبد الحميد الزواوي وعائشة بنت الناصر^(١٨)، التي التجأ إلى بيتها المقاومون الذين هربوا من سجن تونس سنة ١٩٤٩ و١٩٥٠... أثناء معركة جبل مطير. وتقلت هنية بنت لطيف برفقة أطفالها وسلفها لإيصال أسلحة وأدوية لمصباح الجربوع ومحمد قرفة كما أنقذت علي الجويي^(١٩). يذكر نفس المرجع السابق اسم "فاطمة بنت الشيباني بن سعد رمادة" مولودة عام ١٩٣٣، نشطت في الصراع المسلح سنة ١٩٥٤ بتوفير المؤن وإمدادات المقاومين^(٢٠). هذا إن دل على شيء فهو يدل على حضور المرأة التونسية بكل قوة وشجاعة في ميادين

انطلاقاً من دار الشيخ الإمام محمد صالح بن مراد ذاته وأسوة بالاتحاد النسائي المصري^(١٤). وقد كان لهذه الجمعيات دور كبير في بداية رسم مسار تحرير المرأة التونسية. وبدأت تظهر تغييرات كبيرة في حياتها نتيجة احتكاكها بالمرأة الأوروبية وبداية التعلم والمشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية. وتجسد ذلك في مساندة الرجال أيام المقاومة المسلحة بين ١٩٥٢-١٩٥٥. إذ يقول الشاعر الشعبي "علي الكيلو"^(١٥) في قصيد بعنوان "اعتقال الزعيم" وهو يعدد خصال المرأة التونسية الشجاعة ومنها نورد هذا المقطع:

في كل مدينة وبلد
عاد الرومي^(١٦) مستبد
حسبو نحن ليهم ضد^(٢)
لا سلاح ولا عنا باش
والا تشوفوا بالمنجد
العربي بميا ما يرضاش^(٤)
وكان جينا متسلحين
يسرّحنا بينا الأمين^(٥)
الحرب تقوم بيه نساوين
والمرات تردع ستاش^(٦)
أما لا جهد ولا حين
بصحايجنا ما سلمناش^(٧)

فالشاعر يتمنى لو يتوفر السلاح من أجل المقاومة والنضال. ولو يتم توفير السلاح حتى النساء سيعلن الحرب والمرأة منهن تهزم ستة عشرة من الأعداء. فمنهن من حملت السلاح وأخريات يجهزن المؤونة "للفلاحة" المقاومين ويصلحن الثياب ويعملن كجواسيس ومخبرات للقيادة المسلحة من تحركات الجيش الفرنسي. ولعل ما يميز هذه الفترة من تاريخ تحرر المرأة، هو الوعي النسبي بضرورة النهوض بذاتها ومحاولة إثبات نفسها في المعارك الحاسمة. وهذه شهادة لأحد قادة المقاومة بالحامة قابس وهو السيد "عمار بن فرج بن عمار السبوعي" يقول فيها:

"وفي إحدى المرات راسل جماعة من تونس "سي الطيب"^(٨) يطلبون ذخائر... وعندما وصلنا إلى تونس قلت لذلك المخازني أنني سأوصل الهدية لأصحابها...

وأصبحت أول طبيبة تونسية وكانت لها مسيرة حافلة بالعطاء والإنجازات أهمها على الإطلاق توليها "إدارة التنظيم العائلي والعمران البشري، التي أصبحت فيما بعد ديواناً وطنياً. وأوكلت لها وزارة الصحة مهمات صعبة من أجل برنامج وطني يضمن صحة العائلة".^(٢٤) وتوفيت منارة الطب التونسي سنة ٢٠١٠ رحمها الله.

هؤلاء النسوة اللواتي تركن أثرا يذكره التاريخ كل مرة وكلما تم ذكرهن، لأن لهن فضلاً كبيراً في تنوير الوعي النسوي وتقديم المرأة التونسية على أنها قادرة على ما يقدر عليه الرجل. وسنكتفي بذكر هذه الأسماء نظراً لطول خبرهن وكثرتهن والمجال لا يسمح بالتوسع أكثر. هذا باختصار شديد وضع المرأة التونسية قبل الاستقلال وأثناء المقاومة المسلحة. حيث سلكت طريق الرجال في المقاومة والكفاح من أجل نيل الاستقلال.

فأي مكانة للمرأة التونسية بعد الاستقلال؟ وهل ستبقى نظرة المجتمع الدونية لها أم ستضمحل؟ وكيف أرخ الشعراء الشعبيون لمسيرة المرأة التونسية بعد الاستقلال؟ وما هي ردود فعل أغلبهم عن الإنجازات التي ستقدم عليها الدولة البورقيبية لفائدة المرأة؟

ثانياً: صورة المرأة التونسية في الشعر الشعبي بعد الاستقلال

١/٢-إنجازات الاستقلال لفائدة المرأة كما وثقها الشعر الشعبي

سنتحدث في هذا العنصر عن التحولات في أوضاع المرأة وكيفية حصولها على حقوقها من خلال التشريعات والمجلات القانونية التي أصدرتها دولة الاستقلال، لقد بدأت أحلام وأمال "الطاهر الحداد" في التحقق مباشرة بعد الاستقلال. وستتحقق نبوءته في تحرر المرأة التونسية بصدور "مجلة الأحوال الشخصية"^(٢٥) الصادرة يوم ١٣ أوت ١٩٥٦ وتتمثل أكثر إجراءاتها جرأة وثورية في منع تعدد الزوجات وإقرار الطلاق العدلي وحق المرأة والرجل في طلب الطلاق وحق التعويض عن الضرر المادي والمعنوي عند الطلاق، واشتراط رضا الزوجين في الزواج وتحديد سن الزواج للمرأة بسبع عشرة سنة

الحرب والمقاومة. وكانت مساهمتها فعالة وهامة وتراوحت أدوارها من القتال في الجبال جنباً إلى جنب مع الرجال بالسلاح، أو إعداد الطعام لهم وخياطة الملابس ونقل السلاح وتكوين شبكة لنقل المعلومات (الجوسسة) حول تحركات القوات الفرنسية لتسهيل عمليات الإغارة والهجوم على الفرنسيين. وقد تم تسجيل بعض الأسماء للمقاومات اللواتي صعدن الجبال: "فلم نسجل سوى ثلاث نساء، ... حسنية رمضان عميد من مجموعة الأزهر الشرايطي بجهة قفصة وكذلك رفيقتها الجزائرية مسعودة موساوي المعروفة باسم محجوبة منصور... أدركت النساء من مختلف الانتماءات ضرورة رص الصفوف والاتحاد. ففي ١٥ فيفري ١٩٥٢ نظمت نساء العاصمة مظاهرات أمام الإقامة العامة وقمن بقذف أربع قنابل في اتجاه قوات الأمن.

ونتيجة لكل هذه التحركات النسائية لم تتردد السلطات الفرنسية من القيام بسلسلة من الإيقافات وعمليات الإبعاد الجماعي في صفوف النساء.^(٢٦) بالإضافة إلى هذه الأسماء نجد صنفاً آخر من المناضلات التونسيات في المجال السياسي والنقابي اللواتي تركن أثراً باهراً في تاريخ المرأة التونسية وعلى سبيل الذكر لا الحصر. "بشيرة بن مراد (ولدت سنة ١٩١٣ وتوفيت سنة ١٩٩٣) وهي رائدة الحركة النسائية في تونس وابنة الشيخ محمد صالح بن مراد شيخ الإسلام الحنفي): وقد ترأست "الاتحاد النسائي الإسلامي" حتى حله سنة ١٩٥٦... وبعثت هذه الجمعية بمباركة ومساندة الدستوريين حتى أن أول قانون أساسي لها كتبه رشيد إدريس، ولقيت دعم الاتحاد العام التونسي للشغل في شخص فرحات حشاد.^(٢٧) كما أول طبيبة تونسية والتي فتحت أبواب النجاح أمام المرأة التونسية على مصراعيه وهي "توحيدة بن الشيخ: التي ولدت في ٢ جانفي سنة ١٩٠٩. وتنحدر من عائلة أصيلة بنزرت... عرفت يتما أبويها... والدتها حلومة بن عمار أخت الطاهر بن عمار (١٨٨٩-١٩٨٥) من أثرياء العائلات التونسية وموقع بروتوكول الاستقلال...). وقد عوضت هذا النقص الذكوري الأبوي بفكر نسوي مبني عليه أهمية العلم ودوره في نشر الوعي لدى المرأة"^(٢٨)

يفسر الأفكار البورقيلية باللهجة التونسية المحكية بعيدا عن الخطابات النخبوية. ومن أهم وأبرز وأشجع الحقوق التي راهن عليها "الحبيب بورقيبة في إرساء أسس مجتمع حديث هو "تعليم المرأة" والسماح لها بأن تبرز أفكارها وقدرتها على المعرفة. وفي ذلك يقول الشاعر الشعبي "العربي النصراوي"^(٢٠) في قصيد بعنوان "بشري لتونس" ومنها:

عمر فجوج^(٢١) خليه
بالمدرسة ومساكن الشعبية^(٢٢)
وهذب أخلاق الشابة الريفية
ونوع أسباب لوعيتها وقراها^(٢٣)
بدروس في خدمات تقليديه
والمرشدة في المنزل تباشرها^(٢٤) (٢٥)

يعلن الشاعر عن دور بورقيبة في تعليم الفتاة التونسية في المدن وفي الأرياف أيضا، وتعليمها الحرف مثل الخياطة لتدخل في سوق الشغل وتقتحم عالم المهنة وتحقق ذاتها والعيش الكريم، لقد وضع الحبيب بورقيبة حدا للمكانة الدونية التي كانت تعيشها المرأة التونسية. هذا الإنجاز الذي قام به "الزعيم" بعد مرور أربعة أشهر من إمضاء وثيقة الاستقلال، حيث كان يعتقد في نهضة البلاد التي لا تكون إلا بتحرير المرأة من الوضع المزرى. ورغم المعارضة التي وجدها من مشائخ الزيتونة إلا أنه تمسك بتحريرها حيث يقول: "لا يمكن للمجتمع أن يكون سليما ومتوازنا مادام نصف الجسم الاجتماعي أي العنصر النسائي، يبقى مستعبدا ومستغلا ومهاناً... وسأفرض حرية المرأة وحقوقها بقوة القانون، لا أنتظر ديمقراطية شعب من المنخدعين بالثقافة الذكورية باسم الدين"^(٢٦). فكان تحرير المرأة التونسية له صدى داخل وخارج البلاد، وقد أرخ ووثق الشاعر الشعبي "محمد الفرحان"^(٢٧) ذلك في قصيد بعنوان "دولة بورقيبة"، وسنستعرض منها بعض الأبيات وهي كالتالي:

فهمناه الشيء اللي صار
وعرفنا خدمة تسطيره^(٢٨)
وخاونا الفعل والأفكار
كل واحد مصحوب بغيره^(٢٩)

وللرجل بعشرين سنة وحرمان أي وارث آخر من إرث المتوفي إذا كان أخلافه من البنات فقط.^(٣٠)

لم يكن أحد يتصور أن تحصل المرأة التونسية على هذه الحقوق والتشجيعات القانونية من دولة الاستقلال. حيث أرخ الشاعر الشعبي، "عبد العزيز النواوي"^(٣١) لهذا الحدث التاريخي في قصيد بعنوان "إنجازات الاستقلال من ١٩٥٦ إلى ١٩٧٥" ومنها هذا المقطع:

أوت ثلاثة يا صاغيه^(٣٢)
بورقبيه صدر قانون
مجلة الأحوال الشخصية
كُلاته^(٣٣) حقه مضمون
والمرأة خذات الحرية
ارتاحت من قبله وقال^(٣٤)
متمهم بالعيب بريه^(٣٥)
ومكتوفه من غير غلال^(٣٦). (٣٨)

لقد اتسمت هذه المجلة بالثورية والجرأة ومحاولة تغيير المؤلف. وتهدف إلى تحقيق إصلاحات جوهرية للقضاء على الضوابط والنواميس البالية والخابئة، التي سيطرت لمدة زمنية طويلة على وعي المجتمع التونسي تحت الوصاية الدينية والفهم البسيط لجوهر الدين. لقد أثمرت أفكار الطبقات المثقفة والنخبة التونسية منذ عصر الطاهر الحداد وصولا إلى عصر الحبيب بورقيبة، الذي حاول أن يقطع مع كل ما هو قديم ويؤسس لمجتمع عصري حديث مواكب للتطور العالمي. لكن هذه المجلة وقوانينها لم تقبل من الأغلبية الساحقة التقليدية وعلى رأسهم معظم مشائخ الزيتونة. وهذا ما دفع ببورقيبة إلى تحقيق نقلة جذرية في دور المرأة ومكانتها عن طريق القانون:

"فهذا القانون أحدث قطيعة بين المجتمع التونسي التقليدي والمجتمع العصري الذي يحاول الحبيب بورقيبة الانتقال إليه بواسطة القوانين وليس عن طريق الإقناع والتطور التدريجي للمجتمع فهو في أساسه قانون لائكي عصري"^(٣٩). وقد رحب الشعر الشعبي بالأفكار الجديدة وتبناها ليذيعها في القصائد الشعرية الشعبية التي يوجهها الشاعر إلى أغلبية الشعب الذي يعاني من الأمية، فحاول الشاعر الشعبي أن يكون صحافة ولسانا

لمجلة الأحوال الشخصية والمساواة بين الجنسين، بل وكان ضد خروجها دون حجاب. ومنها مقطع لقصيد "رجال الوكايد":

رجال الوكايد عمروا الجبانة
بقى كان من تحكم عليه فلانه^(٤٤)
اللي بقوا رعيه الكل سلموا والحكم ليها هي^(٤٥)
تقدر تقص الراس ماله ديه
وتأمر على المحرم يقص لسانه^(٤٦)
رجال الوكايد ناموا
بقوا ناس على شور الصواب تعاموا^(٤٧)
مساكين، مملوكين لا يتلاموا
في وقتهم عاشوا معاش الهانة^(٤٨)
عاشوا معاش غبينه
ولا خير في مومن يسيب دينه^(٤٩)
الراهنه تسواش سوم سنيته
والفارغه لا ترادع المليانه^(٥٠)
لا بقوا رجاله

بقى كان من تحكم عليه عياله
الراجل بدا يشوف العوج
يطبس ويرخي قفدته واوذانه^(٥١)
ما يقدش يجاوبها
ولا يقدر ينهاها ولا يغضبها^(٥٢)
لوكان تشكي تدعي يضربها
تقوم الحكومه تسل له نيبانه^(٥٣)
لا من بقت له نزره
ولا من بقت له على عياله خزره^(٥٤)
بدت النساء أحر منهم خزره
ولا عاد من يحمي، يفوح صنانه^(٥٥)
ريت البنات يصولوا
إذا كان هذا ما وقعشي قولوا^(٥٦)
بأمر الحكومة يسفروا ويجولوا
ورجالهم متهنيه مطمئانه^(٥٧)
عز المرأ في محلها
وبالشرع ما تقابل إلا راجلها^(٥٨)
ال موش زوجها موش لازم يقابلها
واليوم عاد يشوفها عريانة^(٥٩)

وبنينا البنيات أسطار
حاذينا السكنى والجيرة^(٦٠)
نلقوها حياة إزدهار
نعمه ومداخيل كثيره
ولوحننا هندام العار
ولبسنا الصافي في حريه^(٦١)
الحره اللي تلبس بازار
ارتاحت من حزن حداديره^(٦٢)
صبحت في روبه وبنوار^(٦٣)
وفي المنظر ملا تصويره
من القرى^(٦٤) صبحت في دار
والفرش مصنع بسريره
وتمشي للحمام جهار
وما تخافش لو كان صغيره^(٦٥)
بحياة البطل المغوار
مضمونة بسلطة تحريره^(٦٦) -^(٦٧)

بهذه الصورة يلخص الشاعر الشعبي تحرير المرأة التونسية التي كانت لا تخرج من بيتها إلا نادراً. فكان تحريرها من أهم مكتسباتها وفخر لكل امرأة. حيث اقتحمت مجالات التعليم والعمل والصحة والصناعات، وأصبحت نداً للرجل. بل وتتفوق عليه في العديد من المجالات. وانفردت تونس بمبادرة تحرير المرأة تحت وصاية الحبيب بورقيبة.

فأي ردة فعل للشعر الشعبي من مجلة الأحوال الشخصية وتحرير المرأة التونسية؟ وكيف تم نقد هذه الإنجازات؟

٢/٢- الشعر الشعبي ينقد "مجلة الأحوال الشخصية وتحرير المرأة"

كثير هي الآراء والمواقف التي تم اتخاذها بتريث وترقب من طرف المعارضين لسياسة تحرير المرأة التونسية. ولكن سنكتفي بذكر موقف الشعر الشعبي والمتمثل في رفض الأفكار الجديدة التي تبناها "الزعيم الحبيب بورقيبة". وسنورد بعض الننف الشعرية الشعبية للشاعر "محمد بن عون الصليحي"^(٦٨)، الذي كان رافضاً

عموماً، هذه بعض النتف الشعرية التي قالها "الشاعر محمد بن عون الصليعي"، ليعبر عن رفضه التام لإجراءات مجلة الأحوال الشخصية التي يراها لا تؤسس إلا لسيطرة المرأة على المجتمع. وهذا الرأي هو رأي الأغلبية من الشعب التونسي الذي مازال متمسكاً بالصورة الذكورية وقيادة الرجل وطمس قيمة المرأة. كل هذا بسبب الثقافة التقليدية التي ترعرعت عليها الأجيال السابقة بأن "الرجال قوامون على النساء". وأن المرأة مكانها بيتها. هذه النظرة التي عبر بها الشاعر عن تدمره من تحرير المرأة التي داست العادات والتقاليد حسب قوله. فإن هذا الأمر يعود إلى تربية الشاعر في الصحراء والبادية التي كانت تعتبر خروج المرأة دون زوجها ولو للتسوق "بدعة يجب رفضها". في الحقيقة لم يكن تقبل تحرر المرأة سهلاً على كبار السن والغير متعلمين والذين لا يؤمنون بمساواة المرأة للرجل تحت شعار "الدين والتقاليد".

يشكو محمد بن عون الصليعي مما ظهر في زمانه في خروج للمرأة دون محرم (زوجها)، فلا يرى إلا النساء في الشوارع ولم يعد هناك رجال، بل ويسلط على الرجال أقبح النعوت (الحمار) بقوله: (يطبس ويرخي قفدته وأوذانه). ويقول بأن الرجل ترك مكانه للمرأة تحت تهديد القانون خوفاً من عقاب الحكومة بقوله: لو كان تشكي تدعي يضربها تقوم الحكومة تسل له نبيانه

فهو يرى أن هذا القانون ظالم حتى ولو ادعت المرأة أن زوجها عنفها. تعاقبه الحكومة بالظلم. ويتحسر عن زمان "رجال الوكايد" أي الأحرار حسب قوله والذين كانوا يقودون العائلة ويتحكمون في كل كبيرة وصغيرة. ويقارن رجل اليوم الذي تتحكم فيه زوجته وأطفاله، وفي آخر المقطع يقدم رأيه ويقول إن مكان المرأة هو منزلها ولا يمكن أن تخرج عارية في الشوارع. هذا إن دل فإنه يدل على نظرة الشاعر التقليدية التي توارثتها الأجيال عن الآباء. وفي مقطع آخر يواصل الشاعر تدمره من المساواة بين الرجل والمرأة إذ يقول:

رخصوا رجال اللوم بعد غلاهم

ذلوا عطوا سلاحهم لنسأهم^(١٧)

ذلوا عطوا الكلفه

يخلوا الجمل ويسفروا ع الخلفة^(١٨)...

ومنها: ذلوا عطوا الطاعه

كبار الزمايل في النسأ تباعة^(١٩)

قداش من راجل كسر ذارعه

في السوق باطل بيعهم وشراهم^(٢٠)

والبنات عادوا يسافرو سلاعه

جابوا أفايد من سلع ودراهم^(٢١)

عطوا بالصده

رقد نصرهم ليهم سنين ومده^(٢٢)

البنات غاروا ع الرجال بشده

شواطن ما قدروش لعب معاهم^(٢٣)

تقدر على الراجل تسب بوه وجده

تبكي وتشكي يثبتوا دعواهم^(٢٤) (٢٥)

خاتمة

من خلال دراستنا لمكانة المرأة التونسية قبل وبعد الاستقلال. اتضح لنا أن هذه المكانة تغيرت بمرور الزمن وتغيرت الأوضاع العامة السياسية والاجتماعية والثقافية. كما نستنتج أن الشعر الشعبي التونسي قد أרך ووثق لمسار تحرير المرأة التونسية، وحاول تتبع كل تفاصيل الإنجازات التي حققتها المرأة "مجلة الأحوال الشخصية". واستطاع الشعر الشعبي أن يروج لأفكار "الحبيب بورقيبة داخل المجتمع". في المقابل تعرضت الإنجازات التي حققتها دولة الاستقلال لصالح المرأة إلى النقد والتحقيق، من طرف بعض الشعراء الشعبيين الذين رفضوا تحرر المرأة ومساواتها بالرجل مثل "محمد بن عون الصليحي". ورغم هذا الرفض فإن دولة الاستقلال فرضت مشروع "تحرير المرأة التونسية بقوة القانون. وتبقى المرأة التونسية ذات مكانة مرموقة بالمقارنة مع بعض الدول العربية والأجنبية لتكون شعاراً يتردد في أنحاء العالم ومصدر إلهام للشعراء تحت شعار قصيد "الصغير أولاد حمد" "نساء بلادي نساء ونصف".

الإحالات المرجعية:

- (١) أخرجه الإمام أحمد في باقي مسند الأنصار من حديث أم سليم بنت ملحان برقم ٥٨٦٩.
- (٢) القرآن الكريم، "سورة النساء، ص ٧٧".
- (٣) مقال للأستاذ "عز الدين عناية" (أستاذ تونسي يدرس بجامعة لاسابينسا في روما) نشر بمجلة www.bobnet.net ، تحت عنوان "شخصية التونسي الدينية من خلال أمثاله" في ٢٧ أكتوبر ٢٠١٣.
- (٤) دار جواد: وهي عبارة عن مؤسسة إحتجازية تشبه السجن للنساء، كانت الزوجة الناشز التي تعصي زوجها أو الفتاة الجانحة تُرسل إليها "لتقويم" وإعادة التأهيل للعودة من جديد بعد التأديب. ولم تغلق هذه المؤسسة إلا أواسط القرن العشرين وكانت تشرف عليها "الجيدة" لتعليمهن الخياطة والطريزة.
- (٥) الطاهر الحداد (١٨٩٩-١٩٣٥) رائد من رواد "الفكر الإصلاحية في تونس" وصاحب كتاب "إمرأتنا في الشريعة والمجتمع".
- (٦) الطاهر الحداد، إمرأتنا في الشريعة والمجتمع، دار الكتاب اللبناني، المصري، القاهرة ٢٠١١، ص ١٥٩.
- (٧) محمد المرزوقي، من شعر الكفاح، وزارة الشؤون الثقافية، مطبعة شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، تونس. ص ١٠٣.
- (٨) عبد الرحمان الكافي: شاعر شعبي من جندوبة ولد سنة ١٨٨٥ وتوفي سنة ١٩٣٢. إشتهر بشعره الناقص لمظاهر الحداثة والتمدن.
- (٩) الشرح: خصومه بين الأب وابنته. ٢ الفتاة المغرومة بالتحريم وأبوها الغير حازم، ٣ القمقوم: بالمعنى السلبي. ٤ الحجاب. ٥ لباس تقليدي تونسي. ٦ إسم فرنسي. ٧ الفرنسيين، ٨ الحجاب. ٩ التفل. ١٠ حفيضة العقل. ١١ قديم. ١٢ مريضه. ١٣ إنك على باطل. ١٤ أتيتي بفكر غريب. ١٥ أنت مثل الهدهد (التبيب) كثيرة الحركة. ١٦ من همك الكثير والكثير مثل الرمال. ١٧ لم تعد لي أي قيمة. ١٨ جريدة ججوج، العدد ٢٨٦، ٢١ جانفي ١٩٢٤.
- (١٠) أحمد فارس الشدياق ولد بلبنان سنة ١٨٠٤ وتوفي سنة ١٨٨٧ وهو صحفي وشاعر وكاتب. عاش في تونس عام ١٨٥٧ في عهد "محمد باي (١٨٥٩-١٨١١)".
- الشرح: ٢ منبوذة. ٣ مسجونة. ٤ لا تخرج دون حجاب. ٥ لا يراها أحد حتى وإن كان ساحرا. ٦ عصا لضربها. (٧) "القبرة نوع من الطيور الصغيرة". ٨ كله رجال.
- (٩) الهادي التيمومي، تونس البورقبيية ١٩٥٦-١٩٨٧. دار محمود علي الحامي للنشر، الطبعة ٢٠٢٠، ص ٥٦.
- (١٠) الحداد، إمرأتنا في الشريعة والمجتمع، ص ١٤١.
- (١٢) عادل بن يوسف، "في الذكرى الحادية والثمانين لأحداث ٩ أفريل ١٩٣٨: الذكرى والعبرة" نشر في مجلة "ليدرز" يوم ٩-٤-٢٠١٩.
- (١٣) أحمد خالد، أضاء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد ونضال جيل، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٥، ص ٢٦٦.
- (١٤) ليليا العبيدي، جذور الحركة النسائية بتونس، تونس، (دون دار نشر)، ١٩٨٧، ص ٢٩.
- (١٥) علي الكيلو شاعر شعبي ولد سنة ١٩١٦ بسيدي خليف وهي مشيخة من معتمدية أولاد حفوز بسيدي بوزيد، وهو شاعر ومقاوم، توفي سنة ١٩٨٥.

الشرح: ٢ الفرنسي - ٣ لسنا بنفس القوة - ٤ لا يقل عن ١٠٠ - ٥ الأمين باي (١٨٨١-١٩٦٢) - ٦ المرأة تهزم ستة عشر (٧) ديوان الشاعر الشعبي علي الكيلو، جمع وتحقيق الشريف العوني، منشورات شركة سعيدة للنشر، ٢٠١٦، ص ٢١.

(٨) الطبيب الشريف عنصر من عناصر الحزب الداعم للمقاومة.

(٩) شهادة عمار بن فرج بن عمار السبوعي (الحامة) محفوظة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

(١٧) محمد المرزوقي، من شعر الكفاح، ص ١١٤.

(١٨) عائشة بنت الناصر: **مقاومة وشاعرة من تطاوين انتمت بعد الاستقلال إلى الشق اليوسفي.**

(١٩) الضاوي موسي، **أضواء على الحركة اليوسفية بجهة تطاوين ١٩٥٥-١٩٥٦**، تقديم الأستاذ فتحي ليسير، مطبعة التفسير الفني، صفاقس، ٢٠١٨، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٢٠) موسي، **أضواء على الحركة اليوسفية**، ص ٢٠٢.

(٢١) الأستاذ عادل بن يوسف، مقال بعنوان، "في الذكرى السابعة والستين لاندلاع الكفاح المسلح بتونس (١٨ جانفي ١٩٥٢) الذكرى والعبرة، نشر في مجلة "ليدرز" يوم ١٨ جانفي ٢٠١٩.

(٢٢) عميرة عليه الصغير، في التحرر الاجتماعي والوطن، فصول من تاريخ تونس المعاصر، المغاربية للطباعة وإشهار الكتاب، تونس، ٢٠١٠، ص ٥٢.

(٢٣) محمد بوذينة، **مرآتي المشاهير**، تونس، منشورات محمد بوذينة، ١٩٩٤، ص ٢٤٥.

(٢٤) السيدة الدو القايد، منارات على أرض قرطاج: بشيرة بن مراد ونساء رائدات (١٩٥٦-١٩٠٠)، صفاقس، مطبعة التفسير الفني، ٢٠١٩، ص ٧٣.

(٢٥) أمر علي مؤرخ في ٦ محرم ١٣٧٦ (١٣ أوت ١٩٥٦) يتعلق بإصدار مجلة الأحوال الشخصية. الحمد لله سبحانه المتوكل عليه المفوض جميع الأمور إليه محمد الأمين باشا باي صاحب المملكة التونسية... وعلى الرأي الذي أبداه مجلس الوزراء. وبناء على ما عرفه وزيرنا الأكبر رئيس الحكومة، أصدرنا أمراً هذا بما يأتي : الفصل الأول النصوص المنشورة فيما بعد المتعلقة بالأحوال الشخصية جمعت في تأليف واحد باسم "مجلة الأحوال الشخصية". -الوزير الأكبر رئيس الحومة الحبيب بورقيبة (الرائد الرسمي عدد ٦٦ الصادر في ١٧ أوت ١٩٥٦)

(٢٦) تأليف جماعي تحت إشراف الأستاذ خليفة الشاطر، "الحركة الوطنية ودولة الاستقلال، الجزء الثالث، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس ٢٠٠٧، ص ١٨٤.

(٢٧) الشاعر الشعبي عبد العزيز النازوي من معتمدية الفحص ولاية زغوان. **الشرح:** ٢- يا سامعين. ٣- كل الناس حقوقها محفوظة. ٤- لم تعد تتعرض لقول الزور والباطل. ٥- متهمة بالخطأ وهي بريئة. ٦- مغلول ومسجونة.

(٢٨) المرزوقي، من شعر الكفاح، ص ١٠٣.

(٢٩) Souad Bakolti, La Femme Tunisienne au temps de la colonisation 1881-1956, éd. L'Harmotton, Paris 1996, p 288.

(٣٠) العربي النصراوي شاعر شعبي من ولاية القصرين.

الشرح: ٢- أماكن لا يوجد بها الإعمار. ٣- المساكن الشعبية للفقراء. ٤- تم تهذيب أفكار الريفية، وحاول بورقيبة توفير أسباب لوعيها. ٥- تراقبها المرشدة.

(٣١) المرزوقي، من شعر الكفاح، ص ١٢٣.

(٣٢) عبد السلام القلال، **الحبيب بورقيبة زعيم أمة ورئيس دولة**، شهادات وخواطر مناضل من جيل الاستقلال، شركة أوميقا للنشر، تونس ٢٠٢١، ص ٨٥.

(٣٣) محمد الفرطان، شاعر شعبي من معتمدية المحرس ولاية صفاقس.

الشرح:

(١) لقد فهمنا أفكار الزعيم وفهمنا خطته العميقة.

(٣٥) وأصبح الفكر مع الفعل متلازمين (قول وفعل).

(٣٦) وتم بناء المنازل بشكل مستقيم، وأصبحنا مجتمعاً متكاملًا.

(٣٧) وتركنا ملابس التخلف والجهل ولبسنا الحرير.

(٣٨) أصبحت المرأة التونسية تلبس كما تريد ولا تلبس ملابس الحزن (الحجاب)

(٣٩) أصبحت تلبس الفساتين.

(٤٠) الأكواخ.

(٤١) وتذهب إلى الحمام دون خوف من أحد.

(٤٢) يعيش بورقيبة البطل، هو الذي يحميها بالقانون.

(٤٣) المرزوقي، من شعر المفتاح الوطني، ص ١٩٢.

١ محمد بن عون الصليعي، قد عاش ١٠٣ سنة حيث ولد سنة ١٨٧٣ بمعتمدية نفطة وتوفي سنة ١٩٧٦. نظم الشعر في كل الأغراض وخاصة نقد المجتمع والنصح والتوجيه والزمان وتقلبه **الشرح:** ١ الرجال الأحرار سكنوا المقابر، لم يبق إلا مَنْ تحكم فيه زوجته.

(٤٥) من بقي من الرجال كلهم رعيه، وأعطوا مقاليد الحكم للمرأة.

(٤٦) تستطيع أن تقطع الرأس ولا أحد يفديه بالمال، وتأمّر الرجال بقص أسننتهم عن قول الحق.

(٤٧) مات الرجال الأحرار، لم يبق إلا أشباه الرجال الذين لا يرون الصواب.

(٤٨) مساكين هم مملوكين لا لوم عليهم، هذه معيشة الذل والمهانة.

(٤٩) عاشوا حياة الغبن، لا خير في مسلم يترك دينه للمرأة.

(٥٠) يقارن الشاعر بين المرأة المحتشمة (المليانة) والفارغة حتما ستميل الكفه للمحتشمة.

(٥١) الرجل ينظر للخطأ، ولا يستطيع فعل أي شيء يطأطأ الرأس مثل الحمار.

(٥٢) لا يقدر أن يجيب المرأة، ولا يستطيع نصحتها ولا طلاقها.

(٥٣) لم تعد للرجال الغيرة، ولم تبق لهم سيطرة على أطفاله وأهله.

(٥٤) أصبحت المرأة أفضل من الرجال في الحزم، ولم يعد الرجل الحامي، وليس له علامات الرجولة.

المسألة الدينية في الدساتير التونسية

في دستور ١٩٥٩ ودستور ٢٠١٤

د. ثامر سعداوي

دكتوراه في التاريخ المعاصر
كلية الآداب والعلوم الانسانية بصفاقس
الجمهورية التونسية



ملخص

تتمحور الإشكالية الرئيسية لهذا البحث حول الرؤى الفكرية العامة التي كتبت بها الدساتير التونسية خلال مرحلتين ببناء دولة الاستقلال وبناء الجمهورية الثانية بعد ثورة ١٧ ديسمبر - ١٤ جانفي، ودور الخلفيات السياسية والانتماءات الاجتماعية والثقافية في تحرير الدساتير. وي طرح هذا البحث جملة من الفرضيات ارتكزت على أهمية صراع النخب والأحزاب في تحديد التوجه العام للدساتير ومدى قدرتها على التفاعل والمرونة والتنازل لتحقيق توافقات دستورية، ودور المناخات السياسية الداخلية والإقليمية في كتابة النصوص الدستورية النهائية، ثم مدى تأثير التجربة الدستورية الأولى في التجربة اللاحقة. وقد اعتمدت الدراسة مناهج البحث التاريخي التي تنطلق من النصوص الأصلية مع تنويع المصادر ودراسة الأحداث وأسبابها ومدى تفاعل كل الأطراف معها وتقارن بين الرؤى المختلفة لتخلص إلى قراءة تحاول تعميق الفهم في الأحداث والمعطيات السابقة واستقراء استنتاجاتها اللاحقة، مع الاستعانة بالعلوم الاجتماعية والقانونية. ومن أبرز النتائج التي خلصت إليها هذه الدراسة هي أن المسألة الدينية تطرح إشكالية كبرى في النصوص الدستورية حتى وإن كان المجتمع متجانساً عرقياً ودينياً، إضافة إلى أن الطرف السياسي الأقوى هو القادر على فرض خياراته ولو بشكل جزئي في المسألة الدينية وخاصة في مستوى هوية الدولة وهو ما حدث في دستوري ١٩٥٩ و ٢٠١٤ في تونس. لكن المناخ الديمقراطي يتيح للمعارضة والمجتمع المدني قدرة على تعديل المسارات وتصويبها والمشاركة الفعلية في إنجاز الدساتير مثل تجربة ٢٠١١-٢٠١٤ والتي قدّم فيها الجميع تنازلات لإنجاح المسار، في المقابل يطرح التوجه الأحادي كتابة دساتير على المقاس. وقد أثبتت التجربة التونسية في الحالتين ترحيل المسائل الدينية إلى خارج الأطر الدستورية من خلال اعتماد صياغات وفصول مرنة وفضفاضة قابلة لتأويلات مختلفة، بل ومعارضة أحياناً.

كلمات مفتاحية:

الدستور؛ المسألة الدينية؛ هوية الدولة؛ التسريفة الإسلامية؛ الحقوق والحريات

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٢ يناير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٤ فبراير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.349974.1198

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ثامر سعداوي، "المسألة الدينية في الدساتير التونسية في دستور ١٩٥٩ ودستور ٢٠١٤"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة- العدد السابعون، أغسطس ٢٠٢٥، ص ١٩١ - ٢٠٦.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: thamersaadaoui@outlook.fr

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت ترخيص Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

رغم اختلاف الظرفية وحجم الاهتمام. تحاول هذه الدراسة البحث في الفلسفة التي كتبت بها دساتير دولة الاستقلال في تونس في علاقتها بالمسألة الدينية وما رافقها من جدل سياسي وفكري بين النخب التونسية في فترتين أساسيتين في تاريخ تونس المعاصر: الأولى وهي مرحلة بناء الدولة الوطنية وتأسيس الجمهورية الأولى والتي تلت الاستقلال مباشرة، أما الفترة الثانية فهي مرحلة تأسيس الجمهورية الثانية بعد ثورة الحرية والكرامة.

ويحاول هذا البحث دراسة المسألة الدينية في الدساتير التونسية بناء على جملة من الفرضيات أولها هو دور الخلفيات السياسية والفكرية والمرجعيات الأيديولوجية للنخب (في الدستورين ١٩٥٩ و٢٠١٤)، والصراع السياسي بين الأحزاب في (تجربة ٢٠١١-٢٠١٤) في تحديد مكانة المسألة الدينية في الدساتير التونسية بعد الاستقلال. وثانيها هي أهمية الظرفية الداخلية العامة (سياسياً وأمنياً واقتصادياً واجتماعياً) والظرفية الإقليمية والدولية في تحديد مكانة المسألة الدينية في الدساتير التونسية خلال الفترتين محور الدرس. وآخرها هو تأثير تجربة التأسيس الأولى ودستور ١٩٥٩ في تجربة التأسيس الثانية ودستور ٢٠١٤ على مستوى مكانة المسألة الدينية.

ولتعميق التحليل حول مسألة لها تأثيرها في الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي التونسي ماضياً وحاضراً ومستقبلاً درست هذه الورقة البحثية هذه المسألة في إطار تاريخ الزمن الراهن ومقارباته لذلك تم الاعتماد على مادة مصدريّة متنوعة جمعت بين النصوص الرسمية وغير الرسمية واعتمدتها حسب الأهمية انطلاقاً من النصوص التأسيسية النهائية متمثلة في دستور ١٩٥٩ و٢٠١٤ مروراً بمسودّات هذه الدساتير وتقارير لجان الصياغة وأعمالها ومداولات المجلس القومي التأسيسي ١٩٥٦-١٩٥٩ والمجلس الوطني التأسيسي ٢٠١١-٢٠١٤ إضافة إلى التصريحات الصحفية ومواقف الأحزاب والجمعيات والمؤسسات البحثية عبر بياناتها وتقاريرها. كما استندت إلى مادة مرجعية مزجت بين مختلف الحقول البحثية في

عرفت تونس منذ منتصف القرن التاسع عشر جملة من التشريعات المتأثرة بمحيطها الأوروبي والخاضعة له أيضاً، لكن هذا لا ينفي وجود رغبة إصلاحية لدى النخب التونسية انطلقت في المستوى التشريعي منذ ٢٣ جانفي ١٨٤٦ تاريخ إصدار أحمد باي (١٨٣٧-١٨٥٥) قانون إلغاء الرق، وتواصلت الإصلاحات من خلال عهد الأمان الصادر سنة ١٨٥٧ في عهد محمد باي (١٨٥٥-١٨٥٩) وتدعمت بصدر أول دستور في العالم العربي الإسلامي وذلك سنة ١٨٦١ في عهد محمد الصادق باي (١٨٥٩-١٨٨٢). ورغم استغلال محمد الصادق باي لثورة علي بن غداهم في ١٨٦٤ لتعطيل العمل بهذا الدستور، فإن الفائدة الأساسية من إصداره تمثلت في اقتناع نخب الحكم الإصلاحية التونسية، التي زارت أوروبا، بجدوى المنظومة القانونية والدساتير في تغيير الواقع العام وإرساء ملامح الحكم الرشيد. وقد تواصل هذا التوجّه المؤمن بدور الدساتير في ضبط الحياة السياسية بعد بداية الاستعمار الفرنسي لتونس منذ ١٨٨١ حيث بنت النخب الوطنية التونسية سرديّتها النضالية على وضع دستور يجسّد رغبة التونسيين في التحرر والانعتاق، كما كان الدستور من بين أدوات بناء دولة الاستقلال والجمهورية الحديثة منذ ١٩٥٦. واستمرّ هذا التمشّي من خلال اعتماد الدستور كآلية لبناء الجمهورية الثانية بعد إسقاط نظام زين العابدين بن علي إثر ثورة ١٧ ديسمبر ٢٠١٠-١٤ جانفي ٢٠١١.

ولئن اختلفت مكانة المسألة الدينية في الدساتير المعاصرة، فإن أغلب هذه الدساتير تشير إلى المسألة الدينية ولو بأشكال مختلفة ومتفاوتة تعكس أهمية الدين في تحديد مقومات هوية الشعوب وانتماءاتها الحضارية^(١). وفي تونس اهتم عهد الأمان بالمسألة الدينية من خلال الحرص على ضمان سلامة كل سكان الإيالة على اختلاف انتماءاتهم، وهو ما أكد عليه الفصل الأول من دستور ١٨٦١ الذي أكد على حرية وسلامة الرعايا وسكان الإيالة مهما كان انتماءهم الديني أو اللغوي أو الإثني^(٢). وتواصل الاهتمام بالمسألة الدينية في الفترة المعاصرة من خلال دستور ١٩٥٩ و٢٠١٤،

١/١- الوضع العام بالبلاد وأهم القوى السياسية

كتب دستور تونس بعد حصول البلاد على استقلالها في ٢٠ مارس ١٩٥٦ وشروع النخبة الحاكمة في بناء الدولة وتحديث المجتمع في ظل وانقسام حاد عاشته البلاد إضافة إلى تنامي الأزمات.

١/١) ١- الوضع العام بالبلاد

أ - قبل الشروع في كتابة الدستور:

عاشت البلاد على منذ أواخر ١٩٥٥ على وقع الفتنة البورقبيية-اليوسفيّة، وهو صراع سياسي عنيف، كان أقرب إلى الحرب الأهلية، بين أنصار الحبيب بورقبيّة من ناحية وأنصار صالح بن يوسف من ناحية ثانية بسبب الموقف من الاستقلال الداخلي حمل رفاق فيه النضال الوطني السلاح وصفيّ بعضهم بعضاً^(٣). اعتبر الحبيب بورقبيّة أن تحقيق الاستقلال الداخلي هو خطوة إلى الأمام، فهو يتنزّل، حسب رأيه، في إطار اعتماد سياسة المراحل لتحقيق الاستقلال التام، في المقابل اعتبر صالح بن يوسف أنّ الاستقلال الداخلي خطوة إلى الوراء وأنّه يجب اعتماد المقاومة المسلّحة إطار مشروع يشمل الجزائر والمغرب الأقصى لتصفية الاستعمار الفرنسي وتحرير المغرب العربي^(٤). في خضمّ هذا الخلاف تمّ التوصل إلى وعد بالاستقلال التام وبدأ الاستعداد لتونس ما بعد الاستعمار الفرنسي عبر إصدار محمد الأمين باي للأمر العلي الذي يدعو إلى انتخابات مجلس قومي تأسيسي مهمته إنجاز دستور وذلك في ٢٩ ديسمبر ١٩٥٥، ثم توقيع بروتوكول الاستقلال في ٢٠ مارس ١٩٥٦.

ب - ظرفيّة كتابة الدستور:

إلى جانب الصراع البورقبي-اليوسفي، تتالت الأزمات السياسية مع فرنسا التي اتّهمت السلطات التونسية بدعم الثورة الجزائرية فتعدّدت الاعتداءات الفرنسية على الأراضي التونسية ولعلّ أهمها حادثة ساقية سيدي يوسف في ٨ فيفري ١٩٥٨ والتي مثّلت الاعتداء الفرنسي عدد ٨٤ على السيادة التونسية منذ الاستقلال^(٥). كما أنّ البلاد عانت نتيجة هذا الصراع مع فرنسا من أزمة اقتصادية خانقة خاصّة بعد تعليق

العلوم الإنسانية واستفادت من العلوم السياسية والقانونية.

وللبحث في مكانة المسألة الدينية في الدساتير التونسية وتطوّرها التاريخي وخضوعها لقاعدتي التأثير والتأثر اعتمدت الدراسة تقسيما كرونولوجياّ يحتوي على محوري بحث أساسيين:

المحور الأوّل يدرس مرحلة بناء الدولة الوطنية بعد الاستقلال وما رافقها من سجال بين نخب الحركة الوطنية التونسية حول المسألة الدينية بين توجّهين، يميل الأوّل إلى التوجّه العلماني مع اختلافات جليّة بين مكوناته في مستوى علاقتها بالمسألة الدينية، في حين يركّز التوجّه الثاني أطروحته على ضرورة العودة إلى الأصول، كما يبرز هذا المحور آليات السجال حول المسألة الدينية وماهيّته ومآلاته.

والمحور الثاني يتناول تجربة تأسيس الجمهورية الثانية بعد ثورة الحرية والكرامة (١٧ ديسمبر ٢٠١٠ - ١٤ جانفي ٢٠١١) وتجديد الأطر السياسية والدستورية للدولة والدخول في تجربة الانتقال الديمقراطي من خلال كتابة دستور ٢٠١٤، وما رافقها من عودة الجدل بين نخب الفكر والسياسة حول المسألة الدينية في محاكاة للتجربة الأولى في مسارها وآلياتها، مع اختلافات عميقة فرضتها الجرعة الكبيرة للحرّيات بعد ١٤ جانفي ٢٠١١، لذلك تركّز هذه الدراسة على المؤتلف والمختلف بين التجريبتين وخصوصيّات ومميّزات كلّ تجربة في علاقة بالمسألة الدينية في دستور ٢٠١٤.

أولاً: المسألة الدينية في دستور ١ جوان

١٩٥٩

لا يمكن دراسة المسألة الدينية داخل دستور ١٩٥٩ في تونس دون دراسة الظرفيّة العامّة للبلاد ودون ربطها بالإجراءات المتزامنة مع كتابة الدستور واللاحقة له على مستوى تحديث الدولة والمجتمع لمعرفة التوجّه العام لفكر بناء دولة الاستقلال ومكانة المسألة الدينية في تفكيرهم ومدى تجانسهم أو اختلافاتهم وتأثير الإجراءات التي اتخذوها في كتابة الدستور.

١٩٥٧ حيث دعا المجلس إلى التريث في كتابة الدستور بما يتلاءم مع الأوضاع الجديدة للبلاد^(١٠). إضافة إلى الأعباء والمهام التي تحملها المجلس باعتباره تحول من أول جلسة إلى سلطة تشريعية ولم يكتف بإنجاز الدستور فقط حسب نص الدعوة لانتخابات المجلس، كما أن عددا من أعضاء المجلس كانوا يجمعون بين صفتهم كأعضاء في المجلس وعضوية الحكومة التي أخذت حيزاً كبيراً من وقتهم وأعطوها أهمية على حساب المجلس لعدد الاعتبارات، وقد شارك رئيس الدولة بصفته نائباً وكان صوته مهيمنا ووجه النواب المؤسسين لكتابة الدستور على قياسه^(١١).

(١/١) ٢- النخب والمسألة الدينية

ينتمي كل أعضاء المجلس القومي التأسيسي إلى الجبهة القومية التي تشكلت في تحالف قاده الحزب الحر الدستوري الجديد وضم المنظمات القومية ممثلة في الاتحاد العام التونسي للشغل والاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والاتحاد القومي للمزارعين التونسيين و٨ مرشحين مستقلين. وقد كان نواب المنظمات القومية ينتمون إلى الحزب الحر الدستوري الجديد في حين كان المستقلون من مؤيدي الحزب والقريبيين منه فكرياً^(١٢). ولئن كان النواب موحدن نظرياً في مستوى القضايا الكبرى لأنهم ينتمون لنفس التحالف السياسي فإن الخلافات كانت قائمة عملياً عند نقاشات المجلس حول عديد المسائل سواء كانت مرتبطة بصياغة الدستور أو بمهام المجلس الأخرى^(١٣). وخلال مناقشة المسألة الدينية في الدستور برز اتجاهان أساسيان بين النواب فاختارت المجموعة الأولى مشروعاً حدثاً علمانياً كان الغرب نموذجاً، في حين كان المشروع الثاني ذو توجهات وميولات محافظة ولم يكن حضوره كبيراً داخل المجلس لكنه استفاد من الصراع البورقيبي-اليوسفي خارج المجلس.

أ - التوجه المحافظ:

وهو اتجاه مثله النائبان محمد الشاذلي النيفر باعتباره شيخاً زيتونياً والنائب نصر المرزوقي المنتمي للتيار الأصولي في المجلس حسب تصنيف الباحث صالح المثلوثي^(١٤)، وهو ما سنبينه لاحقاً من خلال دراسة

فرنسا للمساعدات التي تقدمها لتونس، إضافة إلى سيطرة الفرنسيين على دواليب الإدارة التونسية^(١٥). وبذلك فإن استقلال تونس كان مهدداً خاصة مع تواجد القوات الفرنسية على الأراضي التونسية، ففي هذه الظروف أعلنت الجمهورية وكتب الدستور التونسي وكان تأثير تقلبات الأحداث في كتابة الدستور جلياً.

ج - انتخابات المجلس القومي التأسيسي وصعوبات انجاز الدستور:

صدر الدستور الأول لتونس المستقلة في ١ جوان ١٩٥٩ (رمزية التاريخ وهو تاريخ عودة بورقيبة إلى تونس في ١ جوان ١٩٥٥ بعد التوصل إلى تفاهم لتوقيع اتفاقية الاستقلال الداخلي) بعد أكثر من ثلاث سنوات من المداولات. فقد أنتخب المجلس القومي التأسيسي في ٢٥ مارس ١٩٥٦ بعد أيام من توقيع بروتوكول الاستقلال بين تونس وفرنسا وانطلقت أشغاله في جلسة ٨ أفريل ١٩٥٦، وكانت الجلسة المسائية ليوم ١٤ أفريل أولى الجلسات التأسيسية والتي تم فيها حسم الفصل الأول من الدستور في مجمله قبل إضافة طبيعة نظام الدولة لاحقاً بعد إعلان الجمهورية. لكن رغم طول مدة انجاز الدستور فإن عدد الجلسات التأسيسية كان محدوداً حيث بلغ عددها ١٩ جلسة من إجمالي ٥٢ جلسة عقدها المجلس (قراءة ٣/١ الجلسات فقط: ٣٦,٥%) قدم فيها مسودتان لمشاريع دساتير قبل إنجاز النص النهائي: كان الأول في ٩ جانفي ١٩٥٧ لنظام سياسي ملكي دستوري قبل أن يتم إعلان الجمهورية في ٢٥ جويلية ١٩٥٧، أما الثاني الذي قدم في ٣٠ جانفي ١٩٥٨ فقد كان لنظام جمهوري يضمن التوازن بين السلطات، في حين كان النص النهائي لنظام جمهوري رئاسي على الطريقة الأمريكية يلبي طموحات بورقيبة في السيطرة على السلطة^(١٦). وتعود أسباب طول مدة انجاز الدستور لعدم وضوح الرؤية لدى أغلب النواب حول طبيعة النظام السياسي الذي سيتم اعتماده^(١٧)، ورغبة بورقيبة في تواصل أعمال المجلس من خلال إطالة النقاشات قدر الإمكان قبل الإعلان النهائي عن الدستور الجديد حتى يتسنى له دفع المجلس في اتجاه وضع دستور على مقاسه^(١٨)، وهذا ما أكدته بورقيبة في جلسة ١٨ أفريل

بالرؤية الفرنسية للمسألة الدينية أن الإسلام هو سبب التخلف لذلك وجب انتزاعه من الدولة والمجتمع باعتماد القهر والقانون^(٢٢).

٢/١- الدستور والمسألة الدينية

حضرت المسألة الدينية في دستور ١٩٥٩ من خلال التوطئة والفصل الأول والفصل الخامس في الباب الأول المخصص للأحكام العامة والفصل ٣٧ من الباب الثالث المخصص للسلطة التنفيذية. وقد كان الانطلاق من مناقشة الفصل الأول في جلسة التأسيسية الأولى ليوم ١٤ أفريل ١٩٥٦، تلتها التوطئة ثم بقية الفصول. لكن ولاعتبارات منهجية ستتجه هذه الدراسة تتبّع مكانة المسألة الدينية في النص الدستوري انطلاقاً من التوطئة ثم الفصل الأول ثم بقية الفصول.

(٢/١) ١- التوطئة

نوقشت التوطئة في الجلسة التأسيسية الثانية الملتزمة في ١٧ جويلية ١٩٥٦، وباعتبارها تعبيراً عن المبادئ العامة للدستور فإن النص الذي قدّمته لجنة الصياغة والتوطئة ذكر الإسلام في الجملة الثانية "بإرادة الشعب الذي يقدّس الإنسانية ويؤمن بالكرامة والعدالة والحرية ويمقت الحرب ويدعو إلى السلم، ويرتسم المثل الإسلامية الخالدة..."^(٢٣)، وتواصل استخدام هذه العبارة إلى حدود الجلسة الختامية للقراءة الثانية لمشروع الدستور في ٢٦ فيفري ١٩٥٩ حيث عوّضت بالعبارة التالية: "إنّ هذا الشعب... مصمّم: على.... وعلى تعلّقه بتعاليم الإسلام".

كان المجلس يشتغل تحت الضغط اليوسفي، وقد أكّد موقف النائب أحمد دريرة أثناء مناقشة التوطئة في جلسة ١٧ جويلية ١٩٥٦ هذا التوجّس والذي اعتبر أنّه يجب التصييص على انتماء تونس للمغرب العربي والأمة العربية وتسجيل "الاتجاه الدولة التونسية السياسي كدولة عربية إسلامية"^(٢٤).

وفي نقاش التوطئة قدّم النائب حسن شفرود مقترحاً شكلياً يتمثل في تغيير عبارة "الشاعرين بمسؤوليتنا أمام الله... بإرادة الشعب" بعبارة "الشاعرين بمسؤوليتنا أمام الله بإرادة الله وموافقة الشعب أو بإرادة الله والشعب"^(٢٥). وقد تمّت الاستجابة بشكل جزئي لهذا

النقاشات حول التوطئة والفصل الأول من الدستور. ويقول النائب محمد الشاذلي النيفر عضو المجلس القومي التأسيسي أنّه أثناء مفاوضات الاستقلال راجت أخبار أنّ المفاوضات تتم على أساس اعتماد "دستور لائكي لا دستور مبني على الدين"، لذلك اتّصل النائب محمد الشاذلي النيفر بالمنجي سليم ووجد منه تجاوباً كما اتّصل بالطيب المهيري وبيّن له مساوئ ذلك وقدّم رسالة للحبيب بورقيبة قبل تولّيه الرئاسة^(٢٥).

وقد تقاطع هذا التوجّه مع اليوسفيين الذين يعتبرون أنفسهم يمثلون "خيار الهوية العربية الإسلامية الأصلية"^(٢٦). ورغم عدم وجودهم بالمجلس القومي التأسيسي وخضوعهم للتصفية والملاحقات والمحاكمات والإعدامات أثناء فترة كتابة الدستور^(٢٧)، فإنّ شبح أفكارهم ونزعته المحافظة خيمت على أعضاء المجلس أثناء كتابتهم للدستور ويتجلّى ذلك في النقاشات التي دارت بينهم في مستوى العلاقة بالأمة العربية والإسلامية وفي مستوى دور اللغة العربية ومكانة الإسلام في الدستور^(٢٨).

ب - اللائكيين أو العلمانيين:

مثل هذا الاتجاه النائب المستقلّ محمود الماطري وبعض النواب النقابيين مثل النائب محمد الغول والنائب أحمد بن صالح منسّق لجنة التنسيق والصياغة والأمين العام للاتحاد العام التونسي للشغل الذي كان مع خيار إقامة دولة لائكية وفق النموذج الفرنسي^(٢٩). ورغم انتمائهم إلى نفس التوجّه فإنّ مجموعة من النواب وأهمهم الحبيب بورقيبة والباهي الأدغم وأحمد المستيري اعتمدوا أسلوباً براغماتياً في حسم المسألة الدينية في الدستور وذلك رغم أنّ بورقيبة ورجال دولته تأثروا في تكوينهم الفكري والسياسي بالغرب^(٣٠). كما تأثر بورقيبة بتجربة كمال أتاتورك التحديثية، ولكنّ العلمانية التي كان يتبنّاها بورقيبة تختلف عن لائكية أتاتورك في عديد المسائل وأهمها الموقف من المسألة الدينية، حيث يميل بورقيبة إلى اعتبار أنّ من أسباب التخلف والانحطاط هي الظروف التاريخية إضافة إلى القراءات الجامدة للنص الديني الذي يحمل في طياته روح التجديد والتطور^(٣١)، في المقابل يرى أتاتورك المتأثر

المادة ١: تونس دولة عربية إسلامية ذات سيادة
 المادة ٢: الشعب التونسي هو صاحب السيادة
 يباشرها على الوجه الذي يضبطه هذا الدستور
 المادة ٣: الدولة التونسية تضمن حرية المعتقد وتحمي
 حرية القيام بالشعائر الدينية ما لم تخل بالنظام وتنافي
 الآداب.

اقترح الحبيب بورقيبة رئيس الحكومة في الفصل
 الأول أن تنص المادة الأولى على الاستقلال والسيادة
 "تونس دولة مستقلة ذات سيادة" والمادة الثانية على
 سيادة الشعب "الشعب التونسي هو صاحب السيادة
 يباشرها على الوجه الذي يضبطه هذا الدستور"، وأن
 تكون المادة الثالثة على النحو التالي: "الإسلام دين الدولة
 والعربية لغتها وهي تضمن حرية المعتقد وتحمي حرية
 القيام بالشعائر الدينية ما لم تخل بالقانون"^(٣٢).

والملاحظ أن بورقيبة أعطى القدر الأكبر من الأهمية
 للسيادة قبل العروبة والإسلام في نص الدستور، وهو ما
 يمكن أن يفسر بعدم استرجاع تونس لكامل سيادتها على
 أراضيها وتواصل تواجد بقايا للقوات الفرنسية على
 التراب التونسي^(٣٣).

وقدّم الشيخ الشاذلي النيفر مقترحاً يكون فيه نصّ
 المادة الأولى على النحو التالي: "تونس دولة عربية
 مستقلة ذات سيادة"، وعارضه الباهي الادغم الذي
 اعتبر أن التنصيص على العروبة أو الإسلام كدين للدولة
 ليس له معنى قانوني وأيده في ذلك أحمد المستيري
 الذي رأى ضرورة التنصيص على المبادئ العامة "في
 مقدمة الدستور"^(٣٤)، واعتبر ضرورة الاكتفاء في الفصل
 الأول تونس دولة مستقلة والإشارة إلى أن الإسلام دين
 الدولة والعربية لغتها في فصل آخر^(٣٥). ولقي هذا
 الموقف تجاوباً من أحمد بن صالح الذي اعتبر أن
 النقاش حول هذه القضية "إشكالية مزيفة"^(٣٦).

في المقابل رأى النائب نصر المرزوقي ضرورة
 التنصيص على العروبة والإسلام "احتياطاً ودفعاً
 للالتباس" وأن تصبح المادة الأولى من الفصل الأول:
 "تونس دولة عربية إسلامية حرة مستقلة"^(٣٧)، وهو ما
 يبرز أن المجلس كان يشغل تحت الضغط اليوسفي، وقد
 أكد موقف النائب أحمد دريرة أثناء مناقشة التوطئة في
 جلسة ١٧ جويلية ١٩٥٦ هذا التوجس والذي اعتبر أنه

المقترح فكانت مسودة الدستور الصادرة في ٣٠ جانفي
 ١٩٥٨ على النحو التالي: "نحن ممثلي الشعب التونسي
 المجتمعين في المجلس التأسيسي بإرادة الله وإرادة
 الشعب". لكن النص النهائي الصادر في ١ جوان ١٩٥٩
 لم يتضمن هذه الفقرة وعوّضت بالنص التالي:

"بسم الله الرحمان الرحيم
 نحن ممثلي الشعب التونسي
 المجتمعين في مجلس قومي تأسيسي
 نعلن:....".

كما لقي مقترح النائب محمود الغول بضرورة
 التنصيص على حرية التعليم رداً من رئيس المجلس مفاده
 أن الأمر يمكن أن يؤدي إلى جانب التعليم العمومي إلى
 وجود مدارس لائكية ونصف لائكية وأخرى دينية أو
 متطرفة في الدين^(٣٦). كما طالب هذا النائب (محمود
 الغول) أثناء مناقشة التوطئة بالتنصيص على حرية
 الاجتماع وحرية الصحافة وحرية المعتقد وحرية التعليم
 والمساواة دون تمييز على أساس الجنس أو الدين أو
 المعتقد^(٣٧)، وفي نفس الاتجاه طالب النائب محمد بدر
 بالتأكيد على الحرية ونظام ديمقراطي في الفقرة الأولى
 من التوطئة^(٣٨).

٢-١ (٢/١) -جدل الفصل الأول

نوقشت مسألة الإسلام والدولة لأول مرة في الجلسة
 الثانية للمجلس القومي التأسيسي التي انعقدت في ١٤
 أفريل ١٩٥٦ بحضور الأمير الشاذلي باي نجل محمد
 الأمين باي ورجال الشريعة وقد تميّزت هذه الفترة
 باحتدام الصراع البورقيبي اليوسفي، لكن النقاش
 خاصة في مستوى علاقة الدين بالدولة حسم بسرعة
 كبيرة ودون إثارة جدل كبير أو إحداث إشكالات حقيقية.
 حدد الفصل الأول هوية الدولة ومكانة الإسلام فيها.
 واعتمد بورقيبة وأنصار توجهاته العلمانية، مثل الباهي
 الادغم وأحمد المستيري، تمثيلاً براغماتياً^(٣٩) نصّ
 على الإسلام وبقي وفيّاً لقناعاته وآراءه العلمانية في
 نفس الوقت^(٤٠).

كان المقترح الأول حول الفصل الأول من الدستور
 يتضمن المواد التالية:^(٤١)

تونس بالمشرق ومصر الناصرية ويلقى دعماً من اليوسفيين والزيتونيين والحزب الحر الدستوري القديم وهو ما كان له تأثير على توقيت وصياغة نص الفصل الأول من الدستور والتي نجح فيه بورقيبة بالخروج منتصراً^(٤٤)، خاصة وأن الشق المحافظ في المجلس وعلى رأسه الشيخ الشاذلي النيفر رأى أن الدستور التونسي "أقر... التصميم على تعلق الشعب التونسي بتعاليم الإسلام السمحة"^(٤٥). كما اعتبر البعض أن حضور الإسلام كمكون أساسي في النص الدستوري للدولة الناشئة سببه دور الإسلام وأهميته المشاعر الدينية في تحريك قوى المجتمع وتجييشها للنضال ضد المستعمر لذلك مثل النص التأسيسي انعكاساً لهذا المعطى العقائدي^(٤٦).

وبالنسبة لخبراء القانون الدستوري فهناك توجهان، رأى الأول أن عبارة "الإسلام دينها" جعلت القيمة القانونية للإسلام ثابتة في النص الدستوري وهو ما يجب أن ينعكس على مستوى التشريعات سواء باعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً للتشريع أو أحد مصادر التشريع. في حين رأى التوجه الثاني أن العبارة هي تعبير عن واقع اجتماعي وأن قيمتها رمزية وليس لها طابع قانوني إلزامي^(٤٧)، مما يترك باب التأويلات مفتوحاً. لذلك اعتبر بعض الدارسين أن علاقة الدين بالدولة وما اعترأها من تضارب يعود لغموض الفصل الأول من الدستور^(٤٨).

(٢/١) ٣- بقية الفصول

في الفصل ٥ من الباب الأول للأحكام العامة^(٤٩) كرس دستور ١٩٥٩ حرية المعتقد وممارسة الشعائر الدينية وذلك في إطار "التصور الكوني لحقوق الإنسان في بعدها الشامل والمتكامل"^(٥٠)، لكنه في المقابل استخدم صيغة تحديد في هذا الفصل كما عديد الفصول الأخرى "ما لم يخل بالأمن العام" وهي طريقة لا تعتمد في الأنظمة الديمقراطية لأن هذا التحديد يمكن السلطة التشريعية من الحد من هذه الحريات^(٥١)، وهو ما أفرغ الدستور من محتواه بسبب القوانين التي تحد من الحقوق والحريات كقانون الصحافة وقانون الجمعيات وقانون التظاهر. ولم تكن هناك إمكانية

يجب التنصيص على انتماء تونس للمغرب العربي وتسجيل "الاتجاه الدولة التونسية السياسي كدولة عربية إسلامية"^(٣٨).

ودار سجال بين بورقيبة والشاذلي النيفر بين بورقيبة أن أهم ما يجب التنصيص عليه هو أن تونس دولة ذات سيادة، واقترح النص التالي: "تونس دولة حرة ذات سيادة، الإسلام دينها والعربية لغتها" فطلب النيفر إضافة عبارة "الإسلام دين الدولة" بعد الإسلام دينها ليكون الفصل على النحو التالي "تونس دولة حرة ذات سيادة، الإسلام دينها - الإسلام دين الدولة - والعربية لغتها"^(٣٩) قبل أن يسحب اقتراحه ويتم التصويت على الفصل كما قدمه بورقيبة وقبوله بالإجماع وأضيفت له الجمهورية نظامها في القراءة الثالثة التي تمت في جلسة ٢٩ ماي ١٩٥٩ وبذلك أصبح الفصل الأول للدستور كالتالي: "تونس دولة، حرة، مستقلة، ذات سيادة، الإسلام دينها، والعربية لغتها، والجمهورية نظامها".

كانت صياغة الفصل الأول غامضة وفضفاضة تحتمل أكثر من تأويل كل حسب خلفيته الفكرية والإيديولوجية والاجتماعية، فهل أن كلمة دينها تعود على الدولة؟ رغم أن أغلب الخبراء في القانون اعتبروا أنه تعود على "الشعب التونسي المسلم"^(٤٠). واعتبر الشيخ الشاذلي النيفر وجود فرق بين كونها دينها الإسلام وبين كونها دولة إسلامية^(٤١). فالقول الإسلام دينها يقتضي "أن تكون القوانين كلها في المنهج الإسلامي بحيث يعرض كل قانون على المبادئ الإسلامية فما هو مطابق لها أقر وما لم يطابقها ألغى، بخلاف دينها الإسلام فإنه لا يضي عليها ما أضفته الفقرة المتقدمة"^(٤٢). واعتبر أن تونس كانت سبّاقة في إقرار الإسلام كدين للدولة حيث أقر هذا الفصل في ١٩٥٦ تاريخ كتابة بعض الدساتير العربية كما أنه، أي الدستور، أقر ما لم يقره عهد الأمان الذي لم يفرق بين المسلم وغيره^(٤٣). واعتبر الباحث عبد الجليل بوقرة أن هذا الفصل نوقش والبلاد تعيش صراعاً بين تيار يتزعمه بورقيبة وبيحث عن خصوصية تونسية تستمد من المشروع الإصلاحي لنخب تونس في القرن التاسع عشر وهو التيار الغالب والمسيطر على أجهزة الدولة الجديدة ويقابله تيار ثان يحاول ربط

ويعطيه مكانة مميزة مثلما أكدّه الشيخ الشاذلي النيفر^(١٠).

أثناء كتابة دستور ١٩٥٩ دخلت البلاد في مسار تحديث تواصل بعد إقرار الدستور وشمل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لكنه تميّز بالانغلاق السياسي وأرسى نظام الاستبداد طيلة أكثر من ثلاثين سنة من حكم بورقيبة تلاها أكثر من عقدين من الاستبداد السياسي أثناء حكم زين العابدين بن علي. وقد عرفت هذه المرحلة التي امتدت على أكثر من نصف قرن ١٦ تعديلا دستوريا لكنه لم يشمل مكانة الدين في الدستور وبقيت المسألة الدينية في الدستور على حالها. وأثناء فترة حكمه كانت علاقة بورقيبة بالدين ملتبسة، حيث رأى الباحث عبد الجليل بوقرة أن بورقيبة لم ينصّ في الدستور على أن الشريعة مصدر للتشريع لكن المدونة التشريعية التونسية ممثلة في مجلة الأحوال الشخصية التي صدرت في ١٣ أوت ١٩٥٦ ومجلة الحقوق العينية الصادرة سنة ١٩٦٥ ومجلة الالتزامات والعقود لم تناقض الشريعة الإسلامية^(١١)، كما أنه وأمام الرفض الشعبي للمساواة في الميراث تراجع بورقيبة عن المساواة في الميراث ولم ترقى دعوته إلى إفطار رمضان أو تعويض الحج بزيارة مقامات الصحابة الموجودة بتونس إلى مصاف القوانين^(١٢). ولئن رأى بعض الدارسين أن طرح بورقيبة للمسألة الدينية جريء ويمثّل ثورة على رجال الدين التقليديين، فإن المتتبع لمكانة المسألة الدينية في الفكر البورقوبي خطا وممارسة يلحظ فروقا كبيرة وتغيّرا، بل تناقضا لهذه المكانة بين فترة النضال الوطني وأثناء مرحلة الحكم في دولة الاستقلال التي سطا فيها بورقيبة على الدين وقام بدولته أي توظيفه لخدمة الدولة وإيجاد "مخارج دينية لمغامراتها العلمانية"^(١٣)، واعتبر نفسه مجددا في الدين "الذي يقوم على الجرأة والحرية في التصرف والاجتهاد"^(١٤). وتواصلت محاولة احتكار الدولة للدين وتوظيفه لخدمة مشاريعها بعد أن لقّب بن علي نفسه بحامي الحمى والدين رغم أنه خاض حرب استئصال ضد كل مظاهر التدين عبر خطة تجفيف منابع التي كان الإسلاميون أكثر القوى السياسية تضررا منها. وبعد ثورة شعبية انطلقت من سيدي بوزيد في ١٧ ديسمبر

للطعن في هذه القوانين نتيجة عدم وجود مؤسسة أو آلية ترافق دستورية القوانين، وبذلك ساهمت القوانين التي أصدرتها السلطة التشريعية في الحد من الحقوق والحريات^(١٥).

أما الفصل ٢٧ في باب السلطة التنفيذية فهو يشترط إسلام رئيس الجمهورية، وهذا الشرط الذي سيتم اعتماده أيضا في دستور ٢٠١٤، وهو يتوافق مع ما ينصّ عليه الفقه الإسلامي بضرورة "أن يكون وليّ أمر المسلمين يدين بدينهم"^(١٦)، لكنه في المقابل يطرح إشكالا يتمثل في عدم القدرة على إثبات هذا الشرط أي اعتناق الإسلام باعتبار أن المعتقد الديني هو شأن خاص بمعتقد^(١٧). واعتبرت الباحثة إقبال بن موسى هذا الأمر "تزيّدا" مستددة في ذلك إلى رأي بيار رونودو الذي يعتبر أن هذا الشرط لا يقدم إضافة تذكر سوى تكريم الإسلام واثبات تفوق الغالبية المسلمة داخل مجتمع مسلم^(١٨). كما أن رئيس الجمهورية وحسب الفصل ٤١ يؤدّي القسم وفق صياغة إسلامية تقارب الصياغة المعتمدة في دستور ٢٠١٤ وهو ما يتوافق مع الفصل الأول من الدستور ومكانة الإسلام في الدولة^(١٩).

من خلال قراءة شاملة لحضور المسألة الدينية في دستور ١٩٥٩ الذي كتب في مرحلة حساسة من تاريخ الدولة المستقلة حديثا عانت فيها نخب الحكم من تراكمات ٧٥ سنة من الاستعمار الفرنسي ودخل التونسيون ونخبهم في صراع زعامة ورؤى وبرامج ذات خلفيات متعارضة، فإن هذا الدستور اعتبره البعض في نفس الوقت مشوشا، ولكنه على قدر كبير من المرونة^(٢٠). فهو مشوش لأنه لم يحسم في عديد المسائل سواء في علاقة الدين بالدولة أو في مستوى مكانة الإسلام، وهو مرن لأنه حمّال أوجه عديدة من التأويل فهو انتصر للنهج التحديثي البورقوبي^(٢١) البراغماتي سياسيا والذي يمزج بين رؤى مختلفة وربما متناقضة تجمع بين الإعجاب بالنموذج اليعقوبي الفرنسي وأهمية الإسلام ودوره في تحريك المجتمع وتحرير الإنسان والأوطان إضافة إلى أهمية الجهاد للتخلص من الموروث المكبل للتطور^(٢٢). كما أن هذا الدستور أرضى التونسيين المحافظين الذين اعتبروا الدستور يتمسك بالإسلام

واعتبروا أنه لا يمكن انجاز دستور ديمقراطي في سنة واحدة وذلك رغم التنازلات التي قدمتها حركة النهضة^(٦٧).

لكن على خلاف التجربة الأولى كانت انتخابات ٢٣ أكتوبر ٢٠١١ أول انتخابات تعددية ونزيهة في تاريخ تونس المعاصر وذلك يتجلى على مستوى الإشراف الذي تمّ تحت إدارة الهيئة العليا المستقلة للانتخابات بعد أن كانت وزارة الداخلية تشرف على الانتخابات وتزورها كانت لصالح النظام الحاكم^(٦٨)، أو على مستوى المشاركة حيث تقدّمت ١٥١٩ قائمة في ٣٣ دائرة وانقسمت بين ٨٣٠ قائمة حزبية و٦٥٥ قائمة مستقلة و٣٤ قائمة ائتلافية^(٦٩) وبلغ عدد المترشحين ١١٦٨٦ بمعدل ٥٠ مترشحاً عن كل مقعد^(٧٠)، وكذلك على مستوى المراقبة المحلية والدولية فبلغ عدد المراقبين أكثر من ١٤ ألف^(٧١) وبلغت نسبة المشاركة ٥٤%^(٧٢). أمّا النتائج فقد عرفت فوز ٢٧ قائمة بمقاعد في المجلس^(٧٣) وتبوّأت حركة النهضة الإسلامية صدارتها بـ ٨٩ مقعداً من ٢١٧ مقعداً وتكوّن المجلس من ١٩ حزباً وإئتلاًفاً حزبياً ومجموعة من المستقلين^(٧٤)، وجمع أغلب الأطراف السياسية التي عانت من فترة الاستبداد بمرحلتها دون إقصاء، بعد أن كان المجلس القومي التأسيسي عقب الاستقلال يضم فقط الجبهة القومية ممثلة في الحزب الحرّ الدستوري الجديد وحلفاؤه من المنظّمات القومية، مع تغييب للتوجهات المخالفة في عملية كتابة الدستور.

أمّا على مستوى منهجية صياغة الدستور فقد خيّر نواب المجلس الوطني التأسيسي في ٢٠١١ اعتماد نفس تمثلي التأسيس الأول والانطلاق من ورقة بيضاء دون اعتماد مشاريع الدساتير التي قدمتها الأحزاب الممثلة في المجلس وخارجه بما فيها الأحزاب المحظورة وكذلك مشاريع منظمات المجتمع المدني^(٧٥). لكن على خلاف التجربة السابقة فقد تمّ اعتماد منهجية تشاركية جمعت النواب المؤسسين بقرابة ٥٠٠٠ مواطن ومجموعة من الخبراء ومنظمات المجتمع المدني والمنظمات الدولية في ٤٤ اجتماع داخل تونس وخارجها^(٧٦). وعلى عكس التجربة السابقة أيضاً حيث كانت أعمال اللجان سرية فإنّ أعمال اللجان كانت مفتوحة في مجملها أمام وسائل الإعلام ممّا مكّن الرأي العام من متابعة مسار كتابة

٢٠١٠ إثر إحراق الشاب محمد البوعزيزي لنفسه وامتدّت إلى بقية مناطق البلاد لتتوجّ في ١٤ جانفي ٢٠١١ بفرار بن علي ليرتسم واقع جديد اعتمد آليات وأدوات التأسيس الأول من مجلس تأسيسي لكتابة دستور للجمهورية الثانية مع اختلاف في الطرفية والمكونات التي كانت متعدّدة واحتكمت إلى انتخابات ديمقراطية ونزيهة، وأحييت الجدل القديم للنخب التونسية حول النظام السياسي والحقوق والحريات ومكانة الدين في الدولة والمجتمع من خلال النص الدستوري.

ثانياً: المسألة الدينية في دستور ٢٧

جانفي ٢٠١٤

١/٢- اختلاف الطرفية وتشابه المسار

١(١/٢)- المؤتلف والمختلف في المسار

الانتخابي وكتابة الدستور

كتب دستور ٢٠١٤ بعد ثورة شعبية أطاحت برأس النظام وضمنت تحوّل السلطة الذي فرضته القوى الشعبية والسياسية في إطار احترام الآليات الدستورية إلى حين إجراء انتخابات المجلس الوطني التأسيسي في ٢٣ أكتوبر ٢٠١١ استلهاما من التجربة التأسيسية الأولى ومحاكاة لها. ولئن لم يقيّد المجلس القومي التأسيسي بالتزام قانوني أو أخلاقي يحدّد مدّة أشغاله فإنّ الأحزاب الممثلة في الهيئة العليا لتحقيق أهداف الثورة والإصلاح السياسي والانتقال الديمقراطي وقّعت وثيقة "إعلان المسار الانتقالي" وهو التزام أخلاقي تتعهد فيه بالالتزام بتاريخ ٢٣ أكتوبر ٢٠١١ لإجراء الانتخابات واحترام مدوّنّة السلوك الصادرة عن هيئة الانتخابات وتحديد مدّة أشغال المجلس بسنة واحدة^(٦٥)، لكنّ عدم القدرة على إنهاء الدستور في الموعد المحدّد ساهم في إدخال البلاد في أزمة سياسية، حيث اتّهمت أحزاب المعارضة الترويكا الحاكمة^(٦٦) بتجاوز الفترة المحدّدة، في حين اعتبرت أحزاب الترويكا أنّ هذه الفترة غير كافية لإنجاز الدستور وهو ما أكّده خبراء دوليون في منظمّات غير حكومية تابعت أشغال المجلس مثل مركز كارتر والمنظمة الدولية للتقرير عن الديمقراطية

الاستقالات، كما عرفت الخارطة السياسية إعادة تشكّل يهدف لإنهاء حكم الترويكّا وإعادة التوازن للحياة السياسية^(٨٣). فتأسست الجبهة الشعبية في ٧ أكتوبر ٢٠١٢ وهي تجمع لقوى أقصى اليسار، وتأسس الاتحاد من أجل تونس في ٢٩ جانفي ٢٠١٣ وضمّ أحزاب ذات توجهات مختلفة أهمّها نداء تونس برئاسة الباجي قائد السبسي^(٨٤)، وتجمّع الاتحاد من أجل تونس والجبهة الشعبية ومكونات حزبية وجمعيةّة أخرى عقب اغتيال النائب محمد البراهمي في ذكرى عيد الجمهورية في ٢٥ جويلية ٢٠١٣ بهدف التصديّ للائتلاف الحاكم وواصلت مهامها حتّى قبول حركة النهضة بشروط الرباعي الراعي للحوار بالتخلي عن السلطة لفائدة حكومة كفاءات^(٨٥).

بعد اغتيال النائب بالمجلس الوطني التأسيسي محمد البراهمي دخلت البلاد أزمة سياسية حادة وتعطلت أشغال المجلس قرابة الشهرين، جمع بعدها الرباعي الراعي للحوار (الاتحاد العام التونسي للشغل والاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والصناعات التقليدية والهيئة الوطنية للمحامين والرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان) في ٥ أكتوبر ٢٠١٣ مختلف الفرقاء السياسيين حول طاولة المفاوضات. ورضخت حركة النهضة للضغوطات الداخلية والدولية المهددة باستسّاخ السيناريو المصري لكنّها اشترطت تلازم المسارات أي الخروج من الحكم واستقالة حكومة علي العريض وتعويضها بحكومة كفاءات مقابل إنهاء أشغال المجلس والتوقيع على الدستور، وهو ما تمّ فعلا حيث صادق المجلس الوطني التأسيسي على الدستور في الليلة الفاصلة بين ٢٦ و٢٧ جانفي ٢٠١٤ وتولّى لاحقا مهدي جمعة وزير الصناعة في حكومة الترويكّا الثانية رئاسة الحكومة وتمّ الانتقال "من الشرعيّة الانتخابيّة إلى الشرعيّة التوافقية"^(٨٦).

وبذلك فإنّ دستور ٢٠١٤ أنجز تحت الضغط، ضغط محليّ من الأطراف الدستورية والعلمانية ومنظّمات المجتمع المدني المعارضة لحركة النهضة، وضغط إقليمي ودوليّ بدا جليّا بعد حدوث الانقلاب العسكري في مصر في ٣ جويلية ٢٠١٣ على حكم الرئيس محمد مرسي وجماعة الإخوان المسلمين بتواطؤ من القوى السياسية

الدستور خاصة وأنّ الجلسات العامة كانت تعرض مباشرة على شاشات القنوات التونسية، وكان للمجتمع المدني دور كبير كقوة اقتراح وتعديل في بعض المسائل والفصول الخلافية وأيضا في مراقبة عملية صياغة الدستور. وقد تعددت المسودّات والقراءات لكنّها في النهاية أوجدت دستورا توافيقيا حظي بشبه إجماع أثناء التصويت^(٧٧)، لكنّه كان كالدستور الذي سبقه دستورا مشوشا ومرنا أيضا^(٧٨). وقبل استعراض مظاهر المرونة والتشويش خاصة في مستوى المسألة الدينية وجب التعرّض للطرفيّة السياسية العامة التي كتب فيها هذا الدستور لمعرفة مدى تأثيرها على النص النهائي.

٢-١/٢) الظرفيّة السياسيّة بالبلاد أثناء كتابة الدستور

بعد فرار زين العابدين بن علي في ١٤ جانفي ٢٠١١ بدأت الأحزاب والتنظيمات السياسيّة التي كانت محظورة أو تعاني من التضييق في الإعداد للمرحلة السياسيّة المقبلة ونزامن ذلك مع أفول الأحزاب الموالية لبن علي، وحلّ حزب التجمّع الدستوري الديمقراطي الحاكم في ٩ مارس ٢٠١١. في المقابل بدأت الجماعات السلفيّة في الظهور العلني منذ جانفي ٢٠١١ داعية إلى اعتماد الشريعة وإقامة دولة إسلاميّة مستفيدة من المناخ الثوري الذي يجمع بين الحرية والانفتاح السياسي^(٧٩). وقد عرفت فترة الاستعداد للانتخابات والحملة الانتخابيّة وحتّى بعد إعلان النتائج توتّرّا سياسيا واضحا كان للسلفيين دور بارز فيه فهاجم السلفيون الأضرحة والزوايا ومعارض الفنون وهدّدوا الفنانين والأكاديميين والناشطين السياسيين^(٨٠)، ورغم سعي حركة النهضة إلى استمالتهم واعتمادهم كخزّان انتخابي إلّا أنّها فشلت وأصبح وجود التنظيمات السياسيّة يمثّل عبئا عليها^(٨١) خاصة بعد حادثة اقتحام السفارة الأمريكيّة بتونس في ١٤ سبتمبر ٢٠١٢ والاغتيالات السياسيّة التي شهدتها تونس في ٢٠١٣^(٨٢)، وهو ما دفعها لمواجهة خاصة بعد دخول البلاد في أزمة سياسيّة في صائفة ٢٠١٣.

على مستوى الواقع الحزبي كان تحالف الترويكّا الحاكم هشّا وعرف كلّ من المؤتمر من أجل الجمهورية والتكتّل الديمقراطي من أجل العمل والحريات نزيفا من

كان كل التحوّف من السعي إلى إقامة دولة إسلامية^(٩٢)، خاصة وأنّ الهوية الدستورية في البلدان التي لم تحسم علاقة الديني بالسياسي تتجسّد في صورة "هوية ثقافية دينية"^(٩٣). ورغم أنّ مطالب الثورة التونسية كانت اجتماعية بالأساس فإنّ الحملة الانتخابية ركّزت على القضايا العقائدية وكان الصراع بين الأسلمة والعلمنة^(٩٤). وقد حضرت المسألة الدينية في دستور ٢٠١٤ في الفصول الأولى والثاني والسادس في باب الأحكام العامة وفي باب الحقوق والحريات وفي الفصل ٧٤ من القسم المتعلّق برئيس الجمهورية في الباب الرابع من الدستور المخصّص للسلطة التنفيذية.

٢/٢) ١- التوطئة

في المسودة الأولى للدستور بتاريخ ١٤ أوت ٢٠١٢ ورد في الفقرة الثانية من التوطئة عبارة: "... وتأسيساً على ثوابت الإسلام ومقاصده المتّسمة بالتفتّح والاعتدال ... وحركته الإصلاحية المستندة إلى مقوّمات هويته العربية الإسلامية..."^(٩٥). وتكرّرت هذه العبارة في مسودة ١٤ ديسمبر ٢٠١٢ ومسودة ٢٢ أفريل ٢٠١٣ ومسودة ١ جوان 2013، لكن في الصياغة النهائية تمّ التخلّي عنها وتعويضها بـ: "وتعبيراً عن تمسك شعبنا بتعاليم الإسلام ومقاصده المتّسمة بالتفتّح والاعتدال، وبالقيم الإنسانية ومبادئ حقوق الإنسان الكونية السامية، واستلهاماً من رصيدنا الحضاري على تعاقب أحقاب تاريخنا، ومن حركاتنا الإصلاحية المستتيرة المستندة إلى مقوّمات هويتنا العربية الإسلامية..."^(٩٦). أما الفقرة الرابعة فقد كانت على النحو التالي "... ونحو التكامل مع الشعوب الإسلامية..." وتكرّرت أيضاً في كلّ المسودّات لكن في النص النهائي تمّ تغييرها إلى "وبناءً على منزلة الإنسان كائناً مكرّماً، وتوثيقاً لانتماثنا الثقافي والحضاري للأمم العربية والإسلامية".

وقد أثارت عبارة "تأسيساً على ثوابت الإسلام" نقاشاً كبيراً بين النواب ورجال القانون نتيجة لغموضها وقابليتها للتأويل الذي قد يجعل كلّ النصوص الدينية كمنطلق للنص الدستوري^(٩٧)، كما اعتبرها البعض إخضاعاً للنص الدستوري للشرعية الإسلامية التي تمثّل الأصل الذي تتفرّع عنه بقية القوانين^(٩٨)، وأنّه من

بما فيها الأحزاب السلفية مثل حزب النور والقوى المدنية ورموز المؤسسات الدينية ممثلة في مشيخة الأزهر وبابا الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. كما أنّ الدستور كتب أيضاً في أجواء الاتّهام لحركة النهضة بالرغبة في الاستفراد بالسلطة وتمرير توجهاتها الإسلامية في نص الدستور تحضيراً للتمكين السياسي. لكن تتبّع تطوّر إنجاز الدستور يثبت أنّ حركة النهضة قدّمت تنازلات في مستوى كتابة الدستور وذلك خضوعاً للواقع السياسي الداخلي ومراعاة لموازن القوى والضغوط الدولية وذهبت في أحيان كثيرة عكس ما تريده قواعدها، وذلك في محاولة منها لإنقاذ مسار التأسيس الثاني.

٢/٢- المسألة الدينية ومسار كتابة الدستور

كتب دستور ٢٠١٤ بمرجعيّات مختلفة حدّ التناقض^(٩٩)، واعتبر بعض الباحثين أنّ كتابة الدستور هي معركة صياغة الهوية الدينية لتونس بعد عقود من العلمنة القسريّة^(١٠٠)، لذلك تعارض مفهومان للهوية وتواجهها داخل المجلس. التوجّه الأوّل دافعت عليه أساساً حركة النهضة وبدرجة أقلّ من العريضة الشعبية وهو يعتبر أنّ هوية تونس ترتكز على ما يجمع أكثر من ٩٥ % من التونسيين وهي اللغة العربية والدين الإسلامي، أمّا الطرح الثاني فتبنته الأوساط الحداثيّة التي اعتبرت أنّ اللغة والدين مكوّنات غير كافية لتعريف الهوية التونسية باعتبارهما، أي اللغة والدين، لا يعيران أهمية للخصوصيّة التونسيّة المتمثلة أساساً في قوّة الموروث والتجارب التحديثيّة والمكانة المهمّة للأقليات في تونس، وهو الطرح الذي دعمه نواب نداء تونس وأجزاء من المؤتمر من أجل الجمهورية والتكتّل الديمقراطي من أجل العمل والحريّات^(١٠١). وتركّز النقاش على مواضيع كانت تعتبر محسومة ولا يمكن العودة لنقاشها مثل مدنيّة الدولة ومكانة الدين^(١٠٢)، لأنّ الانغلاق السياسي والتحصّر الفكري والثقافي الذي عانت منه تونس منذ الاستقلال لم يسمح للتونسيين بنقاش مستفيض في هذه المسائل، وهو ما سمحت به ثورة ١٧ ديسمبر- ١٤ جانفي فأعاد التونسيون النقاش حول المواضيع المتعلّقة بالدين والسياسة^(١٠٣).

بالنسبة لحركة النهضة كان الخلاف جلياً بين القواعد^(١٠٧) وجزء من القيادات التي تميل لاعتماد الشريعة في الدستور^(١٠٨)، وبين التوجّه العام للحزب الذي يتبنّى فكر زعيمها راشد الغنوشي والذي يعتبر أنّ مفهوم الشريعة يتجاوز الأحكام الصارمة والحدود ليشمل قيم المساواة والعدالة الاجتماعية^(١٠٩)، كما يبرز أنّ الإسلام لا يتعارض مع الديمقراطية^(١١٠)، وهو ما دفعها إلى نقاشات طويلة ومعقدة انتهت إلى قرارها بالتخلّي عن اعتماد لفظ الشريعة في الدستور^(١١١)، وهو أمر مختلف عن توجّهات الأحزاب الإسلامية في بقية الدول العربية^(١١٢)، لذلك جلب هذا القرار لحركة النهضة تهمة التخلّي عن الإسلام من حركة القاعدة وحزب التحرير^(١١٣).

ب - الفصل الأول

حدّد الفصل الأول اللغة الرسميّة للدولة والديانة الرسميّة ونوعيّة النظام السياسي "تونس دولة حرّة، مستقلة، ذات سيادة، الإسلام دينها، والعربية لغتها، والجمهورية نظامها". وقد اعتبر بعض السياسيين المعارضين منذ البداية أنّ الفصل الأول في دستور ١٩٥٩ جيد ويمكن اعتماده^(١١٤). وقد حاولت حركة النهضة التنصيص على أن الإسلام دين الدولة في النسخ الأربع للدستور من خلال الفصل ١٤١ الخاص بتعديل الدستور القاضي بأنه "لا يمكن لأي تعديل أن ينال من الإسلام باعتباره دين الدولة"، لكن الحوار الوطني ألغى هذا الفصل^(١١٥) لأنّه اعتبر تأويلاً للفصل الأول^(١١٦)، وأنهى الجدل بإضافة أنّه لا يمكن تعديل هذا الفصل.

لكنّ هذا الفصل قبل اعتماده أثار جدلاً جديداً بدل أن ينهي الجدل حيث يرى بعض الخبراء القانونيين أنّ هذا الفصل يمثّل قراءة حركة النهضة والطيف الإسلامي في أنّ الإسلام دين الدولة في المسودات الأربع الأولى نظراً لاقتراحه بصياغة "تأسيساً على ثوابت الإسلام" الواردة في الديباجة والفصل ١٤١ "لا يمكن لأي تعديل أن ينال من الإسلام باعتباره دين الدولة"، لكن انطلاقاً من مسودة ١ جوان ٢٠١٣ ومع إضافة الفصل الثاني الذي يقرّ مدنيّة الدولة ومع إقرار الحرية الدينية وحرية الضمير تغير الاتجاه لفائدة التفسير الذي يرى

الأفضل "التأكيد على تمسك الشعب بتعاليم الإسلام (المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية والأفق الكوني في روح التشريع)"^(٩٨)، لذلك تم تعويض هذه الصياغة بأخرى أكثر وضوحاً وأقلّ جدلاً دون مسّ أو استتقاص من مكانة الهوية الإسلامية ودون تهديد للقانون الوضعي التونسي^(٩٩) فكان النص النهائي "تعبيراً عن تعلق شعبنا بتعاليم الإسلام".

٢ (٢/٢) - جدول الشريعة والفصل الأول مدنيّة الدولة

أ - الشريعة:

كانت الإشكالية المطروحة تتعلّق بمكانة الإسلام في الدستور وفي الدولة^(١٠٠) وكانت هناك ثلاثة توجّهات: التوجّه الأول يرى ضرورة عروبة تونس وإسلامها واعتماد الشريعة كمصدر للتشريع ويتبناه بعض الإسلاميين من سلفيين وحزب تحرير وبعض المحافظين كالعريضة الشعبية والاتحاد الوطني الحر، أمّا التوجّه الثاني فتبنّاه القوى العلمانيّة ويرى أنّه لا يجب التنصيص على الدين في الدستور، أمّا التوجّه الثالث فهو التوجّه الأغلب الذي يقف في المنطقة الوسطى بين التوجهين ويضم إسلاميين وليبراليين وعلمانيين وتدعم بموقف حركة النهضة في ٢٥ مارس ٢٠١٢ باعتماد الفصل الأول في الدستور والتخلّي عن لفظ الشريعة^{١٠١}.

ولم تعلن حركة النهضة في برنامجها الانتخابي نيّتها اعتماد مسألة الشريعة الإسلامية كمصدر للتشريع في الدستور^(١٠٢)، لكن باعتبارها الطرف الأغلب داخل المجلس الوطني التأسيسي ونظراً لمرجعيتها الإسلامية فإنّ المعارضة السياسيّة والمنظّمات الحقوقية والمجتمع المدني من ذوي الخلفيّة العلمانيّة كانت تخوّفاتها جليّة من "أيرنة تونس" والسعي لإقامة دولة إسلاميّة^(١٠٣). وقد تعمّقت التخوفات بعد أن انتشر نصّ على الأنترنت لمسودة دستور نسب لحركة النهضة وكان فيه إدراج لمسألة الشريعة^(١٠٤)، ولم يساهم نفي حركة النهضة لعلاقتها بهذه الوثيقة في تبديد المخاوف^(١٠٥)، بل دفع البعض لاتهامها بازدواجيّة الخطاب والسعي الخفي لإدراج الشريعة^(١٠٦).

رمزية الفصل وتنصيبه على واقع اجتماعي لا على هوية سياسية للدولة^(١١٧).

ج - مدنية الدولة

أعتبر الفصل الثاني "تونس دولة مدنية، تقوم على المواطنة، وإرادة الشعب، وعلوية القانون. لا يجوز تعديل هذا الفصل." من أهم الإضافات في الدستور التونسي والذي لقي ترحاباً من الحداثيين الذين اعتبروه بديلاً لعلمانية الدولة، أما الإسلاميين فقد رحبوا به لأنهم يعتبرون أن الدولة الإسلامية هي دولة مدنية^(١١٨).

وبذلك ساهم الفصل الثاني إلى جانب الفصل الأول في تحديد هوية الدولة، رغم اعتبار بعض الفقهاء القانونيين أن الفصل 141 الذي ينص على أنه لا يمكن تعديل هذا الفصل "الإسلام باعتباره دين الدولة" يتناقض مع طبيعة الدولة المدنية مما خلق مساحة غامضة لصراع محتمل. تطورت المادة 141 لتتحول إلى نقطة الخلاف الرئيسية في مسودة الدستور، بعد أن قدمت حركة النهضة فقرة تنص على أن المادة 141 هي المادة الوحيدة غير القابلة للتعديل في الدستور التونسي. لكن في النهاية تم إلغاء هذا الشرط وإسقاط المادة 141 من المشروع^(١١٩).

٣-٢ (٢/٢) باب الحقوق والحريات

أثرت المسألة الدينية على الحقوق والحريات، وكانت القوى العلمانية تريد اعتماد منظومة الحقوق الكونية دون أي تقييد، وحركة النهضة تسعى إلى تقييد هذه الحقوق بما لا يتعارض مع الإسلام^(١٢٠). ومن خلال الفصل السادس "الدولة راعية للدين، كافلة حرية المعتقد والضمير وممارسة الشعائر الدينية، ضامنة لحياة المساجد ودور العبادة عن التوظيف الحزبي. تلتزم الدولة بنشر قيم الاعتدال والتسامح وب حماية المقدسات ومنع النيل منها، كما تلتزم بمنع دعوات التكفير والتحريض على الكراهية والعنف والتصدي لها". كرّس دستور ٢٠١٤ الحرية الدينية دون مفاضلة بين الأديان، وأعطى مكانة متميزة للإسلام^(١٢١). وكانت صياغة الفصل في البداية تنص على أن الدولة راعية للدين لكن الخلاف الذي حصل بين النائبين الحبيب اللوز عن حركة النهضة والمنجي الرحوي عن حزب الوطنيين

الديمقراطيين دفع للتصيص على منع التكفير^(١٢٢)، وهو ما قبلته حركة النهضة مقابل قبول الطرف العلماني بالتزام الدولة بحماية المقدسات^(١٢٣). كما أقرّ في هذا الفصل حرية الضمير وهي سابقة في الدساتير العربية الإسلامية^(١٢٤)، وذلك رغم عدم إقرارها منذ البداية بما يعكس أولويات حركة النهضة في حماية المقدسات قبل الحريات^(١٢٥)، لكن هذا الفصل غطى الحرية الدينية في بعدها الفردي والجماعي المستندي إلى الفصل ١٨ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ والفصل ١٧ من الميثاق العالمي لحقوق المدنية والسياسية الصادر في ١٦ ديسمبر ١٩٦٦^(١٢٦).

كما ضبط الفصل ٣٩ الحق في التعليم "التعليم إلزامي إلى سن السادسة عشرة. تضمن الدولة الحق في التعليم العمومي المجاني بكامل مراحلها، وتسعى إلى توفير الإمكانات الضرورية لتحقيق جودة التربية والتعليم والتكوين. كما تعمل على تأصيل الناشئة في هويتها العربية الإسلامية وانتماؤها الوطني وعلى ترسيخ اللغة العربية ودعمها وتعميم استخدامها والانفتاح على اللغات الأجنبية والحضارات الإنسانية ونشر ثقافة حقوق الإنسان". وأقرّ هذا الفصل مسؤولية الدولة في ترسيخ الهوية العربية الإسلامية من خلال التعليم وجعله من أولويات الدولة^(١٢٧). أما الفصل ٧٤ "الترشح لمنصب رئيس الجمهورية حق لكل ناخبة أو ناخب تونسي الجنسية منذ الولادة، دينه الإسلام." فهو تكرار للفصل ٢٧ من دستور ١٩٥٩ وهو ما يعطي أهمية كبرى ومكانة أساسية للديانة الإسلامية في دستور ٢٠١٤^(١٢٨).

خاتمة

من خلال دراسة أهمية المسألة الدينية في التجريبتين الدستوريتين لدولة الاستقلال في تونس التي تتميز بتجانس تركيبها العرقية والدينية وتنوع المرجعيات الفكرية والإيديولوجية لفاعليها السياسيين، يمكن أن نستنتج تأثير دستور ١ جوان ١٩٥٩ في دستور ٢٧ جانفي ٢٠١٤ خاصة مع التوافق حول الفصل الأول، وتكرار الفصل الذي يشترط إسلام رئيس الجمهورية مع تواصل الجدل حول الدساتير حتى بعد إنجازها لأنها لم تحسم المسائل الخلافية والتي قد تؤدي إلى انقسام المجتمع. كما أن كتابة الدساتير تتأثر بالواقع السياسي والأمني الداخلي خاصة الاغتيالات السياسية والعمليات الارهابية للجماعات المتطرفة التي استهدفت المؤسسات الأمنية والعسكرية بالخصوص، إضافة إلى قدرة المجتمع المدني على التأثير في الواقع السياسي ومرونة الأحزاب والتنظيمات السياسية وسعيها لتحقيق توافقات، هذا إضافة إلى تأثير الواقع الإقليمي في التجريبتين.

ومرّت المسألة الدينية في الدساتير التونسية من التخفيف إلى التكتيف وذلك عندما نقارن بين دستور ١٩٥٩ ودستور ٢٠١٤ وهو ما يبرز أن الطرف القوي في المعادلة السياسية قادر على فرض تصورات، فلتن فرض بورقيبة تصوّره لمكانة الإسلام في دستور دولة الاستقلال فإن حركة النهضة تمكّنت من تضمين جزئي لأفكارها في دستور ٢٠١٤، لكن بعد الثورة كان للمعارضة مكانة أساسية في كتابة الدستور وكان للمجتمع المدني مكانة تعديلية هامة، لأنها تمكّنت من تخفيف الشحنة الدينية القوية التي حملتها المسودة الأولى والمسودات التي تلتها لتتمكّن من فرض جزء من رؤاها أو التصدي للرؤى المخالفة لها.

لكن الإجماع الحاصل حول الدستور والتوافقات حول نقاط الجدل الأساسية المتعلقة بمكانة الدين في الدستور لم تنه الجدل داخل الطبقة السياسية وداخل المجتمع لأن المسألة الدينية خاضعة للتأثير والتأثر ولتغير موازين القوى السياسية في مجتمع متعدد ومتنوع، ولأن الدولة احتكرت الدين لقراءة نصف قرن وحاولت تطويره لخدمة أجنادات القوى الحاكمة مما جعلها تدخل في صراع مع فئات هامة من المجتمع.

الإحالات المرجعية:

- (١) إقبال بن موسى، **الدين في الدستور التونسي**، المفكرة القانونية، ٢٠١٨، ٥/٢٣، على الرابط: <http://bit.do/fGRX6>
- (٢) المرجع نفسه.
- (٣) عميرة عليّة الصغير، الحاكم بأمره بورقيبة الأول: دراسات وآراء في عهده (تونس: المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب، ٢٠١١)، ص ٣٧.
- (٤) Mustapha Kraiem, *Etat et société dans la Tunisie Bourguibienne*, (Tunis, MIP, 2011), p 211.
- (٥) الهادي البكوش، الاعتداء الفرنسي على ساقية سيدي يوسف الوقائع والتداعيات، تعريب أحمد العايد ومحمد بلحاج، (تونس: منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، ٢٠٠٨)، ص ٧.
- (٦) الباجي قائد السبسي، الحبيب بورقيبة المهم والأهم، (تونس: دار الجنوب، ٢٠٠٩)، ص ٧٦.
- (٧) امحمد مالكي وآخرون، **ثورة تونس الأسباب والسياقات والتحديات**، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢)، ص ٣٩٣.
- (٨) فتحي ليسير، «في خلفيات إعلان الجمهورية: "براديجم" المرحلية البورقيبية مطبّقاً على الفترة جانفي ١٩٥٦-جويلية ١٩٥٧»، روافد، العدد ١٢ (٢٠٠٧)، ص ١١٤. في سنة ١٩٥٦ عقد المجلس جليستان تأسيسيتان، الجلسة الأولى في ١٤ أفريل ١٩٥٦ وناقشت الفصل الأول والجلسة الثانية في ١٧ جويلية ١٩٥٦ وناقشت التوطئة التي كان مقرر مناقشتها في جلسة ٤ جوان ١٩٥٦ لكن تم تأجيل ذلك بطلب من مقرر لجنة التوطئة والتنسيق.
- (٩) عبد الجليل بوقرة، **المجلس القومي التأسيسي التونسي الولادة العسيرة لدستور جوان ١٩٥٩** (تونس: دار آفاق للنشر، ٢٠١١)، ص ٤٢.
- (١٠) عبد الفتاح عمر وآخرون، **المجلس القومي التأسيسي**، (تونس: مركز الدراسات والبحوث والنشر، كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية والسياسية بتونس، ١٩٨٦)، ص ٨٥.
- (١١) Sophie Bessis & Souhayer Belhassen, *Bourguiba*, 3(ème) ed. (London: Editions Elyzad, 2012), p 247.
- (١٢) الجليل بوقرة، مرجع مذكور، ص ٣٤.

- (٤٤) المنجي الخضراوي، **الفصل الأول من الدستور: تاريخه وتجاذباته...**، وكيف حقق الإجماع؟ موقع تورس عن جريدة الشروق، ٢٩/٣/٢٠١٢، على الرابط: <http://bit.do/fKUGz>
- (٤٥) عبد الفتّاح عمر وآخرون، مرجع مذكور، ص ١٨٤.
- (٤٦) إقبال بن موسى، مرجع مذكور.
- (٤٧) المرجع نفسه.
- (٤٨) آمال موسى، **بورقية والمسألة الدينية**، (تونس: سراس للنشر، ٢٠٠٦)، ص ١٦٢.
- (٤٩) المرجع نفسه، ص ١٦٢.
- (٥٠) خالد الماجري، **ضوابط الحقوق والحريات** تعليق على الفصل ٤٩ من الدستور التونسي، المعهد الدولي للديمقراطية ومساعدات الانتخابات على الرابط: <https://bit.ly/2WAMwz5>
- (٥١) المرجع نفسه.
- (٥٢) المرجع نفسه.
- (٥٣) إقبال بن موسى، مرجع مذكور.
- (٥٤) المرجع نفسه.
- (٥٥) المرجع نفسه.
- (٥٦) المرجع نفسه.
- (٥٧) مونيكا ماركس، أي أسلوب اعتمدته النهضة أثناء عملية صياغة الدستور التونسي: الإقناع، الإكراه، أو تقديم التنازلات؟ مركز بروكتر الدوحة، فيفري ٢٠١٤، شوهده في ٢٥/٦/٢٠٢٠ على الرابط: <https://brook.gs/2y0PbIM>
- (٥٨) المرجع نفسه.
- (٥٩) لطفي حجي، مرجع مذكور، الصفحات ٥٧-١٣١-١٤٦-١٥٠-١٨٢.
- (٦٠) عبد الفتّاح عمر وآخرون، مرجع مذكور، ص ١٨٤.
- (٦١) المنجي الخضراوي، مرجع مذكور.
- (٦٢) المرجع نفسه.
- (٦٣) آمال موسى، مرجع مذكور، ص ١٦٠-١٦٦.
- (٦٤) لطفي حجي، مرجع مذكور، ص ١٦١.
- (٦٥) هذه الأحزاب هي: حركة النهضة - التكتل الديمقراطي من أجل العمل والحريات - الحزب الديمقراطي التقدمي - حركة التجديد - حركة الديمقراطيين الاشتراكيين - حركة الوطنيين الديمقراطيين - الحزب الاشتراكي اليساري - حزب الإصلاح والتنمية - حزب تونس الخضراء - حزب العمل الوطني الديمقراطي - حزب الطليعة العربي الديمقراطي، أمّا المؤتمر من أجل الجمهورية فقد شارك في صياغة الوثيقة دون أن يوقع عليها.
- (٦٦) تحالف ضمّ حركة النهضة والمؤتمر من أجل الجمهورية والتكتل الديمقراطي من أجل العمل والحريات.
- (٦٧) مونيكا ماركس، مرجع مذكور.
- (٦٨) عبد الواحد المكني، **المسار الانتخابي في الانتقال الديمقراطي بتونس**، (صفاقس: دار محمد علي للنشر، جانفي ٢٠١٢)، ص ٧١ - هناك اعترافات عديدة بتزوير الانتخابات في فترة حكم بورقية صادرة عن رجال الحكم مثل الباجي قائد السبسي والظاهر بلخوجة ومحمد مزالي ومحمد الصياح. وفي فترة حكم بن علي من خلال تقارير هيئة الحقيقة والكرامة.
- (٦٩) المرجع نفسه، ص ٤٨.
- (١٣) المرجع نفسه، ص ٣٤.
- (١٤) عبد الجليل بوقرة، مرجع مذكور، ص ٧٧.
- (١٥) عبد الفتّاح عمر وآخرون، مرجع مذكور، ص ١٨١.
- (١٦) محمد الصالح غرس، «**سمينار الذاكرة الوطنية الخلاف البورقيبي اليوسفي**»، المجلة التاريخية المغاربية، العدد ١١٤ (٢٠٠٤)، ص ٢١٩.
- (١٧) عميرة عليّة الصغير، مرجع مذكور، ص ٣٧.
- (١٨) عبد الجليل بوقرة، مرجع مذكور، ص ٨٣-٨٦.
- (١٩) عدنان المنصر، «**الخلافات الحزبية-النقابية في تونس المستقلة**»، الكراسات التونسية، العدد ١٦٤ (١٩٩٣)، ص ١٥-١٥.
- (٢٠) عميرة عليّة الصغير، «**الهوية في تونس بين التأصيل والتحويل**»، المجلة التاريخية المغاربية، العدد ١٢٥ (٢٠٠٧)، ص ٩٧-١٠٥.
- (٢١) لطفي حجي، **بورقية والإسلام الزعامة والإمامة**، (تونس: دار الجنوب للنشر، ٢٠١٣)، ص ٤٦.
- (٢٢) المرجع نفسه، ص ٤٦-٤٨.
- (٢٣) **مداولات المجلس القومي التأسيسي**، الرائد الرسمي للجمهورية التونسية، عدد ٢٨، ٢٨ أفريل ١٩٥٦، ص ١٢٠.
- (٢٤) **مداولات المجلس القومي التأسيسي**، الرائد الرسمي للجمهورية التونسية، عدد ٣٠، ٣٠ أوت ١٩٥٦، ص ١٢٥.
- (٢٥) المصدر نفسه، ص ١٢٦.
- (٢٦) المصدر نفسه، ص ١٣٠.
- (٢٧) المصدر نفسه، ص ١٢٢.
- (٢٨) المصدر نفسه، ص ١٢٣.
- (٢٩) عبد الجليل بوقرة، مرجع مذكور، ص ٧٧.
- (٣٠) المرجع نفسه، ص ٧٧.
- (٣١) **مداولات المجلس القومي التأسيسي**، عدد ٢٨، ٢٨ أفريل ١٩٥٦، مصدر مذكور، ص ١٣.
- (٣٢) المصدر نفسه، ص ١٣-١٤.
- (٣٣) عبد الجليل بوقرة، مرجع مذكور، ص ٧٦.
- (٣٤) **مداولات المجلس القومي التأسيسي**، عدد ٢٨، ٢٨ أفريل ١٩٥٦، مصدر مذكور، ص ١٦.
- (٣٥) عبد الفتّاح عمر وآخرون، مرجع مذكور، ص ١٨٣.
- (٣٦) عدنان المنصر، مرجع مذكور، ص ١٥.
- (٣٧) **مداولات المجلس القومي التأسيسي**، عدد ٢٨، ٢٨ أفريل ١٩٥٦، مصدر مذكور، ص ١٥.
- (٣٨) **مداولات المجلس القومي التأسيسي**، عدد ٣٠، ٣٠ أوت ١٩٥٦، مصدر مذكور، ص ١٢٥.
- (٣٩) **مداولات المجلس القومي التأسيسي**، عدد ٢٨، ٢٨ أفريل ١٩٥٦، مصدر مذكور، ص ١٧.
- (٤٠) حمادي الرديسي وآخرون، «**التحول السياسي في تونس ٢٠١٤-٢٠١١ المسار والرهانات من الثورة إلى التحول الديمقراطي**»، أوراق بحثية، مبادرة الإصلاح العربي، أوت ٢٠١٨، على الرابط: <https://www.arab-reform.net/>
- (٤١) عبد الفتّاح عمر وآخرون، مرجع مذكور، ص ١٨١.
- (٤٢) المرجع نفسه، ص ١٨٢.
- (٤٣) المرجع نفسه، ص ١٨٤.

- (٩٠) المرجع نفسه.
- (٩١) مونيكا ماركس، مرجع مذكور.
- (٩٢) المرجع نفسه. -حوار أجرته الكاتبة مع محسن مزروق القيادي بحركة نداء تونس بتاريخ ١٢ مارس ٢٠١٣.
- (٩٣) وحيد الفرشيشي وآخرون، مرجع مذكور، ص ١٢-١٣.
- (٩٤) مونيكا ماركس، مرجع مذكور.
- (٩٥) مشروع مسودة دستور الجمهورية التونسية، بوابة التشريع، رئاسة الحكومة، الجمهورية التونسية، على الرابط: <http://bit.do/fKUF5>
- (٩٦) إقبال بن موسى، مرجع مذكور.
- (٩٧) المرجع نفسه.
- (٩٨) **الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان**، مرصد الحريات، تقرير حول واقع الحريات بتونس سنتان بعد الانتخابات أكتوبر ٢٠١١ - أكتوبر ٢٠١٣، ص ٧.
- (٩٩) إقبال بن موسى، مرجع مذكور.
- (١٠٠) المرجع نفسه.
- (١٠١) المنجي الخضراوي، مرجع مذكور.
- (١٠٢) مونيكا ماركس، مرجع مذكور.
- (١٠٣) المرجع نفسه.
- (١٠٤) مسعود الرمضاني وآخرون، **تونس الانتقال الديمقراطي العسير**، (القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠١٧)، ص ٢٤١.
- (١٠٥) المرجع نفسه.
- (١٠٦) مونيكا ماركس، مرجع مذكور.
- (١٠٧) مسعود الرمضاني وآخرون، مرجع مذكور، ص ٢٤١-٢٤٢.
- (١٠٨) مونيكا ماركس، مرجع مذكور.
- (١٠٩) المرجع نفسه.
- (١١٠) المرجع نفسه.
- (١١١) المرجع نفسه.
- (١١٢) المرجع نفسه.
- (١١٣) مسعود الرمضاني وآخرون، مرجع مذكور، ص ٢٤٢.
- (١١٤) مونيكا ماركس، مرجع مذكور.
- (١١٥) حمادي الرديسي وآخرون، مرجع مذكور.
- (١١٦) إقبال بن موسى، مرجع مذكور.
- (١١٧) ناجي البكوش وآخرون، **قراءات في دستور الجمهورية الثانية: دستور ٢٧ جانفي ٢٠١٤**، (تونس: مجمع الأنطرش للكتاب المختص، ٢٠١٧)، ص ٢٤-٢٥.
- (١١٨) إقبال بن موسى، مرجع مذكور.
- (١١٩) مونيكا ماركس، مرجع مذكور.
- (١٢٠) ناجي البكوش وآخرون، مرجع مذكور، ص ٢٠.
- (١٢١) إقبال بن موسى، مرجع مذكور.
- (١٢٢) المرجع نفسه.
- (١٢٣) المرجع نفسه.
- (١٢٤) المرجع نفسه.
- (١٢٥) وحيد الفرشيشي وآخرون، مرجع مذكور، ص ١٨.
- (١٢٦) المرجع نفسه، ص ١٣-١٤.
- (١٢٧) المرجع نفسه، ص ٢١.
- (١٢٨) إقبال بن موسى، مرجع مذكور.
- (٧٠) عبد اللطيف الحناشي، **انتخابات المجلس الوطني التأسيسي التونسي: الإطار، المسار، النتائج**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، دراسات، مارس ٢٠١٢، على الرابط: <https://bit.ly/3dluNIW>
- (٧١) عبد الواحد المكني، مرجع مذكور، ص ٦٥.
- (٧٢) المرجع نفسه، ص ٥٦.
- (٧٣) المرجع نفسه، ص ٧١.
- (٧٤) عبد اللطيف الحناشي، مرجع مذكور.
- (٧٥) قدمت حركة النهضة وحزب آفاق تونس وحزب العمال وحزب التحرير المحظور قانونيا وشبكة دستورنا والاتحاد العام التونسي للشغل مشاريع دساتير.
- (٧٦) عبد اللطيف الحناشي، **من دستور الاستقلال إلى دستور الثورة: الخلفيات والأبعاد**، على الرابط: <https://bit.ly/2WB8By0>
- (٧٧) بلغ عدد النواب الذين صادقوا على دستور ٢٠١١ نائباً من إجمالي ٢١٧ نائباً بنسبة ٩٢,١ % مع اعتراض ١٢ نائباً بنسبة ٥,٥ % واحتفاظ ٤ نواب بأصواتهم بنسبة ١,٨ %، مع شغور مقعد النائب محمد البراهمي الذي تم اغتياله في ٢٥ جويلية ٢٠١٣.
- (٧٨) استعارة لعبارة الباحثة مونيكا ماركس حول دستور ١ جوان ١٩٥٩.
- (٧٩) حليم ملكا، **الصراع على الهوية الدينية في تونس والمغرب العربي**، مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، ماي ٢٠١٤، على الرابط: <http://bit.do/fG7LY>
- (٨٠) المرجع نفسه.
- (٨١) المرجع نفسه.
- (٨٢) اغتيال المعارض اليساري شكري بلعيد الأمين العام لحزب الوطنيين الديمقراطيين الموحد في ٦ فيفري ٢٠١٣، والقومي محمّد البراهمي النائب بالمجلس الوطني التأسيسي والأمين العام للتيار الشعبي في ٢٥ جويلية ٢٠١٣.
- (٨٣) حمادي الرديسي وآخرون، مرجع مذكور.
- (٨٤) المرجع نفسه.
- (٨٥) المرجع نفسه.
- (٨٦) أنور الجمعاوي، **المشهد السياسي في تونس: الدرب الطويل نحو التوافق**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، سياسات عربية، جانفي ٢٠١٤، على الرابط: <https://bit.ly/3a9NSoY>
- (٨٧) وحيد الفرشيشي وآخرون، **الحريات الدينية في تونس**، (تونس، الجمعية التونسية للحريات الفردية، ٢٠١٥)، ص ١٨.
- (٨٨) حليم ملكا، مرجع مذكور، ص ١.
- (89) Deborah Perez, «La prégnance du débat sur l'identité tunisienne à l'ANC: la résistance des mythes fondateurs», texte présenté lors du Colloque international sur les processus électoraux, le territoire et la légitimité en Tunisie et au Maghreb, 23-24 Octobre 2012, Institut de recherche sur le Maghreb contemporain et l'Observatoire Tunisien sur la Transition démocratique, sur : http://www.geographie.ens.fr/IMG/file/Memoires_elev es/Perez.pdf

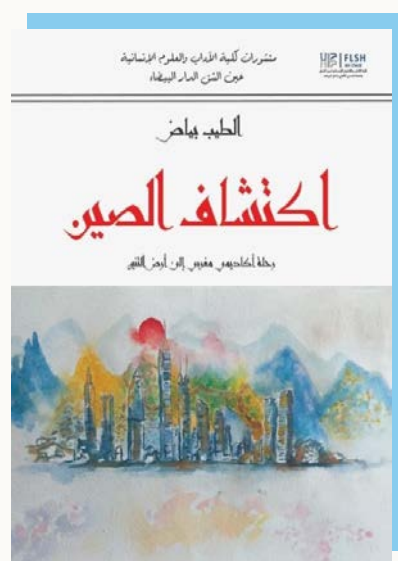
اكتشاف الصين

رحلة أكاديمي مغربي إلى أرض التين

الصين المعاصرة من منظور مغربي

محمد النظام

باحث في التاريخ المعاصر والراهن
جامعة الحسن الثاني - الدار البيضاء
المملكة المغربية



بيانات الكتاب

عدد الصفحات: ١٨٤ صفحة من القطع المتوسط.
الطبعة: الأولى. سنة النشر: ٢٠٢٢
مكان النشر: المغرب.

المؤلف: الطيب بياض
الناشر: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - عين الشق
الناشر: بالتعاون مع مؤسسة "باب الحكمة" بتطوان



10.21608/kan.2024.329660.1175

معرف الوثيقة الرقمي:

كلمات مفتاحية:

الصين؛ الرحلة؛ بياض؛ التمثيل؛ المغرب؛ الآخر؛ الأنا؛ عرض كتاب

مقدمة

تتميز علاقة الطيب بياض بالرحلة بالشراء كمًا ونوعًا، إذ درّس لمدة فاقت العشر سنوات مجموعة من المتون الرحلية ضمن وحدة ثقافات البحر الأبيض المتوسط، المقدمة لطلبة الإجازة والماستر بكلية الآداب عين الشق، كما دأب على نشر دراسات مقتضبة على أعمدة مجلة زمان تتعلق بالرحلات السفارية المغربية التي اتجهت صوب بلدان أوروبية. وفي سنة ٢٠١٦، صدر له عن منشورات جامعة الحسن الثاني مؤلف يحمل عنوان "رحلة

مغاربة في أوروبا بين القرنين السابع عشر والعشرين
تمثيلات ومواقف"، قام فيه بدراسة أحد عشر نصًا رحليًا
بدءًا من رحلة ناصر الدين على القوم الكافرين لأحمد أبي
القاسم الحجري سنة ١٦١١م، مرورًا برحلة الصفار
التطوانني سنة ١٨٤٥م، وانتهاءً بأسبوع في باريس
لمحمد بن عبد السلام السايح سنة ١٩٢٢. ولشغفه
بالرحلة، فإنه لم يترك تجربة سفره إلى الصين سنة ٢٠١٨
تمر دون أن يتقاسمها مع القراء في شكل نص رحلي
فريد، ويغري بالقراءة.

علمية. عالمية. محكمة. ربع سنوية

كان التاريخية

السنة الثامنة عشرة - العدد السابعون - أغسطس ٢٠٢٥

أيضاً من نقاشاته مع زملائه "حملت الشرق معي إلى الغرب في اللاوعي، فكان يقفز من عقلي الباطن كلما شرد الذهن أو بحثُ بأمره إلى جليس، ولكنه جثم بثقله في رحلة العودة إلى الرباط، وللازم تفكيري منذ وطأت قدماي مطار أورلي بباريس منتظراً إقلاع الطائرة، وكأني بخيالي يستجمع صوراً ومشاهد من الغرب سيجري استحضارها من باب المقارنة بشكل لا إرادي في رحلة الشرق"^(٣).

وهكذا، إذا أخذنا بعين الاعتبار الأرضية الثقافية التي ينتمي إليها الطيب بياض، أمكننا أن نفهم كيف أن الأشياء الجديدة التي لم يسبق له رؤية مثلها قد أثارت إعجابه ودهشته، وشكلت له مرآة يقرأ فيها ذاته وما يعتريها من أعطاب تشكلت في الزمن الطويل، وساهمت في عرقلة معظم التجارب الإصلاحية. وجد بياض نفسه منذ وصوله إلى الصين أمام مشاهد وأشياء مثيرة كانت جميعها غير معهودة لديه، وقد شكلت مدينة شينزين بالنسبة لرحالتنا تلك المدينة النموذجية، التي تُجسد بشكل ملموس ما يمكن للعقل البشري تحقيقه حينما يُفسح أمامه المجال لممارسة قدراته الإبداعية. فقد تحولت هذه المدينة في غضون أربعين سنة من قرية للصيادين إلى مدينة ساحرة بفضل سياسة الإصلاح والانفتاح التي قادها الرئيس الصيني السابق دينغ شياو بينغ، هذه السياسة جمعت بين التخطيط الاقتصادي والإرادة السياسية مع المحافظة على الهوية الثقافية الصينية، دون إغفال البعد الإيكولوجي^(٤).

تحتوي هذه المدينة التي سماها بياض بالنموذج الخارق للعادة تارة، ومدينة الأزهار تارة أخرى، على ١٠٠٠ ناطحة سحاب يفوق عدد طوابقها مائة طابق، وعلى ١٩٠٠ مختبر للبحث، وعلى ١٠٠٠ حديقة تشكل ما نسبته ٤٥% من إجمالي مساحة المدينة^(٥)، الشيء الذي يجعلها بحق مثلاً للمدينة الإيكولوجية الصديقة للبيئة. ونظراً لاهتمام سكان هذه الحاضرة بالفضاءات الخضراء فقد عمد بعضهم إلى استنبات الورود والأزهار على أسطح العمارات وشرفات المنازل^(٦). وارتباطاً بهذا البعد البيئي دائماً، انتبه رحالتنا إلى أن التنقل في مدينة شينزين يكون باستعمال وسائل صديقة للبيئة وتعمل بالطاقة النظيفة، وهذا الأمر إن دل على شيء فإنما يدل على أن تحقيق طفرة اقتصادية برقم معاملات كبير جداً يمكنه أن يتعايش في

ولا يمكن فصل الغزارة في التأليف الرحلي لدى الطيب بياض عن وفرة تأليفه وتنوعها، فقد أصدر سنة ٢٠١١ عن منشورات أفريقيا الشرق كتاب **المخزن والضرية والاستعمار**، وفي سنة ٢٠١٩ صدر له عن منشورات دار أبي رقرق كتاب **الصحافة والتاريخ**، وفي سنة ٢٠٢٠ صدر له عمل توثيقي ضخم عبارة عن حوار أجراه مع امبارك بودركة حول أحداث ٣ مارس ١٩٧٣. إضافة إلى هذه الأعمال نشر الطيب بياض العديد من المقالات العلمية تمحورت حول التاريخ الاقتصادي وتاريخ الذهنيات.

إن الصورة التي رسمها الطيب بياض عن الصين والصينيين لم تأت عفواً، ولا تخلو من سبق تقدير، بل جاءت نتيجة وعي ومعرفة سابقين بهذا البلد. فقد سبق له أن ساهم بمدخلتين علميتين حول موضوع العلاقات المغربية الصينية؛ الأولى تحت عنوان: **"المغرب والصين أفق الشراكة المنتجة"** والثانية حملت عنوان: **"المغرب ورهان الجسر الذهبي بين إفريقيا والصين"**. والحالة هذه، فإننا أمام ما يمكن تسميته بالرحالة المثقف الذي كان يسجل مشاهداته وفق مرجعية متكاملة من المفاهيم العلمية والقيم الجمالية والمعرفية والثقافية، وهو بذلك يشكل امتداداً لعدد من الرحالة المغاربة الذي اشتهروا خلال القرن الماضي بمزاوجتهم بين التأليف العلمي والكتابة الرحلية، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: محمد بن الحسن الحجوي، ومحمد بن عبد السلام السايح، وأحمد الهواري، وعبد الهادي التازي، وعبد الهادي بوطالب، والمهدي بنونة، وعبد الله الجراري.

أولاً: أننا في ضيافة الآخر لقاء مع الجديد

الآخر هو كل ما ترى الذات أنه مخالف لها أو مختلف عنها في نطْم الحياة كلها، في العادات والتقاليد والأذواق واللغة والدين، والصورة التي ترسمها الذات عن هذا الآخر غالباً ما تكون مزيجاً غير متجانس من العواطف والأحكام^(١). وتلعب الثقافة التي تنتمي إليها الذات دوراً مهماً في تَعْيِين مغزى ودلالة الآخر. وانطلاقاً من هذا المعنى، يمكن القول إن الرحلة هي إنباء عن ذهنية الرحالة، وتصويرٌ لمكونات الوعي الثقافي عنده أكثر مما هي حديث عن البلد موضوع المشاهدة^(٢).

حمل الطيب بياض صورة ما عن الصين قبل أن يرحل إليها، هذه الصورة تشكلت لديه انطلاقاً من قراءاته للكتابات التي تناولت هذا البلد قديماً وحديثاً، وانطلاقاً

تناغم تام مع بيئة خالية من التلوث، ووسط فضاء موسوم بالرونق والجمالية^(٧).

إن ما حققته مدينة شينزين لم يأت حسب الطيب بياض بمحض الصدفة، بل جاء نتيجة تخطيط عميق وعمل دؤوب، انخرطت فيه كل مكونات المجتمع التي سَخَرَتْ نفسها بكل تفان لخدمة الإنتاج. وفي هذا الصدد، أُعجب رحالتنا بانضباط سكان المدينة، وخصوصاً فئة الشباب الذين نظموا أنفسهم في جمعيات مدنية فاق عددها أحد عشر ألف منظمة تطوعية، تضم مليون وثلاثمائة متطوع يقدمون خدمات مجانية للسكان والزوار في مجالات التعليم والنظافة والصحة والمساعدات الإنسانية، كما يقدمون مقترحات تشريعية للحكومة قصد تطوير الخدمات الاجتماعية وتوطيد الضمان الاجتماعي للفئات الناشئة^(٨).

إن رحلة اكتشاف الصين موضوع دراستنا هذه، تشبه إلى حد كبير مرآة ذات وجهين أحدهما يعكس ما هو جديد ومستجد، والآخر يحتفظ بصورة للأشياء القديمة والمعروفة التي حملتها الذات في ذهنها. والحالة هذه، فإن الطيب بياض وجد نفسه وهو يشاهد ويستمتع بتجربة هؤلاء الشباب المتطوع بشينزين يقارن بين هذا السلوك الجاري به العمل في الوطن المُرْتَحِل إليه، وسلوك شبيه به لم يعد موجوداً في الوطن الأصلي، والحديث هنا بطبيعة الحال عن مجموعة من التجارب والأوراش التي كانت مؤطرة بنظام العمل الجماعي التطوعي، بدءاً من التوزيع مروراً بتجربة الكشفية المغربية وبناء طريق الوحدة، والتلاحم الوطني في المسيرة الخضراء وقيم اليسار المغربي وتضحياته طيلة النصف الثاني من القرن العشرين^(٩).

إن هذه الصورة المتناقضة التي وقف عليها رحالتنا، جعلته يسأل الذات عن سبب تفريطها في قيمها النبيلة التي استقرت في الذهنية الجماعية للمغاربة في الزمن الطويل. ماذا جرى وكيف تبخرت هذه المبادئ فاسحة المجال للتزعات الفردانية في مجتمع تربي أفرادها على ثقافة الجماعة والقبيلة مع ما تقتضيه من تآزر وتكافل وتضحية؟ كيف تراجع الرمزي أمام سطوة المادي، وتقدمت المصالح الشخصية على المصالح العامة؟ كيف فقدت الأشياء معانيها وضاعت البوصلة؟^(١٠)

لم تتطلب الإجابة عن هذه التساؤلات من رحالتنا كثيراً من الوقت، فهو المؤرخ النبيه الذي خبر مكامن العطب القديم عبر تحليله للبنيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في زمنها الطويل، ويكفي الرجوع إلى مقالين صغيرين، ولكنهما كثيفين يحمل الأول عنوان أي تعليم نريد^(١١)، والثاني يحمل عنوان الاحتباس الثقافي^(١٢)، لفهم سبب تركيز الطيب بياض في الرحلة على المدخل الثقافي، وخصوصاً التعليم في أي اصلاح منشود. فالمدرسة هي الفضاء الوحيد القادر على تكوين جيل من الشباب المواطنين المتشبث بهويته وقيمه ومبادئه، والمنفتح في الوقت نفسه على الثقافة العالمية.

لقد كانت رحلة الطيب بياض إلى الصين مليئة باللقاء مع الجديد ومع الأشياء المتميزة بغرابتها أو بطابعها المثير، فكانت تلاحقه مريحة به في كل وقت وحين. فعندما أُتيحت له فرصة زيارة برج tencent المتخصص في التكنولوجيا الحديثة، وجد رحالتنا نفسه داخل فضاء أشبه ما يكون بمدينة للجن الملائكة، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الاختراعات التقنية المدهشة^(١٣). ورغم أن هذه المشاهد بحكم جِدَّتْها تُورث عادة في النفس البشرية الانبهار والإعجاب، فإن الطيب بياض لم يرتبك، بل كان حريصاً على تدوين ملاحظاته بشكل فوري، فهو ولج لهذا المجمع التكنولوجي العملاق بعين المُدرِّس والباحث، الذي يُفضل التوصل إلى معرفة الأشياء عبر التجربة المباشرة والمعيشة بدلا من المعرفة المكتسبة من الكتب، ومن تمّة جاءت رحلته مليئة وغنية بالانطباعات الحية التي خالجت في حينها، وعبر عنها بكامل الصدق والوفاء، دونما الحاجة إلى عنصر وسيط، وقد كانت إشارة بياض إلى هذا المبدأ بصريح العبارة عندما قال: "أتاحت لنا هذه الزيارة القيام بتجارب لمخترعات ستكون متداولة في سوق الاستعمال التقني بعد حوالي ربع قرن"^(١٤).

إن تركيز بياض على تدوين التفاصيل الدقيقة يعود حسب اعتقادنا إلى أمرين أساسيين: أولاً، رغبته في إقناع القارئ بحضوره الفعلي بين تلك الأشياء الموصوفة رغم إقراره بعدم الاستيعاب الكلي لوظيفتها، "حاولنا السؤال عن استعمالات أكثر من آلة، ورغم الشروح المبسطة التي قُدمت لنا فقد فهمنا النزر القليل، وغاب عنا الشيء الوفير"^(١٥). وثانياً، تأكيداً للمتلقي المحتمل بأن ما شاهدته

يتعلق بلقاء حقيقي مع الجديد. ولأن التدقيق في التفاصيل يعتبر شيئاً ذا قيمة في حد ذاته، وفيه يمكن للإنسان إدراك الكثير من الحقائق، فإن رحالتنا عمل جاهداً كلما أُتيحت له الفرصة على تقديم شروحات مستفيضة حول المخترعات التقنية المستجدة، والتجارب العلمية المليئة بالألغاز، كما عزز نضه بالأرقام والاحصاءات والوثائق والصور التي توثق لمرآحل سفره وكأنه يستشهد بالوثيقة في عملية التدوين التي استندت بشكل كبير على الذاكرة^(١٦)، وهو تمرين غير مألوف في النصوص الرحلية، وفي هذا مزيد من الرفع لمقدار مصداقيته وأمانته لدى القارئ.

هناك عدة أمثلة في الرحلة يمكننا أن نتتبع عبرها الطيب بياض وهو يخوض مغامرة المواجهة مع الجديد، مع ما يُرافق ذلك من حضور لعنصري الإبهار والاندهاش. ففي المعرض الدولي لصناعة البيانات الضخمة المَقام بمدينة قوييانغ، كانت الدهشة تعلو وجوه الوفد الإفريقي أمام كل رواق يصلون إليه، فكل اختراع يَجِبُّ ما قبله ويجعل المتأمل فيه ينبهر بأمور لو شاهدها السلف لحسبها من الكرامات والخوارق^(١٧). أُتيحت للطيب بياض أثناء وجوده بأروقة هذا المعرض اكتشاف عدة آلات تستعمل في عدة وظائف مثل الطائرة بدون طيار، والروبوتات المختلفة الأحجام والاستخدامات، والأجهزة المخصصة لكشف الأوضاع الصحية، وحتى تلك المستخدمة في التدليك والترويض الطبي^(١٨). غير أن ما جذب الطيب بياض أكثر هو قاعة خاصة تتضمن شاشة كبيرة تُعرض فيها البيانات الضخمة المتعلقة بتحركات الأشخاص في الفضاءات العمومية، حيث تقوم هذه الشاشة انطلاقاً من تجميعها للمعطيات، بتحديد هويات الأفراد من خلال أرقام بطائهم التعريفية، أو البنكية أو أرقام هواتفهم، أو حتى لوحات سياراتهم أو غيرها مما هو مسجل في شكل وثائق باسمهم لدى أي مصلحة من مصالح الدولة^(١٩).

ورغم أن عملية تجميع المعطيات وتوظيفها أيّاً كان الغرض من ذلك قد يضع مسألة الخصوصية الفردية على المحك، فإن الطيب بياض رأى في الأمر استثماراً ذكياً للبحث العلمي، إذ أن تجميع المعطيات والبيانات سيسمح للمسؤولين بتملك معلومات دقيقة يمكن الارتكاز عليها

لتحقيق التنمية المنشودة التي تراعي الفروقات الموجودة بين الأشخاص والجهات^(٢٠).

وإذا كان بياض قد وقف وهو يتجول في الجنوب الغربي للصين على نموذج واقعي لمدن وبلدات حققت إقلاعاً اقتصادياً في زمن قياسي، فإن انتقاله إلى مدينة بيكين قد جعله يعيش تجربة أخرى فريدة، وبأبعاد جديدة تتجاوز هذه المرة ما هو مادي إلى ما هو رمزي. لقد أضفى رحالتنا على العاصمة الصينية عدة صفات مثالية من قبيل النظافة والنظام واحترام الطبيعة واستحضار الذاكرة الجماعية، كما وصف سكانها بالرجال الجادين المجدين في عملهم، لا ييغون غير خدمة مصالح دولتهم المَحْكُمة التنظيم، وهو بذلك يسمو بهذه الحاضرة الشرقية إلى درجة ما هو مقدس أو روحاني.

بدأت مدينة بيكين للطيب بياض امتداداً للمدن الصينية الأخرى التي زارها في كثير من الجوانب، من قبيل شساعة الشوارع وعدم الازدحام وانسيابية المرور وقلة حوادث السير وارتفاع المباني والسرعة في الإنتاج الصناعي مع الحفاظ على البيئة^(٢١)، لكنه في العاصمة وقف على معطى آخر ساهم في منحه عنصراً إضافياً لتفسير النهضة الصينية، هذا المعطى هو حضارة الصين وتاريخها الذي تجسد له في المتاحف وفضاءات الذاكرة، وقبل هذا في سورها العظيم، فبالمتحف الوطني لاحظ رحالتنا بشكل ملموس كيف يحفظ الصينيون تاريخهم ويصونون ذاكرتهم من الالتلاف. فبهذه المعلمة العمرانية الفريدة التي تتوسط ساحة تيان آن مين وضريح الزعيم ماو تسي تونغ، يمكن للزائر مشاهدة المنحوتات المعبّرة عن تراث زاخر وعريق، إضافة إلى الأدوات التي استعملها الإنسان الصيني من الفترة البدائية إلى عصر الفضاء، والأسلحة المتباينة الأشكال والأنواع ووسائل النقل المختلفة، والأدوات الفلاحية والحرفية، إلى جانب ذلك يضم المتحف وثائق نادرة وصور ولوحات ومقتطفات من جرائد تُؤرخ لمحطات مختلفة من العمل الثوري محلياً وكونياً^(٢٢). وكما كانت دهشة الطيب بياض كبيرة عندما عرف أن الدخول إلى المتحف مجاني، رغم أن فرض رسوم على الدخول بإمكانه أن يوفر مداخيل مهمة لوزارة الثقافة، لكن الجانب الصيني ينظر للأمر من زاوية أخرى، حيث الرهان لدى المسؤولين هو ربط المواطن الصيني بتاريخه وذاكرته الجماعية، وهذا المطلوب لا يقدر بثمن^(٢٣).

إننا بحق أمام نص رحلي غير مألوف، لم يكتف صاحبه بنقل مشاهداته وتدوين انطباعاته بشكل جامد كما كان معهوداً في عدة رحلات سابقة، بل كان مسكوناً بهاجس السؤال وهو الذي ارتحل من وطن فشل في معظم مشاريعه الإصلاحية التي راهن عليها، لذلك فإن رحالتنا كان منشغلاً طوال فترة تواجده بالصين عن البحث في السياقات التاريخية الشارحة للنهضة الصينية السريعة، والآليات المعتمدة لجعل المقاربة تشاركية منتجة، والنهج التعاوني مثمرًا وعادلاً، رغبة منه في استلهم النموذج دون استنساخه حرفياً. لذلك فإننا نعتبر هذا النص الرحلي هو أقرب إلى التقرير الاستطلاعي الذي يقدم خارطة طريق واضحة المعالم للمسؤولين في وطننا، خصوصاً وأننا نعيش مرحلة تنزيل النموذج التنموي الجديد الذي يراعه عاهل البلاد.

استطاعت الصين أن تصل إلى ما وصلت إليه استناداً إلى مجموعة من الركائز يمتزج فيها الاقتصادي بالتاريخي، والاجتماعي بالهوياتي والثقافي بالأنثروبولوجي، وإذا أردنا أن نلخص أهم ما استنتجه الطيب من خلال نقاشاته مع المسؤولين الصينيين بخصوص التحولات النوعية التي لحقت ببلدهم في زمن قياسي، فيمكننا القول إن ذلك حصل عبر:

- التدبير الجيد للوقت وتبسيط الإجراءات الإدارية، واستخدام التكنولوجيا الحديثة في الحياة اليومية.
- التمسك بالقيم النبيلة للمجتمع الصيني والمحافظة عليها وتثمينها^(٢٤).
- الاهتمام بالشباب وتأطيره علمياً وإيديولوجياً ليكون قادراً على الاضطلاع بالمسؤولية، ومستعداً للدفاع عن المصلحة العليا للدولة^(٢٥).
- الاعتماد على نظام اشتراكي، لكن مع ادخال تعديلات عليه تجعله يستجيب لمتطلبات العصر، حيث أطلق على النظام الجديد لقب الاشتراكية ذات الخصائص الصينية^(٢٦).
- تطوير التعليم مع التركيز على تدريس الشعب العلمية والذكاء الاصطناعي.
- الحضور القوي للدولة ليس في المدن وحسب، بل في المناطق النائية، وذلك عبر تكوين السكان سياسياً

وإيديولوجياً، ومساعدتهم على تحسين أوضاعهم المعيشية^(٢٧).

- تطبيق مبدأ رابع رابع في الداخل قبل تصريفه في الخارج، الشيء الذي يمنح المواطن الصيني شعوراً بكونه مساهماً في الإنتاج وفي التنمية.

لم يكن بإمكان الطيب بياض استخلاص هذه الركائز، وبالتالي فهم طبيعة اشتغال الذهنية الصينية، لولا تسلحه بعدة منهجية رصينة، وشبكة من المفاهيم التحليلية التي كان يوظفها بين الفينة والأخرى، والتي استقاها من مدرسة الحوليات، فهو الباحث والمدافع العنيد عن النفس التجديدي في الكتابة التاريخية الذي قاده رواد هذه المدرسة خلال النصف الثاني من القرن العشرين، ففهم الظاهرة الصينية يستوجب حسب توظيف كل العلوم الاجتماعية بدءاً من التاريخ والجغرافيا مروراً بالفلسفة والأنثروبولوجيا وانتهاءً بالاقتصاد، وكل محاولة لفهم سر تفوق الصين دون الاعتماد على هذه العلوم سيقود حتماً إلى نتائج مجانبية للصواب، وهذا ما حدث لجزء من الأوروبيين الذين اكتفوا بالأحكام الجاهزة والنمطية، وبالتالي ضيعوا على أنفسهم فرصة سبر أغوار العملاق الآسيوي.

اتخذ الطيب بياض عموماً موقفاً إيجابياً من الثقافة الصينية بكل تمظهراتها، سواء تلك التي تراءت له من خلال الفن أو الأخلاق أو الأكل أو المعارف أو المهارات... وكان مرنًا إلى أقصى الحدود في الحكم عليها، ولم يصدر عنه أي موقف سلبي تجاه الآخر المخالف، بل إنه على العكس من ذلك استحسن قيم المجتمع الصيني وعاداته وطريقة تدبيره للشأن العام، وقد انتبه رحالتنا إلى هذا الأمر وهو مازال في المغرب، حيث نوه بالحرفية والمهنية العالية التي أبان عنها الموظفون بمعهد كونفوشيوس بالدار البيضاء أثناء تواصلهم معه بشأن الحصول على التأشيرة^(٢٨)، وخصوصاً السيدة كاتي التي ظلت مواكبة لمسار الرحلة من المغرب إلى الصين. وارتباطاً بموضوع المرأة، فقد أعجب رحالتنا كثيراً بالسيدة لي شوانغ Lina shuang التي كانت مرافقة للوفد الإفريقي، فهي الإنسانية المثقفة واللطيفة، التي توزع الابتسامات بأناقة، وتُرحب وفق أبجديات الدبلوماسية، تجيد فن الاصغاء وتروم الاختصار، وتتجنب الحشو والاطناب، تتمتع

بكاريزما فريدة وتجمع بين الهيبة والانفتاح، خفيفة الظل لا يثير حضورها أي ضجر أو نفور، سيدة التوازنات تنصت حين يتحدث غيرها وتتكلم حين يتطلب الأمر ذلك^(٢٩).

إن هذه الصورة التي تمثلها الطيب بياض عن المرأة الصينية، المتصفة بالرزانة والحكمة هي إشارة قوية على التغيرات التي لحقت الأنا في علاقتها بالآخر في الزمن الطويل، فلطالما تمثل الرحالة المغاربة المرأة الأوروبية ككائن قليل العفة، وممارس للزيلة، وتحاملوا عليها وأعرضوا عن مغازلتها أو حتى محاورتها^(٣٠).

تبدى التحول في ذهنية الأنا أيضاً من خلال عدم استفسار رحالتنا عن نوعية المأكولات التي كانت تقدم له وللوفد الإفريقي المرافق، وقد أشار إلى هذا الأمر أثناء حديثه عن وجبة الفطور التي تناولها في مدينة شينزين "كنا نستمرئ منها (المأكولات) ما لذ وطاب دون معرفة أسمائها ولا مكوناتها ولا طريقة إعدادها"^(٣١). والقارئ للمتون الرحلية المغربي المنتمية للقرن التاسع عشر وما قبله، سيلحظ بشكل واضح كيف كان كتاب الرحلات يحرصون على أن يبينوا للقارئ أنهم لم يتناولوا من الأطعمة وهم في أوروبا إلا ما يوافق الشريعة الإسلامية مما هم مباح وحلال. بل كان البعض منهم يفصل في نوعية المواد الغذائية التي يحملها الوفد معه من المغرب، فالصفار مثلاً أشار إلى أن القائد أشعاش حمل معه إلى فرنسا مؤونة مكونة من "ثورين اثنين وأربعين كبشا وستة مائة دجاجة ومقادير من البيض والخضروات والتفاح والعنب"^(٣٢).

ومن مظاهر التحول التي احتوت عليها رحلة اكتشاف الصين، عدم القبح في سلوكيات وعادات الآخر، والتي قد تبدو متعارضة مع القيم والمبادئ التي توطر ذهنية الأنا. وعلى العكس من ذلك قدم الطيب بياض صورة مغايرة عن المجتمع الصيني الذي يوصف عادة بالمجتمع المغلق على نفسه، والخاضع لرقابة الأجهزة الأمنية ولسلطة الحزب الشيوعي، "لاحظت تناغماً حميمياً بين الفتيات والفتيان في فضاءاتها العامة حيث تتشابك الأيدي في أجواء رومانسية داخل مدينة تبدو أكثر انفتاحاً أيضاً بعلبها الليلية"^(٣٣).

كان رحالتنا متفهما لكثير من الأمور التي بدت له غريبة شيئاً ما مثل الإجراءات الأمنية التي خضع لها في مطار قوانغتشو، يقول الطيب بياض في هذا الإطار: "عند

مدخله (المطار) تقابلت عدة آلات لتعبئة البيانات يكفي أن تضع جواز سفرك على شاشة الجهاز حتى يصطفي تلقائياً لغة التواصل، بعد الانتهاء من هذا التمرين غير المألوف لكينا، تأتي مرحلة الوقوف أمام أحد أفراد شرطة المطار فيطلب منك وضع بصمات كلا اليدين، ولا يكتفي بذلك، بل يحثك على الوقوف بشكل محدد أمام كاميرا مثبتة بجانبه لأخذ صورة دقيقة تحدد قسماً الوجه"^(٣٤). إن هذه الإجراءات الدقيقة والغريبة في الوقت نفسه، اعتبرها رحالتنا إجراءً عادياً لتفادي الوقوع في المخاطر التي من شأنها تهديد الأمن الداخلي، أو ما عبر عنه بـ: "والمسألة عندهم ليست مسألة وجوه أو حبور، بل اتقاء للشرور، يستوجب لديهم عدم التراخي أو الفتور"^(٣٥).

ومن الأمثلة الأخرى الدالة على أن رحالتنا كان متفهما للثقافة الصينية، هو عدم استغرابه من كون الصينيين لا يتقاسمون صبيب الأنترنت فيما بينهم، ثم أنهم لا يستخدمون تطبيق الواتساب ويستعيضون عنه بتطبيق الويشات^(٣٦). لقد كان الطيب بياض بحكم ارتكازه على المدخل الأنثروبولوجي على وعي بأن الفروقات الثقافية هي أعقد وأصعب من كل بعد جغرافي، فالأشياء التي قد تكون صحيحة ومقبولة في ثقافة معينة، قد تكون غير صحيحة في ثقافة أخرى، ولعل هذا الأمر هو الذي منحه أفقا أوسع لفهم ذهنية الإنسان الصيني في مرحلة أولى، وتقبلها في مرحلة ثانية، والتأقلم معها في مرحلة ثالثة.

وفيما يشبه الحوار الثقافي الذي خاضته الذات مع ثقافة الآخر، والذي كان في بعض الأحيان مضمرًا وفي حالات أخرى صريحاً، لم يتوان الطيب بياض عن التذكير بهويته الإسلامية، مع ما تستلزمه تلك الهوية من مراعاة للدين قواعداً وسلوكاً. وبما أن الرحلة تمت في شهر رمضان فإن الطيب بياض كان يستخدم نفس المؤشرات الثقافية المحددة لعنصر الزمن في العالم الإسلامي، حيث إن إيقاع اليوم خلال شهر رمضان يتحكم فيه بشكل رئيس آذان الفجر وآذان المغرب، أو ما أسماه رحالتنا بالزمن الرمضاني^(٣٧)، حيث كان مضطراً إلى تغيير عاداته التي ألفها في المغرب خلال هذا الشهر، فالسبات العميق وقراءة الرواية ومشاهدة التلفاز، حل محلها النوم القليل والمتقطع، وكثافة الأنشطة وكثرة الحركة^(٣٨). ويرجع هذا إلى أن الصينيين فضّلوا برنامجاً على مقاسهم، ينسجم

ودينامية عملهم ويعكس نمط حركيتهم وقدرتهم على العمل والإنتاج^(٣٩)، فما كان على الوفد الإفريقي سوى التأقلم مع هذا النمط من العيش. وارتباطاً بالأجواء الرمضانية، فإن الطيب بياض أشاد بالاحترام الكبير الذي أبداه الصينيون لشعائر وطقوس الوفد الإفريقي المسلم، حيث كانت وجبات الفطور والسحور تُقدم في وقتها المحدد وفي مطاعم محترمة، وتتكون في الغالب من أطباق متنوعة تمزج بين الفواكه والخضروات والسلطات واللحوم والأسماك والمرطبات المختلفة^(٤٠).

إضافة إلى كرم الضيافة وحُسن الاستقبال، أقرَّ بياض للآخر بعدة خصال إيجابية تجسدت له في البشاشة التي جُبِل عليها الصينيون، والتواضع والاحترام والروح التضامنية في العمل ونكران الذات وحسن الأخلاق، والحرص على عدم ازعاج الضيوف أو وضعهم في موقف محرج. وفي هذا الإطار انتبه رحالتنا إلى أن اللجنة المنظمة كانت حريصة على عدم حصول أي شيء نشاز يمكن أن يبصم هذه الزيارة ببصمة سلبية، ولو تعلق الأمر بتعكير مزاج أحد أفراد الوفد، فقد دأب المنظمون على جس نبض مستوى الرضا لدى ضيوفهم بطرق مختلفة، لكنها تتسم بكثير من اللطف^(٤١). وعلى العكس من ذلك انتقد بياض بشكل صريح عدم لباقة بعض أفراد البعثة الإفريقية، الذين كانوا يطرحون الكثير من الأسئلة غير المناسبة على المترجم المرافق لهم، مما كان يتسبب له في اجتهاد حقيقي معنوي وجسدي^(٤٢).

إن اهتمام الطيب بياض كما يبدو من خلال صفحات الرحلة بالأنماط الثقافية للشعب الصيني، لم تكن مجرد انعكاس لحالة إعجاب فقط، بل كانت حسب اعتقادنا اختصاراً للنظريات التي تَشَرَّبها من بعض الدراسات الأنثروبولوجية، وبالتالي فإن الصين شكلت له ميداناً عملياً ملموساً لتجريبها، والقارئ للرحلة يتمتع سيلاً كيف أن بياض كان أثناء رصده لبعض الظواهر في المجتمع الصيني، يُركز دائماً على الجماعي بدل الفردي، والسيكولوجي بدل الفكري، والعفوي بدل التأملي، والشفهي بدل المكتوب، ويسعى إلى ربط ما هو ذهني وثقافي بما هو اجتماعي واقتصادي، للوصول في الأخير إلى فهم سليم وعميق للذهنية الصينية. وقد توفَّق في ذلك إلى أبعد الحدود، فالكثير من الخلاصات التي توصل إليها بياض جاءت متطابقة مع تلك التي كان

يقدمها المسؤولون الصينيون أثناء حديثهم عن تجربة بلدهم في التنمية أمام الوفد الإفريقي^(٤٣). ولم تشكل اللغة مانعاً أمام رحالتنا لسبر أغوار الثقافة الصينية وتماثلاتها، إذ كان يتواصل بشكل مباشر مع المسؤولين الصينيين باستخدام اللغة الإنجليزية، أو عبر آلية الترجمة. وفي بعض الأحيان اعتمد على تحليل لغة الإشارة، أو إحياءات الجسد وتعبير الوجه لفهم مغزى الخطاب^(٤٤)، وكأني به يحاكي تجربة رولان بارث الذي زار اليابان سنة ١٩٦٦ وهو يجهل لغتها، لكنه تصيد الإشارات، وتتبع العلامات وحلل الرموز والأيقونات، وانتهى إلى تدوين كتاب بعنوان يحمل أكثر من دلالة أسماه: *L'empire des signes*^(٤٥).

ثانياً: الأنا والآخر مقارنات صريحة وانتقادات ضمنية

من خلال تجربتنا المتواضعة في ميدان الرحلة، وانطلاقاً من احتكاكنا بعشرات النصوص الرحلية يمكننا القول إن الرحالة عندما يتحدث بإعجاب عن موضوع أو مشهد معين، ويسهب في وصفه بشكل مفصل وهو في ضيافة الآخر، فإنه يستحضر بوعي أو بدون وعي وضعاً مشابهاً أو مغايراً تعيشه الذات في وطنها الأصلي. واستناداً إلى هذه الجزئية وإلى السياق الذي تمت فيه رحلة اكتشاف الصين فإن الطيب بياض وجد نفسه أحياناً يقارن بين ما هو موجود في الصين وما هو مفقود في المغرب، وأحياناً أخرى ينتقد بشكل صريح بعض السلوكيات الفردية والجماعية التي ساهمت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في عرقلة المشاريع الإصلاحية التي تبناها المغرب على الأقل منذ مطلع الألفية الثالثة. ويوضح الجدول التالي بعض أوجه المقارنة التي قام بها رحالتنا بين الأنا والآخر، والتي شملت عدة مواضيع تمس الثقافة، والاقتصاد، والشباب، والبيئة.

مقارنة	مقارنة	مقارنة
ميدان الإدارة	نوه الطيب بياض بتبسيط الإجراءات الإدارية واستخدام الوسائل الحديثة في التواصل مع المرتفقين، ومعالجة طلباتهم بسرعة وبحرفية ومهنية عالية.	استحضار غير مباشر لوضع مناقض في المغرب حيث تضع مصالح المواطنين بسبب تعقيد الإجراءات الإدارية وبطئها.
الحياة داخل المدن	فَهْمُ (الصينيون)، ينظفون كل شيء حتى التماثيل والنُصُب التذكارية التي تزين الشوارع، والظاهر أن النظافة طقس مقدس لديهم لا تكتمل حضارتهم إلا به ^(٤٦) .	عدم إلاء الجوانب المتعلقة بالنظافة ما تستحقه من الاهتمام، حيث تتراكم النفايات في الحواضر أو يتم التخلص منها بطرق غير سليمة.
مكافحة الفقر	أول ما شد انتباهي بعد أن توغلت الحافلة في شوارعها الرئيسية هو الانسياقية في السير رغم العدد الهائل من المركبات التي تعبرها ^(٤٧) .	الاختناقات المرورية - الاستعمال المزج للمنبهات الصوتية - كثرة حوادث السير (حالة الدار البيضاء).
العالم القروي	المعطى الایکولوجي ثابت وأساسی في هندسة المدن الصينية التي بدت صديقة للبيئة حتى الأكثر كثافة منها ^(٤٨) .	الكثير من المدن المغربية لا تحتوي على ما يكفي من المساحات الخضراء اللازمة لامتصاص ما تُخلفه الأنشطة الاقتصادية من غازات ضارة.
الذاكرة والتاريخ	الدولة الصينية تحارب الفقر بشكل جدي وعملي وبطرق مبتكرة، ففي إقليم قويتشو مثلا انخفضت نسبة الفقر من ٢٦% إلى ٨%. وفي مجموع التراب الصيني تقلص عدد الفقراء من ٧٠٠ مليون إلى ٣٠ مليون ^(٤٩) .	غياب خارطة طريق واضحة للقضاء على الفقر، بالإضافة إلى التوظيف السياسي للأحزاب وعدم وجود مقاولات مقتنعة بأن مصلحتها تقتضي الحد من الفقر، دون إغفال مسؤولية المواطن الذي يجب عليه الانخراط بشكل جاد في التنمية ^(٥٠) .
	وجدنا قرية هايزي فارغة، ومن أهلها شاعرة، فهم لم يألوا الدعة ولا الراحة ولا جبلوا على الكسل والخمول، يغادرون بيوتهم إلى المزارع والحقول منذ الثامنة صباحا، فيما يتجه الأطفال في الوقت نفسه إلى المدارس... هي قرية التناغم والانسجام، تم تصميمها وفق هندسة معمارية واحدة، وتعتبر الأفضل معيشا بين مجموع الأرياف الصينية ^(٥١) .	لا شك أن بياض استحضرت وضعية مغايرة تعيشها البادية المغربية التي ظلت حبيسة اقتصاد القلة والكفاف ومحرومة من إمكانيات تحقيق تراكم منتج يفضي إلى التحول والتجاوز، والقارئ لكتاب المخزن والضريبة والاستعمار سيقف بكل تأكيد عند هذه الخلاصة التي نعتقد أنها مازالت صالحة حتى اليوم لتفسير ضعف التنمية في عالمنا القروي ^(٥٢) .
	حديث بإسهاب عن اهتمام الصينيين بحفظ ذاكرتهم الجماعية، عبر صون التراث المادي واللامادي، وتشبيد المتاحف لتثمينه وجعله رافعة لتحقيق التنمية ^(٥٣) .	انتقاد غير مباشر للإهمال الذي يطال التراث بالمغرب، حيث تضع العديد من المواقع الأثرية، بالإضافة إلى نقص كبير في المتاحف، وحتى تلك الموجودة فإن الدخول إليها يكون بمقابل قد يثني الكثيرين عن اكتشاف هويتهم وذاكرتهم.

ثالثاً: تقاطع العلمي بالإنساني في رحلة اكتشاف الصين

يكتسي السفر إلى الأماكن البعيدة طابعاً سحرياً، ويكون بمثابة حدث كفيل بتغيير مجرى حياتنا اليومية، وقد أثار علماء الأنثروبولوجيا الانتباه إلى هذا الأمر منذ مدة طويلة، فالسفر سواء كان من أجل العمل أو من أجل الاستجمام، فإنه يؤثر حتماً وبشكل عجيب على السلوك البشري وعلى القدرات الإدراكية للإنسان، وخاصة قدرته الغريبة على نقلنا مما هو مادي إلى ما هو رمزي، ومما هو مدنس إلى ما هو مقدس. ويبقى النص الرحلي حسب اعتقادنا تجربة إنسانية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، قبل أن يكون نصاً يعكس لحالة انبهار أو إعجاب بالأشياء المرئية. وفي هذا السياق، تُقدم لنا رحلة اكتشاف الصين محور هذه الدراسة نظرة عن تقاطع العلم العلمي والاستطلاعي مع تجربة إنسانية فريدة عاشها الطبيب بياض وهو يرتحل إلى أقصى الشرق، المكان المليء بالرموز والدلالات الفلسفية والدينية. إن هذا التقاطع يجعل المتلقي منشغلاً ومهتماً ليس فقط بالكيفية التي تمثل بها بياض الأشياء الجديدة، بل بالطريقة التي انعكست بها على مشاعره وكيانه، وجعلته يبوّح في أكثر من مرة بما يختلج صدره من أحاسيس إنسانية تجاه العائلة وزملائه وطلبته.

تحدث الطبيب بياض في البداية عن مرافقه في هذه الرحلة الطويلة، وهو أحد الباحثين في سلك الدكتوراه اسمه توفيق آيت بوشكور واصفاً إياه بالطالب المجتهد والباحث النبيه والإنسان الخلاق^(٥٤)، وهذا الوصف يقدم لنا تصوراً عن العلاقة المتميزة التي تجمع أستاذاً جامعياً بأحد طلبته، إنها صورة يمتزج فيها العلمي بالإنساني والبيداغوجي بالعاطفي، والحقيقة أن هذا التعامل لا يحظى به الطالب المذكور فقط، بل يشمل عموم الطلبة الذين يشرف على تكوينهم الطبيب بياض سواء في سلك الإجازة أو الماستر أو الدكتوراه، فقد دأب صاحب رحلة اكتشاف الصين على إشراك طلبته في مشاريعه العلمية الرامية إلى فتح أورايش جديدة في الكتابة التاريخية، كما يهتم في كل مناسبة تجمعهم بالباحثين الشباب على تحفيزهم ومنحهم المهارات والكفايات اللازمة لخوض غمار البحث العلمي.

تحدث الطبيب بياض أيضاً عن العلاقة التي تجمعهم بالمؤرخ محمد حبيدة، الذي يشتغل أستاذاً للتعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ابن طفيل بالقنيطرة. إنه الصديق والزميل والمؤرخ المجدد، والإنسان النبيل الذي يكن له رحلتنا تقديراً خاصاً، ويتقاسمان القلق المعرفي نفسه، وتجمعهما قرابة فكرية وإنسانية عميقة^(٥٥). فبخصوص القرابة الفكرية، فالباحثان جمعتهما العديد من المشاريع العلمية كان آخرها المشاركة في ترجمة كتاب **تاريخ العالم في القرن التاسع عشر**^(٥٦)، أما القرابة الإنسانية، فإننا لا نعلم عنها سوى أن الطبيب بياض كلما ذُكر اسم محمد حبيدة إلا وأشاد بنبله وصدقه وتواضعه ودمائه خلقه.

وفي خضم نقاشاته مع الوفد السوداني بأحد مقاهي مدينة بيكين، تذكر رحلتنا بنوع من الحنين الممزوج بالرغبة في تجديد اللقاء صداقته المتينة بزملائه السودانيين، الذين كانوا يدرسون معه بكلية ظهر المهرار بفاس^(٥٧)، وكيف تمكن من فتح حوار منتج معهم، جمع بين النقاش الفكري العميق والاستثناس بالإنتاج الأدبي السوداني الذي يتميز بتنوع روافده وأذواقه.

وتبقى أهم لحظة إنسانية استرعت انتباهنا في الرحلة هي تلك التي تحدث فيها الطبيب بياض عن مرض ابنته ندى، وكيف شكل مرضها بالنسبة إليه خللة سيكولوجية كادت تثنيه عن السفر، إن هذا الإحساس الأبوي المليء بالعواطف الجياشة تجاه صغيرة لم تتجاوز ربيعها الثامن، يجعل القارئ يشعر بأن موعد مغادرة الأهل قد تحول إلى حدث موسوم بالألم والوجع، وكما كان كلود ليفي ستراوس صادقاً عندما لاحظ في كتابه المدارات الحزينة أن السفر يعني فيما يعنيه التمزق على ثلاثة مستويات، ذكر منها العلاقات الاجتماعية. ولقوة التعبير وصدق الإحساس نستلّ فقرة من المتن الرحلي تعبر عن هذه اللحظة الإنسانية التي تسمو بالرحلة إلى مستوى القصة الرمزية للحياة، يقول رحلتنا في هذا الصدد: "جمعتني مع أسرتي جلسة عائلية خفيفة في ليلة السفر تلك تناوب فيها الجد والهزل، تعتمد فيها أفراد الأسرة إخفاء مرض كان قد أَلَمَّ بصغيرتي ندى ذات الثماني سنوات، أو على الأقل التخفيف من شأنه بعد أن أنبأني إحساس الأبوة بأنها ليست على ما يرام... وكان إحساسي في محله ندى مريضة جداً، تشدُّ رأسها بمنديل

(١) سعيد بن سعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، منشورات كلية الآداب الرباط، ١٩٩٥، ص. ١٢.

(٢) نفسه، ص. ١٥.

(٣) الطيب بياض، اكتشاف الصين رحلة أكاديمي مغربي إلى أرض التين، منشورات باب الحكمة، تطوان، ٢٠٢٢، ص. ٢٨.

(٤) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٤٣.

(٥) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٤٢.

(٦) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٤٢.

(٧) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٤٢.

(٨) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٤٤.

(٩) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٤٤/٤٥.

(١٠) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٤٥.

(١١) الطيب بياض، الصحافة والتاريخ اضاءات تفاعلية مع قضايا الزمن الراهن، منشورات دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠١٩، ص. ٩٥.

(١٢) بياض، الصحافة والتاريخ، ص. ١٤٢.

(١٣) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٥٥.

(١٤) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٥٥.

(١٥) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٥٦.

(١٦) إن توظيف الوثيقة في النص الرحلي بشكل كثيف يعطي انطبعا للقارئ بأن الرحالة قد زار فعلا البلد موضوع الرحلة، وقد سبق للباحث الفرنسي فرانسوا كزافيي فوفيل إثارة هذ المسألة عندما شكك في وصول ابن بطوطة إلى الصين، مما يفيد بأن عدم توظيف الباحث المذكور لما يكفي من الأدوات المنهجية لقراءة رحلة ابن بطوطة، قد قاده إلى الخروج بهذه الخلاصة المجانب للصواب. وفي رحلة اكتشاف الصين يمكننا أن نفهم سبب استشهاد الطيب بياض في عدة مناسبات بابن بطوطة وكأنه يفند بشكل ضمني ما ذهب إليه الباحث الفرنسي، ويعيد الاعتبار في الوقت نفسه للرحالة الذي شكل كتابه أول نص نقل لنا تمثل المغاربة للصين.

(١٧) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٧٣.

(١٨) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٧٦.

(١٩) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٧٦.

(٢٠) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٧٦.

(٢١) بياض، اكتشاف الصين، ص. ١٠٦.

(٢٢) بياض، اكتشاف الصين، ص. ١١٢.

(٢٣) بياض، اكتشاف الصين، ص. ١١٢.

(٢٤) بياض، اكتشاف الصين، ص. ٤٤.

(٢٥) بياض، اكتشاف الصين، ص. ١٣٠.

ووجهها صاحب ومع ذلك تداري وتحرص على طمأنتي» (٥٨).

خاتمة

تتيح لنا القراءة المتأنية لرحلة اكتشاف الصين الخروج بخلاصتين:

الأولى: توفّق الطيب بياض بشكل كبير في الانتقال من دراسة النص الرحلي إلى إنتاجه، ولم يكن بإمكانه كسب هذا الرهان لولا تسلحه بعدة منهجية وانفتاحه على العلوم المجاورة للتاريخ، مثل الاقتصاد والأنثروبولوجيا والأدب والفلسفة... بالإضافة إلى تملكه الرصين لأدوات صنّعه، دون إغفال نمط الكتابة وأسلوب التعبير لإيصال المعنى. والحالة هذه فنحن أمام نص رحلي فريد من نوعه يشكل امتدادا لنصوص رحلية سابقة في عناصر محددة لكنه يتجاوزها في جوانب كثيرة.

الثانية: إن الرحلة التي تناولناها في هذه القراءة، تنقل لنا بشكل صادق وأمين تمثّل الطيب بياض للصين والصينيين، وتقدم لنا صورة واضحة المعالم بعيون باحث أكاديمي عن التحولات الكبرى التي عرفها هذا البلد الآسيوي خلال العقود الأخيرة في مختلف المجالات، الشيء الذي يرقى بالرحلة إلى مستوى التقرير الاستطلاعي، حيث يسعى الكاتب إلى تقديم أجوبة عملية عن كيفية تحقيق تنمية شاملة ومتوازنة وسريعة تنعكس على جميع المواطنين. وأملنا الكبير ألا يبقى النص حبيس رفوف المكتبات، وألا يقتصر تداوله على الأوساط الأكاديمية فقط، بل أن يتم استلهاهم ما فيه من أفكار من قبل المسؤولين في البلد الذين يخوضون غمار تنزيل النموذج التنموي الجديد ورهان الدولة الاجتماعية.

منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات
الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ٢٠٢١.
(٥٧) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١٢٦-١٢٧.
(٥٨) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٣٠-٣٦.

(٢٦) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٦٥.
(٢٧) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٩٠.
(٢٨) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٢٤.
(٢٩) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٤٧/٤٨.

(٣٠) الطيب بياض، **رحلة مغاربة في أوروبا بين القرنين السابع عشر
والعشرين تمثيلات ومواقف**، المطبعة السريعة، القنيطرة،
٢٠١٦، ص. ٩٦/٩٥.

(٣١) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٣٨.
(٣٢) بياض، **رحلة مغاربة**، ص. ٧٢/٧٣.
(٣٣) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٨٦.
(٣٤) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٣١.
(٣٥) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٣١.
(٣٦) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٣٥.
(٣٧) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٥٦.
(٣٨) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٢٩.
(٣٩) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٢٩.
(٤٠) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٣٩/٣٨.
(٤١) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١٣٩.
(٤٢) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٥٢.
(٤٣) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١٠٣.

(٤٤) يقول الطيب بياض وهو يعلق على أحد العروض الفنية التي
شاهدها بمدينة شيزين: "رغم جهلنا للغة المسابقة، فقد
استفدنا من اللوحات الفنية التي كانت تتخلل فقرات تلك
المسابقة، كما أن الانتباه لحركات الجسد وتعابير الوجه
وطريقة الإلقاء، قد مكنتني من تمييز مستويات الأداء، لذلك
لم أتفاجأ بإعلان نتيجة المسابقة التي فاز فيها بالترتبة الأولى
أحد رجال الأمن الذي كان مرتدياً زياً رسمياً". الصفحة ٥٨ من
الرحلة.

(٤٥) بياض، **رحلة مغاربة في أوروبا**، ص. ٩.
(٤٦) بياض، **اكتشاف الصين**، ٨٧.
(٤٧) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١٠٦.
(٤٨) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١٠٦.
(٤٩) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١٤٨.
(٥٠) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٩٢.
(٥١) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٩٠-٩١.

(٥٢) الطيب بياض، **المخزن والضريبة والاستعمار، ضريبة الترتيب**
١٨٨٠-١٩١٥، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١١، ٦٣.

(٥٣) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ١١١.
(٥٤) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٢٣.
(٥٥) بياض، **اكتشاف الصين**، ص. ٢٩.

(٥٦) بيير سينغرافيلو وسيلفان فينير (إشراف)، **تاريخ العالم في
القرن التاسع عشر**، نسق الترجمة وراجعها محمد حبيدة،



ندوة الرباط الوطنية الآخر في الكتابة التاريخية المغربية

د. عبد السلام انويكة

أستاذ التعليم العالي
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين - فاس
مكناس - المملكة المغربية



ملخص

تناولت ندوة الرباط الوطنية، المنعقدة بجامعة محمد الخامس في ديسمبر ٢٠٢٤، إشكالية "الآخر في الكتابة التاريخية المغربية" من خلال أربع محاور غنية ومتداخلة، أدارها باحثون مغاربة مرموقون من مختلف الجامعات. جاءت الندوة بتنظيم من مختبر "التاريخ والمجال والمجتمع"، وسعت إلى مساءلة تمثيلات الآخر في الكتابات التاريخية المغربية من زوايا عربية وعثمانية، وأوروبية، وإفريقية، وأمريكية. ناقش المحور الأول صورة الآخر العثماني والعربي، مركزاً على كتابة تاريخ العلاقات المغربية العثمانية ومآلاتها الأرشيفية والمقارنة، وما أظهرته من تشابهات بنيوية بين الدولتين في التنظيم والمؤسسات، إضافة إلى تحول صورة الآخر اليهودي من التهميش إلى التسامح في الذاكرة المغربية. بينما استعرض المحور الثاني الحضور الإفريقي جنوب الصحراء في الوعي التاريخي المغربي، وأثر هذا الامتداد في تشكيل الهوية المغربية، سواء عبر التجارة أو التصوف أو التبادل الثقافي، مع استحضار أدب الرحلة كنص مؤسس لصورة الآخر الإفريقي. المحور الثالث ناقش الآخر الأوروبي من زوايا متعددة: مناهج التعليم، أدب الرحلات، الصورة في الكتاب المدرسي، وتمثلات الآخر المسيحي، مع التركيز على النموذجين الإسباني والبرتغالي في الذاكرة المغربية، في حين استعرض المحور الرابع الكتابة التاريخية حول المجال الأمريكي، من زاوية الأرشيف والدبلوماسية والتأثير الثقافي، بما في ذلك حضور المجندين المغاربة في الحرب الأهلية الإسبانية، ومكانة المغرب في السياسات الثقافية الأمريكية. خلصت الندوة إلى توصيات مهمة، أبرزها ضرورة تهمين الدراسات العلائقية، وتوسيع البحث في الأرشيف الوطني والأجنبي، وتفعيل الحوار الأكاديمي حول الآخر، وطبع أعمال الندوة لإتاحتها للباحثين.

كلمات مفتاحية:

الدولة العثمانية؛ اليهود المغاربة؛ المجتمع المغربي؛ الكتابات التاريخية؛
الحرب العالمية

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٤ يناير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٠ فبراير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.447423

معرف الوثيقة الرقمي:

بيانات الندوة:

مختبر التاريخ والمجال والمجتمع التابع للمعهد الجامعي للدراسات الإفريقية والأورومتوسطية والأيبيري وأمريكية
ندوة وطنية "الآخر في الكتابة التاريخية المغربية" انعقدت يومي ٢٥ - ٢٦ جابر ٢٠٢٤ جامعة محمد الخامس - الرباط المغرب.

وقع زمن اتصال وتكنولوجيا وتدفق رقمي وتفاعل ثقافي وسياسي واقتصادي، في عالم بات أشبه بقرية صغيرة.

أهداف الندوة

جاءت ندوة "الأخر في الكتابة التاريخية المغربية" بمحاور أربعة وبنوع من التكامل، مستهدفة بلوغ ما هو منشود من أهداف فضلاً عن أجوبة شافية لجملة إشكالات، مع إبراز ما هناك تقاطع بحثي تاريخي حول الموضوع، وكذا مادة علمية وارصدة أرشيف وطني وأجنبي رافع لكل مشروع كتابة، من شأنها تحقيق ما ينبغي من إغناء وإضافة لفائدة وعاء خزانة المغرب البحثية التاريخية الجامعية، وتحفيز انفتاح الدارسين على ما هو علائقي بين الدول والمجتمعات، حيث الآن والأخر وحيث تطلعات الحاضر والمستقبل.

المحور الأول: الدراسات التاريخية حول المجال العربي والمجال العثماني التركي

تناول فيه الأستاذ محمد حاتمي عن جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، قضية الآخر من خلال اليهود المغاربة وهويتهم، مشيراً لما أسس لخصوصياتهم من حالات وذكره جماعية تعلق بأصول. مضيئاً ما تباين بين الأجيال من انشغال بتأصيل تاريخ المغرب، وما حصل تيار بحث تاريخي من أجل الهوية المغربية، ذلك الذي كان يتراكم لاحقاً أغنى ما هناك من روح تسامح وقبول بالاختلاف. أما الأستاذ عبد الرحيم بنحادة عن جامعة محمد الخامس بالرباط، فقد تناول في مداخلته تجربة كتابة تاريخ الآخر من خلال المجالات العثمانية التركية، مشيراً لما هناك من بداية رحلة بحث عن وثائق عثمانية لكتابة تاريخ العلاقات المغربية العثمانية. متحدثاً عن أربع لحظات، الأولى منها تعلقت بكيفية اهتمام المغارب بتاريخ الآخر وما سجل من ندرة معلومة، معرجاً على إشارات ابن خلدون والمؤرخ أبو القاسم الزياني وما خصصوه في نصوصهم للحديث عن العثمانيين. فضلاً عما حصل خلال فترة الحماية الفرنسية على المغرب خلال القرن الماضي، عندما جيشت فرنسا الكتابة عن الدولة العثمانية لإبراز اغتصابها للخلافة. أما اللحظة الثانية فتخص التاريخ العثماني من خلال كتابة تاريخ العلاقات المغربية العثمانية، لافتاً إلى أن الباحثين المغاربة الذين اهتموا بتاريخ هذه العلاقات لم يقنعهم اعتماد وثائق الأرشيف الإسباني والفرنسي والانجليزي ومعه النصوص الأدبية المغربية، وعليه توجهوا لاكتشاف هذه العلاقات انطلاقاً من الأرشيف العثماني، والذي من جملة صعاب ما طرح من أجل استعماله كونه انعكاس لسير مؤسسات في دولة بيروقراطية. أما اللحظة الثالثة فهي التي انفتحت على التاريخ العثماني من خلال الوقوف على

تكتسي دراسة تاريخ المقاومة المغربية للاحتلال الأجنبي عامة، والمقاومة الريفية بزعامة محمد بن عبد الكريم الخطابي خاصة، أهمية بيداغوجية وعلمية، ذلك أنها كانت عنواناً لهزيمة إسبانيا العسكرية وإعلاناً لفشل مشروعها الاستعماري. وتأتي هذه الندوة تزامناً مع الذكرى السبعين لتقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال، وإحياء الذكرى التي ظلت منسية بشكل مقصود أو غير مقصود، وكذا لرد الاعتبارات للمقاومة المغربية بزعامة محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي يعتبر رمزاً وطنياً لكل المغاربة، بل لكل حركات التحرر في العالم، لأن ثورته كانت درساً لكثير من السياسيين والثوار وعلى رأسهم "ماو تسي تونغ"، و"نشي غيفارا" وغيرهما.

جاءت هذه الندوة ضمن جملة مواعيد علمية وطنية ودولية حول العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة محمد الخامس بالرباط، وكان التاريخ والبحث التاريخي أكثر حضوراً، غير أن هذه الندوة هي بنوع من التميز عن سابقتها، لكونها استهدفت تسليط الضوء على إشكالية غي مسبقة من حيث مقاربتها عبر زوايا متعددة، وقد تعلق الأمر بـ "الأخر في الكتابة التاريخية المغربية"، عن المجال العربي والتركي، المجال الأوروبي، المجال الإفريقي ثم المجال الأمريكي. هكذا بمبادرة وتنظيم من مختبر التاريخ والمجال والمجتمع التابع للمعهد الجامعي للدراسات الإفريقية والارو متوسطة والابروأمريكية، انعقدت يومي ٢٥ - ٢٦ دجنبر ٢٠٢٤ بجامعة محمد الخامس بالرباط/ المغرب، ندوة وطنية توزعت على مساحة أعمال علمية حول أحداث ونصوص، وقضايا، وأمكنة، وأزمنة. بقدر ما توجهت بعنايتها لسؤال "الأخر في الكتابة التاريخية المغربية"، بقدر ما اجتمع من أجل هذا السؤال باحثون أكاديميون جامعيون، استحضروا ما هناك من منتج وجدل، وسياقات، وتقاطعات، ونماذج. مع أهمية الإشارة لما تأسست عليه هذه الندوة من ورقة علمية تأطيرية، من جملة نقاطها ما جاء عند بول ريكور Paul Ricoeur حول الهوية باعتبارها ثمرة تفاعل بين الأنا والغير، وهو ما جاء أيضاً عند كلود ليفي ستروس Clause Lévi-Strauss، حول كون الهويات الثقافية هي نتاج احتكاك مستمر بثقافات أخرى. وفي علاقة بهوية المغرب اشارت ورقة الندوة لما هناك من ارتباط بالغير في تشكيلها عبر التاريخ، وكذا ما سمح به موقعه من تأثير وتأثر بشرق وجنوب وشمال وحتى غرب. وأن ما حصل من علاقات وتفاعل مع الآخر، مهم حضوره في الدرس الأكاديمي الجامعي من أجل ما ينبغي لفائدة حاضر البلاد وتطلعاتها، على

تشابهات وتقاطعات تاريخية بين المجال المغربي والعثماني، بحيث جرى التوجه نحو عقد مقارنات من حيث ما هو عسكري (تجربة الإنكشارية وعبيد البخاري)، وما هو اصلاح وتنظيمات وبعثات سفارية وطلابية لأوروبا، ثم ما هناك من تجربة دستورية في البلدين. وأما اللحظة الرابعة والأخيرة، فقد ارتبطت بالتأمل في الاستوغرافيا التركية الحديثة من حيث مأسسة التاريخ ومسألة الأرشييف، وما يمكن أن يستفاد من التجربة التركية لتجاوز هفوات مرتبطة ببناء السردية الوطنية المغربية.

وعن الآخر ومن خلاله تاريخ الدولة العثمانية بعيون مغربية بين العلائقي والمقارباتي، توجهت مداخلة الأستاذ عبد الحفي الخيلي عن جامعة محمد الخامس بالرباط، بحديثها عما طبع الكتابة التاريخية المغربية حول العالم العثماني من انتظام عبر مراحل، ارتكزت الأولى منها على ما هو علائقي اقتضاه انفتاح بحث المغرب التاريخي وموضوعية قراءة العلاقات البيئية، لتجاوز ما هو كولونيالي من نظرة فضلاً عن بحث متقوقع على الذات في علاقة المغرب بالآخر. وبقدر ما انبنت أبحاث هذه المرحلة على أرشييف عثماني، وقاربت جملة قضايا من قبيل العلاقات السعدية العثمانية وباشوية الجزائر والمغرب، ثم المغرب والباب العالي والشريف والبادشاه. بقدر ما نجحت في تجاوز صورة نمطية لعلاقات المغرب بالآخر العثماني، وفي ربط البلاد ببعدها المغاربي والمتوسطي والإسلامي. ويسجل أنه مقابل ما ميز المرحلة الثانية من تعدد مقاربات بحث حول هذه العلاقات، اتسمت الكتابة التاريخية في المرحلة الثالثة بتطور وتخصص في ملامستها لقضايا مجهرية، من قبيل الهوية والتحديث والقبيلة والحركة الدينية والإسلامية والجاليات التركية بالمغرب وغيرها.

المحور الثاني: الدراسات التاريخية حول إفريقيا جنوب الصحراء

كان مساحة نقاش لجملة قضايا واشكالات منها ما تعرض له الأستاذ خالد شكراوي عن جامعة محمد السادس متعددة التخصصات التقنية، متفاعلاً مع قضية الكتابات التاريخية حول إفريقيا بالمغرب بين الذات والهوية والأنا. مشيراً لما تحتله الأسطوغرافيا المغربية حول القارة الإفريقية من موقع خاص بالمجال المغاربي، ولما هناك من تباين في التوجهات ودرجة الاهتمام مع دول ما يسمى بالشرق الأوسط الكبير وبخاصة منه الجانب الإفريقي. لافتاً إلى أنه باستثناء الانتاج المصري بقيت الدول الأخرى منغلقة في مجالها الوطني، مع اهتمام بمجال المتوسط والعلاقة بأوروبا. مضيقاً أن البحث في المجال لم يرق إلى انتاج مدارس متخصصة، وأنه مع نهاية ثمانينيات القرن

الماضي تجددت العناية بالمغرب الإفريقي، وعليه ما حصل من دعوة لأعمال بحث حول التراث والتاريخ المشترك عبر كلية الآداب بالرباط ثم معهد الدراسات الإفريقية سابقاً. وهو ما كان وراء انبعاث وكشف عن جوانب سبق لها الاهتمام بالقارة من مواقع خاصة أو لأسباب موضوعية ارتبطت بتوجهات علمية وربما إيديولوجية، ببعض الجامعات الأجنبية التي احتضنت الباحثين المغاربة. وهو ما شكل عماد ما شهدته ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي وما تلاها، من إعادة استقصاء لمصادر ونصوص للبحث في تاريخ العلاقات بين ضفتي الصحراء، مع بروز توجهات باشرت البحث بعيداً عن منطق شمال جنوب.

وضمن نفس المحور عن جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، قاربت الأستاذة بهيجة الشادلي في مداخلتها مسألة الدراسات التاريخية حول إفريقيا جنوب الصحراء مع جوانب من تأثيرات هذا المجال في المجتمع المغربي. لافتة لما حصل من اهتمام بحثي مغربي منذ ثمانينيات القرن الماضي حول العلاقات المغربية الإفريقية في مستواها الروحي والسياسي والاقتصادي، مستحضرة ما كان من طرق تجارية جامعة على مر العصور بين المغرب ومختلف الأقطار الإفريقية، وما كان عبر هذه السبل من تأثير على المجتمع المغربي. وبقدر ما توزعت مداخلتها على ما هو مصادر محلية، بقدر ما تقاسمها حديث عن إفريقيا جنوب الصحراء في الكتابات المغربية من خلال مجالات تفاعل، فضلاً عن نماذج من تأثير إفريقيا جنوب الصحراء في المجتمع المغربي من خلال بعض المصادر. وعن جامعة محمد الخامس بالرباط، استهدفت مداخلة الأستاذ أحمد شوكري الاجابة عن صورة المغرب في الكتابات التكرورية الى غاية مطلع القرن التاسع عشر. مشيراً الى لما اعتادته صورة المغرب عبر العصور على مزايا متوسطية أو مشرقية، وأنه قلما التفتت للجنوب لرؤية نفسها من خلال مزايا منطقة الصحراء والساحل. لافتاً لما يطبع الهوية المغربية من أثر جغرافي وحضاري في بعده الإفريقي، مؤكداً أهمية ترسيخ هذا الحضور في الثقافة العالمية عن العصر الوسيط والحديث. معرجاً على ما تطرحه القضية من إشكال، أمام كل عمل بحثي يروم استكشاف صورة المغرب في الكتابات التاريخية التكرورية. وكانت ازدواجية الصورة في الوصف الرحلي لبلاد السودان: الأنا والآخر، هو ما ناقشته الأستاذة زليخة بنرمضان عن جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء. وذلك من خلال حديثها عن رحلة ابن بطوطة ١٣٠٤-١٣٧٧م، التي اعتبرتها إحدى المصادر التي انتشلت تاريخ السودان الغربي خلال القرن الرابع عشر الميلادي، من سمة الحكمي كإحدى السمات المهيمنة الى التاريخ المدون. لافتة الى أن

رحلة ابن بطوطة جاءت في سياق تاريخي هام، تمثل فيما شهدته الضفة الشماليّة للصحرَاء الكبرى من تحولات جيوسياسية وبشريّة واقتصادية خلال الفترة المذكورة، مقابل ما كانت عليه امبراطورية مالي جنوب الضفة الصحراوية من استقرار وسلم وازدهار. مسيرة لما تفردت به هذه الرحلة كتجربة سفرية لحظيّة عن الجنس الأدبي الرحلي، من خلال عنصرين أساسيين الأول منها هو المتمثل في الجغرافيا بكل بعدها الطبيعيّ والبشري، وأما الثاني فهو الذات بكل مكوناتها النفسية والثقافية.

المحور الثالث: الدراسات التاريخية والمجال الأوروبي

توجّهت فيه مداخلة الأستاذ عبد الكريم مدون عن جامعة ابن زهر بأكادير، لكيفية رؤية الآخر للنص المقدس في الإسلام، مستهدفة تتبع ما كتب عن هذا النص لدى الغرب من خلال كتابين صدرتا على التوالي في ٢٠١٩ و ٢٠٢٢، ويتعلق الأمر بقرآن المؤرخين وتاريخ القرآن، وهو ما تم التطرق إليه عبر مداخل ثلاثة: أولاً، الغرب والإسلام. ثانياً، الدين والنص المقدس. ثالثاً، قراءة في تاريخ المؤرخين والقرآن. وعن جامعة محمد الخامس بالرباط، من خلال مداخلة بعنوان "صورة المصطفى في رسائل الحاج محمد بن عبد الجليل إلى الراهب كليمان إتيان Clément Etienne ١٩٢٥-١٩٢٨". تحدث الأستاذ جامع بيضا عن كتاب صدر عن مؤسسة أرشيف المغرب سنة ٢٠٢٢ للباحث مرغيش، وهو عبارة عن مصنف لمراسلات متبادلة بين شاب مغربي هو الحاج محمد بن عبد الجليل وراهب فرنسي هو كليمان إتيان، الذي كان حينئذ مديراً لثانوية شارل دو فوكو بمدينة الرباط. مشيراً إلى أن هذه المراسلات التي بحوالي ١٢٠ وثيقة، تغطي الفترة ما بين ١٩٢٥ و ١٩٢٨، أي منذ وصول الطالب ابن عبد الجليل إلى فرنسا بتكليف من المدرسة التي ينتهي إليها، إلى تاريخ الإعلان عن اعتناقه الديانة المسيحية. مشيراً إلى أن هذه المراسلات بين التاريخين تعكس تطوراً في تصور الشاب المسلم المغربي للآخر المسيحي. ومن زاوية أخرى ضمن سياق آخر، تعرض الأستاذ البشير تامر عن جامعة محمد الخامس بالرباط، في مداخلة له، "الأنا والآخر من خلال تدريس الظاهرة الاستعمارية"، معتبراً هذه الأخيرة من المواضيع التي تتم دراستها من زاوية الأنا والآخر. وأنها تندرج ضمن ما يسمى "بالتاريخ الساخن" المغذي للحس الوطني والذاكرة الجماعية. مستهدفاً مقارنة هذه الاشكالية وفق منهج مقارن، يحلل خطاب المناهج الدراسية وأدوات تدريس تاريخ الظاهرة.

وكانت صورة أوروبا في كتب التاريخ المدرسية المغربية، هو ما ناقشه الأستاذ مصطفى حادي الإدريسي عن جامعة محمد الخامس بالرباط، من خلال الإيجابي والسلبي من السمات التي

تلتصق بصورة أوروبا في خطاب المغرب المدرسي التاريخي، مشيراً إلى أن الصورة التي تنبثق من تاريخ أوروبا في هذه الكتب المدرسية متناقضة، تظهر أوروبا نموذجاً مقبولاً في سياقات وغير مقبول في سياقات أخرى. ذلك أنه عندما يتعلق الأمر بتاريخ أوروبا المدرّس غالباً ما تكون الصورة ايجابية. بل فرصة لتسليط الضوء على مساهمات الحضارتين اليونانية والرومانية، وحضارة عصر النهضة والأنوار ثم التصنيع والتحديث. ذلك أن الكتب المدرسية هنا تحمل خطاباً مؤيداً للحدثة والديمقراطية، وأن تاريخ أوروبا هو المدعو لإبراز هذه القيم. بالمقابل حول علاقات أوروبا بـ"الآخر"، فالصورة مختلفة إذ تكون في بعض الأحيان سلبية جداً. بحيث الدروس التي تتناول توسع أوروبا في العالم، سواء المتعلقة بالتاريخ القديم (الرومان، الوندال...) أو العصور الوسطى (الحروب الصليبية)، أو بالتاريخ الحديث ("الاكتشافات الجغرافية")، أو المعاصر (التدخلات الأوروبية في الإمبراطورية العثمانية أو في غرب أفريقيا في القرن ١٩ و ٢٠ م). تقدم أوروبا كمسؤولة عن تبيد الثروات وإبطاء تطور المجتمعات، بل أحياناً عن إبادة، مشيراً لما أضحت عليه الصورة من خجل في الكتب المدرسية الحالية، مقارنة مع التي لدى الجيلين الأول والثاني. أما الأستاذة فتيحة المصعودي فقد توجّهت مداخلة لها هو رؤى مغربية حول حدثة أوروبا من خلال الرحلات الاستكشافية المغربية، متوقفة على نماذج منها منذ القرن الثامن عشر حتى مطلع الماضي، باعتبارها وعاء أدبياً رسم صوراً عن الآخر الأوروبي وعالمه المغاير، وقد اهتمت هذه الرحلات بجميع مناحي حياة الأوروبيين بعيون وتمثلات رحالة مغربي ومرجعياته الدينية والمعرفية. هكذا استهدفت هذه المداخلة اشكالية حفظ الهوية المغربية وتتبع أشكال الوعي الثقافي الذي حمله الرحالة المغاربة أثناء رحلاتهم، وكذا إدراك ما اتخذ من مواقف تجاه الأوروبي وثقافته، وبالتالي رصد ما انطبع في ذاكرتهم من صورة بين مشاهدة وإدراك، وكذا درجة وعي بالذات وتفوق للأوروبي انطلاقاً من مقارنتهم بين ما هو سائد بين البلد المضيف وبلدهم.

وحول المغرب والآخر البرتغالي، عن جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، ناقش الأستاذ عثمان المنصوي توجهات الكتابات التاريخية المرتبطة بالمغرب، مستحضراً حدث معركة وادي المخازن. مشيراً لما يجمع المغرب بالبرتغال من محطات كانت مساحة دراسات مؤرخين برتغاليين معتمدين فيها على أرصدة أرشيف هام، ولما انصب عليه اهتمام هؤلاء من مجالات جمعت بين الوجود المغربي وآثاره بالأندلس خاصة منطقة الغرب البرتغالية، إلى جانب عن التوسع البرتغالي خلال القرن الخامس

عشر والسادس عشر، والذي كانت سبته نقطة انطلاقه، وقد امتد ليشمل أكثر ثغور البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، فضلاً عن معركة وادي المخازن ومعها الملك سيباستيان، ما تم التركيز عليه وخاصةً منه مصير هذا الأخير ومن خلاله السباستيانية بعد نكسة المعركة. وعن المغرب وإسبانيا قارب الأستاذ بوبكر بوهادي عن جامعة شعيب الدكالي بمدينة الجديدة، ما هناك من تفرد علاقة جامعة بين البلدين لافتاً لما هناك من معطى جغرافي ومن ثمة حتمية جوار وتعايش، ذلك الذي اغنته أحداث وتجارب عبر العصور كانت بأثر في بناء ما هو هوياتي لهما، فضلاً عن الصورة التي يقارب بها كل واحد منهما الآخر. وقد كانت الفترة الاستعمارية بدور في بلورة أهم معالم هذه الهوية ومن ثمة ما هناك من علاقة، وهو ما تقوم عليه جملة تطلعات راهنة أخذة في الاعتبار ما هناك من مشترك ذاكرة وموقع. وحول صورة إسبانيا أيضاً في الكتابات التاريخية المغربية، تناول الأستاذ ميمون أزيّا عن جامعة مولاي إسماعيل بمكناس، ما هناك من تجليات تعقيد في علاقات البلدين على امتداد قرون، تلك التي بقدر ما اتسمت به من تعاون وتعايش بقدر ما طبعها من صراع واحتلال. مشيراً إلى أن الكتابات التي تهتم الفترة الإسلامية في الأندلس (٧١١-١٤٩٢م)، غالباً ما تصور الإسبان كمنافسين عسكريين ودينين، وأن التي توجهت بالعناية منها لسقوط الأندلس وحملات الاسترداد، تُصور هؤلاء كقوة غازية محتلة قامت بطرد المسلمين واليهود من إسبانيا، وهو الحدث الذي كان بأثر كبير في ذاكرة المغرب الجماعية. أما الكتابات المغربية حول أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن الماضي وكذا التوسع الاستعماري الإسباني بالمغرب (الريف والصحراء)، فقد طبعها نبرة عدائية إذ تصور الإسبان كمستعمرين محتلين، وتبرز مقاومة السكان المحليين مثل ثورة الريف بقيادة عبد الكريم الخطابي، مع تركيز على ما حصل من فظائع ارتكبت خلال فترة الاحتلال. لافتاً إلى أنه بعد استقلال المغرب تابنت صورة الإسبان في الكتابات المغربية التاريخية الحديثة، مستحضرة ما هناك من سياق سياسي راهن وتطلع بين البلدين. علماً أن من هذه الكتابات ما تتوقف على ذكريات مؤلمة عن فترة الاستعمار (حرب الريف، استعمال الجيش الإسباني للغازات السامة..)، وعليه ما هناك من صورة مشاعر ومواقف.

وعن المجال اليبيري ونظرة الآخر أيضاً، تناولت الأستاذة وفاء المصمودي عن جامعة محمد الخامس بالرباط، الأنا والآخر من خلال كتاب رحلة الوزير في افتكاك الأسير. مستحضرة أواخر القرن السابع عشر عندما توجه وفد سفاري مغربي إلى البلاط الإسباني، في ظرفية ارتبطت بتحرير ثغر

العرائش من يد الإسبان وبوقوع عدد من الإسبان أسرى في يد السلطان مولاي إسماعيل. بحيث كانت البعثة مغربية بمهمة تباحث مع السلطات الإسبانية في شأن تحرير الأسرى المسلمين مقابل الأسرى المسيحيين، فضلاً عن استعادة محتويات المكتبة الزيدانية المحفوظة في الإسكوريال. وهو ما قام بتدوينه "الغساني" في نص عنوانه بـ "رحلة الوزير في افتكاك الأسير"، بقدر ما تحدث فيه عن هدف البعثة بقدر ما سجل من ملاحظات حول طبيعية المجال الإسباني فضلاً عن المجتمع والثقافة والسياسة، ولعل هذا النص الرحلي كان لقاء بين ذهنية إسلامية وفضاء مسيحي، في ظل ظرفية متوترة بين إسبانيا والمغرب. وضمن نفس الإطار وعن مسألة الصورة ناقش الأستاذ مصطفى المرون الباحث في التاريخ العسكري، ما تركته الحملات الشهيرة حول تدخل المجندين المغاربة في الحرب الأهلية الإسبانية، من بصمة سلبية طبعت المخيال الجماعي للشعب الإسباني، تلك التي تعكس الصورة النمطية لـ "المورو" الشرس وغير المتحضر، والتي تنعت المجندين المغاربة بأقبح النعوت.

أما من الجانب الفرانكوي فنظرت له لم تختلف عن الجانب الجمهوري، لكن الصورة الكاريكاتورية لـ "المورو" الصديق التي مررها الكتاب الفاشيستيون، كانت انعكاساً لتلك التي بلورها الجمهوريون. بحيث أن الاثنين يعطيان صورة موحدة ومنسقة، وكذا متبادلة ودورية من حقل لآخر. هكذا ركزت المداخلة على صورة الآخر الجمهوري في مخيال المجندين المغاربة من خلال الشهادات الشفوية، التي لا يزال ينظر إلى استعمالها في العالم العربي بنوع من التحفظ، رغم أن الغرب كان سباقاً لاستثمارها بطرق فعالة منذ حوالي نصف قرن. وكان "المغرب بعيون صحفي بريطاني" لاورنس هاريس" رفقة السلطان مولاي عبد الحفيظ ١٩٠٠-١٩٠٨، هو ما تحدث عنه الأستاذ مصطفى الغاشي عن جامعة عبد المالك السعدي بتطوان. مستحضراً ما شهده المغرب مطلع القرن الماضي من أزمات مست كل وضعه الداخلي فضلاً عن علاقاته الخارجية، وهو ما جعله مجالاً مفتوحاً لتسريبات اجنبية أبانت عن مدى هشاشته. معرجاً على مغرب ما بعد وفاة السلطان الحسن الأول ١٨٩٤، وما ارتبط بفترة حكم ابنه السلطان عبد العزيز الذي لم يكن مؤهلاً سياسياً لمواجهة الوضع، وعليه ما تلقاه المغرب من ضربات (رفض ضريبة الترتيب، تمرد بوحمارة على المخزن، مضاعفات الاتفاق الودي الفرنسي البريطاني، مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء)، ثم حدث الاحتلال الفرنسي لمدينتي وجدة والدار البيضاء اطاح بالسلطان عبد العزيز وأوصل أخيه عبد الحفيظ للحكم، وهو ما ركزت

المحور الرابع: المجال الأمريكي والدراسات التاريخية

تناول فيه الأستاذ خليل الـ^{٢٧}عداني عن جامعة محمد الخامس، إشكالية البناء الغربي للكتابة التاريخية الأمريكية. مشيرًا إلى أن الدخول في مشروع مؤلف في هذا الأفق من وجهة نظر مغربية، يقتضي فكرة عن الأسطوغرافيا الغربية المتعلقة بأمريكا، وأن القراءة المتأنية للنصوص الأمريكية والفرنسية الحديثة تُظهر بعض الانحرافات. لافتًا أنه يكفي تفحص فهارس الدراسات الكرونولوجية وما يلاحظ من بداية بالفترة الاستعمارية، وإدراج للفصل المتعلق بالهنود في الأبحاث الموضوعاتية. موضحًا أنه رغم إدخال الدراسات الأسطوغرافية الغربية الحديثة لهؤلاء في دائرة التاريخ، كان عليها البدء بهم كساكنة أصلية في الأبحاث ذات الطابع الكرونولوجي. وأن ما هناك من مقارنة موضوعاتية لم يتم التركيز على مفهوم الحدود بما هو كاف، باعتباره مجال التقاء الأوروبيين بالهنود باتجاه الغرب، مضيفًا أن الديمقراطية نشأت بالغرب وليس في غابات الجرماني، وأن مصطلح الحدود المشبع بالتزعة التطورية لا يرى حرجًا في تحقيق هذه الديمقراطية بعيدا عن الفوضى، وغلبة القوي ومن خلال تهجير الهنود باتجاه محميات لدرجة نية القضاء عليهم. كلها أمثلة وغيرها عما هناك من انحرافات في النصوص، من المهم التعامل معها بحذر في أفق كل مشروع كتابة عن الآخر.

وعن الزمن الأمريكي والعلاقات أيضًا، عرضت الأستاذة خديجة القبياقي عن جامعة القاضي عياض بمراكش، لأهمية النص الرحلي في الكتابة حول الموضوع. مشيرة لما هناك من تقارير دبلوماسية مغربية ونصوص رحلية أمريكية خلال القرن الماضي، ولما حصل خلال الخمسينيات منه في المغرب بعد استقلاله ضمن حرب باردة بين معسكرين واديولوجيتين، عندما ارتأت (وم أ) اختيار فاعلين مغاربة لزيارتها ومنهم المهدي بن بركة وعبد الكريم غلاب، وهو ما انتهى بنصوص رحلية بقدر رافع للكتابة عن البيئي العلائقي. وهو ما قارب فيه الأستاذ محمد مزيان عن جامعة ابن طفيل بالقنيطرة ضمن نفس المحور والسياق، مقتضيات بناء الدولة وتعزيز العلاقات الخارجية زمن الرئيس إيزنهاور ١٩٥٣ - ١٩٦١، لافتًا إلى أن هذا الأخير تعرف عن المجال المغربي منذ الانزال الأمريكي بشواطئه مطلع أربعينيات القرن الماضي، وأن الارشيف الأمريكي هو بوعاء يخص ما طبع هذه الفترة من إجراءات وتقارب، في زمن مغرب ما بعد الاستقلال وتطلعات بناء الدولة، ومن ثمة ما هناك من أسئلة الأنا والآخر في هذه العلاقات. وعن المراكز الثقافية الأمريكية في المغرب المعاصر، ناقشت الأستاذة حنان هيشامي،

عليه المداخلة معتمدة على ما جاء به الصحفي البريطاني لاورنس هاريس في كتابه: "الرحلة" مع السلطان عبد الحفيظ ١٩٠٨ - ١٩٠٩. تلك التي جاءت في إطار مهمة رسمية من قبل الجريدة التي كان يشتغل بها.

وعن جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، وفي مداخلة موسومة بـ "عبور الحدود وبناء وعي الشتات: الفاسيون في مانش^{٢٨}تر". تناول الأستاذ سمير بوزوينة كيف صنع الفاسيون لأنفسهم بالمهاجر مكانة ثقافية واجتماعية فضلاً عن وعي، بحيث شكل من هؤلاء ممن استوطن مانشستر حالة متميزة، بانتقالهم من وسط تحكمه عادات وتقاليد معينة إلى ما هو مغاير لما ألفوه. مشيرًا إلى أنهم وجدوا أنفسهم مضطرين للتعايش والاندماج في مجتمعات بمظاهر عدة وجدل حياة آخر، دفعهم لإعادة ترتيب ما تلقوه من مسلمات عبر عقود. متسائلًا عما طبع يبتهم السابقة من بساطة، وما هناك من آخر وحاجة لاجابات. أما الأستاذ محمد براض الباحث في التاريخ العسكري، فقد ارتأى مناقشة المغرب بعيون أجهزة المانيا الاستخباراتية في ظل صراع استراتيجي وفعل ثقافي منذ مطلع القرن الماضي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. مستحضراً سبل ولوج الرعايا الألمان لمنطقة الحماية الفرنسية والمنطقة الدولية بالمغرب، وعزيمة ألمانيا في البحث عن موقع لها به بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨ م)، ودخول الألمان مشروع دعاية ألمانية توجهت نحو العرب والمسلمين بشكل عام. ما تعمق أكثر من خلال اقتراحات وتوجهات "عرب الألمان" الشهير ماكس فون أوبنهايم (Max Von Oppenheim)، التي كانت تروم نشر أطروحة تنبئ في بعديها الإيديولوجي الدعائي، على أن ألمانيا يجب أن تعرف لدى المغاربة وغيرهم بـ "صديقة الاسلام والمسلمين"، من أجل بلوغ اختراق ثقافي وسياسي واقتصادي. وعليه، تم إحداث مؤسسات دعائية ألمانية لهذا الغرض، فضلاً عن تأسيس صحف ومجلات أبرزها مجلة الجهاد. ولعل ما دعمته السياسة الألمانية من صحف إسلامية أسست في برلين، هناك: العهد، الرأي العام، الشرق، الاتحاد العثماني....، وهو ما تناولته المداخلة معتمدة على أرشيف ووثائق تاريخية، مستهدفة فهم سبل بلورة ألمانيا للفعل الثقافي في بعده الهوياتي، خدمة لصراع استراتيجي وضعته أجهزتها في تنافسها مع القوى الدولية التي كان لها اهتمام بالمغرب، خاصة منها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا في ظل صراع استخباراتي منذ مطلع القرن الماضي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.



صورة توضح جانب من فعاليات الندوة

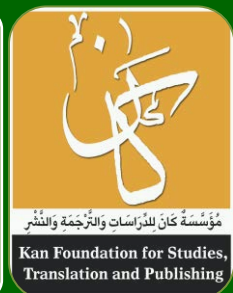
عن المندوبية العامة لخدمة المقومين وأعضاء جيش التحرير بالرباط، البعد الثقافي الأمريكي للتأثير على الشعوب وتشكيل العلاقات فضلاً عن تعزيز صورة أمريكا في الخارج. وعليه، ما كان لهذه المراكز من أدوار جذب وتعزيز لنشر اللغة الإنجليزية، لتسهيل تبادل جميع ما هو ثقافي بين الآخر والأنا حيث الأمريكيين والمغاربة. وعن أمريكا اللاتينية/ الجنوبية في ندوة الآخر والكتابات التاريخية المغربية، عالج الأستاذ بوشقي الحزبي عن جامعة مولاي سليمان ببني ملال، جوانب البناء الديمقراطي بالمغرب وغواتيمالا من خلال مداخلة مقارنة، حضرها سؤال صعوبة بناء أنظمة ديمقراطية مستقرة في غالبية دول أمريكا اللاتينية على غرار ما يوجد بأوروبا الغربية. ولعله السؤال نفسه الذي يهم بقية الدول النامية، ومعها رأي من يرجع الوضع لما ينعت بـ "الحتميات الثقافية"، التي دحضها ما حصل من نجاح ونماذج هنا وهناك بين دول الجنوب.

توصيات الندوة

بناءً على ما طبع ندوة الرباط حول "الآخر في الكتابة التاريخية المغربية" من مداخلات علمية، والتي بقدر ما طبعها من رؤى وقراءات فضلاً عن جدل ونقاش معرفي ومنهجي وخلفية مقارنة، بقدر ما انتهت إليه اللجنة العلمية من توصيات رافعة لسبل اغناء الأفق العلائقي البحثي التاريخي بالجامعة المغربية على مستوى سياقاته وتجلياته وقضاياها وموارده وكذا رهاناته ووعاء نصوصه. ولعل من هذه التوصيات أولاً: تبيين وتحفيز الدراسات التاريخية العلائقية من أجل ما ينبغي من هوية مغربية وحفظ لقيم تسامح وحوار وقبول بالآخر، ثانياً: إيلاء الأرشيف الوطني والأجنبي ما يجب من عناية لمزيد من الآخر في الكتابة التاريخية المغربية، ثالثاً: توسيع وعاء البحث حول زمن المغرب الإفريقي، رابعاً: دعم ما هناك من تطلعات بحثية جامعية مغربية راهنة استشرافية صوب إسبانيا حيث الجوار الترابي مع الأخذ في الاعتبار ما هناك من مشترك ذاكرة بين البلدين، خامساً: التأكيد على مواصلة هذا الورش من الأنشطة العلمية مع مد جسور لأقطاب معنية وطنية وأجنبية، سادساً: تجسيد الآخر في التاريخ والكتابة التاريخية من خلال مواعيد دولية يحضرها الحوار والانفتاح، سابعاً: طبع أعمال الندوة بجعلها نصاً علمياً في متناول الباحثين والدارسين.



2008 - 2025



<https://kan.journals.ekb.eg>

Historical Kan Periodical

ISSN: 2090 – 0449 (Online).

Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

<https://portal.issn.org/resource/ISSN/2090-0449>
<https://www.facebook.com/historicalkan>